الدكتور كمال السامرائي

حديث الثمانين

الجزء الثاني

وزارة الثقافة والاعلام

دار الشؤون الثقافية العامة

بغداد ١٩٩٦



حديث الثمانين
سيرة وذكريات

الجزء الثاني

د . كمال السامرائي

٩٢٦/١

س ٢٨٤ السامرائي ، كمال

حديث الثمانين سيرة وذكريات /

كمال السامرائي.. بغداد : دار الشؤون الثقافية

العامه ، ١٩٩٦.

جـ٢ (٣٥٢) ، ٢٤ سم .

السامرائي ، كمال (طبيب)

أ. العنوان

م ٠ و

١٩٩٦/٣٥٠

المكتبة الوطنية (الفهرسة اثناء النشر)

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٣٥٠ لسنة ١٩٩٦ .

ممارسة الطب بعد التخرج وأمور أخرى

عيادة في محلة القشل/ ١٩٤١

كان من أصدقائي في سامراء في ايام صباى يهودي إسمه (طعمة صالح) وقد افترقنا حين التحق هو بدار المعلمين الابتدائية ، ودخلت أنا كلية الطب ببغداد . وتخرج هو معلماً بينما صرت أنا طبيباً . وكنت أعرف أبا طعمة عن طريق إبنه حين كنا في صف واحد بمدرسة سامراء الابتدائية . وصالح أبو طعمة من مواليد سامراء ، ويرتدي لباس أهلها من اليشماغ والعقال، ويتكلم بلهجتهم فلا يعرفه أحد إلا أنه من المسلمين . وحين صحب إبنه طعمة الى العمارة حيث عيّن معلماً في مدرستها ، صار يُعرف هناك باسم (سيد صالح السامرائي) . ولما انتقل هو وابنه طعمة الى بغداد إحتفظا بذلك اللقب نفسه والانتماء نفسه . وبطريقة ما صار سيد صالح (دلّالا) للدكتورين (داود نسيم) و (نور الله) فيمنحانه عشرة بالمائة مما يدفعه المريض لهما . وذات يوم تقابلت مع أبي طعمة في سوق الشورجة . وكنت قد اكملت تواً الإقامة في الشعبة النسائية بالمستشفى الملكي ، فلما علم مني ذلك بدا عليه كأنني انا الذي يبحث عن لقائه ، فقال لي

– ابني دكتور كمال ، انت الآن تقف على منجم ذهب ، وأنا أعلم الناس بما يحصل عليه الاطباء من المرضى ، فلماذا لاتفتح لك عيادة؟ والحّ يحرضني على تحقيق فكرته ، ونجح أخيراً باقناعي في تحقيقها ، وفوضت اليه امر ايجاد مكان العيادة . ولم يطل غيابه عني إلا بضعة أيام ثم جاءني الى المستشفى الملكي ، وبيده مفتاح يداوره بين أصابعها وهو يقول :

– وجدت لك محلاً مثالياً لاستقبال المرضى والسكن فيه أيضاً ، وقدّم المفتاح اليّ وهو يقول : وهذا هو مفتاح البيت.(واضاف) وقدتفاهمت مع

صاحبه على أجار يدفع شهرياً . والبيت قريب من عيادة الدكتور داود نسيم والدكتور نور الله ، وهذه المنطقة قريبة من الشورجة ، ومزدحمة بالسكان ومن يأتي اليها من خارج بغداد . واسترسل يقول : وأنا اعرف ماتحتاجه العيادة من أثاث ، وأعرف خطاطاً ساطلب منه ان يعمل لك لوحتين باسمك نرفع احداهما فوق باب البيت والاخرى تعلق من (البالقون) الذي يعلو باب البيت .

واقترح أبو طعمة ان يكون يوم الجمعة مجانا للفقراء لتعريف المرضى بي وبالمكان . وعملت بما إقترحه أبو طعمة . وما كدت أشكره بحرارة حتى أخرج من جيبه ورقة حساب ماصرفه لتاثيث العيادة ، ومقدم أجارها الاسبوعي ، ولم اكن اتوقع مبلغ ذلك الحساب ، ولا كان عندي نصفه ، ولابد ان أبا طعمة أدرك من قراءة وجهي استكبار ذلك المبلغ ، فقال لي

- لاتهتم ياإبني ، فأنا أعرف من يسلفنا هذا المبلغ بفائدة زهيدة لاتتعدى الخمسة عشر في المائة !

وبدأت اعمل في هذه العيادة ، فازدحم المرضى فيها في اول يوم جمعة ، ولم يدخلها حتى الجمعة التالية إلا مريضان . وكان المفروض ان اختص باستقبال المرضى من النساء فقط ، فلم أبال حين كان أحد المرضى من الرجال ، فنبذت فكرة الاختصاص حين رأيت المرضى يزدحمون على باب عيادة الدكتور داود نسيم والدكتور نور الله ومرضاهما خليط من الرجال والنساء ، ومن كل الاعمار . ويوماً ذكرت ذلك باستغراب لابي طعمة فاجابني بلف ودوران : ان لكلا الطبيبين اكثر من (دلال) واحد ، وهما يكرمانهم عشرة بالمائة عن الاجور التي يأخذانها من المرضى، واضاف وهو نفسه (اي أبو طعمة) من أولئك الدلالين ، وانه يحصل منهما يومياً على دينارين أو اكثر ، وفهمت حالا غرضه من هذا التلميح الذي أغاضني ، وكشف عن الكذب والحيل والسرقة مما إدعى انفاقه على تأثيث عيادتي ، فكرهته وفكرت حالًا في التخلص منه .

ودرجت اعمالي في العيادة ولكن بسرعة لم تقربني من طموحي . وارتأيت ان أطلب من أبي وامي ان يأتيا الى بغداد ويعيشا معي في البيت ، وجاءا فعلًا ، غير ان أبي بعد أيام قليلة لم يرتح الى حياة بغداد ، اذ لم يكن يعرف أحداً في منطقة بيتي ، وهو الذي عاش طيلة عمره بين أصحابه الكبار في مجالسهم حيث يسود فيها التحدث عن شؤون المدينة وأحداثها ، فقرر

فجأة العودة الى سامراء . وبقيت أنا وحدى في البيت ومعى خادمي (خضير عباس) ويوما عرض على صديقي (نصرت عبد الحميد) ان يشاركني السكن في بيتي فرحبت به واستقبلته بشوق وأنا أشعر بفرح أنني استثمر أتعابي لأحد اصدقائي القريبين جداً الى قلبي . وداومت اشتغل في عيادتي بنشاط ومتعة ، وصار جيبي لايخلو من بعض الدنانير ، واستطعت ان اسلف صديقي (ن.ع) خمسة دنانير ، ثم عاد يطلب مني مبلغاً آخر ، فنقدته ماأراد بالاندفاع نفسه الذي أعطيته أول مرة . ونقل نصرت طبيباً الى الموصل فبقيت أنا وحدي في البيت وليس فيه إلا خادمي المخلص خضير . وبعد نحو شهر عدت صباحاً في يوم من شهر تموز بعد ليلة قضيتها خفيراً في المستشفى الملكي ، فوجدت خضير جالسا على عتبة البيت ، ولم يسبق ان وجدته يوماً يجلس عليها في انتظاري ، وفاتحني قبل ان أساله عن أمره وهو يجلس على عتبة البيت :

- عمى ، أنا لن أبقى وحدي بهذا البيت
- السبب ياخضير؟
- صدقني أولا تصدقني ، ان هذا البيت (مسكون)
- وسألته
- ماذا تقصد ياخضير؟

فقال لي

- البارحة صعدت الى سطح البيت بحدود الساعة العاشرة لانام ، وماكدت أضع رأسي على وسادة فراشي حتى سمعت حركة مبهمة في حوش البيت ، فقمت عن فراشي واتكات على (محجّر) السطح لانظر الى داخل الحوش .. فرأيت شخصاً عارياً يجلس القرفصاء ، وقد يكون شعر بوجودي على السطح ، فنظر اليّ . وهو يلتقط الصابونة التي أضعها عادة الى جانب حنفية الماء التي في وسط الحوش ، وقذفني بها ، ولم يصبني بل مرت من فوق رأسي كالطلقة النارية وارتطمت بسياح السطح . فاسرعت فزعاً واقفلت باب الدرج لكي لايصعد الي ذلك الشخص المخيف (واضاف خضير) القصة لاتصدق ولكنني شاهدت احداثها ولا أقتنع بنفيها . مختصرها ، أنا من هذا اليوم لن أبقى وحدي في البيت ليلًا أو نهاراً . وحاولت ان اقنعه ان ذلك من صنع الخيال والخوف وليس له نصيب من الصحة ، غير ان خضير أصرّ على مغادرة بيتي ، وغادره . وسواء كانت هذه

الرواية واقعية أو غير واقعية فقد كانت القشة التي قصمت ظهر البعير ، فاغلقت العيادة غير آسف عليها وغادرت المنطقة .

مدام پني كوك ٨/٤/ ١٩٤١

في صباح يوم ٨ نيسان طلبت مني رئيسة ممرضات المستشفى الملكي المس كنكستون ان افحص السيدة پنى كوك ، وهي من صديقاتها الانكليزيات وفي نهاية العقد الرابع من عمرها غير انها كانت لاتزال تبدو في عمر أقل من ذلك بكثير ،معتدلة القوام والطول ، وعلى بشرة صدرها قليل من النمش ، وكذلك قليل منه على صفحة وجهها اللين السمح . وكانت حاملاً في الشهر التاسع ، واستغربت من انها لم تستشر احد أطباء التوليد ، وعرفت منها فيما عرفته أثناء حديثي الطبي معها انها فقدت قبل سنتين طفلاً اثناء ولادته بسبب تأخر رأسه في الحوض بعد اندفاع جسمه الى الخارج . كما استشففت منها انها حاقدة على الاستاذ كروكشانك الذي كان يفحصها شهرياً أثناء حملها وأشرف على ولادة ابنها ايضاً ، وان حالتها كانت تستوجب توليدها بالعملية القيصرية للمحافظة على سلامة ولدها غير ان كروكشانك لم يعملها ولما سالتها من اين لها هذه المعلومات وعما تعرفه عن العملية القيصرية اجابتني ببساطة : إنها ممرضة جامعية .

وفحصت مدام پني كوك فاذا جنينها معتلن بالمقعدة ايضاً . وفيما عدا ذلك فحالتها وحالة جنينها جيدة . وبدأت أفسّر لهذه المريضة ما ارتأيه لمعالجة حالتها ، وقلت لها فيما قلت .

- الحبل الاول انتهى بموت الجنين اثناء الولادة بسبب اعتلانه بالمقعدة ، وهذا الجنين ، معتلن بالمقعدة ايضاً ، ولا مجال الآن لتدويره الى الاعتلان بالرأس ، وهو الاعتلان الطبيعي .

فقالت لي مقاطعة

- انا أعرف كل ذلك ، فانا ممرضة وقابلة معاً

وصرت أفكر وأنا استمع الى هذه المريضة الذكية ، واسال نفسي اين انجز هذه العملية ، ورئيس الاستاذ كروكشانك يستاء دون ريب حين

يرى انني ساعمل لعلاج حالة هذه المريضة ماكان عليه ان يعمله لمدام بني كوك لولادة ابنها . ولم يكن في بغداد يومئذ مستشفى آخر غير المستشفى الملكي لادخل هذه المريضة اليه ، إذ لم تكن لي يومئذ علاقة بمستشفى ميرالياس لاحيلها اليه ، فلا يراها استاذي كروكشانك ، ولاتراه ، ولما شرحت ذلك للمريضة قالت :

– ومالي والدكتور كروكشانك ، فانا أريد ان ألد في هذا المستشفى وبالعملية القيصرية وعلى يدك بالذات . فعملت بارادتها ، وما ارادته مشروع ، وضمن السلوك المهني .. وبعد أيام معدودة اخبرتني مس كنكستون ان صديقتها مسز پينى كوك في الغرفة رقم (٢) بدار التمريض الخاص ، وان (جيب المياه) قد انفجر قبل ساعة من دخولها الى الغرفة ، وانها قد اخطرت صالة العمليات لاستحضار مايلزم للعملية القيصرية . وانفجار جيب المياه قبل أوانه متوقع في حالات الاعتلان بالمقعدة .

وانتهيت من هذه العملية بسرعة وسهولة ولما غادرت صالة العمليات قابلني على مدخلها رجل ضخم الجثة حسبته في الخمسين من عمره ، حسن الملبس والقيافة ، وعلى قصبة انفه عوينات باطار سميك بني اللون . واستقبلني هذا الرجل بابتسامة عريضة انمط فوقها شاربه الكثيف ، وهو يحاول ان يكون ظريفاً ومسروراً ، فقال لي جذلًا وهو يضرب بكف يمناه صدره العريض :

– إنن أنا الان أب يادكتور سامرائي ، وانا اشكرك . واردف يسألني : هل هو طويل مثلي ؟ وقوي ؟ أنا يادكتور پني كوك ابو الطفل .

وكانت تقف الى جانبه سيدة قصيرة القامة مملوءة الجسم ، وذات وجه طفولي عنب ، فعلقت على كلام بنى كوك تقول

– ولكن ابنك يامستر پنى كوك بلا شارب ولاعوينات على عينيه والتفتت نحوي هذه السيدة وسألتنى : تذكرني يادكتور ؟

ولم تمهلني لافكر اين رأيتها ، فقالت لثير ذاكرتي :

– مس ستيهم ، هل تذكرها ؟

فاجبتها

– آه ، نعم نكرت الآن ذلك اليوم الذي تناولنا فيه الغداء على مائدة مس ستيهم في دارها بشارع العسكري

وسألتني

- تعرف حكايتها الاخيرة في سيام ؟
فاجبتها
- نعم ، عرفت انها اعدمت هناك .
ثم التفتت نحو مستر پنى كوك ، وهي تضربه بقفا كفها وقالت له بخبث وميانة
- انت زوج أناني يا (وليم) فلم تسأل الى الآن عن حالة زوجتك ، وما عناك منها إلا ما أنجبته لك .

ولم يدم الفرح بالمولود طويلًا ، فقد ظهرت على وجهه في صباح اليوم الثاني بوادر اليرقان ولم يمض يوم آخر حتى صار وجه الطفل بلون حمرة النارنج . ولم نكن يومئذ نعرف عن عامل (ريزس) ، وبالرغم من أننا نعرف ان اليرقان الخفيف الذي يظهر على وجه الوليد في اليوم الثاني بعد ولادته ماهو الا ظاهرة عابرة غير خطرة ، غير ان اليرقان اذا كان غامقاً فقد يؤدى الى وفاة الطفل ، وفي هذه الحالة كنا نأخذ يومئذ قدراً من دم الأم ونحقنه في عضلات الية الوليد . ونعمل ذلك دون قاعدة علمية ، كما لم نكن نعرف يومئذ مصدر هذا النوع من العلاج . وعملنا به لطفل پنى كوك غير ان الطفل توفي في صباح اليوم الثاني بعد ولادته . وقد عرفت ذلك من الدكتور سندرسن حين كلمني تلفونياً وهو يقول لي :
- ان أمه ترفض اعطاء ابنها المتوفى ، فتعال لعلك تقنعها باخذه منها .

ودخلت غرفة مدام پنى كوك بدار التمريض الخاص فوجدتها تحتضن وليدها وتمر بمشط صغير على رأسه بالرغم من انه بلا شعر وتناغيه بنعومة تخرج من اعماق مهجتها . وحين شعرت بوجودي الى جانبها حولت وجهها اليّ فاذا عيناها تبدوان كانها معمولتان من زجاج ، فلا حراك فيهما ولاحياة ، وسألتني وهي تشير الى طفلها
- اليس هو جميل يادكتور؟ انه يشبهني !

وادركت حينذاك انها في حال غير طبيعي ، فقلت لها بتودد
- مسز پنى كوك ، اعطني الطفل ياعزيزتي .
فاجابتني .
- انت تطلب المستحيل يادكتور ، فهو حياتي ، فان أخذتموه مني فانكم تحرمونني من الحياة ، فاتركوه معي ان أردتم لي الحياة .

ومددت يدي الى ابنها فدفعتها عنها وهي تقول :

- لا تلح ، فلن اعطي لكم إبني

وفي هذه اللحظات دخل سندرسن وانضم اليّ لنقنعها في اعطائنا الطفل ، فلما تقدم منها قبضت على يده وعضتها كما تفعل الهرة الثائرة للمحافظة على صغارها . غير ان سندرسن نجح أخيراً في أخذ ابنها ، وترك أمه تصرخ وتعول كما تفعل الثكلى بولدها البالغ .

أثناء حركة رشيد عالي/ ١٩٤١

وقع خلاف مبدئي وجذري بين حكومة رشيد عالي الكيلاني والحكومة البريطانية كان بسببه ان اصطدم الجيش العراقي بالقوات البريطانية قرب معسكر الحبانية وحول الفلوجة ، فزحفت القوات البريطانية نحو بغداد بقواتها الجوية والبرية ، وفي يوم ١٨ مايس ١٩٤١ هرب قادة الحركة من مدنيين وعسكريين الى إيران وتركيا ،وفي هذه الاثناء اختل الأمن في بغداد وحدث ما يؤسف له من نهب وقتل بفعل بعض الغوغائيين فكان من ذلك بعض الضحايا الابرياء وبخاصة من اليهود ، على ان بعض المسلمين اندفعوا متبرعين لحماية بعض افراد تلك الملة فآووهم في بيوتهم وابعدوهم عن الاذى . كما استشهد في هذه الحركة صديقي سعيد عباس برصاصة طائشة ، والزميل يحيى حبش بشظية من قنبلة قرب معسكر التاجي وهو يؤدي واجبه الطبي بين صفوف الجنود العراقيين الذين كانوا يدافعون عن المعسكر ، وقد حزنت لوفاة كليهما كثيراً .

وفي ١٧-١٨ مايس شعرت زوجتي بالمخاض ، ولاستحالة الذهاب الى المستشفى الملكي بسبب الاحداث في الطريق اليه ، وضعت في البيت بعناية القابلة مركريت حيي ، وكان الوليد بنتاً سميتها (نيران) كناية عن النيران التي كانت تصلي معسكر التاجي ، ومطار المثنى . ولم تكد تتوقف ابتساماتنا بالفرح على سلامة الأم وابنتها حتى رنّ جرس التلفون في بيتي وكانت احدى زبوناتي الحوامل تتوقع الوضع في هذه الايام ، وسمعت زوجها ماكس سوفير يقول لي بهلع :

- دكتور أرجوك ان تأتي الآن الى بيتنا فزوجتي تكاد تموت من الأوجاع ، وأنا اعرف ان مجيئك ليس سهلاً ، انقذني . وبنخوة وشهامة طائشة

سقت سيارتي متجهاً نحو بيت سوفير في (بستان الخس) . كان كل شيء هادئاً حتى وصلت وزارة الدفاع حيث أوقفني جندي بليونة وأدب ، فأخبرته بمهمتي فسمح لي بمتابعة طريقي وهو ينصحنى ان أتمهل في سياقة سيارتي وكان سكون مخيف يلف الطريف فعملت بوصيته حتى وصلت الى باب (أوتيل تايكرس) الذي يلي رقبة جسر الملك فيصل ، وفي هذا المكان أوقفني جندي باشارة من يده التي مدّها على عرض الطريق ، ولاحظت حين وصلت اليه ضابطاً الى جانبه عرفته في الحال ، فقد زارني في عيادتي مرات عديدة هو وزوجته التركية ، فابتسمت له تلقائياً دون ان التفت الى ذلك الجندي . وتقدم مني الضابط مترنحاً وهو في حالة سكر واضح ، ونحّى بيده الجندي عن طريقه فوصلني فاذا هو نفسه الضابط الذي كنت أخدمه صداقة لا اكتساباً ، غير انه كان متجهماً وكأنه يقابل خصماً يريد الغلبة عليه ، وأمرني بلهجة عسكرية غاضبة :

- إنزل .

فترجلت من السيارة مطيعاً ، وانا اقول له باعتداد أنا كمال ، غير انه عاد يصرخ :

- الا تعرف ان التجوال ممنوع ؟

واردت ان اقول له : اعرف ولكنني أستجيب مضطراً الى طلب مريض ، ولم أقل له ذلك حين صرخ في وجهي مرة أخرى كمن يعطي أوامره الى جنوده في التدريب :

- خلف در

ولما استدرت الى خلف زعق قائلًا :

- الى الأمام سر

وسرت بضع خطوات حتى وصلت الى باب حانوت مغلق ، وكنت حتى تلك اللحظات اعتقد ان في تصرفات هذا الضابط هزل ودعابة ، وانتظرت أمراً آخر منه لأنفذه كما يريد ، وفي اعتقادي ان الموقف سينتهي كما كان ينتهي فيما مضى بيننا حين نتقابل بالاحتضان والقبلات .

ومرت لحظات سمعت خلالها خطوات هذا الضابط وهو يتحرك نحو باب الاوتيل ، واذا بشخص يرتدي الخاكي يتقدم مني ويهمس في اذني

- دكتور ، استعجل واركب سيارتك . العقيد لايعى مايفعله . وأخاف ان يرديك قتيلًا . وحين استدرت لأرى هذا المنقذ ، عرفته في الحال ، وهو

زوج احدى مريضاتي وكانا يزورانني بانتظام فأخدمها دون عوض بعد ان توطدت بيني وبينه صداقة ، كان ذلك الشخص هو اكرم فهمي ، وهو يقول لي :

- جاك سوفير جارى وقد طلب مني ان أصاحبك الى بيته غير ان هذا العقيد أوقفني هنا كما اوقفك . واردف قائلًا

- سأسوق سيارتي وأنت تتبعنى الى بيت ماكس سوفير . وهناك في بيت هذا الرجل وجدت زوجته قد وضعت بنتاً . وحين قلت لزوجها أنا مثلك رزقت صباح هذا اليوم ابنة ، وضعنا لها مسبقاً اسم (نيران) بمناسبة النيران التي كانت مشتعلة بين الجيش العراقي في منطقة البيجي وبين القوات الانكليزية الغازية عليها .

وفي صباح اليوم الثاني وقفت سيارة ماكس سوفير عند باب بيتي وترجل منها سائقها ليحمل صندوقاً مليئاً بالأدوات الزجاجية التي كان ماكس سوفير يعمل بتجارتها ، وقد كتب على غطاء ذلك الصندوق عبارة (هدية من نيران ماكس سوفير الى نيران كمال السامرائي) وهكذا كانت ابنتي اول واحدة بهذا الاسم وابنة ماكس سوفير ثاني بنت تحمل الاسم نفسه في العراق .

في كلية الطب بعد حركة رشيد عالي ١٩٤١

على أثر عودة الأمير عبد الاله الى بغداد بعد فشل حركة رشيد عالي ، كلفّ الأمير عبد الاله السيد جميل المدفعي بتشكيل الوزارة ، وفي هذه الوزارة ولّى جعفر حمندي وزارة الشؤون الاجتماعية فعيّن الاستاذ هاشم الوتري عميداً لكلية الطب والمستشفى الملكي . ورأى الوتري تمشياً مع الأحداث الجسام التي انتابت البلاد والدولة ان يغير كادر المستشفى الملكي ، فكان اول من نال هذا التغيير هو عميد كلية الطب الاستاذ صائب شوكت فازيح عن العمادة بتهمة النازية وقتل اليهود الجرحى الذين احيلوا الى المستشفى الملكي في حوادث اليوم الثاني من شهر حزيران من هذه السنة . وهي تهمة جائرة لاصحة لها ، إذ ان الدكتور صائب من النبل والانسانية مالايمكن معهما ان يلوث اسمه بتلك الاعمال المشينة . أما

ميله الى النازية فهي تهمة الصقت بكثير من العراقيين الوطنيين الذين كرهوا الانكليز منذ أوائل العشرينات ، حين قاسوا ماقاسوا من حكامهم في الفرات الاوسط مما ادى الى ثورة العشائر عليهم . كما ابعد عن المستشفى الملكي الدكتور صبيح الوهبي الى مديرية مستشفى الكرخ ، والدكتور اكرم القيماقجي الى مستوصف الكرخ واستدعى الدكتور سلمان فائق الى المستشفى الملكي . وفي يوم ١٩٤١/٧/٢٣ استقال الدكتور عبد المجيد القصاب من وظيفته في الكلية الطبية . وفي يوم ١٩٤١/٧/٣٠ عين الدكتور سندرسن مستشاراً بوزارة الصحة . وفي يوم ١٩٤١/٨/١٩ إتخذ مجلس عمادة كلية الطب القرار الآتي :

(بناءً على حاجة مديرية الصحة العامة الى طبيب في الامراض النسائية فقد رشح مجلس الكلية نقل الدكتور كمال السامرائي الاستاذ المساعد الى خدمات مصلحة الصحة العامة)

عميد الكلية

الدكتور هاشم الوتري

ويبدو أن هذا القرار قد صدر دون إنعقاد مجلس الكلية فلما وصل خطياً الى اعضاء المجلس وقعوا ازاء اسمائهم إلا الدكتور شوكت الزهاوي الذي علق عليه بهذه العبارة :

(أرى ان يعقد المجلس لبحث مقترح نقل الدكتور كمال السامرائي) .

وقبل ان يصل مقترح العمادة الى الوزارة بنقلي الى ملاك الصحة العامة . وصلني كتاب من العمادة وفيه أمر الالتحاق بوظيفتي في الموصل في خلال ثلاثة ايام . وأوضح لي هذا الموقف ان لاسبيل لبقائي في المستشفى وان أسافر الى الموصل تنفيذاً للأمر الوزاري . وسافرت اليها بسيارتي عن طريق كركوك ، فوصلتها بعد ظهر يوم ١٩٤١/١٠/٦ وكنت متعباً ومترباً ودون قيافة لائقة ، وسألت أحد السابلة عن مكان المستشفى الملكي حيث يعمل به صديقي الدكتور نصرت عبد الحميد لأحلّ ضيفاً عليه ، ولم يكن يومئذ قد تزوج بعد . وصرت أسوق سيارتي على غير هدى في طرق المدينة ، إذ كانت هذه الزيارة هي الاولى لمدينة الموصل الحدباء . واوقفني شرطي بصافرته ثم بزعيقه يقول:

- اغشع ، وين مولّي ؟

فاجبته وأنا طوع المفاجأة .

- العفو ، ماأعرف الطريق الى المستشفى الملكي
- شكون ماتعرف ! ماتعرف اشارات المرور ؟
- أنا وصلت الموصل الان ولا أعرف طرقها.
- مرتين مرقت من هذا الشارع وأنا أصيح عليك ، شنو تعمل بياسة ؟
وإعتذرت منه مرة أخرى وأنا اضحك في سرى من جديته وعصبيته فقلت له وقد نفد صبري
- ماذا تريد مني الآن ، أنا حاضر بأمرك ، تأخذني الى مركز الشرطة ، تفضل وانا بطاعتك
وفي لحظة رحمانية تنازل هذا الشرطي عن موقفه مني ، كما ينهدل ذيل الطاووس بعد ان ينتهي من زهوه ، وقال لي :
- ياللّه ، امشي من هون عدل الى المستشفى
وانتهت المشكلة . وكان استقبال نصرت لي حاراً انسانى بسرعة الزوبعة اللاسلوكية التي اثارها الشرطي معي .
وفي اليوم الثاني قصدت رئاسة صحة لواء الموصل في احدى ملاحق المستشفى الملكي ، وقابلني رئيس الصحة الدكتور رشيد زكريا في هذه الدائرة بترحيب . وكانت دائرته تطل على نهر دجله من الشرق ومن خلالها بدأ لي مزار النبي يونس القائم على تل يعلو جميع المنشآت التي حوله .
وفي دائرة رئيس الصحة تعرفت على الجراح لويس ، وهو قبطي من أهل مصر ، وعلى الدكتور عثمان أحمد وكنت اعرفه منذ كان طالباً بكلية الطب ، وعلى بعض الممرضات اللاتي درسن علي فن التوليد بمدرسة القبالة ببغداد .

وفي حديثي مع الدكتور لويس لمست منه لأول مرة شخصية جذابة ولبقة وانيسة ، وعلمت بعدئذٍ انه يسيطر على الطب الجراحى في الموصل ، وله سمعة مرضية واسعة بين أعيان المدينة وشيوخ ديار الموصل من عشاير شمر ، واليزيدية . وفي يوم طلبني لاشارك في فحص مريضة مصابة بورم حوضي ، وهي فتاة فقيرة بلهاء ، وبعد فحصها قلت له انها حامل ، فقال لي ولكنها غير متزوجة ولاتزال بكراً ، ولم أطل معه محاجاتي حتى اقتنع بتشخيصي . ولا أعرف لاي سبب شككت في انه كان يختبرني في معرفتي تشخيص هذه الحالة المرضية ، أو انه يعرف مرضها ولكنه اراد ان يورطني بخطأ في تشخيصها ، ومن ذلك اليوم وحتى مغادرتي الموصل بقي هذا

الظن يساورني بالحاح وبمزيد من التأكيد .
وفي يوم الجمعة التالي دعانى الدكتور (رزوق) لزيارة بعض مدن الموصل القريبة اليها ، كما زرنا دير هرمز ودير متى . ثم عدنا لنتناول العشاء في داره . وسمرنا ونحن نتندر بالقصص والفكاهات وكان منها تجريح على أهل مدينة الموصل على غير حق في وفادة الضيف . قال الدكتور رزوق ، وهو من أهل الموصل
- الحّ أحد تجار الموصل على شريكه البغدادي ان يزور الموصل ضيفاً عليه في داره رداً لزياراته المتكررة لبغداد ، وما كان يلقاه من كرم الضيافة في داره ، وسافر الشريك البغدادي لزيارة شريكه في الموصل فوصلها مساءً ، فاستقبله شريكه الموصلي بالترحيب الحار ، ثم قال له :
- اعرف انك متعب وتحتاج الى الراحة ، فنم هذه الليلة لتستعيد قوتك لليوم التالي .
ولم يكن البغدادي متعباً الى حد ينسيه جوعه الذي بدأ ينهش معدته ، ومع ذلك نام على الطوى حتى الصباح . فقال الشريك الموصلي لضيفه البغدادي .
- قيمر الموصل مشهور ياعزيزي ، وسيكون فطورك منه هذا الصباح ونادى على ابنه واعطاه ما في قبضة يده ليشترى قيمراً من السوق ، وغادر الإبن البيت ليأتي بالقيمر ، وبعد نصف ساعة عاد الى البيت خالي الوفاض ، فصرخ أبوه في وجهه عن سببب تأخرّه
فقال له ابنه
- ذهبت اسأل عمن يبيع القيمر فقال لي بائعه عندي قيمر كأنه دهن حر ، فقلت لنفسي اذن لماذا لا أشترى الدهن الحر وهو أرخص من القيمر . وذهبت الى بائع الدهن الحر ، وسألته عما عنده من الدهن الحر فاجابني ان ماعنده من الدهن الحر مايماثل زيت الزيتون ، فقلت لنفسي لماذا لا اشتري زيت الزيتون وهو أرخص من دهن الحر ، وذهبت الى بائع زيت الزيتون ، وسألته عما عنده من زيت الزيتون فقال لي عندي منه وكأنه الماء المقطر ، فقلت لنفسي عندنا ماء مقطر من الحباب ، فحنق عليه أبوه ، وصرخ في وجهه قائلًا :
- أتعرف كم أتلفت من حذائك ياولد ؟ وانت تنتقل من دكان الى دكان ؟

فاجابه إبنه قائلا :
- لم أستعمل حذائي ياأبي بل استعملت حذاء ضيفنا البغدادي !
هذه الحكاية موضوعة طبعاً ، ولكنها على مارأيت من أهل الموصل لاتنطبق على واقعهم ، فهم يعرفون كيف يصرفون الفلس ولأية مناسبة ، وهذا من باب تدبير الأمور وحسن تصريفها لا من البخل والتقتير ، وإلا فهم كرماء ومضياقون حقاً. كانت ايامي في الموصل ممتعة ، زرت في خلالها دير ماركوركيس القريب جداً من الموصل ، وتعرفت على رهبانه وشاهدت حقولهم الزراعية وطلب مني رئيس الدير ان أرى احد الرهبان الشباب الذي كان يشكو من الاسهال الحاد المتكرر ، وقد بدا لي هذا شديد الشحوب ، مدبب الانف ، غائر العينين وعرفت من الراهب الرئيس ان هذا الراهب الشاب كان يشكو من الامساك المزمن فنصحه اصحابه ان يأكل من ثمرة الحنظل فازدرد واحدة بكاملها ، فآل الى هذا الحال . وكانت حالة هذا الراهب سيئة فنصحت رئيس الدير ان يحمله الى المستشفى في الموصل لتعويض مافقده من سوائل جسمه . وبعد ذلك اتجهنا نحو قرية التلكيف ومنها الى القوش وتجولنا في ازقتها الضيقة المتعرجة ، واستغربت حين شاهدت الكثيرين من رجالها يقعدون على ابواب دورهم يتحدثون بعضهم الى بعض ويهلسون الصوف عن الجلود ، ويغزلونه بمغزل طويل يفتلون محوره على افخاذهم ، وهو مشهد لم أر مثله في حياتي إلا في هذه البلدة . ثم رحلنا الى دير متى وقد رأيناه ونحن في اسفل الوادي كأنه عش غراب فوق أحدى الصخور العالية . وقد رحب بنا رئيس الدير وقادنا الى مافي الدير من حجرات منحوتة في الجبل ، ودخل علينا في هذه اللحظات راهبان مدججان بالسلاح الناري ، ولما ابديت استغرابي ان يحمل رجل الدين آله قاتلة قال لي رئيس الدير ، انها ليست لقتل الانسان بل الحيوان الذي يعيث بالمزارع والفواكه . ثم أضاف : محاصيل مزارعهم حلال على الجياع اذا ماسرقوا من حقول الدير ، ولكن اكثرهم لايفعلون ذلك .
وبعد بضعة ايام في الموصل دبّ فيّ الملل وحب العودة الى بغداد .
فقدمت طلباً للاستقالة من وظيفتي ، وأسرعت عائداً الى بغداد قبل ان اتسلم جواب وزارة الشؤون الأجتماعية بقبول استقالتي وعند وصولي يوم ٩/ ١٠/ ١٩٤١ وجدت الوزارة قد سقطت بكاملها ودخل في الوزارة

الجديدة جمال بابان وزيرا للشؤون الاجتماعية .

وكنت قبل سفري الى الموصل أخدم بمهنتي اخته الآنسة سنية ، فزرته في دائرته لاهنئه بمنصبه الجديد ، ويبدو انه قد عرف انني قد نقلت الى الموصل على غير رضاى ، فبادرني قائلًا :

- سأصدر أمراً باعادتك الى كلية الطب

وكان ذلك مفاجأة لي ، وقد هبطت الى من علٍ فأغنتني عن الاشارة الى استقالتي وميلي الى العودة الى سابق مكاني في كلية الطب . بيد أنني لشدة احترامي لعميد الكلية الاستاذ هاشم الوتري رأيت ان أعرف أولا رأيه في عودتي الى الكلية وموقفه من الأمر الوزاري اذا صدر بالعودة اليها ، فطلبت مقابلته ، ودخلت معه الموضوع مباشرة قائلًا .

- استاذي ، قد يصدر الأمر الوزاري باعادتي الى الكلية وجئت لاسألك سلفاً اذا كان ذلك لايعارض رضاك ، وإلا فسأتصل بمعالى الوزير لأخبره أنني افضل البقاء في الموصل ، وشدما كان استغرابي حين رحب بي الدكتور الوتري في كلية الطب ، وأضاف قائلًا :

- لقد اكتشفت بعد غيابك عن الردهة النسائية كأن هذا القسم في المستشفى قد خلا من الاطباء .

وشكرته على حسن استقباله لي ، وصدر الأمر الوزاري بنقلي الى كلية الطب يوم ١٩٤١/١١/١٠ استاذاً مساعداً براتب قدره ثلاثون ديناراً في الشهر .

الاستاذ سندرسن مشاور في وزارة الصحة/ ١٩٤١

استحدثت في وزارة الصحة دائرة (استشارية) عين لها الاستاذ سندرسن ، وذات يوم كلمني ملاحظ كلية الطب (فكتور) تلفونياً واخبرني ان سندرسن يريد ان يراني في دائرته بمديرية الصحة العامة . كانت غرفة سندرسن في المديرية متواضعة إلا انها جميلة الموقع ، إذ هي تشرف مباشرة على نهر دجلة . واستقبلني سندرسن لا كطالب بل كصديق وزميل ، وابتسم وهو يقول لي :

- اتصلت بي أحدى الدوائر الحكومية وافادت بانك تدعو الى (النازية) ،

وانا أعرف انك بعيد عن هذا الاتجاه ، فلا حاجة ان تدفع عن نفسك هذه التهمة امامي . (وأضاف) انني سأجيبهم أنني استجوبتك في هذا الموضوع واقتنعت انك لاتميل الى النازية. وهكذا كانت هذه المقابلة مختصرة جداً وحاسمة . فلم يكن لمواصلة بقائي بدائرة الدكتور سندرسن ضرورة ، إلا ان اقول له .

- اشكرك يااستاذي .

وقبل ان اغادر غرفته قال لي

- ان الدكتور صائب شوكت له ميول نازية وكذلك الدكتور رويحة . فهل انت تكاتب الدكتور صائب ؟

فنفيت ذلك نفياً قاطعاً ، وانا صادق في ذلك وكان يشرفني يومئذ ان اكون واحداً ممن اسفوا بشكل عملي لإبعاد صائب شوكت عن الكلية الطبية ، ولكنني لم اقل ذلك للدكتور سندرسن .

وانصرفت من دائرة الدكتور سندرسن وأنا مطمئن الى أنني في حماية الأدارة من الاوامر العشوائية المتمثلة بطرد الاستاذ صائب شوكت .

وحتى حركة مايس ١٩٤١ كانت العمادة تصدر أوامرها وتعليماتها باللغة العربية موقعة من عميد الكلية وبعد عودة سندرسن الى العمادة بعد تلك الحركة أمر سندرسن ان يكتب مايصدر عن دائرته باللغتين الانكليزية والعربية ، كل في عمود ، العربية الى اليمين من الورقة والانكليزية الى اليسار منها ، ويوقع العميد على الجانب الانكليزي فقط .

معاون عميد كلية الطب ١٩٤١

في حرب ١٩٤١ مع الانكليز ، عين الدكتور هاشم الوتري عميداً لكلية الطب خلفاً للدكتور سندرسن الذي استعفى بتكليف من العمادة ، وبعد اندحار الجيش العراقي وفرار قادة الانقلاب ، عادت العمادة الى الدكتور سندرسن ، وبعد نحو اسبوع كلمني تلفونيا السيد فكتور (سكرتير العميد) قائلاً

- العميد يريد يشوفك

وذهبت في الحال الى دائرة العميد بكلية الطب ، وفاجأني فكتور على

باب الدائرة يقول لي
- دكتور كمال وافق
- على اي شيء أوافق ؟
- لازم توافق !
- ماهو الموضوع اولًا ؟
ودخلت الى دكتور سندرسن بغرفته ، فاستقبلني يقول
- إجلس ياكمال .
وكان دوماً يناديني باسمي فقال لي :
- قررت أن أوكل اليك معاونية العمادة .
وكان هذا الطلب مفاجأة لي ، ولابد ان سندرسن قد لاحظها على وجهي فقلت له :
- لقد فاجأتني بهذا الأمر ياسيدي
فقاطعني وقال
- أعرف ذلك .
وانتظرني لأجيبه
وتزاحمت في رأسي ردود عديدة وفيها الموافقة على طلبه ، وفيها أسباب لرفض طلبه ، لاتكفي لاختيار اي منها لحظات . وانقذني سندرسن نفسه من هذا الموقف المحرج بقوله
- فكرّ ، ولا أريد منك جواباً آنياً ، أريده نتيجة تفكير ، وتحكيم ، وجواباً انت تؤمن به ، و(اضاف) انا لا أريد غيرك ان يشغل هذه الوظيفة . وشكرته على الثقة التي أولاني أياها ، وغادرت غرفته . ومررت في طريقي بفكتور فسألني وهو يبتسم
- انتهت ؟
- فاجبته : اعطاني وقتاً للتفكير ، وغادرت غرفة فكتور قبل ان اسمع منه مايريد ان يقوله لي ، وذهبت الى غرفتي في الردهة العاشرة ، وشرعت أفكر . كان العميد السابق الاستاذ هاشم الوتري قد اختار الدكتور معمر الشابندر ليكون مساعده في شؤون العمادة ، وهو اختيار صائب ، فالدكتور معمر يهوي الاعمال الورقية وقد شرع منذ اكثر من شهر يساعد الاستاذ الوتري في وضع كتاب في تأريخ نشوء الطب والكلية الطبية في العراق ، كما لم يصدر العميد الجديد الاستاذ سندرسن أمراً بالغاء هذه الوظيفة إنما

أهمل وجودها وأوعز الى ملاحظ الكلية السيد فكتور ان يحيل اليه كل مايتعلق بالعمادة والمستشفى الملكي ، فانتبه الدكتور معمر الى غرض سندرسن من ذلك وانسحب عن الادارة بهدوء .

وكانت الظروف السياسية حتى ذلك اليوم قلقة بعد دخول القوات الانكليزية عنوة الى الاراضي العراقية لتطبق بكماشتها على حكومة طهران ، ثم ان وظيفة معاون العميد ادارية لاعلمية ، وتتطلب جهداً ووقتاً أحرى ان اوظفهمالاعمالي في الردهة النسائية التي بدأت أفهم بتذوق معالجة المريضات فيها ، فضلًا عن ان كثيراً من أطباء الكلية من هم اقدم مني في الخدمة واحق مني بوظيفة معاونية العميد ، ولاحظت ايضاً ان جميع الذين اشتغلوا بالادارة قد ايتعدوا عن متابعة دراسة الطب وممارسته ، وأنا بعيد في افكاري عن هذه النتيجة ، وانما اريد ان اكون للطب وحده وفي اليوم الثاني قابلت الدكتور سندرسن ، وقلت له :

- أرجو ان تعذرني ياسيدي ، فانا لا ارغب في هذه الوظيفة بالرغم من ميلي الشديد للعمل تحت إمرتك .

وقاطعني الاستاذ سندرسن الذكى ، وقال :

- كنت متوقعاً منك هذا الرد

وعدت اقول :

- أنا جد متأسف .

وذكرت له زميلين هما في اعتقادي اصلح مني لهذه الوظيفة إلا ان الدكتور سندرسن تجاهل ماسمعه مني وانهى مقابلتي معه بقوله :

- سوف الغي هذه الوظيفة ياكمال ، والغيت هذه الوظيفة دون ان يصدر أمر بذلك بل باهمالها وتناسيها كلياً .

فقط لان أباه وزير/ ١٩٤١

كانت الشؤون الصحية في هذه السنة تابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية ، وحدث ان رزق وزير هذه الوزارة جمال بابان بولد سماه سامان ، وقد وضعته أمه في دار التمريض الخاص بالمستشفى الملكي ، فرغب أبوه الوزير ان يختن إبنه في المستشفى ، كما طلب من الدكتور

بريهام ان يقوم بهذه العملية البسيطة جداً .

وكنت يومئذ في اواخر ايام اقامتي بشعبة النسائيات في المستشفى الملكي التي تشمل النساء المريضات بدار التمريض الخاص . وبعد بضع ساعات من عملية الختان إتصلت بي الممرضة المسؤولة (خاتون) عن مرضى قسم الولادة بدار التمريض الخاص واخبرتني ان (ابن الوزير) ينزف بغزارة ، فهرولت الى مهد الطفل ، وكان ينزف فعلًا وصار دمه ينضح من خلال ضماد جرح الختان وينحدر حتى الحشية التي تحته . فاتصلت تلفونيا بالدكتور بريهام وكان يومئذ يسكن في النادي البريطاني القريب من اسواق حسّو إخوان ، وبعد نحو ربع ساعة كان الدكتور بريهام عند مدخل المستشفى حيث كنت انتظره بقلق ، فقد كنت خائفاً على حياة الطفل . أما الدكتور بريهام فقد قابلني بابتسامة باردة ، وخاطبني وهو يترجل من سيارته ويسأل :

- كيف عرفت انه ينزف بكثرة ؟
- أخبرتني الممرضة ، كما رأيت ذلك بنفسي من خلال الضماد
- حسن

ثم سألني بجد وكأنه يمتحن معلوماتي عن اسباب النزف في مثل هذه الحالة ، فاتخذت موقفاً جدياً كالذي يتخذه الطالب في ساعة الامتحان ، وبدأت أجيبه قائلًا

- قد يكون وعاءٌ دموياً قد افلت من رباطه
- سبب آخر ؟
- خثرة دموية انفصلت عن فوهة وعاء دموي
- سبب آخر
- قد يكون لمرض دموي في الوليد

فاعترض على جوابي هذا وقال

- اذا كان النزف مرضاً في الدم فيبدأ النزف اثناء العملية لابعدها .

واضاف قائلًا : وانا اعرف سبب النزف في هذه الحالة ،

وسكت ، فسألته

- ماهو السبب ؟

ولم يجبني . وفي صالة العمليات اكتشف الوعاء الدموي الذي ينزف وربطه ، وعاد يسألني

- لماذا انفلتت العقدة التي ربطت بها هذا الوعاء.
فاجبته جاداً
كانت ضعيفة فانفلتت
فأجابني متهكماً
- كان ذلك فقط لان أبا الطفل وزير.

في مستشفى العلمين/ ١٩٤١

في اليوم العاشر من شهر ايلول أفتتح بمحلة (رخيتة) ببغداد مستشفى أهلي باسم (مستشفى التميمي) لمموله التاجر المعروف (عباس التميمي) وقبل ان يجف دهان اللافتة بهذا الاسم رفعت من ناحية المستشفى واستبدل عوضاً عنها بلوحة كتب عليها (مستشفى العلمين) تذكاراً لموقعة العلمين في شمال افريقيا التي تلاحم فيها الجيش الانكليزي بجيش رومل الالماني.

وعباس التميمي عصامي لاعلى قاعدة علمية، إلا انه فطن في المعاملات التجارية، كما وافاه الحظ بهذه الموهبة فجمع ثروة طائلة من النقد والاملاك الثابتة. وبطريقة لم أعرفها، تعرفت رئيسة ممرضات مستشفى ميرالياس (رينة اسحاق) بعباس التميمي أوتعرف التميمي بهذه الممرضة. من جانب آخر كان بين رينة وطبيب مستشفى ميرالياس الدكتور ماكس كروياخ صداقة بحكم إشتغالهما في هذا المستشفى، فتمخض هذا الثالوث الذي تكون من التميمي وكروياخ ورينة عن انشاء مستشفى أصرّ التميمي ان يسمّى باسمه، في حين رأى الدكتور كروياخ ان يكون باسم (العلمين) تقديراً لموقعة العلمين التي دارت الحرب حولها في شمال افريقيا، وتمسك الطرفان بموقفيهما، فلم يحضر الدكتور كروياخ افتتاح المستشفى في رخيتة حين رفع على ناصيته اسم (مستشفى التميمي). ولما رأى عباس التميمي الذكي ان مشروع المستشفى لايضمن نجاحه إلا بمعونة الدكتور كروياخ والممرضة رينة، تنازل عن موقفه ووافق على ابدال اسم مستشفى العلمين باسم مستشفى التميمي، فدخل كروياخ هذا المستشفى باسماً مرتاحاً حين قرأ اسم (العلمين) على جهة

ماكان يسمى مستشفى التميمي . ولم تمض إلا أشهر معدودات حتى نقل المستشفى من مكانه في رخيتة الى عمارة قريبة من (پارك) السعدون ، أوسع واكثر تنظيماً من عمارته الاولى في منطقة رخيتة . كما استطاعت رينة ان تسحب الدكتور كروكشانك الذي كان يعمل يومئذ في مستشفى ميالياس الى مستشفى العلمين . وقد لمع في تلك الايام اسمي كطبيب في الامراض النسائية والتوليد ، فشاع بين الناس أنني كنت أحد المشاركين في تأسيس هذا المستشفى ، ومصدر هذه الاشاعة هو الممرضة رينة نفسها كدعاية لوجود الاختصاصات الطبية الرئيسة الثلاثة في هذا المستشفى وهي (الطب والجراحة والنسائية) ، على أنني لم اعارض حين دعتني رينة الى ادخال مريضاتي الى هذا المستشفى بدلًا عن مستشفى ميالياس . وكان يدور في افكار رينة بقلق احتمال ألّا أتعاون مع كروكشانك الذي شرع يزاول العمليات النسائية والولادية فضلًا عن العمليات الجراحية في هذا المستشفى . ودهشت رينة بفرح ملحوظ حين فاجأتها أقول سوف أبقى أعترف للاستاذ كروكشانك بالاقدمية والاولوية له في الامراض النسائية بهذا المستشفى ، وهو باي حال رئيسي في المستشفى الملكي ، وأنا مستعد ان البى طلبات المستشفى اذا تعذر حضوره لاسعاف مريضاته .. كما لا أبالي ان اكون الشخص الثاني من قبل المريضة أو من قبل ادارة هذا المستشفى . وصرت بعد أشهر استشير كروكشانك في الحالات المرضية لاحصل منه على رأي ثان ، ولم يغضبني لو عارض افكاري أو نقدها أمام المرضى ، على انه قليلًا مايفعل ذلك ، بل كان دوماً يثني على أعمالي ، وهكذا صرنا أنا وهو نعمل سوية في مستشفى العلمين ، كل واحد منا على مستواه مع الاحتفاظ بالعلاقات العلمية وسلوك الممارسة ، حتى حدث ذات يوم استدعتني فيه رينة الى فحص مريضة (بكر) في المخاض وهي مريضة كروكشانك ، إلا ان رينة لم تحصل عليه في اي مكان ، فتوجهت الى المستشفى حالًا .

وفحصت المريضة فاذا الجنين معتلن بالمقعدة فاخذت حذري من إبلاغها أو ابلاغ أهلها عن هذه المفاجاة . ولم أسألها ان كان كروكشانك قد اخبرها بهذا الاعتلان غير الطبيعي ، وان فيه خطورة ليست قليلة على الجنين عند ولادته . لم أسأل المريضة عن ذلك ، وافترضت ان كروكشانك قد اخبرها أو أخبر أهلها عن ذلك . غير ان المريضة وأهلها أخبروني ان

كروكشانك اخبرهم ان الحبل والجنين بحالة طبيعية ووضع طبيعي ، وان الولادة ستكون طبيعية أيضاً . وحرت فيما يصح ان أعمله ، فاخبرت رئيسة الممرضات رينة بموقفي ، فاقترحت عليّ ان اقول لزوجها (أدوارد) ماأراه ضرورياً لتوليد المريضة ، فلم اقتنع برأيها ، فقصدت زوج المريضة أساله .

- متى فحص الدكتور كروكشانك زوجتك ؟

فاجابني وهو لايدرى ماأقصده من هذا السؤال .

- قبل اسبوع .

- وماذا وجد ، اقصد ماذا قال لكم ؟

- قال كل شيء طبيعي وستكون ولادتها طبيعية ايضاً .

وكانت رينة تقف الى جانبي وانا اسال زوج المريضة ، ودون ان تستأذنني قالت تخاطب زوجها ادوارد

- اسمعني يا ادوارد ، الدكتور كمال وجد ان الطفل يجيء بمقعده لابرأسه ، يعنى (مرجلّ) أو خيّال كما تقول القوابل ، وهذه حالة غير طبيعية ، وفيها خطورة على الطفل أثناء ولادته ويرى ان الطريقة التي تضمن سلامة الطفل هي بعملية فتح البطن .

فبهت ادوارد لهذه المفاجأة ، وقال وفكه يرتجف :

- ولكن كروكشانك لم يذكر لي ذلك !

وقالت رينة تخاطب أدوارد :

- هذا هو رأي الدكتور كمال ، والرأي لك الآن .

فازداد إضطراب ادوارد ، وحاول ان يقول شيئاً ، ثم قال بتخاذل ورجاء يثير العطف

- نحاول نتصل بالدكتور كروكشانك رجاءً

وحاولت رينة ان تجد كروكشانك تلفونياً فاخفقت ، وحاول زوج المريضة ايضاً فلم يفلح ، فلم يبق لأهل المريضة خيار إلا ان يوافقوا على مقترحي . لتوليد مريضتهم بفتح البطن (القيصرية) .

ولم يخطر على بالي قط انني فعلت بهذه العملية اكثر مما يسمح لي به كروكشانك ، غير ان الامر اظهر لى غيرما توقعت حين قابلته في عصر اليوم التالي ونحن نطوف على مرضى مستشفى العلمين .. وحين انتهينا من هذا الاجراء الروتيني ودعنى كروكشانك دون كلمة مما الفته منه حين يغادر

المستشفى ، وقابلتني رينة فقلت لها ان الدكتور كروكشانك ساخط علي على مايبدو لي ، فهل هناك مايستوجب ذلك ؟ وهل في ماعملته البارحة لمريضته ماأزعجه ؟

ورأيت كروكشانك ، فاستشعرت في اعماقه خاطراً مايدور حول ماحدث قبل يوم ، فذهبت الى رينة في غرفتها وقلت لها .

– كروكشانك متالم مني أنا متاكد من ذلك ، ولابد انه يكون مصراً على أنني اسات اليه ، أو خرجت عن اتفاقنا في تصريف الحالات المرضية .

ورأيت كروكشانك في اليوم الثالث وراء منضدته في مستشفى العلمين وهو يحاول بتركيز اصلاح الحلقة التي يجمع فيها حفنة من مفاتيحه . وحين حييته رد علىّ تحيتي بتكلف وبرود ، ورفع رأسه دون ان ينظر الي وقال ليبعدني عما أريد ان اتحدث به معه :

– على رب البيت ان يكون له مفتاح واحد لكل أقفال بيته لا هذه الحفنة من المفاتيح . وحبذا لو يكون مفتاح واحد لكل من باب السيارة وماكنتها ، وباب مكتبي ، وهو نفسه لكل مرافق البيت التي يجب ان تقفل . (واردف يقول) أنا لا اقفل باب سيارتي حين أترجل عنها في الكراج مع علمي ان تلك دعوة للسارق ليأخذ مما في داخلها مايريد ، فمن ينتوي السرقة منها لايعيقه تحطيم زجاج نوافذها ليسرق ما في داخلها ، فاخسر مايسرقه كما أخسر زجاج سيارتي . وبعض هذه الخسارة أهون من الخسارتين معاً .

وقد ارتحت قليلًا حين رأيت كروكشانك يعود ولو قليلًا الى طبيعته في التحدث الي ، فهو حاذق في ايجاد المناسبة للحديث ، ولايمل من الكلام ، ورأيته الفرصة سانحة لي لابحث معه موضوع المريضة التي اجريت لهاالعملية القيصرية ، فقلت له :

– أريد ان اشرح لك موضوع مريضتك التي تصرفت بمعالجتها. فقال لي

– خلاص انتهينا من موضوعها ياكمال

وكان قد انتهى من اعادة ترتيب مفاتيح الحلقة التي بيده وتهيأ لينصرف من الغرفة فقلت له

– لم ينته موضوعها في تقديرك ، على ماأرى . فردّ على بجفاف :

– ليس الآن ياكمال ، وسوف انسى موضوعها . فقلت له :

– لا اريدك ياأستاذ كروكشانك ان تنسى هذا الموضوع فقط بل أريد ان اعرف منك سبب عدم ارتياحك مني وأنا اعلم انني لم أخطىء في تصرفي

معك ، ولا في طريقة علاج المريضة .
فقال لي :
- أنس الموضوع وتجاهله ياكمال ، فقد شعرت انني كبرت عقلياً لامارس الحالات الولادية الصعبة مع ان لي خزين كبير في عملها ، غير انني فقدت القدرة على تطبيقها وكان علي ان ادرك أنني جراح قبل ان اكون مولداً . كما اشعر انني بهذا العمر انشد الدلال وسماع كلمات الثناء والاطراء ، غير ان بوادر عجزي ان احتفظ بمكانتي العلمية قد لاحت ، وهذا مالا اطيق احتماله وأخشى ان تتكرر اخطائي بسبب هذا الشعور فيطفى على كل حسنات ماضي ومثاويه ، فلا يبقى في ذاكرة الناس عني إلا العيوب والاخطاء .
واردت ان اقاطعه لاقول له
- انت واهم ياسيدي فانت تبقى علماً في افكارك ،
فعاجلني يقول
- اسمعنى ياكمال ، اريدك ان تسمعنى وان تفهمني ، لا ان تسمعني فقط بل ان تفهمني ايضاً (وهذه هي طريقة تحدث كروكشانك) ان الناس يتسقطون السيئات من الأطباء أما الحسنات فينسونها كلياً .
كان كروكشانك يتكلم ببطء وتوق وكانه يدخل دهليزاً مظلماً ويخشى ان يتعثر فيه ، كما بدا لي وكانه يعترف أمام قس عن خطأ إرتكبه ، ويعصر روحه ليحل عقدة فكرة في صدره .
فقال لي :
- كان ينبغي على الاقل ان تحترم عمري
وعرفت ماقصد اليه بهذه العبارة ، فثرت عليه لاقول
- أنا لم أعد افهمك يااستاذ كروكشانك
وصاح بي بغضب :
- اسكت !
وارعبتني الهالة التي جللت محياه المتالم فامسكت عن الرد عليه وغادرته لاغاضباً عليه بل متالماً على نفسي ولم اكن يوماً ما بهذا الموقف ؛ فلابد هو الان بحالة غير طبيعية ، وهو لابد يعرف ذلك وهذا ماكان يؤلمه ويفقده هداه . ورأيت رينة وقلت لها :
- ساعديني يارينة فقد رفض كروكشانك ان اشرح له موضوع زوجة

ادوارد ، فافعل شيئاً لتسوية موقفه معي والا فلا استطيع العمل في المستشفى بعد اليوم ، فقالت لي
- كلمته البارحة فصرخ في وجهي يقول : لا أريد ان اسمع شيئاً عن هذا الموضوع ، فان ذلك يزيد في ذلي ومهانتي ويعرّفني بحقيقة أمري . (ثم اردفت رينة تقول لي) غداً عنده عملية رفع الرحم عن طريق المهبل ، وقد يحتاجك لتساعده فيها ، فيكون من ذلك مفتاح المصالحة والتراضي .
وتساءلت مع نفسي هل سيطلبني لمساعدته حقيقة ؟ وادركت رينة الذكية ماأريد ان اعرفه عن ذلك فقالت لي من تلقاء نفسها :
- لم يطلب مني ان اخبرك ان تساعده في هذه العملية ، كما كان يفعل في العمليات الكبرى ، وارى ان تحضر وتكون جاهزاً فقد يطلبك .
فقلت لها :
- طبعاً ساحضر ، حتى لو تجاهل وجودي
وفي اليوم التالي انتظرته حتى دخل صالة العمليات ودخلت وراءه ، ووقفت قريباً منه وهو يغسل يديه استحضاراً لاجراء العملية . وقفت قريباً منه وظهري اسنده على جدار غرفة الغسيل ، وظل هو دون اكتراث يعمل بالفرشة لتنظيف راحتي يديه واظافره ، وأخيراً نطق وقال كما لو انه يكلم نفسه :
- هذه المريضة زوجة مدير شركة نفط خانقين ، واتوقع ان الاقى صعوبة في فصل الالتصاقات بين أعضاء الحوض وانسجته ، وقد يسبب ذلك نزفاً دموياً فلا استبعد ان تحتاج الى دم مناسب لتعويضه . ولم اكن أعرف شيئاً عن هذه المريضة وما استحضر لها أو لغيرها من مرضاء كروكشانك منذ نشب الخلاف الذي افتعله معي بعد العملية القيصرية لزوجة ادوارد .
ومع ذلك سألته فيما اذا يرى ان اساعده في العملية التي هو بصددها الآن ، فاجابني
- رينة ستساعدني ، وشكراً
واعرف مقدماً ان رينة ولاغيرها من الممرضات تستطيع مساعدته في عملية رفع الرحم عن طريق المهبل ورينة هي نفسها الممرضة التي تقدم له الادوات الجراحية المناسبة . وكانت العملية صعبة وبدأت الصعوبة بعد ان فتح الجوف فيما بين الرحم والمثانة . وصار كروكشانك يقطع في

الالتصاقات التي عمت الملحقات الرحمية . وسرعان ماسبب ذلك نزفاً شديداً . ولما وصل في خطوات العملية الى قطع اربطة عنق الرحم تفجرت بين الانسجة دماء غزيرة ، فاغرقت جوف الحوض . وحاول كروكشانك السيطرة عليها بهدوء ثم باضطراب ثم بقلق ، وازداد النزف ، فبدت على كروكشانك إمارات الخوف . وصاح باسم رينة دون قصد ، فتناثرت من يدها الملاقط ، وصار هو يلتقطها ويرميها هنا وهناك وعلى الارض ايضاً . وأخيراً صرخ دون ان يلتفت الى أو يذكر اسمي

– اغسل يديك ، بسرعة

وعملت ماطلبه مني وتوفقنا بعد جهد في ايقاف النزف . وبدا على كروكشانك الاعياء والانهيار ، وكاد يسقط على الارض ، فحملناه الى غرفة جانبية وهو يهذى ، فابرقنا الى زوجته في بيروت ان تحضر الى بغداد ، ونام كروكشانك بعد ذلك ثمانية وعشرين يوماً في المستشفى ، حليق الرأس ، وعلى رأسه كيس من المطاط ملء بكسر الثلج لتخفيف الصداع والحمى التي كان لاينفك يشكو منهما . ودخلت عليه يوماً اعوده ، فادار رأسه نحوي وقد تدلت شفتاه لتعبر عن ابتسامة باهتة وقال لي بحماقة .

– لابد ان القدر قد خيّب ظنك بعد ان خطط لتاتي وتحمل نعشي فاذا انت تراني قد تجاوزت هاوية الموت بسلام .

وهكذا علمت ان كروكشانك مازال يبقى بحافظته قصة المريضة زوجة ادوارد .

وتحامل كروكشانك على كتف زوجته ليستقل الطائرة الى بيروت . ولم أره بعد ذلك . غير اني رأيت صورة يده وهو يمدها لتلتقط قنينة شراب من احد دكاكين (السوق الطويلة) في بيروت . وكانت صورة يده بريشة فنان كروكشانك ومساعده الاول بالكلية الامريكية ببيروت . وكان كروكشانك ذا معرفة بانواع النبيذ ، وفيما كان يفتش عن صنف معين منها في احد حوانيت السوق الطويلة سقط على ارض الحانوت ليزفر نفسه الأخير ويموت .

زيارة الى سامراء/ ١٩٤٢

لم أتقطع عن زيارة سامراء منذ دراستي في الحلة وفي بغداد وحتى بعد تخرجي في كلية الطب ، ويتضاعف شغفي بزيارتها كلما طالت غيبتي عنها ، على ان اكثر زياراتي وبخاصة بعد تخرجي في الكلية كانت قصيرة وعابرة ، وقد تكون يوماً واحداً أو ليلة واحدة بحسب دوافعي لهذه الزيارة وظروفها ، وتجيء في العادة لمشاطرة معارفي فيها ماعندهم من افراح أو اتراح ، في الأعياد والمآتم . وزرتها في أحد أيام كانون الثاني من سنة ١٩٤٢ بعد غيبة عنها حسبتها طويلة . وكنت قد تمكنت من شراء سيارة مستعملة وصرت اسوقها بمهارة وأمان ، وكان على جانبي الطريق الى سامراء قد تجمعت مياه الامطار فكونت غدراناً كان بعضها واسعاً وعميقا . على مابدا لي ، وقد خاضتها بعض الاغنام والدواب لترتوي من مائها ، أما التي ارتوت فقد اضطجعت على جوانبها باسترخاء فوق الارض المعشوشبة اتماماً لهذه النعمة الوفيرة . وفي اماكن أخرى على طريقي شاهدت بعض المزارعين يعزقون الارض الرخوة الندية ، بمحاريثهم التي تجرها الخيول أو الابقار . وفي السماء الزرقاء الصافية تلوح اسراب من طيور الغربان والزاغ والزرازير ، وهي تخفق بأجنحتها صاعدة لتستروح بالهواء الرطب النقى في اعالي الجو . لقد بدا كل مافي الطبيعة في مباريات لعرض اختصاصه ووظائفه الغريزية ، فكان مشهداً ليس له مثيل في أجواء المدن الصاخبة .

ومررت بمحطات القطار الذي لاينتهي مسيره إلا في الموصل :

محطة قطار البيجي أولًا ، ثم محطة المشاهدة ، وسميكة وبلد والاصطبلات وآخيرا محطة قطار سامراء بقرية القلعة الراقدة على حافة نهر دجلة من الغرب . وقد شيدت جميع هذه المحطات أيام الاحتلال البريطاني ، وهي أشبه بالقلاع التي تتوفر فيها الراحة والحماية من غارات المعتدين . وقريب من هذه المحطات بعض الاكواخ المبنية بالطوب والملبوخة بالطين ، تقف أمامها وحولها سيارات المسافرين وشاحنات للحمل ليتزود اصحابها بالوقود أو للراحة واحتساء الشاي . وجميع هذه الاكواخ متشابهة في طراز بنائها ، فهي ذات باب واحد خفيض وفتحات

صغيرة لاينفذ منها إلا الهواء وصغار الطيور والقطط . وعلى جانبي الباب دكتان من الطين فرشت عليهما حصر بالية، وأمام كل دكة بعض صفائح النفط الفارغة تستعمل وقت الحاجة مقاعد لرواد هذا الكوخ . وفي داخل هذا الكوخ موقد بمستوى محزم الرجل عليه طابع القدم ، وقريباً من ناره المتأججة قوارير الشاي ودلال القهوة . وصاحب هذا (المقهى) ذو سمة متميزة في هذا المكان ، فهو يلبس ثوباً على طول قامته ويشدّه على بطنه بحزام رفيع من الجلد يدس تحت حافته العالية مريلة حمراء لاتخلو من علامات القدم وكثرة الاستعمال .

ثم هناك حول هذه المقهى كلب أوكلبان هزيلان ، وقد بح صوتهما من كثرة النباح وهما يرنوان بعيونهما الرمدة الجائعة ولايكفان عن هز ذيليهما تملقاً لرواد المقهى ليتصدقوا عليهما بفضلات مايأكلون . أما في الليل فواجبهما النباح حين يريان سواد القادمين الى المقهى ، فيخرج صاحب المقهى لاستقبالهم .

وعبرت نهر دجلة بسيارتي على ماكنا نسميها (العبارة) وهي تقطع النهر بقوة جريان الماء على سلك حديدي متين مربوط طرفاه بجابني نهر دجلة . ودلفت الى بيتي القريب من سوق اليهود ، وكانت ثمة صعوبة في قيادة سيارتي في هذا الطريق الضيق .

وحين إقتربت من بيتنا بدأ لي (طاقه) أوطأ مما كنت آلفه قبلًا ، كما بدت الحوانيت التي على جانبي هذا الطريق وكذلك البيوت أصغر حجماً مما كنت أعرفها ، وجدرانها ، أوطأ وكأنها قد هدم منها طابقها الأعلى . لقد بدت لي سامراء وكانني أراها لاول مرة وبصورة جديدة غير التي عهدتها قبل زمان . كما استغربت حين دخلت البيت لصغر حوشه وضيق ماحول حديقته الصغيرة .

وإردت ان أستعيد ذكرياتي في بيوت محلتي التي كنت أعرفها واحداً واحداً وبتفصيل لم يطلع عليه غير صاحب البيت ، وغير بعيد من بيتنا كان بيت احمد الجابر وهو رجل مديد القامة خفيف الوزن لقلة ماعلى عظامه من لحم ، وكنت أذكره وهو يثني على (مصطفى كمال) الزعيم التركي المشهور ، ويتوعد الناس بمجيئه في يوم من الايام القريبة ، وعندها يكون الحساب العسير للعاقين بالوفاء لأمة الاسلام !! ومررت ببيت حاجي حسين الهندريس الذي كان مختصاً ببيع التمر الجسب

والحلّان ، ثم مررت ببيت (مريم الجراد) التي كانت تحمل الماء على ظهر حمارة بتراء زرقاء ، ومن شقوق باب هذا البيت التي صنعها القدم والاهمال رأيت حماراً أبيض اللون يدلى برأسه داخل معلف وطىء ، وهزّ هذا الحمار ذيله مرة ومرتين وأنا أرقبه من خلال شقوق الباب . وقد يكون هذا الحمار ابن تلك الحمارة البتراء التي لابد انها نفقت بعد ان ادت خدمة طويلة لصاحبتها مريم الجراد واعرف ان مريم الجراد قد توفيت ايضاً فاي شيء بقي في هذا البيت لادخله ؟ فتجاوزته لأصل الى بيت الجده (زهرة العلّو) وهي من شهيرات القوابل في سامراء ، وقابلة بيتنا وبيت أعمامي وقابلة اكثر بيوت محلتنا والمحلات المجاورة لها ، وكنت زماناً حين يتردد اسمها أن اسمع بانها قامت بتوليد طفل اعجب أشد العجب بطريقتها في اخراج الوليد من أمه

ودار (زهرة العلّو) فناء واسع ، وكان على مدخله من الجانب الايمن يوم عرفته ، حفرة نصبت عليها (جومة) يحوك فيها ابنها (ويّس) البسط والعبي ، وفوق هذه الجومة أقيمت سقيفة من اعواد الغرب لتحمي ويّس من حر الشمس ، هذا ماكان قبلًا أما الآن فقد طمرت اكثر علائم الجومة بالاتربة ولم يبق منها الا بعض الاوتاد التي كانت يوماً من اجزاء تلك الجومة . لقد مات الذين يعرفون الحياكة (بالجومة) وعما قليل ينسى ماقدمته هذه الصناعة اليدوية من خدمات لعامة أهل سامراء .

وكان على امتداد الجومة من جانبها الايمن غرفتان تنفذان الى الساحة الواسعة المتربة ، وفي وسط هذه الساحة موقد تصنع عليه القهوة في ليالي فصل الصيف . وفي ركن قريب من الحجرة البعيدة تنور تحت سقيفة من صفيحة معدنية . واختلج في خاطري حب لزيارة الجدّة زهرة ، فهي التي استقبلتني الى الدنيا وخدمتني ايام النفاس . ورأيت إمرأة تقف عند التنور وهي تزيد من الحطب في جوفه ، والتفتت نحوي حين سمعت خطاي ، ولم اكن قد رأيتها قبلًا في هذا البيت فلم أعرفها ، فقلت لها

- أريد أشوف الجدة زهرة !
- شتريد منها .

وارتفع صوت من الحجرة الأولى قائلًا :

- منو هذا ؟

وانتبهت الى مصدر الصوت ، كانت عجوزاً تملأ باب الحجرة وتلبس

السواد ، وكل الارامل في سامراء يلبسن السواد حزناً أبدياً على وفاة رب البيت . وعرفتها من بعيد ، هي نفسها الجدّة زهرة العلّو ، والسبحة الخشبية الطويلة تتدلى كما كنت أعرف من رقبتها ، فقلت اناديها :

- جدّه زهرة أنا كمال

وفي سامراء هكذا تخاطب القابلة بلقب (جدّة) حتى لو كانت صغيرة العمر ، إحتراما وتقديراً لما تقدمه من خدمات لامهات البيوت ، فتنسب بهذا اللقب الى شجرة العائلة .

وبان لي ان الجدة زهرة لم تسمعني ، ولم تعرفني من صوتي ، أو لم تذكرني ، وقد وصلت من العمر مداه ، فأعدت عليها اسمي

- أنا كمال

وفي هذه المرة رفعت يدها اليمنى وهي تلم اصابعها الى أعلى عينيها لتقيهما من وهج نور الشمس ، وأمالت رأسها مرتين لتمعن النظر اليّ ، أو لتتاكد انها سمعت باسمي الذي برق الآن في ذاكرتها ولم تفعل غير ذلك ، فتقدمت منها وقلت لها

- جدّة زهرة أنا كمال التوفيق (وهذا هو اسمي قديماً) فقالت وقد خنقت الدهشة حنجرتها

- كمال ؟ يابعد عيوني ، يابعد روحي ، انت كمال ؟

فقلت لها

- جئت أسلم عليك وأسأل عن احوالك فانت عزيزة علينا ، فكيف انت ياجدة ؟

- تسأل عنك العافية يابعد عشيرتي ، يرحم أمك الطيبة . وبدا عليها انها مدفوعة الى ان تجهش بالبكاء . والمسنون ليس ميسوراً عليهم ان يظهروا عواطفهم وبالشكل الذي الفوه في صغرهم ، وهي قسوة إن يحرم الانسان منها وعادت الجدة تحاول البكاء ورفعت طرف فوطتها السوداء باصابعها الدقيقة المرتجفة الى عينيها كما لو أنها تريد ان تمسح بها دمعة تنحدر منها ولكن لم تسقط عنهمادمعة واحدة . والشيوخ مثل الاطفال حديثي الولادة لاتدمع عيونهم اذا بكوا . وسمعتها تطلب مني .

- تعالي ياإبني إجلس أمامي ، أريد ان اشوفك . ان شوفي قليل وسمعي قليل ، وهذا هو العمر.وماكنت احتاج ان تقول لي ذلك فقد تجاوز عمرها التسعين .

وقادتني الى داخل الحجرة التي كثيراً ما دخلتها في طفولتي مع أمي . وهذه الحجرة هي نفسها بلا زيادة ولانقصان ، لانافذة فيها سوى الباب الذي ينفتح اليها ، وبعض الثقوب الزخرفية لتدخل منها طيور السند هند لتعشش في منحنيات اطواق الحجرة ، وكان يوما ما موقد في وسط هذه الحجرة فلم اجد له أثراً ، ولم يبق من معالم هذه الحجرة إلا جدارنها المسودة من اثر الدخان الذي كان يرتفع من حر ق الشوك في الموقد القديم ، فارتفعت بعض ذرات كسائها الجص تلمع كانها قطرات من القطران .

وجلست على حشية بالية أمام الجدة زهرة أما هي فقد قعدت القرفصاء وهي تسند ظهرها على جدار الغرفة وتمسك ركبتيها بكلتا يديها المعروقتين وأدنتهما حتى مستا حنكها من رأسها المتدلى . وساد صمت قصير بيننا . وتساءلت مع نفسى : ماذا يدور في رأس الجدة زهرة في هذه اللحظات ياترى ؟ والى اي مدى تفكر في ماضيها وفي اي افق يفكر المسنون ، وهل باستطاعتها ان تستذكر أحداث ماضيها ؟ فقد يكون الماضي البعيدعندها كالصفحة التي بلي ماكتب عليها بفعل الزمن . كنت هكذا افكر مع نفسي ، فسألتني

- ماذا تقول ياوليدي ؟ لم اسمعك .

ولم اكن قد قلت شيئاً ، وقد يكون قد ظنت ماكان يدور برأسها في تلك اللحظة هو الذي تسأل عنه وسألتني وعلى ملامح وجهها الجعد، ابتسامة فاترة

- سمعت انت (تولّد) النسوان !

- نعم أنا مثلك (جدّة)

ولابد انها سمعتني ، فافترت شفتاها أمام فمها الادرد وقالت

- عشنا حتى نشوف !

وسألتها

- هل اتعبك العمل بالتوليد ياجدة ؟

فأجابتني

- نسيت اذا كنت يوماً قد تعبت ، ولا اعرف الآن ماهو التعب ، وكيف أعرفه وأنا لا أعمل الآن !

وسكتت قليلًا لتقول

- البارحة قادني (جواد الحمامة) لارى كنته التي تطلق ، وهي بكر ، تسمعني ياوليدي ؟

- اسمعك ، نعم أسمعك

- وكان جنينها كبيراً وشكل بطنها لايعجبني فنصحت زوجها ان يطلب الدكتورة (انجيل) ولما فحصتها هذه الطبية نصحتهم ان ينقلوها الى المستشفى . يعني ماقدرت ان تجيبها ، (شطلعت) هي مثلي لم تستطع توليدها ولم تعمل لها مالم اعمله أنا لتوليدها ، وسمعت اليوم انها ولدت بفتح البطن ، وتزاحمت الأفكار في رأسي عما يجب ان أقوله لأنهى زيارتي لها . فنهضت لاقول لها كلمة وداع ولم أر خيرا لهذا الغرض من ان اطبق يدى على يدها وإقبلها بحرارة وصدق ، وغادرت حجرتها .

ووقفت برهة على باب دار الجدة ألقي نظرة على الساحة التي أمام دارها ، ولم تكن ساحة بالمعنى المفهوم ، هي أوسع من الزقاق الاعتيادي اذا إستثنيت التل الترابي الذي يفصلها عن سور المدينة . كم لعبت مع أولاد هذه المحلة لعبة الكرة ، ولكن كيف تكون هذه الساحة كافية لصفين من الاولاد يتقابلان لضرب الكرة بالعصى الطويلة ؟ فهل كانت عصينا وكراتنا صغيرة بمثل احجامنا ليتسع لها هذا الطريق الضيق ؟ كنا نمارس هذه اللعبة في فصل الشتاء فقط ، وبخاصة حين تتلبد السماء بالغيوم لابسبب برودة الجو فلا يتعب البرد اللاعبين ، بل لأن في معتقدات السامرائيين يومئذ ان هذه اللعبة تستدر الامطار من الغيوم المحملة بها . كما تفعل صلاة الاستسقاء . وهي لعبة الاولاد لا البالغين وكان هؤلاء الكبار يقفون صفوفاً وظهورهم مسندة على حيطان البيوت ليشجعوا اللاعبين وعيونهم تتطلع الى السماء في انتظار قطرات المطر منها . كانت زراعة الديم في ذلك الزمان مصدراً رئيساً لعيشة أهالي سامراء ، فلا عجب اذا جدبت الارض من مياه الأمطار ان يلتجيء هؤلاء الى الروحانيات لتساعدهم على انزال المطر فيمارسون لعبة الكرة ، فاذا فشلت هذه الوسيلة يخرجون كباراً وصغاراً الى فناء (جامع الملوية) يقيمون صلاة الجمعة ثم يتوسلون الى الله برؤوس حاسرة وايد مرفوعة الى السماء يسترحمونه لحالهم وحال دوابهم ومزارعهم . ولاازال اذكر يوماً بالذات ، كان فيه مشهد غريب ليس له نظير فيما تلاه من أيام الاستسقاء . كانت الدعوات تتعالى من افواه الناس بمايشبه الصراخ من الألم ، أو طلب

النجدة ، فتتصلب الوجوه وتتشنج الاطراف وتمتلئ المآقي بالدموع . كانت هذه من ذكريات الماضي . كما تذكرت وأنا أعبر بيت الشيخ (وهيب) حيث تقام في هذا البيت اجتماعات ينقر فيها على الرفوف لضبط الترتيل بمدائح الرسول محمد (ص) ويتقمص مريدو هذا الشيخ روحاً تؤمن بالكرامات فتضرب رؤوسها بجدران (التكية) وتبقر بطونها بالحراب . وبينما وقفت هنيهة عند باب هذه التكية اتطلع الى مابقي في داخلها من معالم تلك الايام واذا بشاب يقابلني عرفته من اول نظرة ، وكيف انساه ؟ هذا هو (جهاد) معوّق المحلّة وهو مسالم لايؤذى وسألته

- عرفتني ؟
- انت كمال التوفيق ، شلون يونس التوفيق ؟

ويونس هو ابن أخي وليس أخي

- انت شلونك ؟

ولم يجبني بل سألني

- وين سيارتك ؟
- بالكراج
- هي أم الطبشى ؟
- هي فورد .

وكان يعرف هذا الاسم يوم دخلت اول سيارة في سامراء وكانت من نوع فورد ، فيتجمع حولها الاولاد يتلمسون اطاراتها ومفاتيح أبوابها ، ويمدون اعناقهم الى داخلها ، وكان جهاد اكثرنا شغفاً بهذه السيارات رغم ندرة ظهورها في سامراء ، فاذا اعجبته واحدة منها قال انها (أم الطبشى) والطبشي في سامراء حصى دائرية رقيقة بشكل القرص ، كنا نقذف بها بطريقة خاصة على سطح ماء النهر فيسهل انسيابها عليه مسافة قبل ان تغور الى قاعه . ولابد ان جهاد قد شبّه مسير السيارة على الارض بانسياب حصى (الطبشى) على سطح الماء .

وعدت الى بغداد بعد ليلة حافلة بمقابلة الأهل والاصدقاء .

لورد موران في بغداد لتقييم مستوى كلية الطب/ آذار ١٩٤٢

برز اسم الدكتور اللورد موران من بين اسماء اطباء انكلترا اثر تعيينه

طبيباً خاصا لرئيس وزراء المملكة المتحدة المستر تشرشل . ولم اكن قد سمعت أو قرأت عن اللورد موران قبل ان أراه في بغداد ، وكان الاستاذ هاشم الوتري عميداً لكلية الطب فدعاه الى بغداد لتقييم درجة مستوى الدراسة في هذه الكلية . واقيمت للورد موران حفلات حضرت منها حفلة وزارة الخارجية في بهو الامانة ، والدعوة التي ذهب اليها في مديرية الزراعة العامة في ابي غريب برفقة مرافق الوصي عبد الاله الزعيم عبيد عبد الله المضايفي . وقبل ان أدخل بهو دائرة الزراعة سمعت من يتكلم بالانكليزية بصوت أجش حسبته صوت هيئة الاذاعة البريطانية في الراديو لا صوت انسان . وحين دخلت بهو الدائرة طلب مني الاستاذ هاشم الوتري ان اتقدم لأحيي اللورد موران الذي وضح لي حالًا انه كان هو المتكلم الذي حسبته اذاعة بريطانيا ، وتصافحت معه وأنا اشعر ان يدى قد اختفت كلياً بين قبضة يمناه المكتزة اللينة ، على ان ابتسامته بوجهي كانت صريحة ومريحة ، كان جسمه ممتلئا ووجهه منتفخاً . وشعرت حالًا انني بتحيتي للورد موران قد قاطعته وهو يتحدث الى من كان معه عن علاقته بصديقه تشرشل وبحب الاستطلاع احببت ان اعرف بداية حديثه . وكان كل ماسمعته منه : ان تشرشل انقذ صديقه مكتشف البنسلين (فليمنك) من الغرق ، وبالمقابل انقذ فلمنك صديقه تشرشل من الموت حين اصيب بذات الرئة . وانتهزت الفرصة وسألت الاستاذ هاشم الوتري عن اول حكاية اللورد موران فقال لي ان فلمنك وتشرشل كانا في صباهما صديقين ، وفي يوم كان يسبحان في البحر قريبا من مدينة (انجل چرج) بجنوب انكلترا فاوشك فلمنك ان يغرق في اليم فانقذه تشرشل ، ولما أصيب تشرشل بذات الرئة حين كان في مصر أيام الحرب العالمية الثانية ابرق لورد موران الى فلمنك في لندن ليحضر الى مصر لمعالجة تشرشل بدوائه الجديد (البنسلين) وبهذا برىء تشرشل من مرضه ، فقال تشرشل لفلمنك ، توافينا ياصاحبي (واحدة بواحدة) .

والمهم في نتيجة زيارة اللورد موران لكلية الطب، انه اقترح على الجمعية الطبية البريطانية تأجيل الاعتراف بكلية طب بغداد الى مابعد ثلاث سنوات تستكمل فيها الكلية مستلزمات التعليم والبحث العلمي .

حفلة في حدائق بهو الامانة على شرف وندل ولكي ١٩٤٢/

في يوم ١٤ ايلول من سنة ١٩٤٢ ، والعراق والعالم ايضاً تحت ضغط نفسي خانق باحداث الحرب العالمية ، أقام الدكتور سندرسن عميد كلية الطب حفلاً ساهراً في حدائق بهو الأمانة خصص ريعه للمجهود الحربي ، وهو يدرك انه لايحصل من بطاقات هذا الحفل على مايناسب مصاريف بريطانيا التي بلغت يومئذ ستة عشر مليون پاون في اليوم الواحد ، إلا انه عدها مشاركة رمزية فاهتم لها سندرسن كما اهتم لها عموم الانكليز في بغداد . وقد نصبت في ذلك اليوم منصة خشبية خصصت للفنانين والفنانات ليثيروا روح المرح والتعبير عنه بالرقص الشرقي والغربي . وقد حضر الحفل كثير من كبار موظفي الدولة ووزرائها ، ومن دوائر الهيئات الدبلوماسية . وكان يبدو على الدكتور سندرسن الفرح والسعادة بنجاح هذا الحفل . كما بدا عليه انه ينتظر قدوم ضيف كبير ، وفجأة أسرع لاستقبال ذلك الضيف وهو وندل ولكي مندوب الرئيس الامريكي روزفلت الى الشرق الاوسط ، وتقدما معاً يسلكان طريقهما بين طاولات المحتفلين . وقد بدا الدكتور سندرسن الى جانب ضيفه وندل ولكي اكثر لياقة وأطول قامة . وبعد دقائق محدودة دخل نوري السعيد وكان يوم ذاك رئيس مجلس الوزراء . وكنت أنا والدكتور نصرت عبد الحميد والدكتور كمال نور الدين والدكتور اسماعيل ناجي حول طاولة صغيرة على طرف ثيّل الحديقة . ومرّ نوري السعيد بطاولتنا وهو يتجه الى طاولة وندل ولكي التي كانت في عمق الساحة . وكان من عادة نوري السعيد ان يكون مرحاً واجتماعياً في مثل هذه المناسبات ، ولاينسى قط ان يستغل الفرصة للتحدث الى من يعرفه في الاجتماعات التي يحضرها ، فرشقنا بتحية عابرة يقول

- حيا الله الشباب

فاجبناه ونحن نقف له بمثل روحه المرحة :

- تفضل پاشا ويّانا

فاجابنا بمافيه معنى النكتة السريعة :

- عزمتي قبلكم استاذكم دقتور سندرسن ، شكراً .

ورأينا أرشد العمري يتقدم من نوري السعيد ، وسمعنا نوري السعيد يقول

له بمايشبه العتب :

- ارشد بك ، الم نقل نحضر الحفل بسيارات محدودة فيشترك اكثر من إثنين بسيارة واحدة لنوهم وندل ولكي أننا في عجز بوسائط النقل فيزيد حصة العراق مما تصدره امريكا من السيارات ؟

فأجابة ارشد العمري

- پاپاشا أنا عممت على الدوائر عامة ان تستعمل سياراتها الحكومية اثناء وجود وندل ولكي في بغداد ، كما نشرنا بين سائقي سيارات الأجرة ان يوقفوا سياراتهم في الشوارع الفرعية لا في الشوارع الرئيسة ببغداد ، بقى أش أعمل اكثر ؟

فقال له نوري السعيد ، وكانه يدافع عن نفسه :

- سيارتي عتيقة وليس فيها مايليق برئيس الوزراء إلا رقمها الصغير (٢٠ بغداد) ، وسوف لايعيرها وندل ولكي نظرة خاصة .

واتجه نوري السعيد نحو منضدة الضيف وندل ولكي ، وكان يحف به عدد من الاجانب والعراقيين .

وشاهدت هذا الضيف يرفع يده عالياً ليرشد نوري السعيد الى مكانه ، ولما وصل طاولته قام له من كان حول الطاولة بما فيهم وندل ولكي ، الذي شرع يتحدث معه وهو جالس في مكانه ورأيته يكثر من حركات يديه وهو يقهقه مما يدل على انه إنهمك في نقل خبر او فكاهة اضحكت نوري السعيد . وحين همّ نوري السعيد ان يغادر طاولة الضيف وقف له وندل ولكي ، وابتعدا معاً عن الطاولة ، ثم وقفا بعيداً عن حشد الناس . ورأيته يتكلم مع نوري السعيد باهتمام ، وبعد بضع دقائق عاد وندل ولكى الى طاولته بينما غادر نوري السعيد الحفل . ويحتمل ان يكون الضيف في هذه المقابلة بالذات قد سبر ذكاء نوري السعيد كمحاور سياسي فقد ورد في كتابه الذي سماه (عالم واحد) (ان لنوري السعيد نظرة فاحصة مؤثرة ، وهو بالتاكيد من أدهى الرجال الذين قابلتهم في حياتي)

ورأيت بعد ذلك وندل ولكي يغادر طاولته ويصحبته واحد ممن كانوا معه حول الطاولة ، وقد يكون هذا من موظفى السفارة الامريكية ، وصار يتنقل بين الطاولات ، وهو يوزع ابتساماته وكلمات الشكر ، ثم وقف على طاولة بعض الصحفيين ، واستغربت حين أخذ كرسياً واطال البقاء مع هؤلاء ، وأنا اسائل نفسي في اية لغة كانوا يتفاهمون ، ولما رأيت من كان

بصحبته يشاركهم في الكلام عرفت حينئذ ان ذلك ألشخص كان يقوم بالترجمة فيما بينهم . وكانت طاولة هؤلاء آخر طاولة غادرها من كان في هذا الحفل .

ماتت قبل نصف قرن ولازال اراها تنظر الي باستغاثة/ ١٩٤٢

هذه المريضة هي ابنة صاحب الدار التي استأجرتها في محلة القشل . وقد رأيتها لأول مرة بعد قرابة ثلاث سنوات من تخرجي في كلية الطب ، وبالتحديد في الاسبوع الذي انهيت فيه اقامتي بشعبة الولادة في المستشفى الملكي ، وكانت قد تزوجت حديثاً ، ولم أرها بعد ذلك إلا في عيادتي بمحلة القشل وقد حملت الى في محفة . شابة في مطلع العقد الثالث من عمرها شمعية السحنة ، واسعة العينين باستكانة لابتحد . ولم يكن نبضها سريعاً ، وضغطها بحدود الارتفاع الطبيعي . ونصحت ذويها بنقلها الى المستشفى الملكي . فكانت هناك في حوالي الساعة السادسة مساء ، وبحكم علاقتي بأبيها صاحب الدار التي استأجرتها منه فقد اوليتها اهتماماً خاصاً ، فبقيت في المستشفى لأعمل من اجلها ماأستطيع عمله ، ووقفت حيالها وأنا افكر فيما يمكن ان تكون حالتها المرضية . والح علي احتمال حمل خارج الرحم ، أو نزف بطني جراء سبب آخر ، غير ان نبض المريضة لم يكن سريعاً ، وأمرت بوضعها تحت المشاهدة ، وقياس النبض وضغط الدم كل ساعتين ، ولا ادرى لماذا ابقيتها في الردهة النسائية ، فقد تكون حالتها جراحية ، أو بسبب مرض باطني ، كان الفصل صيفاً ورؤساء الاقسام خارج العراق في عطلتهم السنوية ، فاتصلت بالجراح (م .ص .ع) في الردهة الثانية عشرة ولم يتوصل الى تشخيص الحالة ، ورأى ان تستمر على مراقبة التطورات عن طريق الفحوص السريرية ، وهممت ان أغادر الردهة الى بيتي معتمداً على الممرضة التي خصصتها لمراقبة هذه المريضة ، واعطيت تعليماتي لها بموجب ذلك ، وقد كانت المريضة خلال الساعات الثلاث التي كنت فيها الى جانبها أو قريباً منها ساهمة لاتشكو من شيء غير ان عينيها لاتكفان عن نظرات الاسترحام، فلما رأتني أودعها الى بيتي قالت باستعطاف

عميق : لاتتركني يادكتور ، فتسمرت في مكاني عندما سمعت هذا الرجاء ، وقلت لها لن اتركك أبداً . وكان ذلك آخر مادار بيني وبينها فقد اسلمت الروح عند بزوغ الشمس في اليوم التالي وأنا اغالب النعاس على كرسي بجانبها ، والله تعالى يعلم كم آلمتني حالتها وهي تزفر آخر روح فيها . وكانت أمها العجوز تقعد كومة على بلاط الارض عند رأس سرير ابنتها ، فلما رأتنى اغطى ابنتها (بالشرشف) حتى قمة رأسها حدست ماحدث لابنتها فنهضت وارتمت على صدر ابنتها الميتة واجهشت بالبكاء بحرقة وألم .

لا أنسى هذه الحالة المرضية ، واذكرها كلما رأيت حالة مشابهة لها ، وفي صدري اعتقاد أننا لم نعمل لها مايكفى لانقاذ حياتها ، كان يجب ان نعمل شيئاً آخر . غير ماعملناه لها ، ولا اعرف ماهو ذلك الشيء ، غير أنني اعرف يقينا اننا اغفلنا الشيء المهم في موضوع علاجها . كما نقمت على أطباء المستشفى الكبار لانهم لم يراعوا ضرورة وجود بعضهم عندما يسافر البعض منهم ، فينظموا عطلاتهم بموجب ذلك

في مستشفى ميرالياس/ ١٩٤٢

في صباح يوم ٢٨/٩/ ١٩٤٢ زارني ناجي افندي سكرتير الحاخام ساسون خضوري في عيادتي ورجاني باسم الحاخام ان ازور الحاخام بمكتبه في (عقد الجام) قرب سوق الشورجة . وفي تمام الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة التالية كنت حسب وعدي في مكتب الحاخام ، فاذا هو بعمر الخمسين تقريباً ، بغدادي الملتقى بعباراته التقليدية التي استقبلني بها ، وحين نهض عن كرسيه تقدم مني بنشاط وشدّ على يدي بقوة . ولم يبد لي في تلك اللحظات رجل دين كما توقعت . كان حاسر الرأس وفي ثياب بيتية متواضعة . وقادني من يدي الى كرسي بجانبه وهو يقول بعد ان وضع عويناته على قصبة انفه :

– مرحباً بك يادقتور ، وقد دعوتك لاتعرف عليك ، فالثناء عليك اسمعه في كثير من المناسبات ومن مختلف الطبقات ، من المسلمين واليهود على السواء .

وقد بدا لي هذا الاطراء صميمياً فقلت له :

- من سروري ان ازورك وأتعرف على حضرتك ياأبا زهير . وكان ينصت الىّ باهتمام وكأنه يريد مني المزيد مما اقوله . ونادى على شخص رأيته حين كان يجلس على كرسي عند باب مكتب الحاخام

- قهوة ياهارون

والتفت يقول

- قهوتي عربية ، وهارون يحسن عملها ، وأنا افضلها على القهوة التركية .

ورأيت حينذاك ان اعرف ماوراء دعوته لي ، فقلت له

- حاخام ساسون أنا بخدمتك الآن .

فقال لي وهو يبسط كف يمناه على صدره الوسيع

- خادم ربك ياولدي (ثم اردف) الحقيقة ان مدير مستشفى ميرالياس (مير افندي) طلب مني ان اكلفك بالعمل في المستشفى بالامراض النسائية والولادية .

وبدا طلبه غريباً ، لانني كنت اسمع من الاستاذ كروكشانك ، ان في مستشفى ميرالياس طبيبة لحالات الولادة ، وطبيب للحالات الجراحية فقلت للحاخام مستفهماً :

- أليس في المستشفى طبيبة وطبيب لهذه الاعمال ؟

فأجابني

- نعم في المستشفى دقتورة (توكار) ودقتور (صوصمن) ، ومع ذلك فلجنة إدارة المستشفى تطلبك بالذات ياإبني ، وواجب عليّ ان اعرض طلبها عليك دون الاستفهام منها عن السبب وهي ادرى مني به (وتبسم واضاف) ان طلبها مفخرة لك لم ينلها غيرك يادقتور . وبالمناسبة سيكلمك مير أفندي عن أجور اتعابك ، وهذا من اختصاصه ، على اني متأكد انه سيرضيك ، والمستشفى كما تعلم خيري في الدرجة الاولى ، والأجر من الله لامن عطاء العباد .

وفي اليوم التالي كنت في دائرة مدير المستشفى مير افندي . وهذا الرجل في العقد الخامس من عمره ، أمي لاثقافة له إلا بالمتابعة والسماع ، ولا أظنه يقرأ الجريدة دون أخطاء . وفي حديثي الذي لم يطل اكثر من نصف ساعة استطعت ان أسبر غور ذكائه وحرصه على مصالح المستشفى .

وغادرت مكتبه وأنا راضٍ من بنود عملي معه وأجورها وزيادة .

وصار الاتفاق فيمابيني وبين ادارة المستشفى ان اعمل يومين في الاسبوع . وقد اطلعت بيسر وسرعة على بعض شؤونه الادارية والطبية ، كما أفادني مير افندي عن تأريخه وحاضره ومن عمل بهاتين الحقبتين ، واختصر ذلك بمايلي

اسس اليهودي الثري ميرالياهو الياس مستشفى ميرالياس في أواخر العهد العثماني في العراق ، على أرض واسعة في منطقة العيواضية تمتد من مقبرة الاتراك بهذه المنطقة جنوباً حتى قضبان السكة الحديد شمالاً . وقد شيد هذا المستشفى على طراز المستشفى الملكي (المجيدية) : (طارمة) طويلة جداً تواجه الشمال بحدود مائةوعشرين متراً تنفذ اليها ردهات المرضى العشر . ولكل ردهة مرافق صحية على الطراز الشرقي .. وبين مدخل المستشفى من الشمال والطارمة الطويلة مجمع لادارة المستشفى قوامه غرفة للمدير ، وغرفة لاستراحة الاطباء ، وغرفة لصيدلي المستشفى .. وفي مدخل المستشفى بناية بثلاث غرف للعيادة الخارجية . وجميع هذه الابنية قديمة وأسبق من اي موظف في المستشفى .. ولأن طرازها ومخططها تقليد للمستشفى الملكي فهي باحتمال كبير قد شيدت بعد المستشفى الملكي . أما الابنية الجديدة التي اضيفت الى المستشفى القديم فيعود تأريخها الى مناسبات حديثة . وقوامها ثماني غرف توازي طارمة المستشفى من جهتها الشمالية . ولم تشيد هذه الغرف في زمن واحد فحين تقدم المستشفى خدمات ملموسة ، يتبرع الموسرون بما يقوّم بناءها أو حين يتوفى أحدهم فيبني ورثته غرفة على نفقتهم ويضعون على مدخلها شاهداً من المرمر يذكرون فيه اسم المتوفى الذي بنيت بأمواله . أما المختبر الذي شيد في الحديقة المقابلة لدائرة الادارة فقد أقيم بعد ان أبرمت ادارة المستشفى عقداً مع الدكتور (ملز) ليكون طبيب المختبر الباثولوجي في هذا المستشفى .

وكان مدير المستشفى الطبي حين التحقت بالمستشفى من خريجي كلية طب بيروت لم اقابله يوماً مدة عقدي في المستشفى . أما مدير الادارة والاعاشة فهو مير افندي الذي ذكرته سابقاً .

وكان جل اطباء المستشفى من الالمان الذين هربوا من هتلر في مطلع الحرب العالمية الثانية ، وابرزهم الجراح صوصمن والمخدر شتراوس ثم

التحقت بهم الدكتورة توكار . وقد أصيب صوصمن اثر وصوله الى بغداد في سنة ١٩٤٠ بمرض الجدري فتشوه وجهه الجميل بآثار هذا المرض .

أما هيئة التمريض فترأسها الممرضة رينة اسحاق ، وكانت عانساً في الاربعين من عمرها وهي من أهل البصرة وقد درست التمريض ومارسته في بمباي بالهند ، كما انيطت بها صالة العمليات .. وهي نشطة وبارعة في تصريف أمور المرضى والممرضات التي توكل اليها .

وثمة شخصية أخرى في مستشفى ميرالياس وهي مدام ساسون ، وساسون هذا غير الحاخام ساسون . ومهمة هذه المراة الاشراف على التبرعات التي تجبيها من فقراء اليهود الذين يجلسون للاستجداء في طرقات بغداد وخصوصاً في عقد الجام وعقد التوراة . وكان على كل من هؤلاء الفقراء ان يدفع لها إسبوعياً درهماً واحداً .

وهذا درس لمن له بصيرة .

اول عملية جراحية في مستشفى أهلي/١٩٤٣

في مساء يوم الثاني عشر من تشرين الأول سنة ١٩٤٣ دخلت عيادتي سيدة بعمر الثلاثين تقريباً ، متزوجة منذ ثلاث سنوات ولم تنجب وهي وراء ولد من صلبها . وكانت عادتها الشهرية غير منتظمة وقد تكون غزيرة في احد الأشهر . وتبين لي بالفحص انها مصابة بورم ليفي في رحمها أكبر من حجم الرحم نفسه ، وسألتني

– وهل هذا الورم هو سبب عدم الحبل ؟

فتذكرت إجابة استاذي كندي على مثل هذا السؤال ، فقلت لها :

– هذا الورم هو بالتأكيد سبب النزف الدموي غير الاعتيادي ، وربما هو ايضاً سبب عدم الحبل

فقالت

– يعني ليس اكيداً انه سبب عدم الحبل ؟

فقلت لها

– اذا استثنينا حالة زوجك ، والاسباب الأخرى التي تمنع الحبل فان قلع هذا الورم يجعلك بحالة طبيعية ومهيأة للاخصاب .

ولما رأيتها مترددة وتائهة بين ان تخضع لرفع الورم ، أو تمتنع عنه قلت لها .

- لقد مضى على زواجك كما تقولين ثلاث سنوات ولم تنجبي ، فوجود الورم هو باحتمال كبير سبب عدم الانجاب ، فهل تفضلين الاحتفاظ بالورم ومايسببه من نزف دموي أم التخلص منه ومن انزف مع احتمال الحبل ؟

فأجابتني بعد لحظات من التفكير

- طيب ، أوافق ان تجري لي عملية رفع الورم (ثم سألتني مستدركة) والرحم ؟ أريده ان يبقى باي حال

- نحن وراء الحبل ، فكيف نقلع الرحم !

ومع ذلك استدركت لآخذ حذري وقلت لها :

- يستبان مايجب عمله بعد فتح البطن .

ثم قالت لي

- افضل العملية ان تكون في مستشفى ميرالياس ، ولم يكن في بغداد يومئذٍ إلا مستشفى أهلي ميرالياس ، وهو مؤسسة يهودية ، والمريضة يهودية أيضاً ، فلم تكن رغبتها بهذا المستشفى مفاجأة لي بل احراجاً ، فلم اشتغل قبلاً في هذا المستشفى ، وكنت اسمع ان جميع اطبائه من اليهود الألمان الذين هربوا من بطش هتلر . والطب الالماني يومئذٍ له سمعة داوية في بغداد ، ولذلك تهيبت ان أعمل في هذا المستشفى ، وفضلت ان اجري العملية على هذه المريضة في المستشفى الملكي حيث اعتدت ان اعمل بحرية وسيطرة .

فقلت لمريضتي

- لماذا لاتكون العملية في المستشفى الملكي ، وستكونين فيه قريبة مني فلا يفوتني ان اراك اكثر من مرة في اليوم ؟

ويبدو انها ظنت انني سانقاد الى رغبتها لو لوّحت لي باجر مجز ، فقالت

- ادفع لك كل ماتطلبه عن اتعابك !

وهذه ملحوظة أخرى لم ترد على بالي حتى لو آن أو انها ، فلم أعتد قبلاً أن اطلب او اخذ من يد مريضة في المستشفى الملكي أجراً عن اتعابي معها نقداً او عيناً ، فقلت لها :

- انها ليست قضية اجور

فأجابتني لتحسم موقفي معها :
– انا رتبت كل مايقتضي لدخول مستشفى ميرالياس .
وسألتها لامستغرباً بل لأتعلم منها طريقة احالة المرضى الى المستشفى .
– كيف رتبت ذلك ؟
فأجابتني .
– انا اعرف رئيسة الممرضات في المستشفى .
ورأيت الأمر قد حسم بغير ارادتي وبغفلة مني ، غير اني قبلته بسكوت ورضا . فلأجرب نفسي في عملية بغير المستشفى الملكي ،. فقلت لها
– حسن ادخلي المستشفى الذي تريدينه .
وبعد ساعة او اكثر قليلاً ، وصلني نداء تلفوني يسأل
– الدكتور كمال السامرائي ؟
– يتكلم
– أنا (رينة) رئيسة الممرضات بمستشفى ميرالياس ، وصلت المريضة ، وسنفحص ادرارها ودمها اليوم بعد الظهر ، هل تريد شيئاً آخر ؟
– لا ، عندي معلومات كافية عن هذه المريضة
– في اي وقت تريد العملية ؟ بكرة سبت ، يوم الأحد ؟
– في أي ساعة يوم الأحد ؟
– الثالثة بعد الظهر ؟
– حسن ، إتفقنا .
وأعدت سماعة التلفون الى موضعها ، ولم أرفع كفي عنها ، رحت أفكر : هذا أول نداء تلفوني من نوعه في حياتي ، عن اول عملية جراحية أجريها في مستشفى خصوصي ، وسحبت كفي عن آلة التلفون وأنا اتمنى ان يعرف كل الناس ان لي موعداً عن عملية في مستشفى ميرالياس . وفي الوقت المحدد كنت أمام رينة في هذا المستشفى . رأيت هذه الممرضة لأول مرة : طويلة ، نحيلة الجسم ، سمراء بعينين براقتين يقظتين ،
– انت الدكتور كمال السامرائي ؟
– نعم أنا كمال السامرائي .
– ظننتك اكثر عمراً ، ولو ان الشعرات البيض في رأسك لاتعني لي شيئاً .
(ثم قالت) هيا الى صالة العمليات . وفي هذه الصالة قادتني الى غرفة

صغيرة جانبية وهي تقول :
- هنا تستطيع ان تغيّر ملابسك ، وملابس العملية على هذه المنضدة .
وخرجت من هذه الغرفة لأجد أمامي رجلًا كبير العمر يرتدي صدرية طبية ، واسرعت رينة وهي لم تكمل بعد ارتداء ملابس العمليات وقالت تخاطبني
- هذا هو الدكتور (شتراوس) ، مبنج المستشفى .
ورأيت الرجل في العقد السابع من عمره ، ذو انف معقوف وشفاه رطبة تنفرج زاويتها اليمين لتنحدر منها رغوة من لعابه . وغادرني الرجل ليغيّر ملابسه . ودخلت أنا غرفة صغيرة لغسل الايدي وفركها بالفرشاة قبل الدخول الى صالة العمليات . كانت (رينة) الى جانبي هي ايضاً تغسل يديها وتفركها بالفرشاة . وبدا لي منذ هذه اللحظات انها ثرثارة ، محبة للاستطلاع بشغف .
وسألتني
- اين عيادتك يادكتور كمال ؟
- في الميدان ، بعمارة الجيبه‌چي
ثم قالت لمجرد أن تتكلم معي
- عندكم مركريت في صالة العمليات بالمستشفى الملكي ، وزريفة في ردهة الولادة (ثم اردفت تقول) بالمناسبة أنا قابلة ايضا الى جانب عملي في صالة العمليات . وكنت قبلًا مولدة في المستشفى الملكي بالبصرة ، أما بداية خبرتي الأولى فكانت في بومبي بالهند ، وهناك تعرفت على الممرضة مركريت ، (وبعد قليل من الصمت قالت) اذا عندك مريضة للعمليات فسأهتم بامرها بشكل خاص اذا ادخلتها هذا المستشفى .
وسألتها
- ومن هي طبيبة الامراض النسائية والولادية في هذا المستشفى ؟
- هي دكتورة توكار المختصة بمعالجة هذه الحالات .
- سمعت عنها من المريضات اللواتي يراجعنني
- هي إمراة متقدمة في العمر ، ودكتور (صوصمان) يساعدها ، والحقيقة هو الذي يجرى العمليات وهي تساعده لترضي المريضة أو ترضي أهلها .
وفهمت ماذا عنت بهذه العبارة الأخيرة ، وهو متوقع ان لاتستطيع الطبيبة العجوز ان تنهض وحدها بالعمليات الجراحية أو الولادية

المتعبة . وقد تقول لأهل المريضة وللمريضة انها هي التي انجزت العملية ، وكيف يعرفون انه غير ذلك ولا أحد منهم يدخل صالة العمليات ؟

وهذا بالضبط ماشارت اليه ممرضة العمليات رينة .

وقد اكتشفت منذ اللقاء الأول مع هذه الممرضة كم هي ذكية ونشطة ، وغامضة لمنفعتها !

وحين دخلت صالة العمليات ، حصرت افكاري لاستذكر اسلوب استاذي كندي في مثل هذه العملية بالرغم من أنني قد اصبحت الى حد ما كفوأ لانجازها ، واستحضرت نفسي ان تكون خطواتي فيها نظيفة ، وسريعة وهادفة بما في ذلك شق جدار البطن ودفع لفائف الامعاء بالشاش الى أعلى البطن ، ثم القاء نظرة فاحصة على اعضاء الحوض ، ووضع خطتي في العمل قبل الشروع فيه . وتم ذلك كما اردته ان يكون . وابدت رينة إعجابها بعملي ، وقالت مرائية أو صادقة

– سأطلب من الدكتورة توكار والدكتور صوصمن ان يشاهدا حركات أصابعك في الحوض ، في العملية التالية .

وغادرت المريضة المستشفى في اليوم الخامس بعد العملية ، وفي مساء هذا اليوم كلمتني رينة على التلفون تقول

– المريضة تخرج هذا اليوم ، وحالتها جيدة .

– جيد .

– وأجورك ؟ كم تريد من المريضة ؟

وترددت قليلًا ثم سمعتها تقول باستفهام

– ثلاثون ديناراً ؟

– كما ترين .

وكان مستشفى ميرالياس يومئذٍ يأخذ ٢٠٪ من أجور الجراح . وفي اليوم التالي دخل خادم المستشفى الى عيادتي الخاصة وسلمني مظروفاً فيه قائمة باسم المريضة واجرة العملية واستقطاع ستة دنانير حصة للمستشفى ومع هذه القائمة أربعة وعشرون ديناراً .

لقد كان هذا المبلغ أول أجر اتقاضاه من مريضة عن خدمتي الجراحية لها ، أو هي بداية لكثير من أجور العمليات التي أجريتها في هذا المستشفى بعد ذلك . وسيجيء كلام كثير في مايأتي عن (رينة) ونشاطها

(*) سقطت كلمة (عدالة) ويقتضيها السياق. انظر ص ٥٢ آخر المقالة. سرمد

الاجتماعي والطبي.

رأيت (*) عدالة الله بعيني/ ١٩٤٣

استدعتنى في مطلع شهر شباط من سنة ١٩٤٢ ممرضة في مستشفى ميرالياس اسمها (ڤيوليت) لفحص أختها التي رقدت تواً في هذا المستشفى وهي تشكو من الم حاد في أسفل بطنها. وتبين لي بعد الفحص ان اختها تحتاج الى عملية مستعجلة لرفع كيس مبيض ملتوٍ. وانجزت هذه العملية بعد قليل من إكمال الفحوص المختبرية.

وصارت الممرضة ڤيوليت تتولى خدمة اختها المريضة الراقدة في الردهة وتمريضها، فتطعمها وتسقيها وتسمر معها بعض ساعات الليل. وكنت ازور هذه المريضة مساء كل يوم بعد ان انتهى من اعمالي في عيادتي الخصوصية ببغداد، فاذا قصدت داري في منطقة الصليخ دخلت مستشفى ميرالياس وأنا في طريقي لاطلع على حالة هذه المريضة وإعطي تعليماتي الجديدة الى أختها ڤيوليت المسؤولة عنها، وبعد يومين لم أجد ڤيوليت الى جانب أختها، بل كانت في مكانها عجوز نحيفة العود ملمومة الجسم، معروقة الوجه، ولحظة واجهتها بادرتني تقول لي

- انا أم المريضة وقد حضرت لأساعد اختها ڤيوليت في مداراة اختها المريضة (ثم إستدركت تقول) أنا أم رحمين صديقك. وصرت بعد ذلك أرى هذه العجوز في كل مساء أزور مرضاي في هذا المستشفى، فأجاملها بحديث قصير لم يلبث ان ربطنا بألفة. وأنا بطبيعتي أميل الى مجالسة كبار السن والتحدث اليهم، من النساء أو الرجال. فاستمتع باحاديثهم التي كثيراً ما أجد في بعضها غير مانصفه بالهذر والخرف. وصارت تنتظرني هذه العجوز مساء كل يوم وتستحضر لي كرسياً مريحاً وبعض الفاكهة والحلوى. وتجلس أمامي على بلاط الردهة، رافعة ركبتيها لتريح عليهما حنكها المدبب النحيل لتقص على مافي جعبتها من اخبار وحكايات. وسرعان مابدا انها كانت تستحضر لي قصصها مثلما تستحضر لى طبق الفاكهة من نوع جيد وشهي. ولم تكن جميع قصصها ذات معنى،

ولكنها كانت في جملتها ممتعة أو غير مملة بالاقل . واذكر من حكاياتها يوم كنا نتحدث عن غلاء المعيشة في بغداد ، انها اتخذت موقفاً وهي تسرد لي الحكاية وكانما تهدف منها الى حل مشكلة هذا الغلاء ، قالت وهي تتأوه .

- رحم الله أيام زمان

وسكتت

واعرف انها تريدني ان استحثها على مزيد من الكلام عن الغلاء فسألتها

- ماذا عن ذلك الزمان يا أم رحمين ؟

فاجابتني تقول

- كان ذلك في أيام (الترك) حين حصل القحط في العراق ، فابرق الوالي الى الباب العالي في استانبول يعرض عليه الأمر وخطورته ، فأجابه الباب العالي .

- أفتحوا مخازن الحبوب والعلاوي (للفرهود)

فعمل الوالي بذلك ، ولم يمض يومان بعد ذلك إلا ونهبت جميع مخازن المؤن وحصل الأهالي على حاجاتهم منها بالمجان .

فتخابثت مع صديقتي أم رحمين وسألتها .

- وهل كان نصيب اليهود من هذا الفرهود مثل غيرهم من المسلمين ؟

فأجابتني بحسم وتعالٍ :

- ان اليهود لم يشتركوا في ذلك الفرهود

وسألتها

- وهل صبروا على الجوع

فأجابتني بتباه

- كانت الحنطة وغيرها من المؤن تصل الى بيوتهم بأمان وانتظام .

وسكتنا

وفي يوم لاحق جئت كعادتي الى المستشفى ، ورأيت المرضة ڤيوليت الى جانب أختها بدلا من أم رحمين ، كما لاحظتها تلبس السواد وعلى وجهها حزن عميق ، وفي عينيها آثار الدموع ، فقلت لها

- ماالأمر ياڤيوليت .

فاجابتني وهي تجهش بالبكاء

أمي ماتت !

وماتوقعت قط هذا الجواب ، وكانت في الليلة الماضية انشط مني وأطول لساناً ، وسألتها

- توفيت بالسكتة ؟

فأجابتني

- احترقت

وهنا ازداد تعجبي ، وصار المجال واسعاً للسؤال عما حدث لأمها فقلت لها

- كيف احترقت واين ؟

فأجابتني

- هنا في هذه الغرفة

ومدت يدها تشير الى آثار حريق على ارضها (واستطردت تقول)

- كانت أمي تغفو على كرسيها حينما نادتها أختى لتناولها الدواء فنهضت وهي نصف نائمة واصطدمت بالمدفأة النفطية وقلبتها فانسكب منها النفط واشتعل والتهمت نيرانه ثوبٍ أمي ولحمها (واضافت) هذا ماانبأتني به المريضات في الردهة .

فابديت أسفى مرة أخرى وقلت لابنتها القابعة في فراشها

- هذه فجيعة ساعدك الله عليها ، كانت امك بالنسبة لي صديقة مؤنسة . وذهبت الى دائرة المستشفى وأنا أتصور بألم الدقائق التي مرت بها أم رحمين قبل ان تتحول الى جثة هامدة . وذكرت الحادث أمام مدير المستشفى (مير) أفندي وهوبين موظفيه ، غير اني انتهيت الى ان هؤلاء لايعلقون على وفاتها بترحم بل بسكوت مطبق ، فافترضت ان ذلك مألوف في مثل هذا الموقف المحزن ،

وقلت على طبيعتي

- هذا أمر الله

نعم ان الأمر ليس بايدينا ، ولا فائدة من الأسف إلا العزاء لابنتيها فقال مير أفندى يعترض

- بل لسنا نحن آسفين على ماحدث !

فقلت له وانا أعتقد انه عنى بما قال شيئاً آخر

- انا اتكلم عن العجوز التي احترقت

فقال مير افندي

- وأنا أعنيها يادكتور.

فقلت له مستغرباً

- أنا لاأفهم ماتعنيه يامير أفندى !

- هذا عقاب الله ومن نوع الجريمة التي كانت قد اقترفتها أم فيوليت

- ولكنى أريد ان افهم ماتعنيه رجاء

فقال

- كان لهذه العجوز ولد هو(رحمين) وقد تزوج بطلب ملح من أمه ، وفي يوم وليلة حصلت بينها وبين زوجة ابنها نفرة اشتدت وقلبت البيت جحيما . وذات ليلة كان ابنها رحمين غائباً بحكم وظيفته في احدى محطات القطار ، فانتهزت العجوز غيابه وافرغت مافي بيتها من النفط على زوجة ابنها وهي نائمة ، واشعلت النار فيها .

فقلت

- ان صح ذلك ، فهو فظيع

واستمر مير افندى يقول

وتدارس المجلس الجسماني اليهودي حيثيات الحادث وظروفه وثبت لديه ان الحادث ليس قضاءً وقدراً بل جناية دبرتها العجوز أم رحمين ، غير ان القضاء أفرج عن العجوز لعدم توفر الادلة الكافية ضدها ، (ثم قال)

لقد نجت أم رحمين القاتلة من قانون الارض ، ولكنها لم تنج من عدالة السماء .

وغادرت مكتب مدير المستشفى مير افندى وأنا اردد في سرّى ، لا اله الا الله وعدالته هي العليا

الراقصة م . سعيد/ ١٩٤٣

صباح يوم جمعة من شهر نيسان ١٩٤٣ كلمتني تلفونياً سيدة بصوت لايخلو من بحة انوثية كثيراً ماكنت اسمع اسمها على افواه الشباب ، غير أنني لم أرها قط الى هذا اليوم . وهي غادة جميلة ومشهورة إن لم تكن يومئذ اشهر الغواني في بغداد . قالت :

- أنا مديحه سعيد ، وأشكو من بطني ، فلم اغف براحة طيلة الليلة الماضية ، وأريدك ان تاتي لتفحصني .
وسألتها - وكيف أعرف بيتك ياست مديحة ؟
- سيجيئك أخي وإسمه (مدحت) ، هل أبعثه الآن ؟
- سأكون جاهزاً في انتظاره بعد ساعة
وفي الوقت المحدد رنّ جرس داري في الصليخ فقابلني على بابه شاب في نحو العشرين من عمره ، وردى السحنة أزرق العينين وحسن الملبس والقيافة ، فأخذت مجلسي الى جانبه في سيارته الشفروليت ذات اللونين الازرق والابيض ، واستمر يسوق سيارته صامتاً حتى وصلنا الى دار أخته ، في محله (رخيتة) بالكرادة وفتحت لنا باب الدار إمرأة سوداء بعينين جاحظتين قليلاً ، وتقدمني مدحت الى فناء البيت ، وتناهى الى سمعي ونحن نخطو فيه صوت من يسأل :
- زبيدهْ ، منو ؟
وكان ذلك الصوت هو ذاته الذي كلمتني على التلفون ؟
فأجابتها المرأة السوداء زبيدة تقول بصوت عالٍ
- الدكتور
فقالت لها
- دليّه ليصعد الى فوق
وحين صرت على باب مخدع سيدة البيت كان يغادره لتوه رجل انكليزي برتبة عالية عرفتها من ماعلى كتافياته من نجوم .
كانت غرفة المريضة مديحة سعيد التي دخلتها واسعة وبنوافذ تطل على فناء البيت ، وكثيرة الاثاث من الكنبات والكراسي ، كما فيها كثير من الصور الملونة التجارية معلقة على جدران الغرفة ، ومزهريات مليئة باختناق بالزهور ، وعلى طاولة مستديرة تحتل وسط الغرفة مجلات مصرية مكدسة بغير عناية ، أما الركن الايسر من الغرفة فقد امتلأ بسرير واسع معدني القوائم وبلون وردي ، وتستلقى على طرف منه الشابة مديحة وهي في نحو منتصف العقد الثالث من عمرها ، بيضاء السحنة وبشعر ذهبي اللون . وعينين زرقاوين واسعتين ناطقتين بما في داخل المريضة من أوجاع ، وفاتحتني بقولها :
- اهلا بالدكتور ، واشارت بيدها الى كرسي قريباً من رأس سريرها وقالت :

تفضل على هذا الكرسي

وكان على وجهها اثر المساحيق ومواد التجميل التي لم يمحها حمام الصباح .. كانت هذه المريضة جميلة الوجه ، ولم أر في جمالها مايحتاج الى تزويق ليزيد من جاذبيته . ونهضت هذه المريضة قاعدة في فراشها وهي تلملم رداء نومها الخفيف الفضفاض لتستر مابين نهديها ، فاستطعت بهذه الحركة ان أقدر رشاقة جسمها وطولها المعتدل ، وتناسق أطرافها المغرية ، وشرعت تعرض عليّ شكواها بعينين ناعستين من بطنها السفلي التي بدأت فجأة بعد منتصف الليلة الماضية . وفحصتها كما يجب ان يتم الفحص النسائي فاذا هي في حالة التهاب الانسجة الحوضية ، فوصفت لها بعض الادوية ونصحتها بالراحة التامة في فراشها ، ثم زرتها ثلاث مرات أخرى لمتابعة تطور مرضها ، وفي اليوم الأخير سألتني .

- الحساب يادكتور ؟

فقلت لها مجاملاً

- اي حساب ، ليس هناك حساب

فأجابتني بجزم

- لا ، هذا حقك ، ولابد ان أدفعه لك

فتجاهلت اصرارها غير انها قالت لي

- دقيقة أرجوك

ورأيتها تخلع خاتماً من بعض خواتم يدها وتدفعه في جيب سترتي وهي تقول

- هذه هدية بسيطة بدل الحساب

وقدرت ان هذا الخاتم لابد ان يكون ثمينا ، أو بقيمة هي على الأقل اكثر مما قدمت لها من خدمة طبية . وبعد بضعة أيام أخبرت صديقي (أ.ف) عن هذه الهدية الثمينة فقال لي

- هذي هي مديحة سعيد حين تكرم ، (واضاف يقول) لعلمك ياكمال هي من بيت عسكري شريف ، فانقطع مابينها وبين اهلها بسبب موت كبير العائلة مبكراً ، فساءت حالتها المالية ومديحة مازالت في عمر الطفولة ، فآلت أحوالها الى هذا المصير وأخبرت صديقي (أ.ف) عن زيارتي لمديحة وعن ذلك الانكليزي الذي كدت اصطدم به عند باب مخدعها يوم أول مرة ، فقال لي :

- انها صارت تستقبل كبار ضباط الجيش البريطاني (ثم قال) كان عليك ياكمال ان تطلب منها تايرات لسيارتك، لان أحد أصدقائها هو المسؤول عن بيع التايرات الى الأهالي، بسعر زهيد.
فقلت له
- هذا طلب ثقيل لان قيمة التاير الواحد في السوق تزيد على المائتي دينار!! وكان هذا المبلغ يومئذٍ كبيراً.
فقال لي.
- واذا كان بهذا السعر في السوق فانك ستشتريه باجازة من ذلك الانكليزي بخمسة عشر ديناراً فقط، (واضاف) وقد حصلت أنا على (زوج) من التايرات بواسطتها.
وفي يوم من ايام شباط سنة ١٩٤٣ اقامت الجمعية الطبية العراقية حفلة في نادي المحامين بشارع العسكري وكان من فعالياتها فصل في الغناء والرقص الشرقي وتلاه فصل في الرقص الغربي. والاطباء يغالون احياناً في فرحهم ويفرطون في الشرب وكأنهم ينتقمون لانفسهم من أيامهم المتواصلة في العمل الجاد الخالي من الراحة وفي اول دورات الرقص الغربي تقدمت مني الست مديحة وامسكت بيدي وقادتني الى حلبة الرقص. كان خصرها نحيلًا، وجسمها لدناً، ورائحتها عطرة، ومالت رقبتها نحو اذني وهي تقول
- وزيركم بالع (پاسطون)، وسوف اقتله وأنا في مكاني بعيدة عنه فسألتها
- تعرفينه؟
ولم تجبني، بل سحبتني وأنا أراقصها، والقيادة بيديها، حتى اقتربنا من مائدة ذلك الوزير.. ولم يفتني ان أعرف ما بدا على وجهه من الانفعالات. وانقذني أحد زملائي من الاطباء وهو (ج) الذي عرفت بعد ذلك أنه أحد معارف أخيها مدحت، فاخذها مني وصار يراقصها بينما عدت أنا الى مكاني بين حشد الاطباء.
ومرت سنوات طوال لم أر فيها الست مديحة، وذات يوم دخلت عيادتي امرأة بدينة وبادرت تسألني قبل ان تأخذ مكانها على احد كراسي العيادة.
- عرفتني؟ أنا مديحة سعيد!

ياالهي كم تغيرت هذه المرأة ، كان كل جزء منها قد تغير الى الضد ، وسيطرت عليّ الدهشة لفرط هذا التغيير ومعالم تقدم العمر البغيض ، فنهضت قليلًا من كرسيي واستقبلتها قائلًا

– اهلًا وسهلًا بالست مديحة ، هذه مفاجأة سارة . فقالت لي تسأل

– تغيرت ، اليس كذلك ؟

فجاملتها أقول

– الروح لاتتغير ياست مديحة

ولابد انها ادركت المجاملة من طرفي فقالت بحسرة

– فات الاوان ، ودعكني الزمان يادكتور

وسألتها

– وهل تشكين من شيء ؟

فأجابتني

– آلام في بطني واسفل ظهري ، فافحصني رجاءً

وفحصتها ووقفت على مصيبتها ، ولعنت في سرى المرض الذي أصاب هذه الانسانة بعد ان تحايل عليها ردحاً من عمرها حتى تفشى وأوقعها في حباله المميتة ، فقد وجدتها مصابة بسرطان عنق الرحم ، وبمرحلة متقدمة نسبياً ، وصارحتها بليونة بخطورة حالتها ، ونصحتها بمراجعة الدكتور احسان القيماقچي الذي يختص بمعالجة هذا المرض ،

فاجابتني

– راجعته ، ولازال اتردد عليه في المستشفى الملكي الذي يعمل فيه ، دون فائدة

ولم أجد لمداراة موقفي معها أفضل من ان اكذب فقلت لها

– داومي على علاجه طالما فيه أمل بالشفاء

وسألتني

– تعتقد انني أبرأ من هذا المرض ؟

فاسعفتني الحيلة وقلت لها

– رحمة الله واسعة

فرددت تقول

– آمنت بالله الذي حججت بيته !

ونهضت لتغادر عيادتي وهي تسألني

- كم يادكتور ؟

فقلت لها وأنا اعنى ما اقول

- كلك كرم ياست مديحة

وغادرت عيادتي ولم أرها بعد ذلك

* * *

في مابعد ظهر يوم ١٩٧٢/٢/١٢ كان النهار رائعاً وتغمر حديقتي الشمس وتنفذ اشعتها من خلال قمم الاشجار العالية لتسفح بوفر على السطيحية التي أمام بيتي وقسم من حجرة نومي من خلال نافذتها الوسيعة . وأمامي نهر دجلة ينساب بين الجزر الصغيرة التي تنتشر في حوضه . وبعيداً على الشاطي الآخر من النهر ترتفع اشجار النخيل ومن تحتها اشجار التوت فتشكل كتلة واحدة غنية بالخضرة ، فأثارتني هذه الطبيعة الخلابة لان اغادر بيتي لأتمشى الى اعالي منطقة الصلبخ ، فأخذت طريقي اليه متمهلاً لاستمتع ببهجة ذلك الجو . وبعد ان اجتزت الطريق المزدحم بالسيارات والسابلة ، سلكت طريقاً جانبياً متربا الى حقول هذه المنطقة حيث يزرع الخس والخضراوات الموسمية الأخرى . وكانت تتناثر على هذا الطريق النفايات أمام البيوت المتواضعة المتلاصقة وتتصاعد منها الروائح النتنة ، ويتطاير الذباب من على أرجائها . ولولا ان هذا الطريق كان غارقاً في بعض اقسامه بالمياه الراكدة التي يسكبها اهل البيوت على جانبه لكان من تلك البيوت وتنانيرهم التي تكثر هناك لوحة فنية جميلة .

وفي مكان قريب من نهاية الطريق رايت افراداً من الناس يدخلون داراً وآخرين يخرجون منها بلا انقطاع ، ولما اقتربت من ذلك البيت أخرج منه نعش متواضع يحمله اربعة رجال على اكتافهم وهم متجهون نحو مكان في الطريق ، ولما صار النعش قريباً مني التصقت على الحائط الذي خلفي ليمر في ذلك الزقاق الضيق ، ورأيت شخصاً من بين المشيعين كان يوماً ما يعنى بحديقة بيتي اسمه (سلمان) وهو من أهل هذه المنطقة فسألته :

- من يكون هذا الميت ؟

فاجابني باقتضاب

- حرمة إسمها مديحة سعيد ، (واضاف) انت يادكتور ماتعرفها ، ويقولون انها كانت راقصة وتابت الى الله وحجت بيته الحرام ، وقد توفيت

بالسرطان .

إذن في هذا النعش المحمول الى اللحد تحت التراب ، مديحة سعيد التي عرفتها يوماً ما تتوسد الافرشة الحريرية ، ويغسل قدميها كبار المحبين من أهل بغداد. حكمتك يارب .

البارونة ڤلاڤسكا

في يوم من شهر مايس ١٩٤٣ إتصل بي تلفونياً صديقي مايكل زيا صاحب فندق زيّا المشهور ببغداد ، وكانت بيني وبينه وبين اهلى وأهله تبادل زيارات وولائم وهدايا فضلًا عن ان أخاه الدكتور إدورد زيا من تلامذتي النجباء ، وطلب مني مايكل ان استقبله في عيادتي مع سيدة من نزلاء فندقه تشكو من آلام في بطنها ، وحضر مايكل في الوقت الذي حددته ويصحبته شابة لم تبلغ بتقديري نهاية العقد الثاني من عمرها ، وقدمها الي باسم (البارونة ڤلاڤسكا) مخابرة صحفية من بولونيا ، وقد عرفتها لحظة وقع عليها نظري ، وعرفتني هي الأخرى بالسرعة ذاتها دون شك ، إلا ان كلًا منا لم يتظاهر بهذه المعرفة ، واستقبلتها بابتسامة لابد انها ادركت معناها ، فقد كانت هذه الصبية في عيادتي قبل نحو عشرة أيام بصحبة ضابط انكليزي وسيم برتبة كابتن ، ذي جسم متين وشارب أحمر ينسدل على زاويتي فمه ليصل الى أسفل ذقنه ، وبقي هذا الضابط وصاحبته ينتظران في عيادتي حتى خلت من المرضى ، فدخل مكتبي وعرفني بالصبية التي كانت بصحبته . وفي غرفة الفحص كانت هذه الصبية صريحة في عرض شكواهاالطبية وجريئة في التباهي بعرض مفاتن جسمها ، فلم أكد اطلب منها ان تستلقى على طاولة الفحص حتى كانت بعد رمشة العين عارية إلا من الشريط الازرق الحريري الذي تجمع به شعر رأسها الذهبي ، وكنت سألتها في بداية تحدثي معها :

- أمتزوجة ؟

فاجابتني بأنها ارملة من زوجها الذي قتله الالمان

وعرفت بسهولة انها حامل فقلت لها :

- انت حامل ياسيدتي

وفاجئتني بقولها
- أنا اعرف أنني حامل وجئت للتخلص من الحمل .
فقلت لها :
- ان التطريح في بلدنا مقيّد بضوابط وشروط طبية وقانونية . فقاطعتني قائلة
- تفاهم مع الكابتن !
ونهضت غير راضية ، وعدنا الى مكتبي في العيادة وقلت للكابتن
- ان البارونة حامل وتطلب مني اسقاط حملها ، وهذا مالا استطيع عمله بحكم الانظمة والقوانين الصحية في العراق ، فضلًا عن ان عملية الاسقاط تحتاج الى آلات وادوت لا استطيع توفيرها ولا استعمالها في العيادة . فاستنكر موقفي وعده تهرباً ، أوجسّ نبض عما يمكن ان يدفعه لقاء أتعابي في هذه العملية ، فقال وهو يضرب بكفه على جيب سترته .
- أنا مستعد ان ادفع لك ماتطلبه لقاء هذه الخدمة .
ولما طال الجدل بيننا ، هو بالاغراء وأنا بالرفض لجأ الى الخشونة والتهديد ، وعلا صوته على صوتي ، وأخيراً قال لي مهدداً :
- ساكون في يوم غد في مثل هذه الساعة في هذه العيادة ، فاستحضر ماتحتاجه من الادوات لهذه العملية ، وادار ظهره لي وغادر العيادة بسخط ملحوظ . ودهشت لطريقة كلامه وخشيت ان يجيئني في يوم غد ، وتكرت ليلتها فيما يصح ان اعمله لاتخلص من هذا الوقح ، وقررت أخيراً ان انقل الى الدكتور سندرسن وهو رئيسي الأعلى في المستشفى الملكي مادار بعيادتي مع ذلك الضابط ، فاستمع الي الدكتور سندرسن باهتمام ، ثم مديده الى آلة التلفون وبدأ يدير ارقاماً في قرصه ، ثم سمعته يطلب المستشفى رقم ٢٨ وخاطب شخصاً بتودد وأخبره بشكايتي التي رفعتها اليه ، وتبادل معه أموراً أخرى ، ولما انتهى من مكالمته التلفونية ادار كرسيه نحوي وهو يقول لي :
- اذهب الى عيادتك كالمعتاد وسوف لايكون ذلك الضابط فيها ، لان الانضباط العسكري سيكون بانتظاره بضعة ايام . وفعلا لم يحضر ذلك الضابط الذي توعدني ، ربما جاء فنكص على اعقابه عندما شاهد الانضباط العسكري عند مدخل العمارة التي فيها عيادتي .

لم يكن صديقي مايكل زيا يعلم بتلك المقابلة التي تمت بيني وبين زبونته البارونة ، ولا أنا اشرت اليها عندما جاءت معه الى العيادة ويبدو انها هي ايضاً لم تذكرها لمايكل ، وعندما التقينا وهي بصحبة مايكل تفاهمنا بسرينا سكوتاً ، ولم تزد هي على ابتسامة منها رداً على تحيتي لها ، وقدتها الى غرفة الفحص وهي صامته وأنا صامت ايضاً . وعرفت بعد فحصها انها مصابة بالتهابات حوضية إثر تخلصها من حملها في عيادة طبيب أو في بيت قابلة حيث الاحتمال كبير بنشوء مثل هذه الالتهابات . ووصفت لها بعض الادوية التي تفيد في علاج حالتها المرضية . وكان صديقي مايكل ينتظرها في كريدور العيادة فاستصبحها وغادرا العيادة وعلى وجهيهما علامات الامتنان . وبعد ثلاثة ايام وجدتها في غرفة الانتظار بعيادتي ، ونهضت باشة وتقدمت مني ودسّت يدها في محفظة يدها وأخرجت منها علبة ملفوفة بورق هدايا مزوّق ، وفتحها واذا فيها قلم (باركر ٥١) فقبلته منها شاكراً ، فقد كان هذا القلم يومئذ غير معروف بعد في العراق ، وبعد يومين لا اكثر جاءني ضابط بريطاني وسألني ان كانت قد زارتني سيدة باسم كذا وكذا ومن كان بصحبتها من ضباط الجيش البريطاني وما سبب زيارتها لي فأخبرته بكل ذلك بتفصيل وصدق ودونه في دفتر صغير دفعه بعد ذلك في جيب سترته ، وشكرني وغادر العيادة . وكلمني مايكل بعد بضع ساعات من زيارة هذا الضابط يقول :

– حين غادرت البارونة عيادتك كان في انتظارها ضابط بريطاني وقد صعد معها الى حجرتها وفتشها بدقة متناهية ثم قادها معه وهو يحمل بعض ما وجده في حجرتها الى خارج الفندق ..

وبعد بضعة أيام أخبرني مايكل بلسان جاف أنّ البارونة قد اقتيدت مخفورة الى معسكر الحبانية حيث اعدمت رمياً بالرصاص بعد تحقيق اثبت تجسسها على تحركات الجيش البريطاني في بغداد والعراق ، وانها المانية الأصل وتحمل جواز سفر بولونياً .

عملية خارج الرحم في الحلة/ ١٩٤٣

بينما كنت مع بعض أصحابي نتناول العشاء في دار الصديق (أكرم مشتاق) جاءني نداء تلفوني من الدكتور حميد شلاش في الحلة ، وكان يومها رئيس صحة هذا (اللواء) وهو من جملة خريجي الدفعة الاولى في كلية الطب ببغداد . قال لي حميد شلاش : ان زوجته شكت صباح هذا اليوم من ألم حاد في بطنها السفلى ، ويرجوني ان أحضر مع الدكتور كروكشانك الى الحلة لفحصها ، وختم كلامه بقوله وهي الآن بحالة تستدعى العلاج الفوري . واتصلت تلفونياً بالدكتور كروكشانك فاعتذر عن السفر ليلًا . واتصل بي بعد ذلك مباشرة الدكتور جاك عبودي ليخبرني انه في حالة اعتذار الدكتور كروكشانك ان نذهب كلانا (أنا والدكتور جاك) الى الحلة إستجابة لطلب زميله حميد شلاش.

وبالرغم من الثقة التي شملني بها حميد شلاش لأكون مع الدكتور كروكشانك ، فقد تمنيت لو كنت المطلوب وحدي لإسعاف زوجته أو اكون المطلوب الأول قبل كروكشانك ، وهو غرور لامبرر له ، فانا بالنسبة الى كروكشانك في تلك الايام مبتدىء في الطب الجراحى .

وكانت اثمان اطارات السيارات يومئذ قد ارتفعت الى علو خيالى فأغرى ذلك بعض المجرمين في استئجار سيارات الأجرة ذوات الاطارات الجيدة وارغام السائق اثناء السفر على ان يخرج عن الطريق ليقود سيارته الى مكان منعزل حيث يقتلونه ليستحوذوا على اطارات سيارته ، وقد تكرر مثل هذه الاجرام وكان هذا سبب احجام الدكتور كروكشانك عن السفر معي الى الحلة . والدكتور شلاش على علم بخطورة السفر ليلًا الى الحلة ، فاتصل بي تلفونياً مرة أخرى ليخبرني انه إتصل بمدير شرطة بغداد ليرافقني شرطي في سيارة حكومية الى قرية (المحاويل) ، كما انه رتبَ لي مدير شرطة الحلة ان تستقبلني سيارة شرطة في المحاويل لترافقني الى الحلة . وهكذا افهمني الدكتور شلاش ان سفرتي الى الحلة ستكون خالية من المخاوف . وإحتل الشرطي المقعد الأمامي في السيارة الى جانب السائق وأخذت أنا والدكتور جاك القسم الخلفي من السيارة ، وكانت الساعة حين تحركت بنا السيارة قد قاربت الواحدة صباحاً ، وما كادت تستقيم

دردشتي مع الدكتور جاك عبودي حتى تخلخل نطقه وانخرط في نوم عميق وتعالى شخيره وبعد اكثر من ساعتين دخلنا شوارع الحلة وكانت مصابيحها الكهربائية ماتزال مشتعلة غير انها لولا مصابيح السيارة لم تكن تكفى لانارة الشارع الذي كانت تتعثر فيه دواليب السيارة . ووجدنا في إنتظارنا في بيت الدكتور شلاش عدداً من اطباء المدينة ، كان من بينهم طبيب الاسنان مهدي الصندوق وطبيب آخر سوري منتفخ الوجه وآخرون لم اندفع لمعرفة هوياتهم .

كانت المريضة زوجة الدكتور شلاش ، في منتصف العقد الثالث من عمرها ، وهي ابنة عمه الحاج محسن شلاش ، وقد مرّ على زواجهما سنتان دون ان ينجبا . وكانت شاحبة اللون وكان نبضها سريعاً يتجاوز المائة وعشرين ضربة في الدقيقة الواحدة ، وبطنها منتفخة قليلًا ، وضغط دمها بحدود الثمانين ملغم من الزئبق ، وتلمست بطنها فأحسست جسماً صلباً في جانب جوف حوضها الايمن ، وتأكدت بالجس المهبلي – البطني ان هذا الجسم الصلب هو غير الامتلاء الذي يحتل الجانب الأيسر من جوف الحوض .. ومبدئياً عرفت ان المريضة قد فقدت دماً في جوف بطنها ، أما من المهبل فكان الدم الذي ينحدر منه قليلًا ولونه كدراً . ولم أحصل من المريضة معلومة تدل على الحبل بمافي ذلك الطمث الذي كانت فيه يومئذ . هل هي حامل خارج الرحم ؟ جائز، وماهو الجسم الصلب الذي في الجانب الايمن من الجوف الحوضي ؟ كيس مبيض ؟

جائز ايضاً مع انه كان صلب الملمس ، بل انه كان شديد الصلابة ولا يتحرك بسهولة. عقدة ليفية ؟ هذا هو اكثر الاحتمال و هذا الورم هو سبب العقم في هذه المريضة ، وهو ايضاً سبب الحبل خارج الرحم . دارت هذه الاحتمالات في رأسي واستقر رأيي على فتح بطن هذه المريضة . وانتظرت بعض الوقت لتجهيز مايلزم من الادوات للعملية . وكان الدكتور مهدى الصندوق يحاول ان يلطف الجو فقص علينا فكاهات لم أجد فيها مايسلى . ورأيت ان القى نظرة على صالة العمليات في المستشفى الملكي بهذه المدينة ، وكدت أصعق لما كانت فيه من عدم اللياقة لأى نوع من العمل الجراحى . فالطاولة من المصنوعات المحلية ولايمكن تغيير مستوى سطحها لأي اتجاه . كما ليس في الصالة من مواد التخدير إلا الكلوروفورم والايثر ، وكان الطبيب المخدر من اخواننا الاطباء السوريين ، وهو كبير

الرأس وضخم البطن ، وحين نقلت المريضة الى صالة العمليات انبرى هذا المخدر يقول للدكتور شلاش : انه لايستطيع ان يخدر (حرمه) الكريمة ، إذ هي كما يقول مثل ابنته وأخشى ان تغلبني العاطفة فاخطىء في تنويمها كما يجب ، وأصر ان لايكون المخدر في هذه العملية ، ولما رأيت فوات الوقت يزيد من خطورة العملية التفت الىّ الدكتور جاك وسألته وأنا اقصد ان اطلب منه ان يقوم بعملية التخدير

- ماذا تقول ياجاك ؟

فاجابني ، بعد ان تردد قليلاً

- سأجازف ،

وفتحت البطن ، فكان النزف الدموي يملأ الجوف الحوضي ، وكان مصدره من الانبوب الرحمي الايمن الذي مطّه بشدة ورم ليفي في نفس الجانب من الرحم ، فنمت البويضة الملقحة في جوف الانبوب حتى انتفخ بها جداره وتمزق فكان من ذلك النزف الدموي ولسوء حالة المريضة لم أحاول قلع الورم الليفي من الرحم خشية ان يزيد ذلك من النزيف الدموي اثناء ذلك وليس لدينا من السوائل لنعوضه إلا محلول الملح بالماء ، وهو مستحضر محلي لايركن الى دقة صنعه .

وانجزت العملية باعجوبة

وعدت الى دار الدكتور شلاش لتناول طعام الفطور . وفي اثناء ذلك دخل علينا أبو المريضة الحاج عبد المحسن شلاش وهو شيخ معمم بكشيدة تزيد في وقاره الى جانب لحيته القصيرة ، فقمنا له باحترام ، وكنت في هذه اللحظة الوك لقمة دسمة من الخبز والقيمر والدبس ، وتقدم مني ودسّ يده في جيب (زبونه) وأخرج منها شيئاً اسطوانياً ملفوفاً بعناية بقرطاس ابيض ، وقال لي : هذي يابنى هدية رمزية لا اكثر ، وكان دكتور حميد قد نهض من مكانه ووقف خلف عمه الشيخ محسن شلاش وهو يؤشر لي بحماس أن آخذ من يد عمه تلك الهدية . إلا انني رفضتها باصرار ، فاعاد الهدية الى جيبه وقبل وجنتى مرتين وهو يقول

- الله يبارك فيك ياولدي

وغادر الشيخ أبو المريضة واكملت فطورى وقلت للدكتور حميد شلاش

- مابالك ياحميد تلحّ علىّ لأقبل هدية عمك ؟

فقال لي

- انها خمس وعشرون (ليرة رشادية) ، واذا كنت انت لاتحتاجها فانا في حاجة اليها

وقال الدكتور مهدى الصندوق

- واذا الدكتور حميد لايحتاجها فداعيكم احوج منه اليها .

وفي حديثي مع الدكتور حميد شلاش عن خطوات العملية التي سألني عنها ، قال لي .

- لو حاولت رفع الورم الليفى من الرحم فلربما كان ذلك أفضل ، ولم استغرب من رأية فانه بالرغم من كونه جراحاً مقتدراً غير انه دون ريب ليس ملماً بما يكفي بالعمليات النسائية التي تتصف الكثير منها بالنزف الشديد الخطر . كما ان حالة المريضة العامة وظروف العملية ومحلها لم تشجعني على ركوب الصعاب لرفع الورم وقد فسرت ذلك للدكتور حميد ، غير انه سألنى

- وماذا عن الورم ؟

فاجبته باختصار

- يرفع بعد ذلك .

* * *

كان الوقت فجراً حين تهيأت لمغادرة الحلة الى بغداد . فاوضح الشفق معالم الطريق في الحلة ، وكانت مصابيحه الكهربائية مازالت مضاءة .

وعبرنا الجسر الخشبي القصير الى الجانب الشرقي من نهر الحلة ، وكانت طيور العقعق تزحف بين الاشجار الكثيفة حين بدت لنا آثار بابل ، كما كان قرص الشمس قد ارتفع عن الافق ، فالتفت الى الدكتور جاك فاذا رأسه يتدلى على صدره وقد غط في نومه . وتركت الشرطي الذي صاحبنا الى المحاويل يدردش مع سائق السيارة بمواضيع لا لون لها ، وقد اكون نمت حيناً بينما كانت السيارة تدرج على طريق معبد سوى ..

وحين وصلنا المحاويل كانت الشمس قد علت كثيراً عن الافق ، وزال عن عينى الوسن ، فرأيت وجه السائق حينذاك لاول مرة بوضوح فاذا هو (كريم العين) وهذا مافسر لي التعرج في بعض سياقته السيارة . وربما لو أنني عرفت ذلك في اول السفرة الى الحلة لعدلت عن السفر أو طلبت سيارة أخرى بسائق آخر ، فانني انتشاءم من النظر الى العين العوراء .

والحمد لله لم يحدث للمريضة مايمكن أن اعزوه الى عين هذا السائق ، ومع ذلك أبطأ السائق سيارته فجأة إثر انفجار أحد انابيبها المطاطية قرب (جسر الخر) ، فكانت هذه ولا اسوأ منها مما يمكن ان يحدث اثناء العملية لزوجة الدكتور شلاش ، اذا كان السبب هو العين العوراء !

الدكتور هنس هوف واحدى مريضاته/ ١٩٤٣

دكتور هنس هوف من الاطباء اليهود الذين هربوا من المانيا لينجوا من اضطهاد النازيين لهم أيام (أدولف هتلر) . وكان هوف يومئذ قد تجاوز الخمسين من عمره . وردي البشرة ، ممتلىء الجسم باعتدال ، ليس أصلع تماماً بل بشعر خفيف على جانبي رأسه ، ويحمل على قصبة أنفه عوينتين باطار معدني لمّاع لاتخفيان عينيه الواسعتين .. وقد قدم الى بغداد بعقد مع مديرية الصحة العامة ببغداد ليرأس دائرة الامراض العقلية والنفسية بالمستشفى الملكي ، ويدّرس هذا الموضوع بالكلية الطبية . وكان يتكلم الانكليزية بلكنة المانية في بعض الفاظها بشكل واضح . وبسرعة أوجد هوف من اختصاصه كياناً واسعاً ، وصار الناس وبخاصة النساء الموسرات يطلبونه حتى لو كانت شكاواهم المرضية لاتدخل في إختصاصه . كما رسخ له صداقات مع كثير من طبقات بغداد الاهلية والحكومية . وكان حديثه مؤثراً مع مريضه فيطيعه المريض دون لجاجة أو اعتراض ، حتى صار بعض أطباء بغداد يعتقدون انه كان سبباً في كثرة المرضى باختصاصه اكثر مما استطاع ان يفيد في تقليل عددهم . وكان هوف يجيد سرد النكتة ، كما كان يثيرها في اصحابه بلباقة . واكثر نكته تفهم (بسبب لغته) بعد ان يتمها بلحظات لا مباشرة . كما كان سمحاً في سماع النكتة التي يوجهها اليه زملاؤه من الاطباء . وكان يوم قدم بغداد من أمريكا . قد ابقى زوجته في نيويورك حتى يستقر مقامه في بغداد وكانت اتصالاته البريدية بزوجته لاتنقطع . وذات يوم رأيته يفتح غلاف رسالة عرفت من طابعها الامريكي كما حزرت من خط عنوانه عليها ا من سيدة وانها لابد ان تكون زوجته ، ورأيته يبتسم وهو يقرأ هذه انهالة ، ولم يتم قراءتها قبل ان يقول لى

الرسالة ، ولم يتم قراءتها قبل ان يقول لى

- هذه الرسالة من زوجتي ، وفيها تذكر انها حين ذهبت لتأتي بابنتها من المدرسة الى الشقة التي تسكنها ، سالتها ابنتها

- لماذا ليس لي أخ يا أمي ؟ فان اكثر البنات في المدرسة لهم أخوان ؟

فاجابتها أمها

- سيكون لك أخ حين نسافر الى بغداد في العراق حيث نعيش هناك مع ابيك ، ياعزيزتي

فقالت لها ابنتها

- لدى فكرة ياأماه

وسالتها أمها

- وماهي الفكرة ياعزيزتي ؟

فاجابتها

- ليكن لي أخ هنا في امريكا قبل ان نسافر الى العراق ، وستكون في ذلك مفاجاة !

وعاد هوف يضحك حتى بدت نواجذه المكسوة بالذهب .

وفي يوم دخل الدكتور هوف الى غرفتي في الردهة العاشرة بالمستشفى الملكي وطلب منى ان اجرى عملية وهمية لرفع الرحم من مريضة ، ولما سالته ماذا تقصد بالعملية الوهمية قال

- اقطع جليدة البطن فقط لتوهم المريضة انك رفعت رحمها الذي تعتقده مصاباً بالسرطان .

وسالته

- ولماذا أنا بالتخصيص اقوم بهذه المهمة

فاجابني

- ذلك لان المريضة نفسها تفضل ان تكون انت لاسواك من يتولاها

ثم سالته

- وهل تعرفني المريضة ؟

فاجابني

- نعم تعرفك

وسالته

- وهل أنا اعرفها ؟

فاجابني

- انت تعرف عائلتها
وسالته
- ومن هي هذه العائلة ؟
فاجابتي
- الداغستانية (...)

وإذ انني لم أر في اجراء هذه العملية مايتافي السلوك المهنى ولاهي تضر المريضة باي قدر ، كما ان من يوصي بها هو اكبر الاختصاصين في بغداد بالامراض النفسية . فادخلت المريضة في مساء ذلك اليوم الى مستشفى ميرالياس . وعملت في جلدة بطنها جرحاً بعد ان خدّرت المريضة كلياً ، الامر الذي جعلها تعتقد بعد ذلك انني رفعت رحمها المصاب (بالسرطان) . وكان سهلاً عليّ ان أستحضر لها مايشبه الرحم لترى بعينها المرض الخبيث الذي تخلصت منه .

وبعد أيام زارتني هذه المريضة ، وفي يدها اليمنى مكنسة وشرعت تكنس بها مدخل بيتي ، فاستغربت من هذه الحركة فسالتها عن دوافع معناها ، فقالت ببساطة

- انني نذرت ان افعل ذلك ان برئت من مرضى .

ثم مدت يدها في جيب ثوبها وأخرجت منه علبة فتحتها فاذا فيها ساعة ذهبية ، وهي تقول لي
وهذه هدية بسيطة لك أرجو قبولها .

ومن أخبار الاستاذ هوف قبل مغادرته العراق عشية ثورة ١٩٥٨ ، زيارته لسامراء لمشاهدة من يدفعون الحراب الى بطونهم ، فقد سالني يوماً ان يرى هذه العملية التي سمع عنها الكثير - فحملته بسيارتي ليلة يوم ١٩٥٨/٣/١٠ الى سامراء ، ودخلنا تكية الشيخ وهيب العباس ، في حين كان رواد الشيخ ينقرون على الدفوف ويقصدون في مدح الرسول محمد (ص) بنغم شجي ، واجلست الدكتور هوف بين الجالسين على حشيات وطيئة وتقدمت من الشيخ وهيب وقبلت يده بموجب تقاليد أهل سامراء التي نشأت عليها ، واخبرته بوجود ضيفي في هذا المجلس ، وأنا اعرف ان ذلك ممايثير حماسه لاظهار أعماله الخارقة التي جاء هوف ليراها . وعلا صوت المادحين بسيرة النبي (ص) كما تعالت اصوات الدفوف . وسمعنا من يصرخ قائلاً : صلوا على ابي ابراهيم محمد ، وآخر يقول مدد ياأبا

حمزة . ونهض أحد مريدي الشيخ واسمه (ويّس) ومشى وئيداً الى حيث كان يجلس الشيخ وتناول من بين يديه (الحرية) وهي قضيب من الحديد بطول متر ونصف تقريباً ، فاومأ الشيخ باصبعه بكبرياء اشارة على ترخيصه بدفع هذه الحرية في بطنه . وافتر ويّس وبيده هذه الحرية أمام الشيخ وهيب ثم تسمر في مكانه وانثنى على طرفها المدبب ودفع بجسمه عليها مرة ومرتين حتى نفذ طرفها المدبب من خلف بطنه ، وتقدم من الشيخ ليسحبها غير ان الشيخ قال له بصوت جهوري

- ضيف الدكتور كمال هو الذي يسحبها . واستدار ومشى طائعاً وتقدم من الدكتور هوف ، وكنت أجلس الى جانبه فهمست اليه ان يسحب الحرية من بطن ويّس ، فامسك الدكتور هوف بها بتردد وحذر ، ثم امسكها براحة يده وسقطت الى جانبه ، وسقط هوف مغمياً عليه . فاضطربت لحاله ، ونهض الشيخ وهيب وتقدم من الدكتور هوف وامسك بيده وتمتم بضع كلمات غير مفهومه صحا بعدها هوف ليسمع ضربات الدفوف من حوله وكانها تمهد ليوم المحشر .

وعدت وهوف الى بغداد في صباح اليوم التالي واعجبني ان اساله عن رأيه فيما شاهده في الليلة الماضية ، فاجابني قائلاً

- انه أمر لايصدق ، ولو انه واقعي وليس عندي تفسير له

انتحار الاستاذ ليدرر/ ١٩٤٣

في احد أيام شباط من سنة ١٩٤٣ ازدحم على باب غرفة رقم (٢) بدار التمريض الخاص بالمستشفى الملكي عدد غير قليل من اطباء المستشفى وعلى وجوههم الوجوم والاسى ، وكان ذلك حين أدخل استاذ طب الاطفال الدكتور ليدرر منتحراً بابتلاع كمية كبيرة من حبوب (النامبيوتال) .

والدكتور ليدرر من اليهود الذين هربوا من طغيان (هتلر) بعد تسلمه حكم المانيا ، وكان من القلائل الذين استطاعوا التخلص من رصاص جنود الحدود الالمان حين عبروا الحدود الالمانية السويسرية . ومن سويسرا صار ليدرر ينتقل من بلد الى بلد حتى وصل الى بغداد ، والتحق

بتوصية من الاستاذ (هنس هوف) بالكادر التعليمي في كلية الطب استاذاً في اختصاصه بامراض الاطفال . ولم يستطع ليدرر ان يستصحب ابنته الوحيدة (إيفا) اليافعة في مسيرة هروبه فبقيت في المانيا تعمل ممرضة في سجن المانيا الرهيب (دخاو) . ووصل الى علم ليدرر وهو في بغداد ان القوات الالمانية سخرت كثيراً من الفتيات اليهوديات للترفيه عن جنودها حين يمضون عطلهم الاسبوعية بعيداً عن ساحة القتال ، فكان من تلك الفتيات ابنته إيفا ، فلم يصمد ليدرر لهذا الخبر المفجع فانتحر بحبوب النامبيوتال ، فادخل دار التمريض الخاص بالمستشفى الملكي لاسعافه ، وأهتم اطباء المستشفى بأمره فنجا من الموت باعجوبة . غير ان ليدرر بعد ان عاد الى وعيه سخط على زملائه الاطباء الذين انقذوه من الموت ، ولم يشكر أحداً منهم لما بذلوه لإسعافه ، وبعد اسبوع واحد وجد ليدرر في مخدعه يعالج الحمام باغراض تسمم حاد والى جنب وسادته ورقة كتب عليها عبارة وجهها الى اطباء المستشفى الملكى يرجوهم فيها (ان لايحاولوا اسعافه فإنه سيعيد الكرة مرة أخرى ومرات حتى يموت) واذكر مما كتبه في هذه الورقة التي كتبها باللغة الانكليزية قوله (اذا كان الطب قد وجد لراحة الانسان فانا أحق بالراحة الابدية من اي انسان آخر) . واخفق الاطباء من ابرائه في هذه المحاولة ، وتوفي بالرغم من جميع وسائل الاسعاف المعروفة في الطب .

كان ليدرر على ماعلمته من زميله الدكتور عبد الأمير علاوي (وكان هذا مساعده في مستشفى الاطفال) عالماً جم المعرفة وواسع التجربة بامراض الاطفال ، وهو الذي اكتشف فقر الدم عند الاطفال المعروف باسمه LEADRER ANEMIA ، كما ان له قدرة تدعو الى العجب في اقناع مرضاه الاطفال على الخضوع للفحص والعلاج علماً بانه لايعرف اللغة العربية ، فكانه بذلك قد خلق لطب الاطفال وليس لغيرهم من المرضى .

كان ليدرر طويل القامة ، ويبدو اكبر سناً من عمره الذي لم يتجاوز الخمسين ، دقيق الأنف ، حنطى السحنة ، خفيف شعرالرأس . ويتكلم الانكليزية بقواعدها ولكن ببطء وبلهجة المانية . وقد عرفته عن كثب حين أطلبه لفحص الاطفال حديثي الولادة في الردهة العاشرة بالمستشفى الملكي ، فاذا هو لطيف الصحبة حلو التحدث ويحسن توقيت أبتسامته حين يحكم التعبير بها عن قصد من مقاصده فتبدو بعض اسنانه المغلفة

برقيق الذهب .
رحم الله الاستاذ ليدرر .

الى مؤتمر اتحاد الاطباء العرب في الاسكندرية/ ١٩٤٣

أعلن في المستشفى الملكي ان مؤتمر اتحاد الاطباء العرب سيعقد في الاسكندرية في شهر آذار سنة ١٩٤٣ وكنت اسمع عن القاهرة والحياة الملكية البانخة فيها ، وعن الاسكندرية وأجوائها المنعشة .. كما كانت أم كلثوم البلبل المصري الصداح دوماً في افكاري حين أهرب من اعمالي الجدّية . وقررت وزارة الشؤون الاجتماعية تشكيل وفد للمشاركة في المؤتمر قوامه مدير الصحة العام الدكتور ابراهيم عاكف الالوسي ، والدكتور هادي الباچهچي ، والدكتور فؤاد مراد الشيخ والدكتور كمال السامرائي والدكتور البيرالياس . وسافرنا يوم ١٩٤٣/٣/٤ على سيارات نيرن الى دمشق في طريقنا البري الى مصر . ولم نحصل على سيارة مكيفة من هذه الشركة إذ كانت هذه السيارة محجوزة للقوات البريطانية ، فكانت سفرتنا على سيارات من الدرجة الثانية غير المكيفة . وكانت نقطة الانطلاق من مكتب سفريات نيرن بشارع الصالحية بجانب الكرخ . ويدير هذا المكتب ضابط بريطاني يمارس صلاحية تفتيش أمتعة المسافرين بما في ذلك أوراقهم الخاصة ، وقد استغرق التفتيش بضع ساعات مملّة .

وكان البرد قارساً يومذاك ، وخصوصاً حين اجتزنا صحراء (الرطبة) . ولا اذكر انني نمت ماكفاني في تلك الليلة ، على ان كل شيء فيها كان مثيراً بالنسبة اليّ ، ووصلنا دمشق بعدبزوغ الشمس بقليل ، فتناولنا طعام الفطور في مطعم شعبي بسوق الحميدية . كما زرنا جامع دمشق الكبير والمكتبة الظاهرية التراثية ثم بعد ذلك سافرنا بسيارة أجرة الى القدس الشريف . وكان الطريق اليها محدداً باشجار عالية وتليها اشجار متشابكة بكثافة كنت ارى من خلالها اكواخاً ذات سقوف قرميدية تشكل مع خضرة ماحولها من الاشجار لوحة فنية رائعة .. وفي هذا الطريق رأيت لاول مرة في حياتي أعمدة أسلاك التلغراف وخطوط الكهرباء مرفوعة على جذوع الاشجار المستقيمة الطويلة ، وكان على سيارتنا ان تقف عند

محطة عسكرية على جسر اللمبى . ومرّ اصحابي عبر هذا الجسر بسهولة ، أما أنا فاوقفني الضابط البريطاني ليدقق جواز سفرى دون ان نعرف لذلك سبباً . فلما اعاد ذلك الضابط جواز سفرى اليّ قال لي الدكتور هادي الباجهچى حدساً .

- لقد أعادوه اليك بعد ان تاكدوا انك غير (فائق السامرائي) السياسي العراقي المعروف ، وقد يكون هذا التفسير صحيحاً .

واتجهنا ساعة وصولنا الى القدس في ضحى ذلك اليوم ، نحو دائرة القنصلية العراقية ، فاستقبلنا فيها القنصل العام شاكر الوادي . وبعد استراحة قصيرة في مكتبه حملنا في سيارته لزيارة المسجد الاقصى وقبة الصخرة . وفي لحظات غاب عنا الدكتور ابراهيم عاكف فوجدناه قد عاد الى قبة الصخرة وهو يتكيء عليها ويغطى وجهه بمنديل وينحب بحرقة . واسترحنا قليلًا في فندق (الملك داود) الفخم ثم زرنا بمعية شاكر الوادي مستشفى (هداسا) العبري الواقع على أرض مرتفعة قريبة من مدينة القدس ، قيل انها تسمى جبل التوبة وفي هذا المستشفى عرّفنا شاكر الوادي بجراح العظام العالمي الاستاذ (بولر) وكان في أواخر الاربعينات من عمره ، معروق الجسم ، أصلع الرأس وذو سحنة باهتة وكانه مصاب بفقر الدم الثانوي .. وهو بالرغم من عبقريته بجراحة العظام والمفاصل فقد غادر برلين قبل ان يطرد هتلر أترابه من اليهود العلماء بزمان ، وقيل ان هروبه من برلين كان بسبب اخلاقه المنحرفة ، وحين رأيته ، لم يكن قد تزوج بعد ، ولا اظنه تزوج بعد ذلك .

كما عرّفنا شاكر الوادي على الاستاذ (برنارد زوندك) وهو ربع القامة في مثل عمر بولر تقريباً ، وذو وجه ممتليء ، ومحتقن بحمرة ، وجفنه الايسر منهدل بقدر قليل ، واعلى سرواله من جانبه الايسر منتفخ بفتق مغبني كبير . وفي مقابلتي الاولى معه رأيته متودداً معي ، وقد أخذني الى مختبره الخاص في «الهورمونات» واهداني كثيراً من منشوراته العلمية التي اصدرها باللغة الانكليزية . وفي هذا المختبر قص عليّ حكاية اكتشافه طريقة تشخيص الحبل بفحص البول ، قال .

- كلفني استاذي وزميلي (أشايم) ان أتم له ثلاث تجارب في غيابه وهو يتمتع بعطلته الصيفية في الغابة السوداء ، وماكدت انتهى من التجربة الاولى حتى وفقت الى تحقيق الفكرة التي كنت أنا و (أشايم)

نقصد تحقيقها ، ولم اكد اصدق بصواب التجربة فاعدتها على ابوال ثلاث نساء حوامل أخر فكانت النتيجة واحدة ، فاتصلت تلفونيا بزميلي (أشايم) في احد فنادق الغابة السوداء ، فاظهر استبعاده الوصول الى هذه النتيجة بهذه السرعة ، ومع ذلك قطع عطلته وفاجاني يدخل المختبر ؛ واشتركنا معاً في اتمام عدد أخر من التجارب على الحوامل فكانت النتجة واحدة ، حينذاك أعلنا الاكتشاف في كل مكان باسمينا (اشايم وزوندك).

وبعد ثلاثة ايام في YMCA استقللنا القطار الى مصر ، وكان مكتظاً بجنود وضباط الحلفاء، كما كان على المسافرين ان يسدلوا ستائر المقطورات ليلاً تحفظاً من غارات طيارات المحور التي تنشط بشكل مكثف بعد غروب الشمس . وبعد ساعة تقريباً من حركة القطار فتح باب المقصورة التي كنا فيها ودخلها جندي بريطاني حاسر الرأس ، ويحمل بيده قدحاً تطفح على حافاته رغوة البيرة التي تملؤه ، وسالنا وهو بادي السكر

- تسمحون ؟

وفسحنا له محلاً ضيقاً على قدر مقعده فيما بيننا ، ودعانا ذلك الجندي الى قدحه الذي لم يرشف منه بعد ، والحّ علينا ، فتذوقناه واحداً بعد واحد واعدناه اليه فكرع مابقى فيه مرة واحدة ، ونهض فجاة وهو يقول :

- دقيقة ياسادة

قال ذلك وغادر المقصورة . وبعد نحو ربع ساعة اندفع باب المقصورة ودخل علينا ذلك الشاب نفسه وهو يحتضن اربع قناني من البيرة وقال :

- هذه لكم ، تشربونها بلا اقداح ، وهذه هي الحرب اللعينة . وقال الدكتور الباچه‌چي باللغة العربية بما يقارب الهمس

- تورطنا

فساله الجندي البريطاني

- ماذا تقول ياسيدي ؟

فاجابه الباچه‌چي

- قلت نشكرك

وقال الشاب يخاطبنا

- دعونا ياأخوان نتكلم بالانكليزية (واضاف) أنا ذاهب الى ساحة القتال لاقتل او أقتل ، وانتم الى اين ذاهبون ؟
فقلنا له
- الى القاهرة
- لتحاربون ؟
- كلا ، بل لنشارك في مؤتمر طبي يعقد في الاسكندرية . ويبدو ان هذا الجندى الشاب بش حين سمع مايشير الى الطب فقال :
- أنا طالب في كلية طب جامعة أدنبرة ، من منكم زار ادنبره ؟ فهي مسقط رأسي ومفخرتي في جغرافية اسكوتلندا
وقال الدكتور فؤاد
- انا اعرفها وقد زرتها مرتين
فساله ذلك الشاب :
- تذكر شارع الاميرات ؟ في مدخله من جهة الشمال ، وفي الحانوت الثاني من جانبه الأيسر المطل على حديقة الشارع ، في ذلك الحانوت أودعت (قلبى) هل فهمتم ياأصدقائي ؟ ورفع هذا الجندى الشاب قنينته الى فمه وافرغها في جوفه وقال :
- أنا طالب في السنة الرابعة بكلية طب أدنبرة ، وقد جندّني الانكليز لاحارب عن امبراطوريتهم ، وسوف أحارب لا إستجابة لاوامرهم ، بل لكي لايقال ان اسكوتلندياً جبن في القتال ، نحن الا سكوتلنديون نحارب والانكليز يغفون على صدور نسائهم ، ونحن نبني وهم يملكون ، تباً لهم من أخشاء جبناء ، وسوف تكسب اسكوتلندا الحرب وسيقال ان الانكليز هم الذين ربحوها . وسكت قليلاً ليقول وعيناه شبه مغمضتين
- أما الانكليز فلا دور لهم إلا بين اذرع النساء ، وروميل ..
واراد ان يتكلم عن روميل غير ان باب المقصورة انفتح فالتفت الى من وقف عليها ، وكان جندياً انكليزياً من انضباط هذا القطار . قال هذا الانكليزي يخاطب ضيفنا في المقصورة الذي كان مايزال يضع رجلاً على رجل فيما بين صفي مقاعدها ، وهو يمر باطراف أنامله على حافة الكاس الفارغة التي بيده ، قال الانضباط الجندي يخاطب ضيفنا الجندي الشاب
- انهض ياجندي

وظل الشاب في مكانه غير ملتفت الى الانضباط وكأنه لم يسمعه .
وساله الانضباط
- كيف جئت الى هذه المقصورة ياجندي ؟
فاجابه
- هكذا جئت ، هكذا اردت ان اكون في هذه المقصورة مع هؤلاء السادة .
وقال له الانضباط .
- هيا الى مقصورات الجنود ، فهذا المكان لغير الجنود
فقال له ضيفنا الجندي
- انهب حين أريد ان أنهب ، أما الآن فلا أريد ان أنهب وأنا باق في مكاني
- بل تنهب الان ، وحالاً .
- لا أريد ان انهب الآن ولست متعجلًا ان انهب .
وساله الانضباط بحنق
- اسمك ؟
اسمى جميس ، إدوارد جيمس
- هويتك ؟
- الايكفى أنى اعطيتك اسمى ، هل قلت لك اني رومل ؟
وبدا على جندي الانضباط غضب مكبوت ، واستدار وخرج من المقصورة وصفق بابها وراءه وبشدة .
فقال الشاب
- الى جهنم يابن الزانية .
وبعد دقائق فتح باب المقصورة فظهر عليه ضابط انكليزي ورأينا من وراء اكتافه الجندي الانضباط الذي جاءنا أول مرة ، قال الضابط دون مقدمات يخاطب ضيفنا الجندي الشاب .
- انهض وإنهب الى مقصورات الجنود
ولم يجبه الجندي الانكليزي
- آمرك لن تنهب الى مقصورات الجنود
ولم يجبه الشاب ايضاً . حينذاك شد هذا الضابط قامته وأخرج من جيب قميصه دفتراً صغيراً وفتحه وقرأ بصوت عال في أحدى صفحاته (باسم صاحب الجلالة الملك آمرك ان تغادر هذه المقصورة وإلا تعرضت لمحكمة عسكرية) . حينذاك نهض هذا الشاب وهو يترنح ويقول للضابط .

- لاتغضب ياسيدي الكابتن ، فانا طوع ارادتك الى الموت ، والتفت الينا يقول .

- الى اللقاء ياأصدقائي الاطباء

وتنفسنا الصعداء بخروج هذا الشاب الظريف المخيف ، واسلمنا جفوننا للوسن ونمنا متكاين باكتافنا على اكتاف بعض. وطلع الفجر والقطار يعبر قناة السويس راستيقظنا على توقف القطار في محطة العريش ، وبينما كنا نتطلع من خلال نافذة المقصورة الى هذه المحطة دخل مقصورتنا ضابط انكليزي عبوس ، أو بوجه جدّي في الاقل ، وصار يسأل كل واحد منا عن اسمه وجنسيته واتجاهه الخ ، ثم قال لنا

- أرجو ان أراكم في مكتب الانضباط بمحطة القاهرة . وقد أخافنا هذا الضابط ، فأي شيء يريده منا ؟ وسألناه ، قبل ان يغادر المقصورة

- هل يمكن ان نسأل عما تريدونه منا رجاءً ؟

فقال ببرود

- لاشيء ، اننا فقط نسألكم عما تكلم فيه الجندي الذي كان معكم في هذه المقصورة ، ولما قلنا انه لم يقل شيئاً وكان جل حديثه عن حياته في الكلية الطبية وادنبره ، قال

- ليس الآن ، قولوا ذلك وغيره في دائرة الانضباط بالقاهرة وازداد خوفنا حين فهمنا ماقاله بمعنى الوعيد وأخذتنا الحيرة ، واتفقنا ان نقول إفادة واحدة في انه لم يتكلم عن الحرب ، وقال أحدنا :

- لقد سمع الانضباط من فمه اسم رومل فكيف نذكر هذا الاسم في ما نقوله لهم ؟ واتفقنا ان نقول انه قال : ان (رومل) لابد أن يخسر الحرب . وفي دائرة الانضباط بمحطة القطار في القاهرة دونا ذلك على أوراق أجوبه على اسئلة وجهها الينا ، ضابط كبير الرتبة

وبعد ان تمت هذه الاجراءات غادرنا الى المدينة . كانت القاهرة يوم دخلناها في هرج ومرج ، وفيها خليط متنافر من البشر ، كما فيها جنود من الانكليز لاحصر لهم . وحصلنا بواسطة الملحق الثقافي في سفارة العراق في القاهرة على حجرتين في فندق (اورينت) ، وقال أحدنا انه يكثر من الشخير في نومه فقلت احتراماً له

- انام معك في الغرفة التي تنام فيها

وكنا تعبين . فأوينا الى مخادعنا مبكرين وسرعان ماشرع صاحبي

يشخر ، بدأه بصوت رفيع خافت ثم امتلا صوت شخيره وخشن وعلا ، ثم انقطع فجأة حتى لم أعد اسمع له نفساً ، ثم نهض فجأة من فراشه بحالة اختناق وهبط متهاوياً ليبدأ جولة جديدة من الشخير والاضطراب وهكذا . ولا اظنني نمت كثيراً ، وصاحبي في الغرفة الذي اتكلم عنه ذو منصب كبير في وزارة الصحة كما كنت أحترمه لتعاطفه معي وآنا طبيب مبتدىء . وسألني في الصباح

- هل ازعجتك ياكمال ؟

فاجبته

- ليس كثيراً يابك

ولااظنه صدقني

وفي صباح اليوم الثاني غادرنا القاهرة الى الاسكندرية ، وقريب من استعلامات أوتيل (سيشل) حيث حجزت لنا غرفتان رأينا نوري پاشا السعيد وهو منغمر في حديث جدّي مع شخص اطول منه ، يرتدي اللباس العسكري ويضع على رأسه الطربوش المصري . وكان نوري السعيد يرفع يده ويخفضها والمسبحة تتدلى من بين اصابعها وهو يكلم هذا الشخص بالانكليزية ، والشخص ذو الطربوش الاحمر يرد عليه بالانكليزية ايضاً . قال الدكتور الباچهچي ذلك نوري السعيد يكلم (رسل پاشا) حكمدار القاهرة ، ثم فجاة قال لنا .

- ان الپاشا يشير الينا ان نتقدم اليه

- ورأينا نوري السعيد يرفع يمناه يؤشر بها لنذهب إليه . ولما تحرك الپاچهچي باتجاهه ، قال نوري السعيد يخاطبنا :

- كلكم تعالوا

ولما صرنا . أمامه قدمنا لرسل پاشا واحداً واحداً ، ثم قال وهو يشير الى رسل پاشا .

- رسل پاشا ، صديقنا ، حكمدار القاهرة

ثم قال وهو يتلفت يمنةً ويسرة

- اين عبيد ؟

وجاء عبيد عبد الله المضايفي (مرافق الأمير عبد الاله) وكان يجالس ضابطاً مصرياً

- أأمر پاشا

قال نوري السعيد
-الجماعة لازم يسلّمون على الأمير عبد الاله . ثم سألنا عرضاً هل رأيتم صباح ؟ وصباح ابنه ؛ فقلنا له :
- لم نبق في القاهرة إلا ليلة واحدة .
وقادنا عبيد الى الطابق الثالث في الفندق .. واستقبلنا عبد الاله بلباسه العسكري واقفاً في وسط صالته ، ولم تطل المقابلة إلا نحو ربع ساعة سألنا فيها عن مكان اقامتنا في الاسكندرية وعن مواضيع المؤتمر الذي سنحضره . ثم قال أنى احب هذه المدينة فقد درست فيها ثلاث سنوات . والتفت الى عبيد يقول .
- تستطيع ياعبيد ان ترافقهم اذا ارادوا ذلك فلا احتاج اليك في هذا اليوم .
وعند مهبط المصعد ونحن نخرج منه اعترضنا رجل يرتدي الجلابية الفضفاضة والعمة البيضاء ، وقال لنا معذرة وهو يدس يده في جيب الدكتور الپاچهچی وأخرجها فاذا فيها كتكوت ، وقال
- هذا واحد
- ثم دسّ يده في جيب كل واحد منا وأخرج منها كتكوتاً ايضاً مثيلًا للكتكوت الأول ، وبحجمه وعمره ولونه ، ولم اكن قد رأيت هذه العملية السحرية قبلًا ، فنقده الدكتور الپاچهچی نصف جنيه وغادرناه ينتظر نزيلًا آخر ليعرض أمامه براعته .
وفي بهو الاوتيل كان نوري السعيد مايزال يكلم رسل پاشا ومعهما شخص آخر لم نخطىء معرفته لكثرة ماكنا نرى صورته في المجلات المصرية . كان ذلك الشخص مصطفى النحاس پاشا رئيس حكومة مصر يومئذٍ ، وقد بدا الآن ذا بشرة حمراء ، وأجمل صورة مما يظهر على صفحات المجلات بالرغم من الحول الحاد في عينه اليسرى
وكان المؤتمر مملًا لاحماس فيه ، ولا جديد في مواضيعه العلمية ، فعدنا بعد ان زرنا قصبة الرشيد الى القاهرة . وعلى باب او تيل اورينت وجدنا صباح نوري السعيد ، ودعانا الى تناول العشاء في مطعم صغير يقابل تمثال أبراهيم پاشا فوجدنا فيه يهودياً عراقياً اسمه (عزرا) يعمل في تصدير الافلام السنمائية إلى سنما غازي في بغداد . وخرجنا من المطعم وعزرا معنا ، ونحن نتحسس مواقع اقدامنا في الظلمة لنتفادى العثرات

وتلاطم الاكتاف من كثرة السابلة بما فيهم من الجنود الانكليز . وفجأة رأينا طربوش عزرا يتدحرج على الارض ، وركله جندى كما يفعل لاعب الكرة ، بينما اختفى عزرا من بيننا وهرول الى طريق منعطف قريب . واستغربنا من كل ماحدث . كان ثمة شرذمة من الجنود الانكليز وراءنا وهم يرفعون عقائرهم باغنية عسكرية صاخبة من فرط مااحتسوه من المسكرات ، ويبدو ان قفا رقبة عزرا ومن فوقها طربوشه اعجبا أحد الجنود الذين كانوا يتسكعون خلفنا فضرب بكفه طربوش عزرا . وبعد لحظات عاد الينا عزرا ليلتقط طربوشه من الارض ، وهو يقول لنا .

- الضربة كانت على طربوشى لاعلى رأسى !

فانفجرنا ضاحكين على اهتمامه بسلامة رأسه اكثر من اهتمامه بما اصابه من الاذلال والاهانة التي لحقته من ذلك الانكليزي المخمور .

.. وفي مساء ذلك اليوم ايضاً اقترح على الدكتور البيرالياس ان ندخل أنا و هو (البار) الملحق بالأوتيل . وكان هذا البار في الواقع ملهى ومرقص ، وقد انسدلت على بابه ستارة ثقيلة لتحجب انواره ان ترى من خارج ، وهكذا ماكانت تفعله جميع المحلات العامة والفنادق لتضليل طيارات المحور . وكان في هذا المرقص حشد من الروّاد اكثرهم من الانكليز ، ضباط وجنود ، وكانوا حاسرى الرؤوس ويدسون سداراتهم في احزمتهم أو تحت ربطة اكتافهم ، ويرقصون ويتراقصون ، رجل مع فتاة ، أو رجل مع رجل ، وصياحهم اعلى من نغم الموسيقى الصاخبة ، ودخان السكاير يتصاعد الى سقف القاعة الوطيء ويتكاثف حتى لايظهر من اضواء مصابيحها إلا بصيص من انوارها الملونة ، ولولا الصخب والالوان المتنافرة لكان المكان شاعريا حقاً . وكانت الغواني يتنافسن على اجتذاب الجنود ، والجنود في دلال لاختيار من تروق لهم منهن . وصديقي البيرالياس ذو عينين زرقاوين وشعر ذهبي ، وانف شامخ فلا يحسب إلا من الانكليز ، فقادته غانية الى طاولة حولها ثلاثة كراسى شاغرة احتلت احدها ، ثم سألته بعد ان استقرت على أحد الكراسي

- اسكوتلندى ؟

فأجابها بجد ، وهو كثير المقالب

- من أدنبرة

وحين نظر الىّ عرفت ماذا يريد مني ، فصرت لا اكلمه إلا باللغة

الانكليزية . ونادت هذه الغانية النادل وطلبت كأساً من الوسكي فطلب الدكتور البير لي وله زجاجتين من البيرة ، وبعد ان ارتشفنا قليلا مما في الكؤوس الثلاثة مدت الغانية يدها دون تمهيد وقبضت على معصم يد البير ، ونهضت تسحبه الى المرقص ، وشرعا يرقصان ، وسرعان مااختفيا عن ناظري بين امواج الراقصين من النساء وضباط وجنود جيش الحلفاء ، وانتهت جولة الرقص وعاد الراقصون الى امكنتهم في القاعة ، أما صديقي البير وصاحبته فلم يعودا اليّ . وصدحت الموسيقى لجولة ثانية من الرقص ، ودخل جمع غفير من البشر الى هذا الملهى وفي لحظات اختفى الكرسيان عن الطاولة التي اجلس على أحد كراسيها ، فقد اخذهما النادل دون استئذان مني . وبعد قليل جاء النادل ، ولاشك انه حدس فيّ رجلًا ساذجاً وعبيطاً ، والنادل لايخطىء لكثرة ممارسته مهنته في معرفة الشخصيات وقال لي وهو يدفع أمامي ورقة أنارها بمصباح كهربائي يدوي .

- الحساب مسيو

وقرأتها فاذا حسابنا سبعة جنيهات ، فقلت له محتجاً .

- زجاجتان بيرة بجنيه ونصف ، وقدح الوسكي بجنيه واحد ، جنيهان فقط

غير ان النادل عاد يقول لي بملل وتصميم واختصار

- حسابك سبعة جنيهات ،

ودفعت هذا المبلغ صاغراً مضطراً ، وأنا العن البير وأبا البيرالياس .

العودة من مصر الى القدس ، ومستشفى هداسا

عدنا من مصر بالقطار الى القدس ، وكانت عرباته مزدحمة لحد الاختناق . والتدقيق في فحص جوازات السفر والامتعة والاستجوابات قد أخذت وقتاً طويلًا مملًا ، كما كانت العربات معتمة زيادة في التستر إحتياطاً من غارات قوات المحور الجوية . ووصلنا في فجر يوم الاثنين القدس ، وكان في استقبالنا أحد موظفي القنصلية العراقية ، فأخذنا الى فندق الملك داوود ، وبالرغم من ازدحام هذا الفندق بالنزلاء وكثرة من

يدخله ومن يخرج منه من جنود الخلفاء ، فقد كان محتفظاً بزهوه في النظافة وترف الاثاث وأصص الزهور على الموائد وفي اركان الصالات ، كما كان النادلون في زيهم المهني المتميز ، والطعام متوفر كمية وتنويعاً وجودة .
وفي صباح اليوم التالي جاءنا ونحن نتناول فطورنا القنصل العام لمملكة العراق السيد شاكر الوادي واصطحبنا الى مستشفى هداسا ، وهو مجموعة من العمارات تابعة لجامعة (هداسا) العبرية . وكان في استقبالنا في قاعة الاستعلامات شخص قال يخاطب الوادي وكأن له معرفة سابقة به .
- نبدأ بمقابلة (بولر) . وتقدمنا نرتقي درجات سبع الى الطابق الأعلى بينما التفت السيد الوادي الينا يقول :
- بولر استاذ جراحة العظام المشهور ، وواحد من المجموعة اليهودية التي هربت من حكم هتلر ، وهي معلومات سبق ان عرفناها منه.وماكدنا نصل الى كريدور هذا الطابق حتى قال وهو يشير بيده :
- هو ذاك بولر
وبش بولر من بعيد ، وتقدم من السيد الوادي وشدّ على يده بحرارة وهو يعض على مبسم غليون برأس كبير ، وشرع السيد الوادي يقدّمنا اليه ، ولما عرف بولر اني اختص بالامراض النسائية التفت الى السيد الوادي وقال له
- هيا لنذهب الى الاستاذ زونديك وهو استاذ الامراض النسائية بهذا المستشفى .
وتقدمنا بولر في الكريدور وهو لايفتأ يكلم الوادي بانكليزية لايخطىء معها من يستمع اليه ان يعرف انه غير انكليزي .
كان زوندك حينما دخلنا مكتبه يحتسى الشاي ، فقام من وراء منضدته الواسعة التي تراكمت عليها الاوراق والاضابير بغير عناية ، ومدّ يده ليصافح السيد الوادى وهو يرحب به باهتمام . وقد بدا لي زوندك في هذه المقابلة أنيقاً على خلاف ماعرفته قبلا أو بعد ذلك من الأيام . وهو في الخمسينات من عمره ، كبير الرأس بشعر كستنائي خفيف ، ممتلىء الجسم ، متوسط القامة ، منتفخ الوجه والبطن ، وانشدّ نظري في هذه المرة الى عينه اليسرى التي بدت لي أصغر من اليمنى ، وسألني الاستاذ زونديك

- أتحب موضوع الهورمونات ؟

فأجبنه يتواضع

- لا أختص بها غير انها موضوع لايفارق افكاري وممارساتي

ثم سألني

- هل تعتمدون على تجربتي في تشخيص الحبل ؟

- نمارس من بغداد تجربة (فريدمان)

فعلق على ذك .

- تجربة فريدمان أسهل . وهي تعتمد على المبدأ نفسه الذي اعتمدته في تجربتي ....،

واسم زونديك مشترك بين ثلاثة اطباء من عائلة واحدة ، اكبرهم برنارد زونديك وهو صاحبنا واختصاصه الهورمونات النسوية ، وجورج زونديك، واختصاصه الامراض الباطنية ، وهرمان زونديك ويختص بهورمونات الجسم عامة . ولم أتعرف في هذه الزيارة لهداسا إلا على برنارد زونديك ، كما سمعت ان جورج زونديك يعمل في تل ابيب .

وانتهزت الفرصة وسألت برنارد زونديك فيماذا كنت استطيع مراجعة مختبره في المستشفى فاجابني :

- بالتأكيد ولأى مدى تريد ، (ثم أردف) أنت ذو حظ ياسامرائي فسوف تبدأ دورة تعليمية انتمى اليها عدد غير قليل ، لمتابعة خطوات الفحوص المختبرية عن هورمونات المرأة . وحين ودعنا زونديك لمغادرة المستشفى ، قال لي : ليس من السهل دخول المختبرات مالم تحمل ترخيصاً خطياً منى . وسأكتب الترخيص واودعه عند استعلامات المختبر ، فلا تنس ان تراجع هذه الدائرة لتأخذ منها الترخيص (ثم قال) يبدأ الدوام في المختبرات وردهات المستشفى في الساعة الثامنة صباحاً وينتهي في الثانية بعد الظهر . ثم من السادسة الى الثامنة .

وخصني زونديك بمشاركة معاونيه في بعض العمليات الجراحية . وفي يوم طلب مني ان أحضر يوم غد عملية يجريها على زوجة امبراطور ايران المنفى في جنوب أفريقيا ، وكانت الامبراطورة تشكو من أعراض ورم ليفي في الرحم ، شاهدت زونديك في هذه العملية فلم يعجبني في خطواتها ، لا لأنه كان بطيئاً على نحو ممل فقط بل لأنه كان يكرر حركات يديه في الجوف الحوضى دون مبرر . والمريضة الامبراطورة قد جاوزت الخمسين من

العمر ومع ذلك لم يقتلع الرحم كله بل بتره من أعلى عنقه مخلفاً مابقي من العنق متدلياً في المهبل . وفي اليوم الثاني بعد العملية قابلني زونديك في غرفته وهو يرفع إصبعه في وجهي ويقول : انظر ياسامرائي .

كان في إصبعه خاتم بحجر من الفيروز ، فقال لي : انه هدية من الإمبراطورة ، وسألني

– هل هذا الحجر من النوع الجيد ؟

ومعلوماتي عن الاحجار الكريمة قليلة ، فقلت له

– انه هدية الامبراطورة ولابد ان يكون ثميناً

وسألني

– كم يساوي في تقديرك ؟

فأجبته مرتجلًا

– نحو مائة پاون انكليزي

وعالج موقفه وقال

– باي حال هو هدية من امبراطورة ، وهذا يكفى للتباهى به . وحان وقت تناول الشاي الذي إعتاده الاستاذ زونديك ومعاونوه في مثل هذا الوقت في كل يوم . وعاد يتكلم عن الخاتم أمام معاونيه ، وذكر معلومة عن أصل حجر الفيروز لا أظن أنها معروفة في بغداد . قال زونديك .

– حين دخل الاسكندر الكبير بلاد فارس أعجبته القلائد التي كانت تزين صدور النساء في ذلك البلد ، وكانت حباتها من حجر الفيروز وسأل عن مصدر هذا الحجر فدلوه عليه في احدى المناطق التي تجاور مدينة بلخ . فكتب الاسكندر الى بلاطه في اثينا ان يبعثوا اليه بالنحات (تركواز) ليصنع من ذلك الحجر تماثيل يأخذها معه عندما يعود الى اليونان فيقدمها هدايا لذويه وأصدقائه ، فسمى ذلك الحجر الذي هو ليس إلا حجر الفيروز باسم النحات (تركواز) ، ولايزال لون ذلك الحجر معروفاً باسم تركواز .

وأكمل زونديك الحكاية ، وسألني وكأنني حجة فيما قاله :

– اليس كذلك ياسامرائي ؟

وسكت ولم أجبه

وعاد يسألني .

- هل هذه المعلومات معروفة في بغداد ؟
فقلت له
- أنا لم اسمعها في بغداد ، وهي باي حال حكاية ممتعة .
وزونديك اذا بدأ يتكلم يحاول ان لايترك لغيره مجالًا للكلام .
- وسألني يوماً : سامرائي ، قل لي . هل صحيح انكم في الصيف تنامون تحت الارض ؟ فعرفت انه يقصد بذلك النوم في (السرداب) أيام حر الصيف ، فأجبته
- هذا صحيح ، لنتفادى حر الصيف أما الآن فلا وجود تقريباً للسراديب كما كانت تستعمل قبل دخول ادوات التبريد الكهربائية .
ثم سألني .
- وهل صحيح انكم تنامون على سطوح البيوت في ليالي الصيف
فأجبته
- هذا صحيح أيضاً . وأضفت . وما أحلى النوم على السطح والأنسام تداعب الوجوه وهز زونديك رأسه علامة الاستغراب ثم سألني
- وهل صحيح انكم تضربون الكلاب بالحصى ؟
وفسرت له ذلك من الوجهة الدينية والصحية ، غير انه لم يبد لي قد اقتنع بادعاءاتي
وفي يوم بينما كنا نتناول شاي الساعة العاشرة في مكتب زونديك تبادلنا الحديث عن مريضة قد ادخلت ذلك اليوم الى جناح الامراض النسائية وهي مصابة بناسور مهبلي ، وسألني زونديك فيما اذا كانت هذه الحالة المرضية كثيرة الحدوث في العراق ، وقبل ان يسمع جوابي ، قال :
- ان هذه المريضة عربية من رام الله .
وعددت ذلك اشارة الى ان اليهوديات قليلًا مايصبن بهذا المرض ، أوانه مرض يكثر في العربيات ، فلم ارتح لتلك الاشارة ؛ وهو يعلم بالتأكيد ان هذه النواسير قد تحدث في أرقى الدول الغربية باوروبا .
وصرنا نتحدث في طريقة علاج هذا المرض ، وأنا أشك ان يكون باستطاعته ترميم هذه الحالة بعد ان شاهدت بنفسي تعامله مع الانسجة في عملية الامبراطورة ، فكانت هذه الجلسة مملّة بالنسبة لي ، وكل ماسمعته من زونديك ومعاونيه عن النواسير المهبلية . كان في اطراف الموضوع لا في تفصيلاته واعماقه .

× × ×

وفي عطلتي يوم السبت والأحد صحبت مشاور القنصلية العراقية الصديق (خالد الجوريه چي) الى (تل أبيب) حيث قضينا فيها يومين وليلة . وفي ظهر أول يوم تناولنا معاً السمك البحري ثم عبرنا الى (يافا) من تحت الطاق القديم وتناولنا الشاي في أحد مقاهيها القديمة . وبحدود الساعة الرابعة بعد الظهر حدث لي مالا أنساه ، فقد تحركت بطني على حين غرة حتى شعرت فيها مايشبه التمزق في امعائي ، وحاجة قوية ملحة للتغوط ، وكنت آنذاك في عرض الطريق وبعيداً عن الفندق الذي نسكنه ، وفجأة لاح لي مسجد ، وقد عرفته من باحته الواسعة والبسط الممدودة في المصلى الذي استطعت ان أراه من مدخل الجامع ، وولجت الى هذا الجامع وأنا أكاد اهرول الى دورة المياه في الجانب الايمن من الباحة لاقضى فيها حاجتي ، غير ان شيخاً بلحية بيضاء كثة صاح لي حين كان يتوضأ

– الى اين يارجل ؟

ولشدة ماأنا فيه من مضايقة في احشائي ، هرولت دون ان التفت اليه أو أجيبه . واستعضت عن ذلك بالاشارة بيدي الى بطني عله يفهمني . وحين انتهيت من قضاء حاجتي قدرت ان ذلك الشيخ لابد هو الآن ينتظرني ويستجوبني عن هويتي . فاستحضرت له جوابا عرفت مقدماً انه يرضيه . فاكملت شدّ حزامي على سروالي ، وتقدمت منه هادئاً مطمئناً ، ورأيته واقفاً وهو ينزل كميّ قميصه الى معصمه ، ولم انتظر منه ان يكلمني فسبقته وقلت له

– ياسيدي العم ، أنا مسلم وكنت في ضيق داخلي اضطرني ان اسرع دون الالتفات الى ندائك ، فاعذرني رجاء . ولما رأيت اساريره تتفتح أيقنت أنني كنت مصيباً فيما ذهبت اليه من ظنون هذا الشيخ في احتمال كوني من اليهود ، فحييته وغادرت ذلك الجامع لاقابل صديقي خالد الذي وقف عند باب الجامع في انتظاري ، واقترح ان نعود الى تل أبيب ، ففي فندقنا حفلة ليلية يقيمها ساحر هندي ، وعدنا ماشين الى الفندق ، وبعد استراحة في غرفتنا انحدرنا الى صالة الفندق وقد زينت بالزهوروالاضواء الملونة وبدأ العرض ، وقفز الى وسط الصالة في ضجيج من الموسيقى كهل هندي حسن القيافة يرتدي بدلة سوداء وقلنسوة وقفطان بلون أسود و (شير) اسود ببطانة حمراء ، أو قرمزية وبيده عصا من الأبنوس بمقبض من الفضة ، وتقدم من أحد الحاضرين طلب منه عملة ورقية ، فأخرج له

باوناً انكليزياً ، وطلب منه الساحر الهندي ان يوقع على تلك العملة الورقية ، ثم اشار الى نادل في الصالة ان يأتيه بصحن ، فوضع الساحر تلك العملة الورقية في الصحن ، ثم أخرج من جيبه مقدحة وأحرق الورقة ، وانتظر حتى صارت رماداً فنفخه ليتطاير من الصحن هباءً منثوراً : ثم طلب من النادل ان يأتيه بثلاث برتقالات في صحن ، وطلب من أحد الحاضرين ان يتقدم منه ، فقام واحد منهم فاعطاه الساحر سكيناً صغيرة أخرجها من جيبه وطلب منه ان يختار واحدة من البرتقالات الثلاث ويقطعها بالسكين الي نصفين ، وقبل ان يكمل قطعها ذلك الشخص أخذ الساحر البرتقالة التي أختارها وعرضها على الحاضرين واحداً واحداً ليتأكدوا من انها غير مقطوعة قبله .

وشرع ذلك الشخص يقطع البرتقالة ، فقال له الساحر ، اقطع على مهل ومتى ما احسست شيئاً غريباً داخل البرتقالة توقف لتفتحها باصابعك . وفعل الشخص ما طلب منه الساحر وفتح البرتقالة واذا في جوفها تلك العملة الورقية التي وقّع عليها وعلا التصفيق ممن في الصالة .

وفي صباح اليوم التالي عدت الى القدس في طريقي الى بغداد .

مدام آرام غربيان/ ١٩٤٣

السيدة أرمنيس غربيان في مطلع العقد الثالث من عمرها . ممشوقة القد ، جميلة المحيا ، دقيقة الملامح . وهي احدى ثلاث بنات لتاجر تبغ عراقي ارمني معروف في بغداد وشمال العراق . والعائلة جميعها حتى الأب والأم لهم حس فنى وموسيقى ، ويمارسون العزف على انواع آلات الطرب ؛ العود الكمان والقانون والسنطور والبيانو والطبلة . وكبرى البنات وهي التي دخلت الى عيادتي ، تغنى باللغة الارمنية بلحن قريب من الغناء الأوروبي . أما الاب فيضرب على أوتار العود بالطريقة التركية المتميزة التي يضرب الوتر فيها مرتين من الاعلى الى اسفل ثم من اسفل الى أعلى ، وهي طريقة غير مألوفة بين الموسيقيين العرب على ما أعلم . ومجالس هذه العائلة بهذا التركيب ممتعة ومفعمة بالبهجة والسرور ، وقد حضرتها اكثر من مرة .

كانت السيدة أرمنيس التي دخلت عيادتي قد رجعت تواً من سويسرا حيث أمضت فيها شهر العسل ، وزوجها (أرام) في مثل عمرها تقريباً ، وقد تزوجا على حب ، وهو ليس من عائلة غرابيان المشهورة في البصرة ، وليون غربيان ليس إلا خاله ، أما أبوه فليس من صلب هذه العائلة إلا انه اي آرام عرف منسوباً اليها ، وجميع مراسلاته واوراقه التجارية مطبوعة بهذا الاسم ، وقد يكون فضلها على التسمي باسم إبيه المغمور لغاية تجارية . كما قيل ان آرام ربيب رب العائلة ليون غربيان فتسمى باسمه ، ولما توفى ليون غربيان أوصى بثروته الى آرام ، وقيل انه سجل اكثرها باسمه قبل وفاته وهي ثروة طائلة من أملاك ، ووكالات مربحة جداً ، منها (شيلمان) حديد واخشاب وسكاير (كراڤن اي) و (ثرى فايف) ، ووسكى بنوعين وغير ذلك . وكانت هذه السيدة حين زارتني أول مرة تشكو من مضايقات عضوية مألوفة في شهر العسل ، ودخلت مرة ثانية الى عيادتي وهي حامل في الشهر الاول ، وتابعت زيارتي بانتظام في كل شهر . ويوماً وهي في حملها بالشهر الثالث جاءتني تشكو من تورم في فخدها اليسرى مع قدر من الألم ، فنصحتها بالراحة التامة مع تناول حبوب (سكس ناين ثرى) ، وهي من مركبات السلفا ، وكانت هذه المريضة مطيعة وملتزمة بتنفيذ نصائحي ، فشفيت من مرضها بعد نحو اسبوع واحد .

وفي خلال ذلك كنت ازورها في بيتها بين يوم ويوم فاذا دخلت بيتها ياتيني سائق سيارة آرام ويأخذ مفتاح صندوق سيارتي الخلفي ليضع فيها من انواع التمور المحشوة باللوز ، وقناني الوسكى ، وعلب السكاير مايكفى لضيوفي عاماً أو اكثر .

ووضعت هذه السيدة من تمام حملها بسهولة في مستشفى السعدون الذي كنت يومئذٍ أدخل مرضا ي فيه ، وفي اليوم الثالث من نفاسها شكت لي من الم خفيف في فخذها اليسرى وصفته بانه شبيه بالالم الذي عانت منه في الشهر الثالث من الحبل ، فوصفت لها حبوب البرونتوسل وهي ايضاً من مركبات السلفا ، غير ان الألم بدأ يزيد كما ظهر على فخذها اليسرى تورم يسير ، وما لبث حتى ازداد وصار بقدر ماكان مثله في الفخد اليسرى ولانني أمارس معالجة مثل هذه الحالة بكثرة في المستشفى الملكي واعرف مشاكلها وعواقبها ، فقد ركبتى القلق منها على هذه المريضة ورأيت من الحذر والأصول ان أستدعى طبيباً آخر ليشاركني هذه المسؤولية ،

وانا غريق كرم زوجها الجم السخاء والأدب . ويومها كان الدكتور ماكس كروباخ الالماني اليهودي مسيطراً على ممارسة الطب في بغداد ، وكنت قد تعرفت عليه في مستشفى ميرالياس يوم كان هو الطبيب الأول فيه ، فطلب مني (آرام) ان أستدعيه ليشاركني في معالجة زوجته أرمنيس .

فاقترح كروباخ وضع العلق الطبي على الفخذ المتورمة ، ولم اكن أعرف الى ذلك اليوم شيئاً عن هذه الدويبات كواسطة علاجية لمثل حالة أرمنيس ، ولكنني أذكر بشكل غير واضح انني رأيتها مرة حين إستخرجها أحد رجال حارتنا بسامراء واسمه (علي المويل) من فم بغلته التي كان ينقل عليها التمر (الجسب) من (بلد) الى تكريت ، وكانت دواب هذا الكروان ترتوي في طريقها من المياه الآسنة حيث تعيش فيها هذه الدويبات القبيحة اللون فتلتصق بافواهها . وقد وضع على المويل واحدة من هذه الدويبات على صدغ صديق له يشكو من الصداع فبرىء على ما إدعاه .

ودلني الدكتور كروباخ على دكان شخص يبيع العلق ، بسوق الشورجة وهو يهودي ملتح كبير السن اسمه (شاؤول) ، ومحله جزء من دكان لشخص آخر يتاجر بالخزفيات بهذا السوق ، وبضاعته دويبات العلق التي يحفظها في حباب خزفية مليئة بالماء ، فاشتريت منه ثلاث علقات بستمائة فلس ، أخرجها من أحد تلك الحباب وأسقطها في قدح خزفي في قعره قليل من الماء . وكان كروباخ قد علمني طريقة وضع هذه الدويبات على فخذ المريضة ارمنيس فوق مسار العرق (الصافن) ، إلا انني حين رأيتها تتحرك على جدار القدح باحثة عن ممسك تتعلق به وجسمها اللامع يتلوى وهو يتدلى بثقله في الماء استقبحتها ورأيت من الأفضل ان اطلب الدكتور كروباخ ليقوم أمامي بوضعها على فخذ المريضة فاتعلم منه الطريقة . وجاء كروباخ بتواضع ، وطلب ورقة نشاف وثقبها في ثلاثة مواضع في خط مستقيم ، وبللها بالماء ثم وضعها على فخذ المريضة بحيث تكون الثقوب الثلاثة على مسار العرق الصافن . والتقط العلقات الثلاث بعودي كبريت ورماهن فوق ورق النشف المبتل بالماء . وصارت هذه العلقات تتحرك على غير هدى والدكتور كروباخ يوجهها بعود الكبريت نحو الثقب الذي عمله في ورق النشف ، فلما احست هذه الدويبات إنها على جلد المريضة فتحت أشداقها وتمطت على ماتحتها من الجلد وهي تتلوى بحركة دودية وشرعت تمص الدم بنهم وارتياح ، واجسامها تغلظ وتقصر ،

وبعد بضع دقائق صارت كل واحدة منها بحجم إصبع الابهام وكادت تسقط بفعل ثقلها ، وحينئذٍ طلب الدكتور كروباخ قليلًا من الملح وأذابه في ماعون (استكان) الشاي وقطّره نقطة فنقطة على رؤوس العلقات ، فاشمأزت هذه من الماء المملوح ، ورفعت رؤوسها كما ترفع البقرة رأسها اذا شبعت من عشب المرعى . وكنت أنا والدكتور كروباخ نرقب حركات هذه الدويبات حين بدا عليهن الاكتفاء والشبع بعد هذه الوجبة الدسمة ، فاعادت رؤوسها مرة أخرى الى المرعى إلا أنها نفرت منه وسقطت بلا حراك على ورق النشاف المبتل .

لم اكن أعرف يومئذٍ شيئاً . عن فعل هذه الديدان في مثل هذه الحالة المرضية . قال لي الدكتور سكس انها تعمل كما يعمل الفصد في تخفيف الاحتقانات والامتلاء الدموي ، ولو براحة أقل ، ومن جهة ثانية تفرز من فيها مادة تمنع التخثر الدموي الذي هو سبب هذا الاختلاط النفاسي . وكنا يومئذ نعالج هذه الحالات المرضية في المستشفى الملكي بمرهم الاكثيول وربط الرجل المتورمة بالجبائر لتحديد حركتها خوفاً من انفصال الخثرات الدموية عن جدار الأوعية الملتهبة فتسبب انسداد الاوعية الدموية في مكان ما من الجسم وكان المعتقد في زمان سابق : ان سبب تورم الرجل هو اللبن الذي ينحدر من الثديين الى الرجل الملتهبة فتسبب تورمها ، ولذلك كان اللبن من الثديين في هذه الحالات نزراً على غير المعتاد في الاسبوعين الاولين من النفاس ، وهو معتقد خاطيء . وفي اواخر الاربعينات اكتشف (الهيپارين) وصنع وصار يستعمل بنجاح في هذه الحالات المرضية ، ووصل هذا الدواء الى بغداد وشاع استعماله ولكن في زمن متأخر فلم يتوفر لدينا لنعالج به السيدة أرمنيس وزوجة الصديق الكريم آرام غربيان ، على ان الوقت كما يقول الانكليز (يشفى الجروح) ، فاستعادت ارمنيس رشاقه رجلها ولكن بعد وفاة زوجها آرام وهو يستقل سيارته ليمارس عمله في مكتبه بعمارة الدامرچي ببغداد .

على ان استعمال حقن الهيپارين في بادي أمره لم يكن سهلًا مالم يفحص دم المريضة بين وقت وقت من (وقت التخثر الدموي) وإلا قد ينتج عن استعماله نزف شديد أو مميت ، وكانت هذه هي ماجعلت الاطباء يستعملونه بحذر وخوف . إلا ان ماحدث في مستشفى ميرالياس باستعمال هذا العقار مايدعو الى الاستغراب . فقد كان هذا المستشفى

يستورد امپولات الهيپارين من شركة(.B.D.H) الانكليزية وهي تستعمل رقعها التي تحمل اسماء مستحضراتها بلون واحد . فكانت رقعة أمپولات الهيپارين بلون وبشكل كتابة اسم امپولات (الهيپاتيكس) التي تستعمل لعلاج بعض انواع فقر الدم . وهذا الدواء سليم استعماله باية جرعة . اما حقن امپولات الهيپارين فتخضع لقواعد واصول اذا اهمل اعتبارها قد يؤول الأمر الى قتل المريض . وكان احد اطباء مستشفى ميرالياس واسمه (بالايان) وهو أرمنى من اصل فارسي وقد خلف الدكتور كروباخ في مستشفى ميرالياس، وكان الدكتور بالايان يكثر من وصف ال HEPATEX ، ويوماً اعيدت وصفة هذا الدواء الى الدكتور بالايان مكتوب على حاشيتها عبارة (نفدت هذه المادة في الصيدلية) فاستغرب الدكتور بالايان من هذه الملاحظة ، وهو متأكد ان في الصيدلية منها مايكفى لأشهر أخرى ، فذهب بنفسه الى الصيدلي (موبيس) الذي كتب تلك الملاحظة ، فاكتشف ان الصيدلي (موبيس) كان يخلط بين اسمى ال HEPATEX وال HEPARIN فيزود المريض بالدواء الأخير متوهماً انه الدواء الاول فنفد هذا العقار الأخير، والغرابة اكثر من ذلك ان ال HEPARIN الذي استعمله للمريض دون التحفظ الذي ذكرته لم يسبب اية نتيجة سيئة على المرضى الذين تناولوه .

جاموسة ثائرة في المستشفى/ ١٩٤٣

في محلة الطوب (قرب باب المعظم) بيوت تعنى بتربية الجاموس من أجل لبنها الدسم الذي يصنع منه القيمر . وهذه الحيوانات ضخمة تحب الغطس في الماء وخصوصاً في فصل الصيف ، فيقودها اصحابها من بيوتهم عبر باب المعظم وشارع المستشفى الملكي الى شاطى نهر دجلة المقابل لخضر الياس في الجهة الاخرى من النهر . وتقطع هذه الحيوانات هذا الطريق الطويل بأناة وتمهل متحدية اسراب السيارات فتضطر هذه ان تبطىء في سيرها حين تقاطعها هذه الجواميس، ونادراً ما تسرع الجاموسة حين تتعقبها السيارات لتجتاز مسراها . ومنظر الجواميس حين تغطس في نهر دجلة فلا يظهر فها سوى رؤوسها صورة تجلب

الانتباه . وفي يوم وأنا في الردهة العاشرة رأيت من خلال احدى نوافذها هرج ومرج في الباحة التي أشرف عليها ، فخرجت لاستطلع هذا الأمر غير المألوف ، كان مراجعو المستشفى ومن فيها من الموظفين والشرطة والاطباء يركضون في هذه الباحة بذعر وبغير انتظام ، والنساء والاطفال يصرخون ويزدحمون أمام مدخل الردهة العاشرة ليدخلوها ، وبعضهم يحاول ان يختفي وراء جذع نخلة ، وعلى حين غرة رأيت جاموسة تركض على غير هدى وكأنها تنحدر من عل فترتطم بما على جانبها وما أمامها من بشر وشجر ، وينسلخ جلدها فتنحدر منه الدماء الغزيرة وهي لاتبالي إلا لتجد منفدا لتلحق ببنات جنسها اللاتي سبقنها الى ماء النهر ، وتزايد الرعب والصخب حين حاول شرطيان إيقافها فهاجمتهمابوحشية مخيفة ! فهربا منها ودخلا باتجاه المستشفى وما كادا يسدان بابه ورائهما حتى وصلت الجاموسة ونطحت باب المدخل فحطمته .

ثم ارتدت الى خلفها واستأنفت ثورتها الجامحة المخيفة ،فاضطر أحد الشرطة الى ان يطلق عليها النار ، فازداد هياجها والدم ينفر منها ، ثم اردف الطلقة بأخرى وثالثة فسقطت ترتعد على الارض لتلفظ أخر انفاسها .

لص ذكي ١٩٤٣

المعلوم في اللصوصية ان السرقة تحدث على الغالب في تستر وتخف ، وفي ظلمة الليل ، وباوقات مناسبة ، ويقال عن اللص المتمرس انه ذكي في حبك خطة سرقته ، كما يقال انه يرصد أهل البيت باتقان فلا يستيقظون لمطاردته ، ويقال أيضاً انه جبان اثناء عملية السرقة ، فيخيفه سعال المدخنين في الليل ، وصراخ الاطفال . فيحسب ان اصحاب البيت الذي دخله ليسرقه يقظون . واذا طورد تضرع الى الله من صميم قلبه ، وبخشوع لينجيه من محنته . وأما اللص الذي سرق بيتي فذكي فعلا ، وطريقته في السرقة مبتكرة ، ولم يكن جباناً ، كما لم يتستر بظلام الليل . فقد دخل بيتي هذا السارق في وضح النهار ، فيما بين ساعتي الفطور والغداء ، اي في الوقت الذي لاتكون في بيتي إلا زوجتي والبستاني (خضير) . ودخله

متودداً متحبباً كأنه من الاصدقاء اوالاقارب ، وخاطب زوجتي باسمها وكنيتها (أم نيران) .

كبس هذا السارق على زر جرس باب بيتي ، ثم نادى باعلى صوته كما يفعل اي واحد له حرمة مع أهل الدار

- ياأهل البيت !

وطلعت عليه زوجتي ، فاذا هو رجل في الثلاثين من عمره يرتدي مايرتديه اصدقاؤنا من اهل سامراء الذين كثيراً ما يزورونا وهم يحملون الينا هداياهم من محاصيل مزارع المدينة وصارت زوجتي بتكرار زيارة هؤلاء الاحباب لاتخطىء في معرفة هذه الفئة ، فحسبت هذا الطارق واحداً منهم واستقبلته بترحاب وتهليل ، ودخل البيت وهو يقول لها ويتأفف .

- هلكت وأنا أمشي في الطرقات حتى اهتديت الى بيتكم العامر ياأم نيران .

فاعتذرت منه زوجتي عما لاقى في ذلك ، وقادته الى صالون البيت وقدمت له (فنجاناً) من القهوة التركية المهيلة ، وقطعة من (من السما) المحلى بالسكر ، وسألته عن الأهل في سامراء ، فأجابها

- بخير ولا يعوزهم الا زيارتكم لسامراء .

وحين نهض ليودع زوجتي قبل ان يغادر الدار قال لها

- أبو الدكتور كمال بعث معي (عكة) كبيرة مملوءة دهن حر ، وقد تركتها في دار صديقي بالاعظيمة بالقرب من جامع الامام الاعظم ، لانني أردت ان اعرف مكان البيت أولًا ثم أعود بالعكة اليكم .

ودفعت الاريحية زوجتي ان لاتكلف هذا الرجل اكثر مما فعل لاجلنا ، فنادت على البستاني ان يصاحب الرجل ليحمل الينا (عكة) الدهن . فشكر الرجل زوجتي على اريحيتها وتعاونها وهو يقول .

- كنت في الواقع أنوى ان اسألك هذا ياخانم .

وذهب البستاني (خضير) مع الرجل وزوجتي تودعه بالثناء والشكر . وبعد نحو نصف ساعة عاد ذلك الرجل الى بيتي وقال لزوجتي بهلع .

- حمل (رجلكم) ظرف (عكة) الدهن فانشق طرف منه ولا يمكن حمله بهذا الوضع ، وتركته مع (رجلكم) في منتصف الطريق اليكم فاعطوني قدرين ثلاثة حتى نفرغ مافي العكة فيها . فاسرعت زوجتي وزودته بقدرين

كبيرين من النحاس فحملهما وغادر البيت الى مكان خضير والعكة التي معه كما ادعى .

ووصلت الى بيتي ولم يكن قد عاد خضير بقدور الدهن وقد مضى على ذلك اكثر من ساعتين .

واستقبلتني زوجتي متهللة الوجه ، تقول :

– غريب ، كاد دهننا ينفد ، فوصلنا دهن من سامراء .

وانتظرنا خضير ، فعاد بعد اكثر من ساعتين وهو لايحمل شيئاً بيديه ، فسألناه

– اين الدهن ياخضير؟

– اي دهن ؟ أخذني ذلك الرجل الى زقاق قرب جامع الاعظمية ثم قال لي انتظر هنا لاشتري علبة سكاير ، وذهب ولم يعد اليّ . وظهرت حيلة ذلك الرجل في هذه السرقة ، إذ لم يذهب لشراء علبة سكاير كما ادعى ، بل جاء الى بيتي ليدعى ما ادعاه عن (العكة) التي انشقت ، فأخذ القدرين لنفسه . ويومها كانت قدور النحاس ذات قيمة عالية . لقد كان ذلك اللص ، ذكياً وجريئاً حقاً .

في مقهى خليل ١٩٤٤

منذ كنت صغيرا انظر الى المقهى كما انظر الى دواوين شيوخ العشائر التي يجتمع فيها افراد العشيرة لحل مشاكلهم الاجتماعية والزراعية والعائلية ا ذ لم يكن مألوفاً ان تحل هذه المشاكل في البيوت الخاصة إلا اذا كانت المشكله عائلية بحته . ولم يكن مألوفاً ان يدخل الصغار المقهى ، فهو خاص بالكبار . وصرت اعد من فكر باستحداث المقهى ذا عقلية راجحة وذكاء خاص . وكان اول مرة ادخل فيها المقهى حدثاً متميزاً بالنسبة لي ، وكان ذلك يوم عدت من الحلة الى سامراء في العطلة الربيعية ثم انقطعت عنها بعد تخرجي في كلية الطب ولكن ميلى الى دخوله بقي يداعب افكاري كلما مررت باحدها في شوارع بغداد . وكان من اصدقائي

القدماء بسامراء فاضل العباس الياسين ، وهو اكبر مني قليلا غير ان صداقتنا الحميمة قربت بين عمرينا في كثير من المشاعر . وقد اعتاد فاضل منذ فارقت سامراء للدراسة في بغداد ان يزورني وهو يحمل لي من اهلي بعض ماأحتاجه وبخاصة المأكولات من مطبخ البيت . وذات مرة ضرب لي موعداً لمقابلته في مقهى خليل المقابل لمدخل شارع المتنبي من جانب شارع الرشيد . وخليل هذا هو نفسه الذي كان يدير حانوت المدرسة الاعدادية ، وهو يعرف صديقي فاضل كما كان فاضل يعرفه لكثرة ماكان يقابله في حانوت المدرسة ليعطيني مايحمله الي من اهلي بسامراء . وقصدت مقهى خليل بشارع الرشيد فاستقبلني خليل بترحيب واقعدني على حشية الى جانبه ، ويادرني يسأل

- شلونك ، دكتور كمال ؟
- شكراً ، الحمد لله
- اعرف انك جئت لمقابلة فاضل ، انه لم يحضر بعد وهذا هو وقت مجيئه اذا كان هو في بغداد .
- هو في بغداد وقد كلمني تلفونياً قبل ساعة .

كان مجلسي الى جانب خليل يشرف على الشارع كما يشرف على جميع تخوت المقهى ومن يدخل اليها أو من يخرج منها . واجتذب نظري بشكل خاص رجل من مسن يحتل ركناً على تخت في المقهى قريباً مني .. وكان ينظر الى بغيظ وهو يسحب نفساً من خرطوم نركيلته ، ثم رأيته يلتفت الى رجل يجلس الى جانبه ، وهو يرفع ساقه اليمنى ليريحها على رجله الأخرى ، وشرع يقرض بسكين صغيرة اظافر قدمه . وهو دائب يشرح موضوعاً لاباهتمام ولابغير اهتمام وكأنما يكلم نفسه والرجل الآخر لاينفك ينظر الي من طرف عينيه بين حين وحين .

وقال خليل كمن يريد ان يفتح باب حديث بيني وبينه

- فاضل ، صديقي مثل ماهو صديقك وهو آدمى ابن أوادم

فقلت له

- صداقتنا قديمة

فقال

- أعرف ، انها منذ كنت انت في المدرسة الثانوية ، وكان يحمل اليك الكليجة ، والبيض من اهلك بسامراء (ثم سكت قليلًا فاستطرد يقول)

تزوج . تدري ؟
فقلت له :
- وصار له ولد سماه حازم
- هذه لا أعرفها
والتفت خليل بينما كان يكلمني الى الرجل الذي كان يدخن النركيلة وجليسه الذي مازال يقرض اظافر قدمه . ويظهر ان هذا الأخير قد جرح طرف أصبعه إذ رأيته يخرج من جيب زبونه منديلًا احمر كبيراً وأخذ يضغط به على أصبعه المجروح . وسمعت مدخن النركيلة يقول
- ينراد لك تنتريون .
فصاح الرجل الجريح ينادى خليل
- خليل عندك تنتريون ؟
وصاح مرة أخرى
- خليل عندك تنتريون
وأجابه خليل بضجر
- سمعتك ، من أين لي بالتنتريون !
وأراد ان ينكت مدخن النركيلة فقال للجريح وهو ينظر اليّ
- الدكتور حاضر لاتخاف
فابتسمت لهذه الاشارة فسألني
- شلونك دكتور كمال ؟
- شكراً أنا بخير
- عرفتني ؟
ولم أجبه ، فقال لي
- أنا الياس ، عمك الياس !
فقال له خليل
- يرحم أبوك منين يعرفك ؟
فقال الياس
- أخوه أبو مجيد ، وأخوه ابو ثامر يعرفاني ، ودكتور كمال يعرفني بما أنه تذكر يوم كان يسكن من غرفة فوق خان حميد الحنونة
وحين ذاك تذكرته .
وبعد دقائق غادرت المقهى ومعي فاضل لتناول الغذاء في بيتي .

الى كركوك لفحص مريضة ١٩٤٤/٣/٢

كان ذلك اليوم ماطرا ، والسماء ملبدة بالغيوم وصاخبة بالرعد حين جاءني الصديق عبد الله شريف يرجو ان اسافر الى كركوك لفحص مريضة في حالة مرضية مستعجلة . والتفت الى شخص يقف الى جانبه في نحو العشرين من عمره ، ممتلىء الجسم بلا ترهل ، وفي عينه اليسرى حول يسير قدّمه عبد الله شريف باسم (ق) بك وقال :

– انه صديقي الحميم ، وقد وصلته برقية من زوجته في كركوك تطلب منه ان يستقدم طبيباً من بغداد ليعالج حالتها المرضية السيئة .

وسمع (ق) بك ما قاله لي عبد الله شريف فأضاف

– هذه زوجتي الثانية واني احبها وهي تحبني ، وقلق على صحتها .

واخذني عبد الله شريف جانباً وقال لي .

– أن هذا الشاب من عائلة محترمة في اربيل ، وزوجته من كركوك وقد تزوجا قبل سنة واحدة ، وهو ايضاً وراء الانجاب وقلق على تأخره .

وبعد قليل من الوقت صرت الى جانب (ق) بك في المقعد الخلفي من سيارته (البيوك) في طريقنا الى كركوك . وفي ديلتاوة حين أخرج (ق) بك محفظته ليدفع ماضخ في سيارته من الوقود في خزان السيارة ، فسقطت من المحفظة صورتان لإمرأة واحدة بان لي منها صدرها العريض وذراعاها الممتلئتان وحلية من الذهب بشكل الافعى تلتف حولها . والتقط (ق) بك الصورتين ووضعهما على ركبتيه وقرّب فيما بينهما وناوب النظر اليهما . ويبدو انه افتقد صورة ثالثة وصار يفتش عنها في جيوبه حتى عثر عليها بغبطة ، ووضعها الى جانب الصورتين اللتين على ركبته ، والتفت الي وقال وهو ينقر باصبعه على الصورة الأخيرة :

– هذه (البنيّة) هنكارية ، تعرفت عليها قبل شهر واحد في ملهى الفارابي

فقلت له

– احذر ان ترى زوجتك هذه الصور

فقال : هذه مسائل تخصني وحدي ، وزوجتي عاقلة لاتتدخل في أموري الخاصة ، على عكس زوجتي الاولى التي كانت تزعجني باسئلتها عن تصرفاتي فطلقتها لاتخلص من سخفها .

وما كدنا نغادر ديلتاوه حتى صار المطر ينهال بغزارة ، وبعد نحو ساعة وصلنا (الچای) وهو واد تتجمع فيه مياه المطر فيكون منه نهراً يغمر معالم طريق السيارات ويعطلّ سيرها .

كان علينا ان نعبر هذا الچاى ليستقيم مسيرنا الى كركوك أو نسلك طريقاً آخر يمر على قنطرة قديمة بالية فضلًا عن ان الوصول اليها محفوف بالمخاطر في ظلمة الليل . ولم يكن لي علم بهذه الطريقة قبل ان يوضحها لي السائق وانتبهت وأنا اناقش السائق في اختيار الطريق الافضل والاسلم ، ان (البيك) كان يمص من فم زجاجة مفلطحة لم اتبين محتواها بسبب الظلام ولكني قدّرت من الرائحة التي انبعثت منها انه من انواع الوسكي :

وتوقف السائق قليلًا يفكر في اي من الطريقين يسلك ؟ فصاح به البيك ان يستمر بسيره ويعبر مياه الچای ، فقال له السائق بادب .

– بك ، الماء يرتفع في الچاى وأخشى ان يصل الى ماكنة السيارة فيعطل حركتها ، وفي هذه الساعة من الليل يصعب علينا الحصول على من يساعدنا ، قد لايرانا أحد في ظلمة الليل وكثافة المطر.فاحتد (البيك) وشتم السائق بقذاعة ، فاذعن هذا الى أمر سيده البيك ، وخاض بسيارته السيل الجارف في الچاى . فعبره بسلام .

واعجبني ان اناقش (ق) بيك فسألته :

– لو فرضنا ان السيارة تعطلت في منتصف الچاى ، فماذا سيكون بعد ذلك .

واكتفى البيك بقوله

– ما تتعطل !

– الاحتمال موجود

فعاد يقول باعتداد

– ماتتعطل يادكتور ، وأنا افهم من هذا السائق الغبي .

ولم افتح فمي بعد ذلك بكلمة . أما البيك فاستمر يهذي بالثناء على عبقريته وحسن تصرفه في حل مشاكلة الكثيرة بالحدس والتجربة .

وصلنا الى كركوك قرابة منتصف الليل . وانتظرت في صالة الاستقبال في بيت الزوجة ليهيء البيك الموقف لفحص زوجته ، وفي هذه الاثناء دخل الصالة رجل معمم في نحو الستين من عمره وتقدم مني وكلمني بلغة كردية

عرفت منها أنه أبو الزوجة ، وحاول ان يتكلم معي بالعربية فتبين لي انه يعرفها بقدر لابأس به . وفي لحظة تناهى الى سمعي وأنا في الصالة أجهد نفسي لافهم حديث أبي الزوجة . صخب باللغة الكردية داخل البيت بلهجة العتب بين البيك وبين امرأة ، كما بدا لي ان الغضب قد تملك صاحبي البيك فغادر حرم البيت ودخل الصالة التي كنت فيها بوجه متجهم لايخلو من مرح مفتعل ، ورجا مني ان اتبعه لفحص زوجته . لم أجد بعد فحص المريضة مايستوجب استقدامي مستعجلًا من بغداد الى كركوك . كانت حين ولجت مخدعها جالسة في سريرها متوترة الاعصاب . فوصفت لها بعض المهدئات وليس اكثر من ذلك .

ولو انها قد جائتني الى عيادتي في بغداد لما وصفت لها اي نوع من الادوية ، ولكني بعد أن جئتها أنا الى كركوك فلابد ان أصف لها مايوحي لها باهتمامي بامرها فوصفت لها دواء لايفيد ولا يضر . كانت هذه المريضة تحتاج الى لمسة يد من زوجها فتنحل عقدة ازمتها التمثيلية :

وعدت الى صالون الانتظار حيث كان أبو الزوجة في انتظارنا وتناولت فطور الصباح مع البيك أما أبو الزوجة فلم يشاركنا هذا الفطور بل استأذن منا وغادرنا قبل ان نبدأ بتناول الفطور ورأيت ان اعود الى بغداد وانا اتوقع ان يبقى البيك مع زوجته غير انه كان اسبق منى الى الصعود الى السيارة . ولحق بي أبو المريضة الى السيارة وبيده حزمة من دنانير فرفضت تناولها من يده ، غير ان (ق) بيك (انتشلها) من يده ودفعها في جيبي كما نادى على السائق الذي كان لايزال في داخل البيت فخرج وهو يحمل زوجاً من السجاد ، وفتح صندوق السيارة الخلفي ووضعهما فيه . وكان (ق) بيك يجلس الى جانبي في المعقد الخلفي من السيارة ولكنه فتح باب السيارة فجأة وخرج منها لينتقل المعقد الأمامي الى جانب السائق ، والتفت نحوي وقال :

- أخاف هذا السائق ينعس وهو يسوق السيارة ، فامنعه من ان ينام

غير ان السيارة لم تدرج على الطريق حتى سمعت شخير البيك يطغى على صوت محرك السيارة .

كان الليل في اواخر لحظاته حين وصلنا الى (الچاى) وكان ماؤه قد ملأ بطن الوادي وفاض على جانبيه واختفت معالم الطريق فيه . وبرقت

السماء وانهمر المطر كأفواه القرب فزاد هذا من وحشة الليل ، فلم يبق للسائق خيار إلا العودة الى منعطف قريب ليأخذ طريقة الى القنطرة التي تفادينا العبور عليها عند مجيئنا الى كركوك . وكان (ق) بيك يغط في نومه ، ولابد ان شخيره كان عالياً لولا هدير ماء الجاي والرعد الذي صار يتوالى فلا ينقطع إلا ليبدأ من جديد .

ولما استدارت السيارة نحو القنطرة قلت للسائق :

- أليس في عبور القنطرة خطورة ؟

فأجابني :

- مضطرون ، أو نعود الى كركوك لنستأنف العودة الى بغداد في يوم لاحق (ثم استدرك يقول) سأعبرها بسلام بالاعتماد على الله. واقتربنا من القنطرة وعبرها السائق على مهل حتى اني لم أر منها شيئاً ولاعرفت أننا عبرناها إلا بعد ان ابتعدنا عنها بسلام .

وكنت راغباً في التحدث الى السائق ولو على نحو متقطع وغير مترابط لكي لا اتركه ينعس ، فقلت له :

- ارى انك سائق ماهر

فأجابني :

- أنا اعرف الطريق شبراً شبراً ، ليلًا ونهاراً

- هل تسافر كثيراً في الليل ؟

- اسافر في الليل واسافر في النهار بحسب اوامر البيك والعيشة تنراد يادكتور

- منذ متى وانت بخدمة البيك ؟

- منذ سنتين أو اكثر

- مرضيك ؟

- نعم مرضيني ويكرمني بسخاء ، وخصوصاً حين يشرب حليب السباع (يقصد العرق أو الوسكي)

كان الجو بارداً . ولايخلو من ريح ، والمطر مستمراً بتواتر . ولما وصلنا التلول التي تحف بالطريق المتعرج كان المطر قد خف قليلًا وحين اشرفنا على الغرفة كان قد توقف نهائياً . والغرفة منبطح فسيح يمتد حتى يصل مشارف ديلتاوه . ومررنا بهذه المنطقة بكثير من الرجال وهم يمتطون البغال والحمير وهي مثقلة بالاحمال .

ويترجل بعضهم لينحى القافلة عن طريق سيارتنا ، ويبطىء السائق حين يقترب هؤلاء . وقال لي :

- هذا الطريق مطروق ليلاً ونهاراً ، على عكس طريق السليمانية .

وسألته وأنا اعرف جوابه مقدماً

- ولماذا لايكون طريق السليمانية مثله ؟

فأجابني بتأكيد

- الناس تخاف من (خلة بيزه) !

وكان خله بيزه يومئذ يعبث بأمن المنطقة ، وتتناقل الناس عنه قصصاً اقرب الى الخيال من الحقيقة ، فاعطته طابع البطولة الاسطورية ، وخافه الناس فلا يسافرون في منطقة السليمانية إلا متجمعين . وقد سمعت ان شرطة السليمانية قد قتلت هذا الشقي المتمرد وعرضت جثته على قارعة الطريق ليشاهدها السابلة الذين يرغبون في التعرف عليه ويطمانوا من سلامة التنقل في منطقة السليمانية . فقلت للسائق .

- اعلنت متصرفية السليمانية ان (خله بيزه) قد قتلته شرطة اللواء

فأجابني بنفي قاطع يقول :

- كذب يادكتور ، كذب

- ولكن الحكومة قد اعلنت ذلك

- انا اقول ان ماعلنته الحكومة كذب في كذب (واضاف) لن تنال منه الحكومة فهو يوم في السليمانية ، ويوم في حلبجة ، ويوم في بنجوين ، ولايتحرك إلا في الليل ، ولايقتل إلا من افراد الشرطة ، غير ان الناس يعتقدون وهماً انه يقتل عابرى الطرق دون سبب . وقال السائق اشياءً أخرى ليبرىء خله بيزه من تهمة القتل غيلة واعتباطاً . ولم أر سبباً ان انفي ماقاله ، غير اني سألته :

- اني لم اعرف حتى الآن اسمك ياأخي

فأجابني

- اسمي قادر ، وأنا من أهل السليمانية بمنطقة (بكره جو)

فحسبته ان من انصار خله بيزه لامن اعدائه . وكنت اعرف من لهجة كلامه انه من اكراد الشمال . وحين صرنا على مشارف (خان بني سعد) تركته يتكلم على هواه وأنا بين النائم والوسنان . ولم أصح الى نفسي إلا حين سألني السائق قادر عن مكان بيتي ليوصلني اليه . وتوقفت السيارة

عند باب بيتي في الصليخ وكان (ق) بيك نائماً وتململ حين توقفت السيارة ، ونهض عن مكانه وترجل ، وصاح بسائق سيارته :

- السجّاد ، قادر السجاد

وفتح قادر باب صندوق السيارة الخلفي وأخرج السجادتين منه . وطلب البيك من السائق قادر أن يحملهما الى داخل بيتي : فقلت له :

- أرجوك يا (ق) بك فقد اعطيتني مايكفي

واقسم (بالطلاق !) إلا ان تحمل الى داخل بيتي . هدية منه فلم أجد حيلة إلا ان اخضع لما اراد وصافحته شاكراً ، وطلبت منه ان يدخل بيتي لتناول القهوة فاعتذر ، واردت ان انفح سائقه مما في جيبي من الدنانير التي قدمها لي أبو زوجته بكركوك فلاحظني البيك وانا أمد يدي بها الى السائق فنهره البيك قائلاً :

- قادر ، (بيزونك)

ثم التفت اليّ قال

- عيب يادكتور ، عيب

واستقل سيارته وغادر

بعد مرور نحو سنتين طلبني على التلفون وبادرني يسأل

- تذكرني ؟

وعرفته في التو واللحظة ، غير انه اسمه اختفى من ذاكرتي .

- فأجبته

- طبعاً عرفتك ، كيف حالك يا بيك ؟

- قل أولًا من أنا ؟

وتفاصيل سفرتي معه الى كركوك لم تزل طرية في ذاكرتي ومنها السجادتان ، والصور الثلاث للنساء عاريات الصدور التي سقطت من محفظته ونحن في السيارة في طريقنا الى كركوك .. تذكرت جميع هذه الاحداث بسرعة دون ان احتاج الى وقت لاستذكارها ، تذكرت كل ذلك إلا اسمه !! فقلت له متحايلًا :

- ان السجادتين أمام عيني في كل يوم فكيف انسَاك

وسمعته يقهقه ، وقد يكون حسب ما في كلامي ضرباً من المديح لتصرفاته في تلك السفرة ، أو لكرمه معي ، فقلت له :

- آلأمر ، أنا بخدمتك

فاجابني

- اريدك ان تاتيني الى البيت ، زوجتي مريضة

وشرح لي مكـ ن بيته في أحد شوارع الكرادة الشرقية فوصلت دون صعوبة ، ووجدت البيك على بابه . هو نفسه لم يتغير فيه شيء . ورحب بي وقادني وهو يمسك بكفي الى مخدع زوجته وعلى بابه قال لي :

- تعرف يادكتور أنا تزوجت ؟

وأنا اعرف انه متزوج ، فهل طلق زوجته التي ذهبت معه الى كركوك لفحصها أم ان هذه زوجة ثالثة فقط ؟ فاجبته

- لاأعرف انك تزوجت .

- تزوجت قبل اسبوع ، وزوجتي هذه معلمة .

إذن (البيك) عريس وهذا يفسر قيافته الانيقة وانشراحه والافرشة والستائر ذات الالوان الزاهية التي تملأ مخدع زوجته ورأيت العروس ممدة على فراش وثير في سرير واسع . وفجأة طرق خاطري انني رأيت يوماً ما وجه هذه المرأة ، فهذا الوجه الطويل والسحنة الباهته والعينان الواسعتان المكحولتان لابد اني رأيتها في وقت غير بعيد ، ولكن متى واين وسالتها وأنا اخفي احتمال معرفتي بها

- كيف حال المدام .

وسالتني

- عرفتني ؟

فكان سؤالها توكيداً على معرفتي بها .

ولم تنتظر مني جواباً ، فقالت :

- قبل ثلاث سنوات حين جئت انت وزوجتك الى البصرة بضيافة محمد العبد الواحد ، دعاكما والدي الى تناول الغداء في بيتنا .

وتذكرت فعلًا ذلك اليوم ، وكان والدها (م) يومئذٍ معاون متصرف لواء البصرة ،

وفحصت العروس زوجة البيك فلم أجد فيها مايدل على مرض فيها ، فطمانتها على صحتها الجيدة . وغادرت بيتها .

ولم أر هذه الزوجة الى بعد ثلاثة اعوام حين زارتني في عيادتي بمستشفى السامرائي فاستقبلتها باحترام واستمعت الى شكواها باهتمام ، وسالتها :

- كم طفلاً عندكم الآن

فاجابتني

- أنا مطلقة ولم انجب من (ق) يادكتور كمال

وتذكرت حينئذٍ اسم البيك وماضيه الحافل الذي عرفته

الاستاذة مس ماكداول/ ١٩٤٤

انهت وزارة الشؤون الاجتماعية عقدها مع الاستاذ كروكشانك وتعاقدت مع استاذ انكليزي اسمه (ماهانى)، وقد أصيب هذا في الاسبوع الأول من دوامه في المستشفى الملكي بالاسهال الحاد، فخشي على حياته فلم يبرأ منه حتى غادر العراق الى وطنه في برستول. وكان ماهانى في العقد السادس من عمره، ودوداً ومتجاوباً مع الظروف المحلية، فنال من زملائه في كلية الطب الرضا والحب. ثم تعاقدت الوزارة بعد مغادرة ماهانى مع آنسة انكليزية اسمها مركريت ماكداول كانت تعمل طبيبة في البحرين. وحين وصلت بغداد كان أخوها روبرت ماكداول أحد اساتذة الجراحة بكلية الطب، وهو الذي رشحها لوظيفة الاستاذية في الامراض النسائية والتوليد، وايد الترشيح عميد الكلية الاستاذ هاشم الوترى، وأخوها روبرت ماكداول طويل القامة بنحافة، أشيب الشعر، يسرع اذا تكلم أو اذا مشى فسماه ظرفاء شعبته العراقيين (عباس المستعجل).

كما لم يكن جراحاً ناجحاً، وقد فشل في كثير من عملياته لترميم (القيلة)، وكثرت على يده الاختلاطات المرضية في هذه العملية، فأصدر اطباء شعبته كراساً بورقتين عنوانه (أحسن الفتاوى في ترميم الخصاوي). وأخته الاستاذه مس ماكداول تماثله اخلاقاً وعلماً، وهي عانس في الخمسين من عمرها، طويلة القامة بل اطول من اخيها، كما كانت علمياً اقل بكثير مما يمكن ان تكون استاذة في الامراض النسائية والتوليد في كلية الطب أو رئاسة هذا الموضوع في الردهات السريرية في المستشفى الملكي. كذلك كانت عنيدة بوقاحة، فكان زملاؤها في مجلس العمادة يتحاشون مناقشة آرائها لسرعة ماتزأر لاقل سبب. ولمست بعد

بضعة أحداث في الردهة انني لا استطيع ان اسكت على طريقة فحص المرضى وعلاجهم ، ولكنني تمسكت بالصبر على مضض ، فتجاهلتها وابتعدت عن طريقها . وصار واضحاً لي انها لاترتاح ايضاً الى انعزالي عنها ، وتكرهني وتنقد اعمالي في الردهة ، هكذا جهاراً على ملأ من المرضات والاطباء وطلبة الكلية ، غير انها في الوقت نفسه لاتتورط في اية عملية كبيرة قط مالم تتاكد انني مستعد لمعاونتها في تلك العملية . وحين تسبقني الى صالة العمليات تسألني بصلافة

- تأخرت !

فاجيبها

- كان عليّ ان انتهي من علاج مريضة في العيادة الخارجية ، فتقول لي باستهزاء ونقد

- ظننت انك كنت في مستشفى ميرالياس !

وكنت في تلك الأيام اشتغل بعقد في هذا المستشفى ، ولكن بعد أوقات الدوام فقط ، واشارتها الى هذا المستشفى فيها غيرة وحقد .

وسرعان ماعرفت مس ماكداول على حقيقتها بين اطباء المستشفى فسموها (عباسية) تناظراً مع لقب أخيها (عباس المستعجل) ، كما نشر أحد ظرفاء شعبتي من الاطباء ورقة بعنوان (استعمال الدكم في رفع الرحم) اشارة الى عملياتها غير الناجحة في ترميم سقوط الرحم .

ويحضرني مثل من تصرفاتها مس ماكداول الغريبة الكثيرة .

فقد ادخلت ذات يوم مريضة الى الردهة النسائية مصابة بالتهاب حاد في انسجة حوضها مع ارتفاع بدرجة حرارة جسمها ، والم ثقيل في بطنها السفلى ، وقد علمت من حماتها ان حالتها اعقبت معالجتها من قبل احدى (الجدات) لكي تحمل من زوجها ، وانها دفعت في مهبلها عشبة يعرفها العامة باسم (شعفة العجوز) وهذه العشبة تشبه الى حد ما اصابع (اللاميناريا) فاذا وضعت في الماء أو في مكان رطب كجوف المهبل امتصت الماء من رطوبته وانتفخت .

ومررنا بهذه المريضة أنا والدكتورة مس ماكداول فقالت : هذه حالة اسقاط جنائي ويجب ان ترفع خبره الى الشرطة ، فقلت لها : ان المريضة عقيم منذ زواجها قبل خمس سنوات ، وهي وراء الحبل باي ثمن وباي

علاج ، فالتجأت الى طب العجائز والقوابل فعالجنها بوضع جذور نباتية في المهبل . فعارضتني مس مكداول تسأل : هل رأيت تلك الجذور ؟ ولم اكن قد فحصت المريضة لارى مافي مهبلها ، والمريضة قد ادخلت تواً الى الردهة ، فقلت لها

- لم افحصها بعد

فقالت : كيف تثق بما قيل لك ؟

وأصرت مس ماكداول على ان الحالة (اسقاط جنائي) ولايصح علاجها قبل ان نخبر الشرطة عنها . وحاولت اقناعها انها غير ذلك ، وان المريضة تطلب الحبل لا التخلص منه ، فقالت بحدة

- ان المريضة تكذب ، واني اشتغلت سنوات في البحرين وعرفت مايكفي ليجعلني لا اصدق ماتذكره المريضة عن نفسها .

ورأيت ان نقاشي مع المس ماكداول في تشخيص حالة هذه المريضة لاطائل من ورائه ، فقلت لها

- على اية حال فان المريضة في حالة تستدعى علاجها آنياً . فأجابتني بحدة وعصبية

- ليس قبل ان نخبر الشرطة عنها !

فقلت لها ان الشرطة ستطلب منا تقريراً عن حالة المريضة ووجهة اتهامنا لها بالاسقاط المتعمد ، فقالت لي :

- فليكن

فقلت لها ، والغيظ يغليّ في صدري :

- كما تريدين

واتصلت بدائرة الشرطة التي في المستشفى الملكي ، فحضر أحد (مفوضيها) وسألني عن كامل اسم مس ماكداول وعمرها ومركز وظيفتها في المستشفى ، فأجبت على كل ذلك . فسألتني المس ماكداول

- سمعت اسمي تذكره لهذا (اليوليس) ، فما الأمر ؟

فقلت لها

- هذه هي الاصول الحكومية ، وأنت المخبرة عن هذه الحالة .

فقالت وهي تنتفض

- قل لهذا اليوليس ان يرفع اسمي مما كتبه في ورقته . وحاولت اقناعها

ان ذلك اجراء حكومي لايصح تفاديه
فقالت لي
- اعطهم اسمك
- وهذا لايصح ايضاً ياستاذة
فقالت لي
- ولماذا لا يصح
فقلت لها
- لانني لا أعتقد ان هذه الحالة جنائية لأخبر الشرطة عنها .
وانتبه مفوض الشرطة الى هذا الجدل ، فاستفهم عما نتكلم فيه . فابدى استغرابه من موقفها ، وقال لي
- أرجو ان تقول لها اذا لم تدل بافادتها فانها تعد متسترة على جريمة تدعى حدوثها .

فترجمت لها ماقاله مفوض التحقيق فثارت وهددت وغادرت غرفتها وتركتني وحدي مع المفوض . وفي تلك اللحظات رنّ جرس التلفون وتناولته واذا الدكتور سندرسن عميد الكلية ومدير المستشفى الملكي يطلبني الى غرفته .

وسندرسن يعرف اية عقلية في رأس هذه الاستاذة . وحين دخلت غرفته ، كانت مس ماكداول واقفة الى جانب طاولته الكبيرة وهي ترتجف بغضب . وقصصت على سندرسن امر المريضة ومفوض التحقيق من اولها الى آخرها بدقة وأمانه ، وكانت مس ماكداول تقاطعني بين حين وحين في جوانب شكلية لاتغير من صلب ما اقوله ، بينما كان سندرسن يكبت ابتسامة ذات معنى واضح . وشكرني سندرسن وطلب مني ان اعد الإخبار عن هذه الحالة المرضية ملغياً . وانصرفت من غرفته وانا اسمع اعتراضها على قراره . وبعد نحو شهرين انهت الوزارة عقد مس ماكداول وغادرت العراق . واكثر الاحتمال ان سندرسن هو الذي نصح الوزارة بهذا الاجراء ليتحاشى المزيد من اخطائها الطبية وتصرفاتها المشينة.واطرف ماسمعته في ثلب مكانتها في المستشفى الملكي كانت على لسان الدكتور هادي الباچهچي ، قال
- يحكى ان لأحد الولاة العثمانيين فيل مدلل ، فيدخل سوق المدينة ويدهس السابلة ، ويعبث ببضائع الحوانيت ، فلا يجسر أحد ان ينهره أو

يبعده عن أنفسهم وحلالهم ، ولما كثر الضرر علي اهل هذه المدينة من ذلك الفيل ، قرر جمع من اولئك المتضررين ان يرفعوا عريضة الى الوالى يسترحمونه ، ربط الفيل لابعاده عن ايذاء الناس ، وتقدم الجمع من قصر الوالى ، فخاف بعضهم ان يغضب الوالي عليهم وهو سريع الغضب شديد العقاب فيأمر جلاوزته بضربهم أو يزجهم في السجون ، فتراجعوا عن دخول القصر ، ولما صل الآخرون الى باب القصر لم يبق منهم إلا نفر قليل .

ولما صاروا عند باب ديوان الوالي لم يبق منهم إلا واحد فقط وهو الذي يحمل العريضة التي اتفق الجمع على رفعها الى الوالي الغاشم ، فلما رأى انهسيكون وحيداً أمام هذا الطاغية بعد انه خذله أصحابه وانسحبوا عن مقابلته ، قرر ان ينتقم لنفسه منهم ، فاخفى العريضة في جيبه ، وتقدم من الوالي بوجه باش ، وقبل الارض بين يديه ، فسأله الوالي بوجه عبوس

– ما الأمر يارجل ؟

فأجابه

– الفيل يامولاى المعظم الرحيم ، الفيل !

وصرخ الحاكم بوجه الرجل

– مابه ، أأصابه أذى ، تكلم

فقال له الرجل

– أبداً يامولاى ، انه بخير وعافية وهو محبوب الجماهير قاطبة .

– اذن ماذا عن الفيل . تكلم ؟

فأجابه الرجل

– اننا نحب فيلكم حباً جماً ، غير ان حبنا له لايكفى

– ماذا تقصد ؟

– انه يحتاج يامولاى الرحيم المعظم الى (فيلة) معه ، وبدونها لايهدأ له حال ولاتهنأ معيشته .

فتبسم الوالي حينذاك وفتل شاربه وقال له

– فهمتك يارجل ، وانت على حق واشكرك على اهتمامك براحة فيلى واسعاده ، وسآمر حالًا باستيراد (فيلة) زوجة له ووصلت الفيلة بعد ايام وصار يسرح ويمرح في ازقة المدينة واسواقها فيلان لافيل واحد ، ومثل ذلك صار في المستشفى الملكى ماكداول اثنان لاماكداول واحد .

ولم تجدد وزارة الشؤون الاجتماعية عقدها بعد انتهاء عام على غير

عادتها مع الاطباء الاجانب الآخرين ، فغادرت العراق هي وأخوها الاستاذ ماكداول . وفي سنة ١٩٦٤ حضرت المؤتمر النسوي في كلاسكو وكانت مفاجأة حين صرت أمام الاستاذة مس ماكداول وجهاً لوجه . واردت ان احييها الا انها سبقتني وستدارت بحركة عسكرية الى وراء فاختفت بين حشد من المؤتمرين . ودفع الله ماكان أسوأ .

حالة مرضبة غريبة جداً/ ١٩٤٤

البنك العثماني مؤسسة بريطانية في بغداد ولها مدير انكليزي اسمه (جيمسون) ومدير عراقي اسمه عبد الله بطاط ، وهذا الأخير من يهود بغداد الطيبين وصهر الدكتور البيرالياس .. وقد عرفته عن طريق زوجته التي كانت احدى مريضاتي ، فكان يساعدني فيما أريد تحويله الى بيروت حين اسافر الى لبنان في عطلات الصيف ، وكان تحويل الاموال يومئذٍ غير مقيد ولكنه معقد ، ويوماً رجاني عبد الله بطاط ان استقبل زوجة مدير البنك العثماني في عيادتي ، وهذا معناه ان اهتم بها بشكل خاص ، وكانت هذه المرأة قد ناهزت الاربعين من عمرها ، هزيلة البدن دون ماشكوى ، وهي أم اولد وبنت . وشكواها التي زارتني من أجلها ألم مفاجي في بطنها السفلى . ولم يكن هذا الألم قوياً ليحفظها في فراشها . كما شكت لي من اضطرابات معدية في كل صباح منذ نحو اسبوعين . وعند فحصها وجدت جدرةً غليظة على بطنها داكنة نتيجة عملية لاورام رحمية اجريت لها قبل سنتين في ارلندا كما وجدت اثناء الفحص ان الرحم قد استؤصل غير ان عنقه لايزال في محله . ولم أجد بعد التحري الدقيق سبباً لشكواها ، ولا استطعت ان اقف على تشخيص مرضها .

وعادت في اليوم الثاني كما وعدت لاراها اعتماداً على احتمال ظهور علامات أخرى تقودني الى تشخيص مرضها ، ولم ينقض ذلك اليوم حتى استدعاني زوجها تلفونياً لشدة ماتعانى زوجته من آلام ، وهو يقول انها بحالة تخيفنى فتعال رجاءً على عجل . كانت في فراشها باهتة السحنة ، ضعيفة النبض . فاقترحت على زوجها ان تنقل الى المستشفى الملكي

حالًا ، وسبقتها الى المستشفى لاهيء لها غرفة أو سريراً في اي مكان فيه ، وأنا افكر في الوقت نفسه في مايمكن ان يكون مرضها ، وخطر ببالي ان تكونَ حالتها جراحية مصحوبة بنزف داخلي ، ولولا انها قد رفع منها الرحم لركزت في تفكيري على احتمال الحمل خارج الرحم ولفتحت بطنها على هذا الاساس دون تريث ، ومع ذلك رأيت ضرورة فتح البطن لاستقصي مصدر النزف البطني . وما أغرب ماشاهدت ، فقد كان جوف الحوض مليئاً بحويصلات الحبل العنقودي ، فكيف حدث الحبل وقد رفع الرحم ، وكان إتمام العملية سهلًا بعدان وجدت الحبل قد حدث في احد انبوبي الرحم اللذين لم يرفعا مع الرحم ، كما وجدت المبيضين بحالتهما الطبيعية . فلابد ان حوين الزوج قد زحف صاعداً قناة عنق الرحم الذي لم تردم فتحته الداخلية كما يجب ، فحدث التلقيح داخل الجوف الحوضى . فالغرابة في هذه الحالة ذات وجهين ، اولهما انها حدثت مع عدم وجود رحم ، وثانيهما ان التلقيح لم يحدث داخل أحد انبوبي الرحم بل في الجوف البطني ، وهذا من أغرب حوادث الحمل البطني .

وفي هذه الحالة انغرزت البويضة الملقحة في مكان ما على جدار الامعاء لتتغذى من دمه . وغادرت المريضة المستشفى بحالة جيدة لتسافر بعد أيام لتمضى دورة نقاهتها بين اهلها في ارلندا .

مستر فيروذر في معسكر الحبانية/ ١٩٤٤

وصلنى نداء تلفوني من الحبانية ، كان المتكلم فيه فتاة كنت الى يوم قريب أعالج أمها من ألم تشكو منه في اسفل بطنها ، قالت تلك الفتاة وصوتها يرتعش .

- دكتور ، أنا اكلمك من الحبانية ، أمي في حالة خطرة ، وهي الآن برعاية طبيب المعسكر المسؤول عن المرضى النساء ، وها هو يكلمك .

- وانتقلت المكالمة الى شخص آخر يقول أنا مستر فيروذر بمعسكر الحبانية .

وكنت اعرف ان لقب مستر بين الاطباء في بريطانيا يطلق على من يعمل منهم في الجراحة الطبية في اي اختصاص فيها ، وهو يقابل لقب (طبيب)

لمن يختص بالامراض الباطنية ، فأجبته .
- تفضلوا أنا السامرائي
- لدىّ حالة مرضية ، هي إمرأة عراقية .. وحبذا لو تفضلتم بمشاركتي في معالجتها ، (واردف يقول) وباي حال فالمريضة تطلبك بالذات لفحصها .
فأجبته
- بكل سرور ، ولكن كيف اصلك ، وقد قالت لي ابنتها ان حالتها مستعجلة
- ستكون طائرة (دوف) جاثمة في مطار المثنى ببغداد بعد أقل من ساعة وسيكون فيها من ينقلك الى المعسكر .
فتوجهت الى المطار ورأيت طائرة صغيرة جاثمة على أرضه ، وقد شرع يترجل عنها شاب بهيئة عسكرية ، وقدرت انه هو الرسول الذي جاءني من معسكر الحبانية ليحملنى بهذه الطائرة اليه .
فتقدمت منه كما لو أنني متأكد من هويته ، فبادرني يعرّف نفسه
- أنا المضمد (سمث) من معسكر الحبانية ، وهذه الطائرة جاهزة لحملك اليه .
وكانت الطائرة مازالت مراوحها تدور بضجيج معتدل ، وما كدت استقر على مقعد فيها وراء الطيار الشاب والى جانبي المضمد سمث حتى اقلعت وانا اهم بربط حزام الأمان حول بطني ، وبعد أقل من نصف ساعة حطت الطائرة ، ونحن على متنها على مطار الحبانية ، واستقبلني على ارضه شخص ذو ملامح وهيئة هندية ، وبعمة بنفسجية اللون داكنة وقدم لي نفسه باسم دكتور (شاه) ، وقادني الى داخل المستشفى الذي بدا لي بالرغم من صغره وبساطة محتوياته في لياقة تامة لاستقبال المرضى . كما كانت الردهة التي ترقد فيها المريضة بالغة النظافة ، وعلى المنضدة التي تتوسطها باقة من الزهور الندية ، وبعد لحظات دخل الردهة رجل مديد القامة أشيب الرأس ، بلباس عسكري وعلى كتفه ثلاث نجوم مصنوعة من خيوط الحرير ، وبادرني يقدّم نفسه لي
- أنا مستر (فيروذر) المسؤول عن الردهة النسائية . ثم دار بيني وبينه حديث قصير عرفت منه انه من جامعة شفلد بانكلترا ويعمل معه الاستاذ كوردن لنن وله ولع بدراسة ومعالجة النواسير المهبلية ، ورأى ان يتطوع للعمل في العراق حيث تكثر (في ظنه) هذه الحالات المرضية . وفجأة

سألني :
- هل أن هذه الحالات تكثر حقيقة في العراق ؟
فأجبته
- نعم تكثر مع الأسف .
- حبذا لو أرى بعضاً منها ، وطريقة معالجتها
- تستطيع ان ترى ذلك في المستشفى الملكي ، ان أردت
ثم قال :
- لنعد الى موضوع هذه المريضة ، ثم بعد ذلك نتابع الكلام عن النواسير المهبلية ان تفضلت .

ومدّ مستر فيروذر يده وتناول لوحاً من المعدن اللماع كان معلقاً على عارضة مؤخر سرير تلك المريضة ، وأخذ يقرأ فيه وينقل اليّ مافيه من المعلومات الطبية .

- المريضة آثورية ، في الاربعين من عمرها ، أرملة جاءت الى الحبانية لزيارة قريبة لها تعمل قابلة في هذا المستشفى ، وفجاة انتابها ألم حاد في بطنها السفلى ، وصار يتكرر ويزداد حدة في كل مرة . وحييت هذه المريضة باختصار وسرعة وأنا انظر الي وجهها الشاحب اللون بدرجة ملحوظة ، ونبضها سريع وضعيف ، وضغطها الدموي واطىء ، وبطنها السفلى منتفخة قليلاً وتتحسس للجس باليد ، وتاكدت بالفحص المهبلي من امتلاء الجوف الحوض بالدم ولم أر علامة تنقصني لتشخيص الحمل خارج الرحم . فقلت للدكتور فيروذر وأنا أخلع الكفوف المطاطية عن يدي انها حالة نزف في الجوف الحوضي سببه على اكثر الاحتمال انفجار أحد انبوبي الرحم لحبل فيه ، فقال
- ولكن العادة الشهرية عندها اعتيادية وآخرها قبل اسبوع ولاتزال تنضح دماً
فقلت له
- وهذا يؤكد الاحتمال الذي ذكرته ، فاستطالة العادة مع الألم المفاجيء والبهت في سحنة المريضة فانهما علامتان قطعيتان على تشخيص هذه الحالة ، والانتفاخ الجزئي في امعاء البطن السفلى علامة اضافية .

وأدخلت المريضة الى غرفة العمليات ، ودخل المخدر وهو شاب بلباس عسكري لم أر على كتفه مايدل على انه ضابط وسحب من زاوية في صالة

العمليات عربة بعجلات كبيرة مربوطة على جوانبها اسطوانات ، وعلى سطحها خراطيم مطاطية وأقنعة سود ، سحب أحدها ووضع قناعه المتصل آخره باسطوانة على وجه المريضة . وهذه اول مرة بحياتي أرى جهاز تخدير بهذا الشكل والتعقيد ، فالذي آلفه في المستشفى الملكي ببغداد هورش مزيج من الكلورفورم والايثر على قناع من الشاش يغطى انف المريضة وفمها . ودخل الصالة من باب جانبي عسكري آخر في مثل زي العسكري الأول ، يدفع أمامه طاولة على عجلات وأخذ مما عليها قنينة ملأى بسائل تبنى اللون عرفت انه محلول البلازما وربط فوهتها بانبوب مطاطي شفاف في نهايته أبرة دفعها في وريد اليد اليسرى لمريضتنا التي كانت على طاولة العمليات ، ودفع في وريد اليد اليمنى مثل هذه الابرة مربوطة الى أنبوب شفاف ينحدر اليه من قنينة ملأى بسائل مائي القوام عرفت انه محلول الملح . ثم تناول قنينة أخرى مملوءة الى نصفها بالدم ودفع ابرتها في وريد برجل المريضة . لقد كان اكثر مابهرني هو النظام والتوقيت والهدوء في ما تم بهذه الصالة لتحضير المريضة للعملية . كما أعجبني الدكتور فيروزر في تسهيل خطوات العملية وتنسيق حركات يده واصابعه وهو يعاونني في تنشيف الدم في ساحة العملية ، وقطع أو ربط خيوط الجراحة . وانتهينا من العملية بسرعة وارتياح . وأخذني فيروزر الى (الميس) وهو مقصف حسن الهندسة والتزويق . وعرفني فيه على جمع من أترابه ، وتحدثنا معاً عن امراض العراق بشكل عام والامراض النسوية بشكل خاص ، وهي ماكنت اريد التحدث فيه بتعمد بوصفه اختصاصي واعرف فيه اكثر مما اعرف عن الامراض الأخرى ، كما الحّ الدكتور فيروزر في الاستعلام مني عن النواسير المهبلية في العراق ، وقال

- المفروض ، بوجود العناية في الحوامل في بريطانيا ، ان لاتحدث نواسير مهبلية ، الا ان هذا لانراه الا في المدن ، أما في القرى وهي كثيرة في انكلترا واسكوتلندا ، فحالات النواسير المهبلية ليست نادرة بل ليست قليلة ، واعتمادنا لدراسة موضوعها محصور على كتاب (جاسر موير) وفي هذا الكتاب وصف لحالات من النواسير المهبلية مالا تصدق ان يحدث في بريطانيا . وسألني .

- هل عندكم حالات كثيرة من هذا النوع من النواسير المهبلية ؟

فأجبته

- في الردهة (١٠) ثلاثة اسرة في الأقل مخصصة لحالات النواسير على طول السنوات

- المريضات من داخل بغداد أم من القرى ؟

- الاغلبية من الارياف والقرى .

- (جاسر موير) شاهد حالة ناسور اندلقت من خلاله المثانة ، وهذه الحالة صوّرها بالالوان ونشرها في كتابه عن النواسير المهبلية ، عندك هذا الكتاب ؟

- رأيت هذه الصورة . ورأيت امثالها من الواقع في المريضات العراقيات . فالنواسير بسعات مختلفة ، وقد تكون احياناً من الصغر بسعة لاترى ولاتلمس بالفحص المهبلي ، وقت تكون مختلطة بناسور مهبلي - مقعدي في الوقت نفسه

سألني

- اذا كان الناسور واسعاً لايمكن ترميمه فكيف تعالجون هذه الحالة ؟

- هذا الصنف من النواسير ليست غالبة في الكثرة ، ونعالج بعضها بتحويل الحالبين الى الامعاء الغليظة .

وبحثنا أموراً أخرى في موضوع النواسير المهبلية منها استعمال خيوط من الحرير ، والمعمولة من اسلاك الفضة واختتمنا حديثنا بوعد ان يزور فيروذر المستشفى الملكي في كل يوم أحد لمشاهدة طريقتي في ترميم النواسير . وداوم اكثر من ثلاثة اشهر رأى فيها مايزيد على العشر عمليات ثم ساعدني مرتين فيها . وودعني ذات يوم على التلفون لأمر وصله ان يلتحق بمعسكر بطهران .

وفي سنة ١٩٤٦ ، اي بعد سنة من انتهاء الحرب العالمية الثانية بعث لي بنسخة من مجلةB.M.J وفيها بحث له بعنوان النواسير المهبلية في العراق وكان بحثاً ممتعاً اكثر مما كان مفيداً لى ، فقد ردد فيه ماسبق ان بحثناه معاً . فهو بضاعتي ردت الي ، وقد استهله بمقدمة نسيب في نهر دجلة وصفاء جو العراق وطيبة أهله ثم ذكر العمليات التي شاهدها في المستشفى الملكي لترميم هذا المرض .

وتترابط أطراف هذه الأحداث ، واذا القابلة كاترين التي استضافت المريضة المصابة بحبل خارج الرحم تطلب العمل كقابلة في مستشفى السامرائي . وفي مقابلتي معها أخرجت من جيبها مدالية برنزية منحتها

لها هيئة عسكرية في لندن اثر مغادرة القوات البريطانية العراق تقديراً لما قدمته من خدمات في القبالة للرعايا البريطانيين في معسكر الحبانية وتوابعهم من العراقيات وفي سنة ١٩٧٠ كنت في مؤتمر طبي بلندن . وبينما كنت بين حلقة من الاطباء الانكليز ناداني أحدهم يقول

- اسمع انهم ينادونك بالمكروفون

فقصدت ركن الاستعلامات واذا بالصديق القديم فيروذر يستقبلني بابتسامة وسيعة وهو يقول .

- هذه هي فوائد المؤتمرات الطبية ، انها تستقطب الاطباء من كل مكان لأرى الاستاذ السامرائي .

وسألته

- وكيف عرفت انني في هذا المؤتمر .

- جربت حظي دون سابق علم بوجودك ،

وهذا يعني انني لم انسك وقد مضى على تعارفنا ربع قرن . ولم أر هذا الصديق قد تغير كثيراً إلا بكثرة الشيب في جمته ، وقادني بين زحام المؤتمرين يقدمني الى بعضهم فعرفت منهم من لم اكن اعرفهم ، ستول ورثي ، وجيف كوت وديوهرست ، وماكلور براون ، وبل ماكريكور . وهو يقول لهم : هذا هو السامرائي الذي علمني ترميم النواسير المهبلية . وصرت اردد لكل واحد منهم :

- وكان الاستاذ فير وذر تلميذاً نجيباً وفي عرف اهل بغداد ان (صانع الاستاذ استاذ ونص)

بير طبيلة/ ١٩٤٤

العائلة التي أتحدث الآن عن حكايتها يهودية معروفة في بغداد منذ العهود العثمانية ، ويعمل اكثر افرادها بتجارة الساعات السويسرية ، وبسلع أخرى يستوردونها من بريطانيا واليابان . وقد ربطت بيني وبين هذه العائلة صداقة عن طريق نسائها اللاتي يستشرنني في مشاكلهن الطبية . وكبير العائلة (ع) في الستين من عمره او أكثر . قصير القامة متين الجسم ، وفي مقابلاته تسامح وتواضع وتودد . كما كان متديناً ، وربما كان

له مقام في الكنيسة اليهودية ببغداد . وقد خدمتُ زوجته بعملية جراحية وسّعت وعمقت علاقتي به وبافراد عائلته الكبيرة من الابناء والاحفاد والأصهار وكانت له ابنتان الكبيرة منهما متزوجة من (خالها) وأما الصغيرة واسمها (ف) فهي في التاسعة عشرة من عمرها يوم كتبت عنها هذه الذكريات . وهي كزهرة الصباح في بهائها وطراوتها واريجها ، وقد اكسبتها الندبة الصغيرة التي على خدها الأيسر ، والبحة الخفيفة في نطقها فيضا آخر من جمال الشباب والانوثة الفوارة . وفي يوم من شهر شباط سنة ١٩٤٤ طلبني أبوها (ع) الى بيته في عقد الكنيسة لأفحص ابنته إذ كانت تشكو من ألم حاد ومفاجيء في بطنها ، وهناك على سرير في غرفتها الانيقة كانت (ف) تتلوى من الألم ، وسألتها ان تصف لي هذا الألم وموضعه وشدته ونمط بدايته وتناوبه أو استمراره ، وعما اذا كانت قبل هذه النوبة تشكو من مثلها فيما سبق ، كما سألتها عن بعض الاعراض النسوية فلم المس في أجوبتها مايساعدني على تشخيص مرضها . ولأن آلام بطنها بدأت في الجانب الأيسر من بطنها السفلى وبقيت محصورة في هذه المنطقة ، فقد استبعدت بتحفظ التهاب الزائدة الدودية ، كما استبعدت التهاب انبوبي الرحم . وكانت كل اطراف البطن السفلى حسّاسة للتلمس بشكل متساو ، فوصفت لها دواء لانفع منه ولا ضرر على ان اعود واراها بعد بضع ساعات عسى ان تبين لي اعراض أخرى تساعدني على تشخيص مرضها . غير ان آلام بطنها ازدادت شدة وتواصلت نوباتها ، فاستنجد بي أبوها تلفونياً لأعود فوراً وافحصها مرة أخرى . واجتذب أنتباهي حين ولجت حجرتها الشحوب الذي طغى على سحنتها ، فكان من ذلك اشارة ساعدتني كثيراً على تشخيص انصباب دموي في جوف بطنها ، وتاكدت من ذلك بفحص بطنها ، وتحقيقاً لما جال بخاطري عن سبب شكواها طلبت من أمها وأبيها ان يغادرا حجرة ابنتهما المريضة لأتكلم معها في ما لا استسيغ ان يسمعاه . وحين صرت وحدي معها ، سألتها

- هل انت مخطوبة ؟

فأجابتني

- لاغير مخطوبة .

وعدت اسألها بتردد

- هل لك علاقة بشاب ؟
فسألتني
- وماذا تقصد بالعلاقة ؟
فقلت لها بتردد اكثر
- أقصد بالعلاقة ، التلاقي الجنسي
فأجابتني بلا تردد ولا استحياء
- نعم لي علاقة من هذا النوع

لقد كانت (ف) بهذا الجواب جريئة بحيث ارهبتني لكنها شجعتني ان استمر اسألها بهذا الاتجاه

- اية درجة من العلاقة ؟
فأجابتني بكل بساطة
- علاقة حب
وسألتها
- علاقة حب فقط ، أم اكثر من ذلك
فأجابتني بما يشبه الاستهزاء ، تقول
- استغرب من سؤالك يادكتور ، فالحب يعنى كل شيء يدور بتفكيرك مما يمكن ان يحدث بين شاب وشابة

ياالهي ، ماهذه الجرأة ؟ غير ان جوابها هذا أكمل الصورة السريرية لتشخيص (الحبل خارج الرحم) والنزف الدموي في جوف بطنها . ويبدو انها حزرت ماكنت ألوكه بتفكيري والحيرة التي اذهلتني بجوابها ، فدفعتني الى مزيد من الاستفهامات ، فسألتها

- هل ماتزالين باكراً ؟ اقصد هل استطيع ان افحصك من أمام ؟
فأجابتني باستخفاف
- دكتور ، كيف ابقى باكراً وبيني وبين صديّقي علاقة جنسية !

فاغاظني مافي جوابها من قلة حياء ، فعزمت مقابل ذلك ان افاجئها بحقيقة حالتها المرضية ، وقد قدرت مخطئاً انها ستفزع منها ، فقلت لها دون مقدمات .

- انت حامل يابنت !
فردت علي بلا اهتمام ، وكأنها تستخف بعلمي
- اعرف انني حامل ، ولكن هذه الآلام ارهقتني فخففها عليّ

فرأيت ان أظهر لها اني اكثر علماً منها ، فقلت لها :
- ان الحمل خارج الرحم لافي داخله
فسألتني وهي ماتزال متعالية
- وماذا يعني ذلك ؟
فقلت لها بشيء من التشفي
- لابد من اجراء عملية جراحية مستعجلة
وفزعت إلا انها تماسكت ، وسألتني
- وما هي العملية ؟
فقلت لها
- المهم ان تعرفي عنها انها ستكون من البطن .
وسألتني بتخاذل
- ولماذا من البطن ، وأنا غير باكر ؟

فانفت ان أجيبها على سؤالها ، اذ ليس في جعبتي عبارة او لهجة بقبح ماسمعته منها ، وانقلب جمالها في عيني ، وداهمني هم أبعدني عن طريقة أخبر بها أمها عن حالة ابنتها ، وما يستلزم لها من علاج ، فقالت وكأنها قرأت افكاري
- أمي تعرف علاقتي بـ (جيّمس) وتعرف كل شيء في مابيننا .
فقلت لها
- اذن سأقول لابيك انك مصابة بالتهاب الزائدة الدودية ومن الضروري حملك الى المستشفى لاجراء العملية التي تنقذ حياتك .
فاعترضتني تقول :
- لا يادكتور اريد ان تقول له الحقيقة كما هي .
وهممت ان اقول لها
- حرام اني اؤلم اباك لسبب من صنع يدك .
إلا انها ادركت ماردت ان اقوله ، فقالت
- أرجوك يادكتور ان تقول له الحقيقة ، فكل ماحصل لي الآن هو من صنعه .

ولم افهم ماكانت تقصده بذلك ، كما لم أشأ ان افهمه ، فقد برق في فكرى احتمال ان تتهم أباها بما في أحشائها . فامسكت عن المزيد من الاستفهام منها . وحين استدعيت أمها وأباها الى حجرة ابنتهما ،

اعتدلت هذه في فراشها وهي تقول : - هيا يادكتور اخبر ابي عما انافيه ، وعن العملية التي تتطلبها حالتي .
والتفت الى أبيها مخاطباً
- ابنتك ياسيد (ع) مصابة بالتهاب الزائدة الدودية ، فقاطعتني المريضة بعصبية وغضب قائلة .
- لا يادكتور ، أرجوك ان تخبره بحقيقة مرضى وإلا أنا سأقولها له .
واتجهت بوجهها صوب أبيها وقالت له
- أنا حامل ياأبي ، حامل من جيمس

أما ابوها فتسمّر في مكانه عند مدخل حجرتها ، واختلف لونه ، واختلجت شفتاه ، وتهدل حنكه ، وتسارعت انفاسه ، وبدأ ينشج . فهز الموقف مشاعري وهممت ان انقدم من المريضة واصفعها واقول لها : ياقليلة الحياء يافاجرة . انت اهنت كل فتاة في الدنيا وانت عار عليهن . فما جريرة ابيك ياعاقة ؟ ولكنني لم اقل لها شيئاً من ذلك وغلبني الحلم فكظمت غيظي وأنا الملم ادواتي الطبية لاهرب من جو حجرتها الخانق . وسمعت في تلك اللحظات المريضة (ف) تخاطب اباها بحماس وشماته
- أهذا الذي أردته ؟ ألم يطلب منك جيمس يدي للزواج فرفضته لانه مسيحي ؟. وقدّم طلباً الى الحاخام فطلب منه ان يختن وان يغتسل في بير طبيلة التوارة ليدخل في ديننا ، ففعل كل ذلك طوع ارادته ، فماذا تريد منه اكثر من ذلك ؟

انت الذي سعيت الى هذه الفضيحة فتحمل وزرها . وفجأة التفتت (ف) نحوى وقالت لي بتخاذل ورجاء
- خذني يادكتور الى المستشفى فانا جاهزة .

فتجاهلتها وأخذت طريقي الى خارج الحجرة لاغادر البيت ، فاوقفني ابوها متوسلاً وعلى وجهه اوضح علامات الألم والأسى وهو يقول
- دكتور استر علينا ، الله يستر عليك وعلى عرضك . والستر ياولدي عبادة

واحترت وأنا في غمرة ارتباكي فيما يتعين على ان أفعله وأنا اسمع من هذا الشيخ اليهودي هذه العبارة الاخيرة وأنا اعرف مكانتها التراثية والدينية عندنا نحن المسلمين . وتذكرت حالاً ان هذا الرجل كان ينتظر اذاعة القاهرة في الساعة العاشرة من كل مساء يوم الاثنين لينصت

باهتمام الى تلاوة من القرآن الكريم يرتلها المقرىء محمد رفعت . وفي يوم سألته عما يحدو به الى الاستماع الى هذا المقرى فأجابني : في قراءته انغام مقامية شجية تسحرني .

وانتبهت الى (ع) حين خاطبني وأنا على باب داره

- دكتور ، أرجوك خذها بسيارتك الى المستشفى ، وأنا عبدك طول حياتي .

وحملت ابنته المريضة الى دار التمريض الخاص بالمستشفى الملكي . وبعد بضعة أيام من العملية غادرته متعافية . وتناسيت لكثرة اعمالي حكاية هذه المريضة لولا ماكان فيها من الأمور اللا أخلاقية والنفسية المثيرة ، وقولة ابيها (الستر عبادة)

وبعد مايقرب من الشهر دخل عيادتي شاب في نحو منتصف العقد الثالث من عمره ، احمر الشعر ، وردي البشرة ، وفي وجهه كثير من النمش ، ويرتدي سترة سنجابية اللون وسروالاً رمادي اللون . خلته لاول نظرة آثورياً لولا انه حياني بانكليزية فصيحة صافية قائلاً

- أنا جيمس ، ادوارد جيمس صديق مريضتك (ف) وأنا اعمل ميكانيكياً في الطيران العسكري العراقي بمعسكر الهنيدى ، وقد تهودت حسب طلب الحاخام لاتزوجها ، غير ان أباها يعارض باصرار زواجنا . وبصفتك طبيب عائلتها فباستطاعتك ان تساعدنا على اقناع ابيها بزواجي منها . فان ظل متمسكاً بعناده فاننا باي حال سنتزوج . فأرجو ان تنقل اليه هذا الانذار . ولما نهض لينصرف من عيادتي قلت له

- ولماذا لاتوجه له هذا الانذار بلسانك

أجابني

- هذا الرجل عنيد كالبغل ، يقول ولايسمع . وكنت ولاازال اكره اليهود قد ضاعف أبوها كرهي وحنقي على اليهود جميعاً .

وعلمت بعد ذلك باشهر ان (ف) وصديقها جيمس قد غادرا العراق بطائرة واحدة الى لندن ، وفي (برايتون) تزوجا على الشريعة اليهودية . أما أبو (ف) فقد اصيب بالسرطان بعد اشهر معدودات من مغادرة ابنته العراق ، فقصد لندن للعلاج وفيها لفظ انفاسه الأخيرة ورأسه على صدر ابنته (ف)

* * *

وفي صيف عام ١٩٨٤ ، بينما كنت أتسلع في ساحة بيكادلى بلندن توقفت عند حانوت بواجهة وسيعة معروض فيها انواع من العصى ، وانا مولع باقتناء مثل هذه العصى ، وكان فيها واحدة بمقبضين معمولة من عيدان الخيزران ، وقد ربطت بها بطاقة كتب فيها (لعروس وعريس او لهما بعد العمر المديد) .

ودفعت باب الحانوت لادخله واختار واحدة من تلك العصى . ولما رن جرس مدخل الحانوت فتح باب صغير في عمقه وطلع منه رجل في أواخر الستينات من عمره . كان هو جيمس زوج (ف) ، فلم اخطيء في تمييزه بالرغم من سقوط الكثير من شعر رأسه ، والعوينات الطبية التي تغطي عينيه ، فلم يبق من ملامحه الأولى الشابة إلا لون بشرته والنمش المتناثر عليها . ولم أنبس بكلمة خشية اصمم على شراء واحدة من تلك العصى فيعرفني وأحرجه عند المساومة على شرائها . وتقدم مني ذلك الرجل (جيمس) وسألني بدهشة

- انت لابد ان تكون الدكتور السامرائي ؟

فأجبت

- نعم أنا هو ، ولكن كيف عرفتني يامستر جيمس ؟

فتفرس في وجهي ، وأجابني بنبرة حزينة

- أنا لا انسى قط من كان صديقاً لحبيبتي (ف) فكيف لا اعرف طبيبها السامرائي

وترددت ان أسأله عن (ف) خشية ان يكونا قد افترقا أو حصل بينهما شيء من هذا القبيل ، فلما ذكر اسمها ، جاءت المناسبة بنفسها لأسأله عنها

- وكيف (ف) يامسترجيمس ؟

فاجابني بلهجة حزينة كأنها خرجت من صدر ميت

- (ف) توفيت قبل شهر ، الا ترى ذلك في لون رباطي ؟ فداريت خجلى بابداء أسفى لفاجعته ، واردت ان اساله عن اشياء أخرى تخصها فامسكت لاجاريه في حزنه . إلا ان ماأردت ان اعرفه جاء تلقائيا ، إذ قال

- توفيت وهي مرتمية على صدرى ، وكان آخر مانطقت به هو ان أعود الى ديني الأول النصرانية ، فأجبتها ان ذلك لن يكون وسأبقى على دينك الى ان أموت ولما رأى الدهشة والتقدير على وجهي قال

- لم يبق لي في الحياة شيء استمتع به إلا ذكراها ، ولا أظن اننا لو انجبنا لصار لي منها مايواسيني وينسيني فقدانها (وسكت قليلاً ليستطرد)
- يؤسفني ان اكون قد نقلت اليك خبراً سيئاً . يادكتور سامرائي ، فلست قادراً ان امسك عن الحديث عن حبيبتي حين ترحمني المناسبة ثم سألني بجد
- والآن ، هل استطيع ان اقدم لك خدمة ؟
فأجبته بامتنان
- لا شكراً يامستر جيمس
وصافحته مودعاً وغادرت حانوته وأنا استرق النظر اليه من خلال واجهة حانوته الزجاجية الواسعة ، فرأيته يتابع خطواتي وهو ساهم بوجه حزين .

حالة تطريح جنائي في المحكمة ببغداد/ ١٩٤٤

وصلني خطاب من محكمة بغداد بتوقيع الحاكم شفيق *العاني* يطلب مني ان أحضر في الساعة العاشرة من يوم ١٢/٤/١٩٤٥ الى المحكمة لاداء شهادة عن حالة اسقاط جنائي . ولم تكن لي يومئذ خبرة في مثل هذه الحالة . وتوجهت الى ديوان المحكمة الواقعة جوار سوق السراي من جانبه الغربي . وانتظرت وقتاً غير قصير ، كان مملاً بالنسبة لي . وسألت شرطياً يقف عند باب قاعة المحكمة عن وقت استدعائي الى القاعة ، فأجابني
- انتظر وسوف انادي عليك حين يجيء دورك بأمر الحاكم . ودخلت القاعة حين إرتفع نداء هذا الشرطي باسمي .
لم تكن القاعة كبيرة غير ان سقفها عالٍ ، ونافذتاها اللتان تقابلان مدخلها عاليتان أيضاً ، وفي صدرها منصّة تعلو قليلاً على ارض القاعة . ويملأ الكرسي الذي وراءها شخص حنطي البشرة ، وعلى انفه عوينتان سميكتان ، كما طالع عيني كتابان على حاشية هذه المنضدة احدهما مكفن بكساء أخضر اللون . أما الآخر فكان غلافه على مابدا لي من الجلد الرخيص ، وتلفت حولي كما يتلفت الغريب حين يدخل ازقة مدينة

لايعرفها . واذا الى جانبي الايسر الدكتور (ع م) داخل حيز محدد بسياج وطيء من خشب الساج . والتفت الى من كان على الكرسي الذي وراء المنضدة وكان هو الحاكم الذي أمرني خطياً بالحضور أمامه . التفت نحوه حين سمعته يسألني عن كامل اسمي . وعمري . ومهنتي ومحل اقامتي . ثم طلب مني ان اتقدم من منضدته ، ونهض ليقول لي . ضع كفك على القرآن الكريم . وأشار بسبابة يده الى الكتاب ذي الكفن (الأخضر) . وقل والله أقول الصدق .

وعاد الى كرسيه وراء المنضدة . وسألني

– دكتور كمال السامرائي ، أمامي الآن قضية تطريح حامل قام بها أحد زملائك ، وهو الواقف بقفص الاتهام واسمه (ع م) فهل في علم الاطباء ان هذه العملية ممنوعة قانونياً ؟

– ممنوعة قانونياً ان لم يكن لها دوافع طبية

– ماذا تعنى بالدوافع الطبية

– كأن تكون الحامل مصابة بمرض قد يسبب لها استمرار الحبل ضرراً جسيما .

– اين تعمل عمليات التطريح لسبب طبي ؟

– تعمل عادة في مستشفى

– لماذا يجب ان تعمل في مستشفى ؟

– تحاشياً من الالتهابات لو انجزت في غير هذا المكان .

وسألني الحاكم .

– دكتور كمال السامرائي ، القضية التي أمامي . آثارها (الدكتور (ع م) الواقف الى جنبك ، والمريضة التي اسقط حملها (هذا) الدكتور تدعي انها زارتك يوماً قبل عملية الإسقاط التي اجراها الدكتور ، كما زارتك بعد ذلك ، فماذا كان الداعي الى الزيارتين ؟

– اعرف هذه المريضة كزوجة للسيد (صبحي) أخو زميلي الدكتور نجيب اليعقوبي . وزارتني مع زوجها وهي حامل . وطلبا مني اسقاط الحمل ، فامتنعت ، وكلمني الدكتور نجيب اليعقوبي لاعمل مايطلبانه مني فاعتذرت . ثم زارتني المريضة مع زوجها بعد بضعة ايام تشكو من الام مبرحة في جوفها الحوضي وضح لي بالفحص انها بسبب الداخلة القسرية لاسقاط حملها في عيادة الدكتور (ع م) ، وهذه المريضة هي التي

اخبرتني باسم هذا الطبيب
والتفت الحاكم الى الدكتور (ع م) وسأله
- ماذا تقول يادكتور عن هذه الشهادة ؟
فاجابه
- ماقاله الدكتور كمال ، انما هو بتحريض من الدكتور سندرسن !
- مادخل سندرسن في موضوع اسقاط حمل هذه المرأة ؟
فقلت للحاكم
- والحقيقة ان الدكتور سندرسن بوصفه رئيسي الأعلى فقد مرّت عليه ورقة إستدعائي الى المحكمة ، فطلبني اليه . فاوضحت له الهدف من استدعائي الى المحكمة ، وبدا لي ان الدكتور سندرسن لايعرف الدكتور (ع م) ولا المريضة أو زوجها صاحبي الشكوى ، وكل ماقاله لي لم يكن اكثر من (ان اقول الحقيقة وليس اكثر ولا أقل منها) .
واراد الدكتور (ع م) ان يسترسل في الهجوم على الدكتور سندرسن ولكن الحاكم أسكته
- ماتقوله ليس له علاقة بموضوعنا يادكتور ؟ هل تعترف أم تنكر انك اجريت عملية التطريح على المدعية ؟
فأجابه
- عملت (الكرتاج) لان الدكتور كمال هو الذي أجرى عملية التطريح غير انه لم يكملها فاستنجدت بي لأوقف النزف من الرحم .
ماهذا الاتهام يا إلهي ! وارتحت حالًا لانني رأيت الحاكم يبتسم استهزاءً بدعواه ، واردت ان ادافع عن نفسي ، فطلب مني الحاكم برجاء ان أمسك الصمت ، وحزرت فجأة ان قناعة الحاكم اقوى احياناً من أية افادة أو شهادة والتفت الحاكم الى وقال لي
- كفى يادكتور كمال واشكرك على تعاونك مع المحكمة وغادرت القاعة .

البريگادير نونتن موركن ١٩٤٤

وهو أحد اطباء الجيش البريطاني الذي رابط في الشرق الاوسط خلال الحرب العالمية الثانية ، ويوم عرفته في بغداد كان في نحو منتصف العقد الخامس من العمر ، وهو مشهور في بريطانيا وفي اكثر اقطار أوروبا الغربية

لنطسه في جراحة امراض المقعدة والقولون . وهو ربع القامة بامتلاء يسير ، ووجه وردي ضاحك ، وجرس رجولي ، وروح مرحة ، ويجيد نقل النكتة ، وكان يستدعى من كليات الطب بمصر وايران ليشارك في امتحان طلاب صفوفها النهائية ، وقد دعته كلية طب بغداد حين كان يرافق الحملة البريطانية نحو ايران ، وكرمته بدعوة عشاء في فندق سمير اميس ، وكان هو قطب الرحى في كل مادار في ذلك اللقاء ، كما كان متحدثاً لبقاً ومستمتعاً بوظيفته كاستشاري للمستشفيات العسكرية في الشرق الأوسط ، ويبدو اكثر جذلًا حين يتكلم عن الجرأة التي يتمتع بها الجيش البريطاني ، ثم يستدرك ويقول وهو يبتسم (نحن بصراحة نقلد الجندي الالماني الجرىء ونسعى الى ان نكون مثيلًا له) وقد سرد لنا أمثلة شاهدها في تلاحم القطعات الالمانية بالقطعات الانكليزية قرب طبرق . وبدا لنا انه يريد ان يسمع منا أحداثاً فيها مرح الشرق ولطائفه ، وتوقعنا ان نخذل حين يسيطر علينا من أول جولات اللقاء متحدث واسع الخبرة كهذا الاستاذ الكبير ، وحرنا فيما يجب ان نتكلم فيه ننجاري قدرته في سرد الاحداث المثيرة . فكسر جمودنا وهو يسأل عن عدد الطالبات الى عدد الطلبة في الكلية الطبية ، وكان هذا الموضوع يكاد يكون عالمياً ، وهو يعين درجة تطور المجتمع واشتراك المرأة في جوانبه العملية . ونفذ مونتن موركن من هذا المنطلق وتكلم عن الامتحان الذي شارك فيه قبل أيام في جامعة عين شمس بالقاهرة ، قال : كنت أمتحن احدى الطالبات ، وكانت المريضة التي تتولى فحصها الطالبة مصابة بتخثر الدم النفاسي في رجلها اليسرى ، فسألتها عن مكان وريد (السافينوس) في الرجل ، وشد ماكانت دهشتي حين رفعت ثوبها ، وهو أصلًا بطول فتر ، ومدت ساقها الابنوسي ومرت بطرف إصبعها ، دون ان تتبس بحرف واحد ، على طول هذا الوريد ، وهي تقول لي :

- انظر يابروفيسور هذا هو مكان هذا الوريد ، انظر . ونظرت باربع عيون الى فخذ تلك الشابة فاذا هي على صواب ، ولم أسالها أكثر من ذلك ، واستدرت الى زميلي الاستاذ (على شعبان) وطلبت منه أن يأخذ دوره في امتحان هذه الصبية لاتفرغ الى مشاهدة خلقتها الجميلة . كانت سمراء داكنة السمرة ، وكلها حياة ، ونشاط . ياإلهي . لقد نجحت في الامتحان ، أما أنا فقد فشلت في ضبط أعصاب شخصيتي وهيبتي .

وانفتح باب الفكاهات بعد تناول العشاء . وبدا انه يتعشق خوض هذا الموضوع ، فهاجم بخل أهل اسكوتلندا . وذكر مثلا على شاب من أبردين اسمه جون . وقد دخل ماخوراً في لندن (الشريفة) ، وكان قد وصلها توا بعد سفرة طويلة ، فبدا تعباً مشعث الرأس ، فتقدم من فتاة تبيع اللذة وساومها على ليلة في مخدعها . فارادت ان تدفعه عنها بتبرم لقذارته ، فطلبت منه مائة باون ، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لسعر بضاعتها ، غير ان ذلك الشاب أجابها بعد حساب سريع في ذهنه . قبلت . شريطة ان اعصب عينيك كلما أتيتك ، فبدا لها ذلك شرطاً غريباً ، ومع ذلك قالت لنفسها وما في ذلك ؟ والمبلغ الذي طلبته منه خيال لاأحصل عليه بشهر . وضاجعها الشاب مرة ثم مرة ثانية وثالثة ورابعة والليل مازال في أوله . فارادت ان تعرف ما آل اليه شكل هذا الشاب ، فرفعت العصابة عن عينيها ، فارتعبت اذ كان فوقها شاب غير (جون) الذي ساومها على هذه العمليات . فقالت له بفزع

- أنت لست جون ، فمن تكون

فاجابها

- أنا ادوارد
- واين جون ؟
- هو عند باب الماخور يبيع البطافات للشباب الذين ينتظرون دورهم بعدي .

قبول خمسين طالباً الى الصف الاول بكلية الطب/ ١٩٤٤

لم يكن عدد الطلاب الذين يقبلون الى الصف الاول بكلية الطب محدداً غير انه لم يكن في اية سنة يزيد على اربعين طالباً . غير ان عدد المتقدمين الى الكلية صار يزداد سنة بعد أخرى فقرر مجلس الكلية يوم ١٩٤٤/٩/١٦ قبول خمسين طالباً في هذه السنة .

ايفاد اطباء للتخصص في العلوم الطبية ١٩٤٥

في اجتماع مجلس الكلية يوم ١٢/٥/١٩٤٥ بحث الاعضاء حاجة الكلية مستقبلاً الى تدريسيين من العراقيين لتدريس الاختصاصات الطبية بدلاً عن الاساتذة الانكليز اذا ماغادروا العراق . واقترحوا ايفاد الدكتور على الحمامي الى القاهرة لدراسة امراض الطفيليات على الاستاذ عبد الخالق واحمد الحلواني

وايفاد محمود الهاشمي لدراسة امراض العين بانكلترا
والدكتور يحي محمود لدراسة امراض الاذن والانف والحنجرة بانكلترا
والدكتورة توكاتليان لدراسة الامراض الجلدية والزهرية بانكلترا
والدكتور كمال السامرائي لدراسة الامراض النسائية والتوليد بانكلترا
والدكتور صالح عبد المنعم لدراسة جراحة الصدر بانكلترا
والدكتور ناجي مراد لدراسة امراض الدم بانكلترا
والدكتور ابراهيم حيالي لدراسة امراض القلب بانكلترا

ورفع هذا المقترح الى وزارة الشؤون الاجتماعية فوافقت عليه بكتاب بتاريخ ٥/٦/١٩٤٥ ، غير ان الايفاد لم يتم بسبب الضائقة المالية التي كانت تعانى منها الدولة .

وسام الاستقلال من الأمير عبد الله بن الحسين (أمير الاردن)/١٩٤٥

قمت بخدمات طبية للأميرة مقبولة زوج الشريف حسين . وقد زار أبوها الأمير عبد الله بن الحسين ابنته في دارها الواقعة في الشارع العسكري المحاذى لنهر دجله بجانبه الشرقي ، فتشرفت بلقائه واستمتعت بحديثه القصير معي ، كما شكرني على الخدمات التي قدمتها لابنته الأميرة مقبولة. وفي يوم ٢/١١/١٩٤٥ وصلني كتاب بالبريد هذا نصه :

عبد الله بن الحسين

نحن عبد الله بن الحسين أمير شرق الاردن

تقديراً للصفات الحميدة والمزايا النبيلة التي اتصف بها الدكتور كمال السامرائي ، ولما عرفنا فيه من اخلاص لنا وولاء لبيتنا الهاشمي وود أكيد فقد منحناه وسام الاستقلال من الدرجة الثالثة ، وامرنا باصدار البراءة ايذانا بذلك . صدر عن قصرنا رغدان في عمان في اليوم الواحد والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ١٣٦٤ الهجرية ، واليوم السابع والعشرين من شهر تشرين الأول سنة ١٩٤٥ الميلادية

بامر سموه العالي

رئيس الديوان الهاشمي

التوقيع

اخ يقتل أخته ١٩٤٥/٥/١٢

في احدى ليالي تموز الحارة الرطبة التي يركد فيها الهواء فلا يحرك حتى اطراف أغصان الاشجار العالية ، رن جرس باب دارى فخرجت اليه فاذا شاب يلبس الزبون ، ويعتمر اليشماغ ملفوفاً بالطريقة البغدادية الأصيلة المشهورة بين الطبقات الشعبية .

- دكتور ، من فضلك عندي مريضة بحالة مستعجلة ، أرجو منك ان تأتي معي لرؤيتها .

ولامناقشة في مثل هذه الحالة ، فسألته

- اين المريضة ياأخى

فأجابني

- قريبة ، هي في بيتنا بفضوة عرب ..

وكنت يومئذ اسكن بمحلة القشل ، فابدلت ملابسي بسرعة وعدت اليه ، فاوسع خطاه وانا اقتفي اثره وكلانا صامت في أزقة ضيقة لاتكفى أن تمر بها سيارة أو عربة . حتى انتهينا الى بيت في قعر دربونة لاتنفذ ، فتقدم من باب ذلك البيت ، وكان من خشب ثقيل محلى بالمسامير الحديدية السوداء

الضخمة . ودفع الشاب هذا الباب دون ان يطرقه فانفتح بسهولة . وفي هذه اللحظة تناهى الى سمعي صراخ مكتوم فالتفت اليّ وقال

- تسمعها يادكتور ، هي أختي التي تصرخ

وتقدم الشاب أمامي الى فناء البيت المعتم ، وكان على جانب منه فانوس نفطي على منضدة وطيئة ، إلا ان ضياءه لم يكن كافياً لاتلمس طريقي بسهولة . وتبين لي بعد لحظات باب غرفة على يمين الفناء ينبعث منها ضياء خافت ، ومنه ايضاً ينبعث الصراخ الذي أسمعه وطلعت عليّ من باب هذه الحجرة إمرأة لتقودني الى داخلها ، وهناك رأيت شابة تستلقى على حشية خفيفة وعند رأسها إمرأة في العقد الخامس من عمرها ، حسبت انها أم هذه الشابة ، وقامت هذه المرأة وصدت الشاب الذي قادني الى البيت وأخرجته من الحجرة ، وأوصدت الباب وراءه . وكانت هذه المرأة تتصرف كالبلهاء ، وتتحرك بارتباك ، وتقول ماتقوله بلا وعى ، وبهذر غير مفهوم . كما لاحظت في ضوء الفانوس الخافت خدوشاً على خديها وعليها دم طرى ، كان ذلك دون ريب من فعل أظافرها حين تمر بها على خديها بحركات هستيرية ، والشابة التي على الحشية تتلوى من الألم ، وتحاول ان تصرخ فتسد هذه المرأة فمها براحة يمناها كما لوأنها تريد أن تخنقها . وجلست الى جانب الشابة لاتلمس بطنها المنتفخة ، فوضح لي أمرها بجلاء ، ومع ذلك سألت المرأة التي حسبتها أم الشابة

- ابنتك متزوجة ؟

فكان جوابها سكوت مطبق . وما كان لي حاجة بسؤالها فهي غير متزوجة ، وسألتها هل تعرفين ما بأبنتك ؟

والأمهات دوماً اول من يعرف اسرار بناتهن قبل الزواج !

ورأيت هذه المرأة تخرط باظافرها خديها الدامين ، وهذا دليل قاطع على انها تعرف ان ابنتها البكر حامل ، فارتمت على حذائي تقبله وقالت

- هسّه أخوها يقتلها اذا عرف المصيبة ، أنا أعرفه

واردت ان انقذ موقفي واغادر هذا البيت باسرع وقت فقلت لها :

- انقلوها الى المستشفى حالاً لاحتياجها الى عملية فقالت لي وهي مستمرة بخرط وجهها باظافرها .

- الى المقبرة أنا وهي . استر علينا يابني ، انقذ شرفنا ياصاحب الشرف .

وكنت في هذه اللحظات افكر في حل لموقفي وأخوها لابد انه ينتظرني

دقيقة دقيقة ، والله وحده يعلم ماذا سيحل بي اذا علم بحقيقة مابأخته ، فماذا اعمل لاتخلص من ثورته المحتملة علي في ساعة طيشه . وخرجت من حجرة الشابة واذا بأخيها يقابلني لدى بابها وعيناه تقدحان شرراً مخيفاً . فقد يكون قد سمع حين كنت في الحجرة ماداربيني وبين المرأة التي حسبتها أم المريضة الشابة . فسبقته الى الكلام وقلت له

- مابك مرتبكاً ياأخي !

فقال يسألني

- مابأختي يادكتور ؟

فقلت له والخوف القاتل يملأ صدرى

- هوّن عليك ياأخي ، واستهدى بالرحمن
- ماذا بها يادكتور ؟
- آلام بطنية
- وسبب الآلام ؟
- كيس في المبيض ملتو ، وتحتاج الى عملية جراحية مستعجلة . ولان الشاب قليلا ، ومع ذلك سألني
- كيس في المبيض فقط ؟
- فقط
- لاغير شيء ؟
- لا غير شيء
- اقسم بشرفك

واقسمت مكرها بشرفي . كم تتبدل المواقف العاطفية بسرعة . كان قبل قليل كالمجنون المتحفز لارتكاب عمل جنوني ، فاذا هو الآن شخص آخر ، فضحك ثم بكى ، ثم ضحك ثم بكى ، ثم انحنى ليقبل يدي ، وعاد يسألني

- يعني كيس مبيض فقط ؟ ولاشيء آخر ؟

فاجبته بتقية

- لاشيء آخر فاسرع وانقلها الى المستشفى لتنقذ حياتها .

فاجابني

- حالًا ، حالًا يادكتور حالًا

وأتجهت نحو مخرج البيت . فقال لي

- تحتاج ارافقك يادكتور ؟

فأجبته

- لا ، أبداً

وغادرت البيت وكانني نجوت من تهلكة ، وسمعت ذلك الشاب يسألني أجرتك يادكتور . فكان جوابي السكوت .

ومرّ على هذا الحادث زهاء اسبوعين ، وبعدها كلمني الدكتور شوكت الزهاوي ، يسأل

- هل استدعيت قبل بضعة أسابيع لفحص مريضة في محلة فضوة عرب ؟

- نعم ، اذكر ذلك

- ان الشاب الذي استدعاك لفحص أخته في بيته هو ابن عم (محمود) الفراش بدائرتي ، وسوف تطلبك المحكمة للاستشهاد بافادتك ، فليكن ذلك في علمك .

وسألته

ولماذا تطلبني ياستاذ شوكت

سألت ذلك وانا اعرف ان ذلك الشاب لابد قتل أخته بعد ان انصرفت من بيته .

سندرسن يستقيل ويغادر العراق/ ١٩٤٦

في منتصف شهر ايلول من سنة ١٩٤٦ قدم الاستاذ سندرسن استقالته من وزارة الشؤون الاجتماعية كموظف فيها ، أما عمادة كلية الطب التي كان يتولاها بحسب قانون تأسيس الكلية فلم تكن إلا وظيفة فخرية بلا راتب ، ومثل ذلك كانت خدماته للعائلة الملكية . وقد أقيمت على شرفه حفلة توديع فخمة في حدائق فندق (تايكرس پالاس) بشارع الرشيد ، واكثر الاحتمال ان اقامة هذه الحفلة بتوجيه من وزير الشؤون الاجتماعية جميل عبد الوهاب ، وهذه الوزارة هي التي انفقت عليها ، وقد حضر الحفل وزير الشؤون الاجتماعية ومدير الصحة العام الدكتور حنا خياط وبعض موظفي وزارة الخارجية العراقية ، ورئيس الديوان الملكي وبعض اساتذة كلية الطب وبعض خريجي كلية الطب ومنهم الدكتورة ملك

غنام ، والسفير البريطاني وبعض من ملاك سفارته . وكانت الموائد مثقلة بما طاب من المأكول والمشروب ، وكان كرسي الدكتور سندرسن بين وزير الشؤون الاجتماعية والدكتور حنا خياط . ولم تحضر عقيلة الدكتور سندرسن (الزي) بينما الحفل لزوجها ، فأثار ذلك انتباه المدعوين وعلى الموائد تبودلت الانخاب . ثم نهض سندرسن وشكر بحرارة وزير الشؤون الاجتماعية ومن لبى هذه الدعوة لتوديعه . ثم اشار الى الكلية الطبية وقال : ان له شرف في تأسيس هذه الكلية ، وصبره المضنى على ايصالها الى مايقرب من الكمال . ثم قال : وهذا هو كل ما قدمته لهذا القطر النبيل ، واترك تقدير اهمية هذه الخدمة لكم وللاجيال القادمة ، (واستمر يتكلم بهذا الخط حتى قال :) أما ماقدمه العراق لشخصي فهو بمثل عظمة تاريخه الجسيم ، فقد خلق في قلبي حباً لتعليم مهنتى الطبية وحباً عميقاً لاهله الطيبين ، والقلب بلا حب كالحياة بلاسعادة ، أو كالتواصل بلا عاطفة (ثم قال) : ويسليني حين اغادر العراق أمران أولهما انني استطعت بمساعدة المرحوم الملك فيصل الاول ان استحدث الكلية الطبية في بغداد ، وثانيهما أنى اترك هذه الكلية وأنا مطمئن ان الذي سيخلفني على عمادتها من هو مثلي أو أفضل مني في ادارتها . ذلك هو الاستاذ هاشم الوتري . (ثم اردف في صوت متهدج) اني طلبت من وزارة الشؤون الاجتماعية ان تستدعى الى هذا الحفل اول فتاة دخلت كلية الطب التي هي أيضاً أول طبيبة تخرجت فيها . تلك هي الدكتورة (ملك غنام) . كما طلبت من السيد الوزير ان يدعو بعض الأطباء الذين درسوا علي لكي لا أحرم عيني من رؤيتهم حين اغادر بغداد العظيمة غداً صباحاً ، وأنا اتمنى لو يتاح لي ان أودع كل طلابي واحد واحداً فانقلوا اليهم حبي .. وقبل ان يعود سندرسن الى كرسيه نادى على الدكتورة غنام ، وقبلها من وجنتيها وضمها الى صدره بحنان وهو يمسح بسبابته دمعة انحدرت على خده ، وقال وملك غنام لازالت على صدره . هذه قبلة الوداع لزملائي وطلابي جميعاً .

ونهض الدكتور هاشم الوتري ، وقال كلمة مختصرة شكر فيها الدكتور سندرسن على ترشيحه لعمادة كلية الطب ، واثنى على ماقدمه للكلية من الجهود لرفعها الى المستويات اللائقة .

وانتهى الحفل في نحو الساعة الحادية عشرة ليلا ، والدكتور سندرسن

يقف على حافة ثيل الحديقة ليصافح كل واحد من المدعوين وهم يغادرون الفندق .

اطباء الجيش البريطاني في كلية الطب ١٩٤٦

إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وتسريح الكثيرين من اطباء الجيش البريطاني ، حصل قسم من هؤلاء على وظائف مدنية في كثير من الاقطار التي عملوا فيها . وكانت لهم خبرة واسعة في حالات الطوارئ الطبية والطب العسكري . وأول طبيب عسكري التحق بكلية الطب العراقية هو الدكتور دوكلاس ، وكان في الاربعين من عمره ، معروق الوجه ، ممشوق القوام ، وعلى أنفه عوينات باطار بلاستيكي اسود دقيق .

وكان هادي الطبع ، ومتأنياً في كلامه وحركاته . وقد ظل طيلة حياته في بغداد يلبس اللباس العسكري ، ولم تكن بيني وبينه اية علاقة سوى بعض اللقاءات العابرة في كريدور المستشفى الملكي ، وغادر دوكلاس الكلية الى أدنبرة ، وعلمت بعد ذلك انه أشغل كرسى الاستاذية في الجراحة في كليتها الطبية . والطبيب العسكري الثاني من دول التحالف الذي التحق بكلية طب بغداد هو (روجرز) وهو من أصل نيوزلندي بعمر جاوز الثلاثين سنة بقليل ، غير انه يبدو اكبر من عمره الحقيقي بسبب التجعدات والنقر التي في وجهه ، مما اكسبه عدا ذلك امارات الخبرة . كما في ملامحه ونطقه وحركاته مايدل على الجرأة ، والمباغته والصمود . وهو في طوله أقرب الى القصر ، وفي جسمه أقرب الى الامتلاء . وجرس كلامه أجش آمرى . ويوم التحاقه بكلية الطب كان قد افتتح مستشفى أهلي بمحلة السعدون بإدارة الدكتور هادي الباجةچي ومشاركة ممول يهودي اسمه (سليم ربيع) ولما رفعت لافتة على ناصية المُستشفى باسم مستشفى السعدون علق تحتها مباشرة قطعة خشبية صغيرة كتب عليها عبارة باشراف (البروفسور) روجرز وقد اختار روجرز الدكتور خالد ناجي ليساعده في العمليات الجراحية في هذا المستشفى فكان اختياراً موفقاً لما اتصف به الدكتور خالد من نشاط واستجابة سريعة لما تتطلبه الحالات المرضية الخطيرة ، تماماً كما كان الاستاذ روجرز . ولم يعش مستشفى

السعدون طويلاً بعد سفر روجرز ، فبيع أثاثه وآلاته واغلق نهائياً في آذار من سنة ١٩٥٠ .

وكانت باكورة تعارفي مع الدكتور روجرز غير وديّة فقد حدث ان فحصت مريضة مصابة بخراج حوضي ، ولم اكن أعرف انها قد سبق ان استشارت الاستاذ روجرز قبل يوم واحد ، فنصحها بدخول المستشفى لرفع ورم ليفي عددته سبب شكواها ، وبطريقة لم أعرفها وصل الى علم الاستاذ روجرز أنني اعارض اجراء تلك العملية ، لان الورم التهابي ، ولا يمكن رفعه بل يجب ان يكون علاجه بالادوية فقط ، أو على الأكثر الانتظار حتى يتحول الالتهاب الى خراج ليفتح عن طريق المهبل . فاتصل بي روجرز تلفونياً وأنا في غرفتي بالمستشفى الملكى

- روجرز يتكلم

وقبل ان اقابله بتحية الاحترام قال :

- هل لي ان اراك في غرفتي يااستاذ كمال .

فأجبته

- أنا قادم اليك حالاً

وكان حين دخلت غرفته لايزال بلباس العمليات ذى اللون الأخضر . وتلكأ في افتتاحية كلامه فادركت حالاً انه يستحضر مايجب ان يقوله لي

- تعرف يادكتور سامرائي انني منتدب من القوات البريطانية لاشغل منصب رئاسة الوحدة الجراحية الأولى في هذا المستشفى بما فيها ردهتى الامراض النسائية والولادة ؟

واذ انه فاجأني بدائرة انتدابه الواسعة التي شملت الامراض النسائية والتوليد ، قلت له

- لا اعرف انك بوظيفتك ترأس شعبة الامراض النسائية والتوليد ، وإذ اني عرفت ذلك الآن منك ، فانا ارحب بك يااستاذ روجرز

ثم قال متعجلاً ليقاطعني

- أنا لا أريد ان اكون رئيساً بالمعنى العسكري بل ان تكون الرئاسة لإدارة التعاون فيما اوكل الي .

كان روجرز يتودد بهذه المقابلة فسيطر علىّ ، غير انني لم افهم بعد هدف هذه المقابلة التي طلبها هو .

- استاذ روجرز يسرني ان اطلب مساعدتك حين احتاجها ، وهذا هو

التعاون الذي أفهمه

ونظر اليّ بابتسامة الرضا ، وفي عينيه الزرقاوين بريق بهذا المعنى نفسه أو اكثر . وسألني فجأة

- تعرف المريضة أخت ممرضة العمليات نزهت ؟ فانتبهت حالًا الى الهدف الذي طلب مقابلتي من أجله ، وانه يشير الى عدم اقتناعي بتشخيصه لحالتها المرضية ، وكشف عن قصده حين سألني :

- الم تعرف انني سبقتك الى فحص هذه المريضة ؟

فأجبته

- كلا أبداً ، لم أعرف ذلك .

فعرفت من سؤاله ان الممرضة نزهت هي التي أخبرته بتشخيصي لمرض أختها ، فقلت له

- كان على نزهت ان تخبرني بذلك مقدماً لأشاورك بموضوعها .

فقال لي بارتياح ظاهر

- هذا جيد ، وهذا هو التفاهم الذي اريده (واضاف قائلًا) ويدفعني السلوك المهني الى أن أخبرك الآن انني قد انتهيت تواً مما عملته للمريضة

فسألته

- فتحت بطنها ؟

- نعم فتحتها واكتشفت انني كنت مخطئاً في تشخيصي ماحسسته في الجوف الحوضي ، وانت كنت مصيباً في تشخصيه ، فان الكتلة كانت التهابية لا ورمية ليمكن إستئصالها . فقلت له وأنا في سرى في زهو من هذه النتيجة

- وما في ذلك ياأستاذ روجرز

وحبذا لو أنه عد ذلك مني عن حسن تقدير لا مجاملة أو نقد

وعرفت بعد ايام قليلة ان روجرز نشط وملتزم باداء واجباته فكان أول طبيب يدخل الردهة رقم (١٧) وهي الردهة التي يتولى رئاستها ، كما كان آخر طبيب يغادرها بعد انتهاء الدوام الرسمي ، ولايتردد قط ان يعود الى الردهة اذا نهض مايستوجب عودته وبخاصة اذا طلبه مساعده النشط الدكتور خالد ناجي .

ومن الامانة ان أذكر مساعدته لي في اسعاف مريضة لي بدار التمريض

الخاص ، واني لأعترف له بهذا بالجميل ، كانت مريضتي بدينة كبيرة العمر وهي تشكو من نزف رحمي مستمر منذ اكثر من شهرين . وظهر لي بعد فتح بطنها ان الرحم متضخم بكثير من الاورام الليفية وجميعها مغطاة وملتصقة بلفائف من الامعاء الدقيقة والغليظة . وقد عرفت مقدما تلك ان الاورام الليفية كثيرا ما تخالطها (الاندومبر بوسس) وان فصل الالتصاقات التي تسببها مع الامعاء لايسهل إتمامه دون خطورة في حالات كثيرة . ولكنني لم اقدر كم كانت تلك الالتصاقات واسعة . وعميقه ، وكانت النتيجة ان ظهرت علامات شلل الأمعاء في اليوم الثاني بعد العملية ، وهو اختلاط يخيف كل جراح . وبدأت المريضة تتقيأ ، واستمرت تتقيأ ، وارتفع نبضها وانتفخت بطنها وضاق صدرها على تنفسها .

وكانت هذه المريضة زوجة رجل من أعيان بغداد ، ومن عائلة كبيرة .

وقدرت كم يكون موتها اليماً عليهم وفاجعة لي ، بوصفي طبيباً ناشئاً فقد صرت بمفترق طريقين في هذه العملية إما الشهرة الحسنة في الطب او السيئة التي قد تحطم أيامي القابلة . وتذكرت روجرز وما عناه بالتعاون فيما بيني وبينه ، فطلبته ليلا ، فجاءني بسرعة مذهلة بلباسه العسكري الخشن ، واستمع اليّ وانا اقرأ أمامه ماسجلته على استمارتها المرضية ، كما ذكرت له خطوات العملية التي انجزتها في بطن هذه المريضة وحوضها وانتظرت من روجرز مايستطيع ان يرفع عني كابوس الخوف الذي يخنقني دون رحمة ، وقال لي فجأة وباختصار

– الى العمل ياسامرائي

وهذه هي لغته العسكرية . وطلب قنينة (ونجستر) الكبيرة ووصلها بانبوبين من المطاط دفع أحدهما الى معدة المريضة ، وترك الثاني يتدلى الى سطل وضعه على الارض . وسرعان مابدأت محتويات المعدة القذرة تخرج قليلًا قليلًا ، ثم بكثرة . وبقي روجرز يراقب المريضة حتى منتصف الليل حين انخفضت سرعة نبضها وارتاح تنفسها . وارتسم على وجه روجرز مايدل على إرتياحه فقال بغبطة

– كل شيء جيد ، وتستطيع الآن ان تذهب الى فراشك ياسامرائي ، فانا اعرف كم انت الآن قلق وتعب ، وانك في حاجة الى راحة ، والممرضة وحدها تكفي لمراقبة المريضة واستمرار خروج محتويات المعدة الملأى بالافرازات .

وشكرت الاستاذ روجرز ، وأنا أصحبه الى سيارته ، وحين استقلها قال

- اذهب الى فراشك ياسامرائي

فقلت له

- نعم ، سأفعل واشكرك كثيرا

ودرجت سيارته وانا اتابعها بنظري حتى اختفت في منعطف باب المستشفى الكبير ، أما أنا فلم اذهب الى فراشي لانام فيه ، بل عدت الى غرفة المريضة وأخذت محل الممرضة في مراقبة نبضها وعلائم التحسن التي تسلسلت دون إنقطاع ، والحمد لله .

* * *

وكان روجرز محدثاً لبقاً ومحاضراً يشد الطلبة اليه ، كما كان نشطاً يحسن التحرك ، فيبدأ عملياته في الساعة السادسة صباحاً بينما كان بداية الدوام الرسمي يومئذٍ في الساعة الثامنة وبسبب ذلك كان موظفو صالة العمليات لايرتاحون الى يوم عملياته ، وفيما عدا ذلك كانوا يحبونه ويحترمونه . وكان روجرز حريصاً على ابراء المريض فاذا اكتشف ان مريضاً فقير الدم ، أو قد نزف اثناء العمليات ، فيطلب طاولة يمدونها الى جانب طاولة العملية ويستلقى على طولها ويمد ساعده ليفصدوه ويسحبوا من دمه مايحتاجه المريض ويكون ذلك طبعاً بعد فحص دم المريض للتأكد من تلاؤمه مع صنف دمه ثم ينهض منتصباً ويغير ملابسه بأخرى معقمة ويعود الى طاولة العمليات لاتمام العملية .

ومجالس الاستاذ روجرز ممتعة وهو لاينسى قط ان يتكلم فيها عن مشاركاته الطبية في شمال افريقياً وتشيكوسلوفاكيا واتصالاته المباشرة بالزعيم تيتو ، فقلت له ذات يوم : لماذا ياستاذ روجرز لاتتكلم الى طلاب الكلية وهيئة التدريس فيها عن حياتك كجراح في الجيش البريطاني ؟

فأجابني ؟

- سجلتها بكتاب بعنوان (طبيب وراء خطوط القتال)

- فقلت له

- نريد ان نسمع منك ماكتبته في ذلك الكتاب

فقال لي

- انها فكرة جيدة وساعلن عن يوم القائها في الاسبوع القادم .

وفي اليوم الثاني جاءني روجرز الى غرفتي بالمستشفى وبيده الكتاب الذي اشار اليه ، وصورة له عملها رسام قدير بقلم الرصاص ، ومع ذلك من

ينظر اليها يعرف بسهولة ان لون عينيه أزرق لا اسود باهت . كانت الصورة متقنة الى حد كبير من الاتقان. وقال روجرز وهو يقدمها هدية اليّ :
- سوف اشير الى هذه الصورة في خلال محاضرتي .
كان روجرز اثناء محاضرته يبدو قاصاً واديباً اكثر مما هو طبيب أو مخبر صحفي . فقال فيما قاله - انه كان جراحاً بجيش (مونت گومرى) بشمال افريقيا وكان يصحبه طبيب آخر استرالى اسمه روبرت ربطت بينهما صداقة حميمة ، وكان هذا الطبيب جراحاً قديراً كما كان جريئاً في اخلاء الجرحى ، ثم قال روجرز
- وذات يوم بينما كنت أنا وصاحبي الدكتور روبرت نتحدث وراء ساتر رملي واذا بطائرة المانية تزأر في سماء المنطقة ، وتنقض بشكل مفاجىء على مكاننا ، كان روبرت مرحاً ذا نكتة حتى في مثل هذه الحالات الحرجة (فعفط) على هذه الطائرة ، وضحكت على مافعل تأييداً له وحقدا على الالمان ، وكان رذاذ الرصاص قد نثر الرمال عليّ وعلى صاحبي بكثافة حتى انعدمت الرؤيا فيما بيني وبينه ، كما توقف فجأة استهزاؤه على الالمان ، وبحس ضمني خفت ان يكون قد أصابه مكروه، فناديته مرة ومرتين فلم اسمع منه رداً فمددت يدى لأتلمسه فاحسست بدبق على راحة يدي ، فاذا ذلك كان دم صاحبي الغالي روبرت . فنهضت وقلبته على ظهره لاكشف عن مدى إصابته ، فوجدته قد فارق الحياة ، فجننت حزناً على فقدى لهذا الزميل العزيز على ، وحنقت على الالمان ، وقصدت في اليوم التالي القيادة العسكرية وقدمت اليها طلباً لاعمل جندياً وراء خطوط القتال بأوروبا ، لانتقم لصديقي روبرت . وتسلمت الأوامر والخرائط والتعليمات بحسب ذلك (واستمر روجرز يقول) وحملتني طائرة من نوع ولنكتون بعد منتصف ليلة ظلماء الى غابة قريبة من مركز قيادة الجنرال (تيتو) . وقبعت في مكاني حتى بزغ نور الصباح . فتسللت عبر الاشجار ثم على حرش من الاعشاب البرية حتى اقتربت من مركز القيادة ، فأمسك بي جندي مسلّح لم يكن يعرف اللغة الانكليزية ، فانقذتني البديهة فوجدت نفسي اصيح بوجه الجندي «تيتو ، تيتو .. أنا انكليزي ، انكلترا» فقادني وهو يومي براسه مابمعنى انه فهم ما أقوله ؟ ثم إبتسم .كان مقر القيادة في عمق كهف غطي مدخله باغصان الاشجار الطرية ، وكان تيتو لحظة دخلت الى وكره يرتدي سروالًا من الخاكي محمولًا (بشيال) يعبر

كتفيه الى أمام والى خلف جسمه وفي رجليه حذاء بني باهت اللون ، وعلى مافوق محزمه فانيلا بكمين قصيرين .

وقد كسا وجهه برغوة كثيفة من الصابون استحضاراً لحلق ذقنه وهو ينظر في مرآة صغيرة مثبتة على جدار الكهف .

ولم يلتفت تيتو اليّ إلا بعد ان خاطبه الجندي الذي قادني الى هذا الكهف ، فاشار تيتو الى الجندي المسلح ان يخفض سلاحه ويغادر الكهف ، ثم التفت نحوى وهو يرحب بحرارة ويقول ان له علم بقدومى وانه ينتظرني ساعة بعد ساعة . ثم سألني فجأة ان كنت تناولت فطورى ، فنادى على الجندى الذي غادر الكهف تواً ان يهيئ فطوراً لى وله ، فتناولناه معاً وهو يزدوني بواجباتي في المهمة التي أقدمت عليها . ولم اشعر قط في يوم من ايام عمرى بشعور مثل ذلك الذي تملكني في تلك اللحظات فقد شعرت كانني قد أديت كامل مهمتي التي ترضي فقيدي روبرت بينما لم اكن بعد قد بدأتها .

(ثم قال) وفي حركة عابرة جرحت في عضدي الايمن واسفل بطني فادخلوني مستشفى عسكرياً بقرية صغيرة تختفي تحت اشجار كثيفة ، وفي هذا المستشفى تعرفت على عريف پولوني ، يعمل في قوات تيتو ، وقد فاجأني يوماً هو يرسمني بقلم رصاص على ظهر ورقة دعاية ضد الالمان فاعجبتني مهارة هذا الفنان فاستنسخت من هذه الصورة خمسين نسخة وأنا احتفظ الآن بالصورة الاصل واهديت الباقي الى الاصدقاء ، كان منهم تيتو ، وكان هو الذي طلبها مني بعد ان إطلع عليها .

وختم روجرز حديثه الممتع بقوله : قبل ان انشافى تماماً من جروحي منحت إجازة شهر كامل للنقاهة في جبل لبنان بمنطقة (عالي) وكانت الحرب يومئذ على وشك نهايتها بانتصار الحلفاء ، فخط القدر أوامره ان أقدم طلباً للعمل بكلية الطب العراقية .

* * *

وفي الأشهر الثلاثة الأخيرة من وجود روجرز في العراق حدث ماعكر حياة هذا الجراح الكبير، فقد حدث ان أصيبت ابنة الاستاذ هاشم الوتري الصغيرة بالتهاب الزائدة الدودية فعالج حالتها روجرز باستئصال الزائدة ، فتوفيت المريضة الشابة في اليوم الرابع بعد العملية متأثرة بالتهاب الحوض الحاد ، فسخط الاستاذ الوتري على روجرز وكأنه في ظنه قد قتل

ابنته عامداً حتى انه رفض يوماً مقابلته حين جاءه روجرز لابداء إسفه على ماحدث لابنته . فلم يطق روجرز هذه الإهانة فقدم طلباً لمنصب الاستاذية بجامعة في نيوزيلندا ، وهيأ نفسه ليغادر العراق بعد شهر واحد وهي المدة التي منحها لوزارة الشؤون الاجتماعية لتجد بديلًا له في الكلية الطبية ببغداد ويبدو ان هاشم الوتري قد اتفق بالمكاتبة مع (لورد موران) لتعيين جراح بريطاني من أهل لندن ، ويوماً وصلت برقية من اللورد موران الى الاستاذ الوتري فيها ان ذلك الجراح قد اعتذر عن قبول منصب الاستاذية في بغداد ، ونصحه بتجديد عقد الاستاذ روجرز . ولما ادرك الاستاذ الوتري انه لم يستحضر استاذاً للجراحة ، طلب مني ان أكلم روجرز ليقدم طلباً لاعادة تعيينه في الكلية ، وكلمت روجرز بهذا الأمر فرفض العمل برأي الوتري وهو يقول لى

– ان التحرك يجب ان يبدأ من جانب العمادة لامن جانبي ، وإلا فانا مصر علي مغادرة العراق .

ورفض روجرز ان يودعه أحد من اطباء الكلية ، ولاهو ودع الوتري يوم سفره ، وكان الوحيد الذي أوصله الى مطار المثنى هو مساعده الاول الدكتور خالد ناجي .

وبلغني بعد اشهر من سفره الى نيوزلندا انه قتل بحادث سيارة في ذلك القطر بعد ان عجز الموت عن ان يناله بقنابل هتلر .

× × ×

وزامن الاستاذ روجرز في اوائل أيامه في العراق الاستاذ (باربر) ، وكان هذا في أواخر العقد الرابع من عمره ، له وسامة النبلاء الانكليز القدماء الذين يظهرون في الافلام السينمائية ، بعينين واسعتين ، وعلى جسر أنفه عوينات باطار ذهبي اللون لماع ، وهو بطول معتدل ، وباندفاع يسير الى امام في اعلى ظهره ، وبشرته وردية ، وأنفه فيه شيء من الضخامة والحمرة لكثرة مايتناول من المشربات الكحولية .

وكان في عمله الجراحى يبدو متباطئاً ، وعلى عكس زميله الاستاذ روجرز الذي كان سريع الخطى والعمل . وقد استوقفه باربر يوماً وهو يمشى مسرعاً الى صالة العمليات واراد ان يكلمه ، فاسكته روجرز قائلًا : مشغول ، أراك بعد ان انتهي من عملي . فقال له باربر ببرود بالغ . وما

لعجلة في انهائه ؟

واعتادت الكلية ان تقيم حفلاً متواضعاً لمن يلحق بكادرها التدريسي ، فكانت حفلة استقبال باربر في الجمعية الطبية العراقية الواقعة الى الجانب الايمن من عمارةبيت لنج برأس القرية من شارع الرشيد ، وكان رئيس الجمعية الطبية يومئذ الاستاذ هاشم الوتري ، فكلف صديقه الزعيم عبيد المضايفي وهو المرافق الاقدم للملك فيصل الثاني ، ان يدعو الامير عبد الاله لحضور الحفلة . وحضر المحتفى به الاستاذ باربر ومعه سيدة برشاء ذات سحنة باهتة ونحافة تبرز تحت لباسها الخفيف عظامها الدقيقة ، وقد قدّمها الاستاذ باربر الى الاستاذ الوتري باسم زوجته (الس) فرحب بها الاستاذ الوتري ، وحين قال لهما ان الأمير عبد الاله سيكون معنا بعد قليل ، قالت الس بلهفة الاطفال : ان هذا ما أحلم به لأكلم أميراً عربياً . ولما حضر الأمير عبد الإله لم تحظ بمكالمته بل بمصافحته فقط حين قدمها الاستاذ الوتري كزوجة لضيف الشرف الاستاذ باربر . وبقي الأمير جالساً الى جانب الأستاذ الوترى على مدى ساعة الحفل ، ولم تقترب منه زوجة المحتفى به ، غير انها مانفكت تنظر اليه بتلهف وهي تستحضر ابتسامة لتقابل بها وجه الأمير الجميل اذا تقابلت عيونهما الا انها لم تنل هذا التلاقي . وحين استعد الأمير لمغادرة الحفل ، تدافعتْ لتصافحه ، إلا ان الأمير لم يصافح احداً من الحاضرين بأستثناء الأستاذ الوتري وخرج مبتسماً للجميع .

كان الاستاذ باربر يقاسم زميله الاستاذ روجرز القاء المحاضرات بالكلية الطبية ، ولم تكن محاضراته جذابة الا للطلبة ، وذلك لانه كان بطيء الكلام ويخرج حروف الكلمة بوضوح وكأنه يهدف بذلك الى ان يفهمه الطلبة بعد ان ادرك ان معرفتهم بالانكليزية ضعيفة ، ومتابعة افكارهم لمادة المحاضرة بطيئة . أما اعماله الجراحية فكانت مثل ذلك تتصف ظاهراً بالبطء غير انها في الحقيقة لاتستغرق وقتاً اكثر مما يتوقع من ذلك . كما كنت الاحظ انه لايكرر الحركة ولايتباطأ في اختيار موقعها والبدء بها ، وربما كان هذا سر السرعة غير المتوقعة في اتمام عملياته .

وقد التحق الاستاذ باربر بمستشفى العلمين بتأثير الدكتور ماكس كروباخ والممرضة النشطة رينة التي كانت هي (المترن) في هذا المستشفى . وبمدة غير طويلة صار لباربر زبائن كثيرون من المرضى . كما

صار لزوجته (الس) أصدقاء كثيرون لم أعرف منهم إلا الرجال ، وصارت تطيل السهر مع أحد تجار السيارات (ح ق) وكثيراً ماتشاهد تسوق سيارته اللنكلن الفخمة والى جانبها ذلك التاجر الذي أشرت اليه . ويوماً فوجئنا بخبر غريب ، الاستاذ باربر منع من حق الممارسة بامر من الجمعية الملكية للجراحين بانكلترا لمدة خمس سنوات ، والطلب من الحكومة العراقية انهاء عقده حالًا . وانتشر هذا الخبر الغريب بين زملائه من الاطباء وغير الاطباء في بغداد ، وجاء التفسير سريعاً لهذا الخبر ، وهو ان باربر أجرى عملية في مستشفى العلمين لسيدة انكليزية وصارت بينه وبينها علاقة تطورت حتى أغاضت زوجها الذي كان يعمل يومئذٍ في شركة النفط العراقية ، فرفع شكوى الى الجميعة الملكية للجراحين بانكلترا وسرعان ماكلفت هذه الجمعية سكرتير السفارة البريطانية في بغداد بتشكيل لجنة تحقق في هذا الموضوع ، فاعترف الاستاذ باربر بعلاقته بتلك السيدة ، كما اعترفت هي بذلك ، فعدت الجمعية الطبية البريطانية باربر قد استغل مهنته لإغواء مريضته .

وكانت النتيجة ان اختفى الاستاذ باربر بضعة أيام سافر بعدها الى انكلترا ، وعلمت انه بعد خمس سنوات اباحت الجمعية الطبية له ان يمارس الطب ، فحصل على كرسى الاستاذية في جامعة (جوها نسبرغ) بجنوب افريقياً ، وانقطعت اخباره عنا حتى سنة ١٩٧٢ ، فاستدعاه استاذ الجراحة عبد اللطيف البدري الى بغداد ليشارك في الامتحانات النهائية في كلية طب بغداد . وحضر في الوقت المقرر ضيفا على جامعة بغداد . وقد بان عليه تقدم العمر ، وغطى الشيب رأسه وأبدل عويناته الانيقة باخرى سميكة ، ولايخطو في مشيه الا بحذر وهو يمسك بيده اليمنى عصا من الابنوس الاسود بمقبض من العاج ، وتمسك يده اليسرى سيدة صغيرة الجسم والعمر . وكان لايزال يحتفظ بمظهر السيد النبيل ولا ينقصه في ذلك الا النحنحة التقليدية التي يتعكز عليها نبلاء الانكليز عند التحدث واصدار الأوامر لخدمهم وحشمهم . وقد دعوت باربر الى بيتي ودخل بيتي ومعه تلك السيدة الصغيرة التي ذكرتها وقدمها الى باسم زوجته ، وهي انكليزية الأصل ومن مواليد جنوب افريقيا . وقال لي انها كانت تعمل ممرضة في عيادته فتزوجها بعد ان وهن وشاخ .

غريب كيف تترى الاحداث وتترابط فلا تبدأ حتى تستمر ذيولها تنبض

ولو بعد حين طويل . ففي عام ١٩٧٦ دخلت عيادتي سيدة بنحو السنين من عمرها ، ووقفت أمامي بلا سلام ولاحراك ، فقلت لها هل من خدمة اقدمها لك ياسيدتي ؟ ولم تتحرك بل ابتسمت وهي تسألني

- اما عرفتني ياكمال

وعرفتهامن صوتها الأجش

- ألس ؟

- طبعاً الس ، قلت لنفسي سيكون كمال اول من أزوره في بغداد . وقد وصلت البارحة ليلًا ، كيف انت وكيف (لاميأة) تقصد زوجتي لميعة

- وكيف انت ياالس ؟ اخبارك ؟

- على مهلى في جميع الأمور ؟

وأخرجت من محفظة يدها صورة بمغلف من النايلون الشفاف تمثل طيراً بحجم العصفور مربوطاً بسلسلة حديدية ضخمة تتصل بكرة ضخمة من الحديد . وتحت الصورة عبارةTAKE IT EASY وقالت وهي تعرض هذه الصورة علي :

- نعم ، أنا الآن اعمل بهذه النصيحة .

وفهمت ماقصدته ، فقلت لها ، وماذا اقدم لك الآن ياعزيزتي الس فاجابتني بسرعة

- ادعني الى عشاء في بيتك .

فأجبتها

- سترحب زوجتي بك في هذه الدعوة .

فقالت لي وهي تبتسم

تخافها ؟

فأجبتها

- الذي لايخاف لايخوّف

وختمت كلامها معي قائلة

- انا في فندق بغداد . وغرفتي برقم ٢١٤ .

سوف لا انتظر دعوتك تلفونياً ، بل سأحضر الى بيتك مساء غد دون انذار

وغادرت عيادتي

زواج مس كنكستون/ ١٩٤٧

مس كنكستون بريطانية الجنسية . بعمر الستين . وكانت رئيسة ممرضات المستشفى الملكي على مدى تسع سنوات بعد دخولها العراق في سنة ١٩٣٨ ، بعقد مع مديرية الصحة العامة . وهي طويلة القامة بضخامة وترهل ، وردية الوجه بانتفاخ قليل . كما كانت ساقاها متينتان وتتفرع تحت جلدتها دوالٍ من الأوعية الدموية . كما كانت تنبت بسبب عمرها بعض الشعيرات على حنكها وشفتها العليا فلا تحلقها حتى اذا طالت بشكل ممجوج . على أنها كانت ذات همة وتعمل بنشاط دون كلل أو ملل حين تتفقد ردهات المستشفى الملكي طوال النهار وبعضا من ساعات الليل الأولى . وبحكم مقابلاتي معها في ساعات الليل حين استدعى لعلاج مريضة في احدى الردهتين النسائيتين فقد كنت في بعض هذه المقابلات اشم رائحة الخمر من فمها اذا اقتربت مني . غير انني لا اذكر انها يوماً فقدت سيطرتها على ذاتها ، أو زلّت في تصرفاتها الاخلاقية أو المهنية ، فهي في الحقيقة دوماً مؤدبة ، ولاتتكلم الا في نطاق واجباتها في التمريض ومراقبة أعمال الممرضات . غير انني اكتشف يوما ان مس كنكستون كممرضة هي غيرها كإمرأة . فقد استعارت مني سيارتي ذات ليلة رأس السنة الميلادية لحضور حفل في نادي العلوية . فأجبتها الى طلبها بامتنان ، وقاد سائق سيارتي (هجول) السيارة الى دار الممرضات البريطانيات االلصيقة بدار التمريض الخاص في المستشفى الملكي حيث تسكن مس كنكستون وأخريات من الممرضات البريطانيات . ليكون هجول في خدمتها في تلك الليلة . وفي الساعة العاشرة ليلا عاد الى هجول راجلا . فاستغربت من ذلك والليل في اوله ولما سألته عن السبب قال لي : انها أخذت مني مفتاح السيارة وقالت لي عندي سائق . واشكرك باي حال .

وفي الساعة الرابعة صباحاً دق جرس باب بيتي . فخطر ببالي احتمال طلب من يريدني لأرى مريضته في داره . ومثل هذا الطلب ليس غير غريبا في مثل هذه الساعة ، فنهضت من فراشي بتكاسل وفي عيني وسن ثقيل ، ونزلت السلم الى مدخل البيت . فاذا على مدخله مس كنكستون ومعها رجل في مثل عمرها أو اكثر . وهما يترنحان من شدة السكر . فترتمي على

صدره ثم يقوّمها ويرتمي هو عليها في هذه المرة ، وبادرتني تحملق في وجهي بعينين زائغتين ، وتقول

– كمال ، آسفة ان ازعجك في هذا الوقت (ثم استدركت تقول) أوه ، ومدت يمناها الى الرجل الذي كان يصحبها وهي تقول

– هذا هو وليم خطيبي ، واريدك أن تعرفه .

ثم تحولت نحو هذا الرجل وجذبته الى صدرها المنتفخ بنهديها الضخمين وكأنها عدلان من القرب على ظهر دابة . ثم دفعته عنها وارتمت على صدرى وهمست في أذنى

– ان وليم يصرّ على ان يتزوجنى هذه الليلة

ويبدو ان وليم هذا قد سمع ماأسرت به الى ، فقال

– نعم هذه الليلة وليس غداً

ولم أر لنفسي في هذا الموقف إلا ان اتجاهل سرهما ، فقلت لمس كنكستون

– كان في استطاعتك ، ان تبقى السيارة في المستشفى فلا تتحملى مشقة المجيء الى هنا

فقالت

– جئت بالسيارة اليك لانني أريدك ان تكون شاهد زواجي ياكمال

فقلت لها مجاملًا

– يسرني ان اقوم لك بهذه الخدمة يامس كنكستون ، ولكن شهادة الزواج يجب ان تكون علنية

فقال صاحبها وليم معترضاً

– هذا لا ، وإلا فسدت المتعة من الحب

ولما رأيت ان موقفى من مس كنكستون وصاحبها عند باب دارى لايصح ماكان مني إلا ان اقول لها .

– هيا اوصلكما الى دار الممرضات أولًا

فقالت

– هيا

وعادا الى سيارتي ودخلا مقعدها الخلفي ، ولما وصلنا الى دار الممرضات ، فتحت باب السيارة الخلفي لأدعوهما الى الترجل والتوجه الى دار الممرضات ، فاذا هما يغطان في نوم عميق ، وتركتهما يحلمان . وطرقت

باب دار الممرضات وطلع على طباخ هذه الدار ، فطلبت منه ان يوقظ من في سيارتي . وهكذا انتهت هذه المسرحية المضحكة .

طلبة كلية الطب يقلدون اساتذتهم/ ١٩٤٧

أقام طلاب الكلية حفلة سمر بقاعة السنما بكلية الطب يقلدون فيها اساتذتهم حضرتها الهيئة التدريسية بكاملها بمن فيهم العميد ، وكانت المادة الاولى في هذه الحفلة تمثل قهوة (عزاوى) الشعبية . وعلى اثر الدقات التقليدية الثلاث المعروفة في المسارح العامة رفعت الستارة عن شلة من الاصدقاء بملابس بغدادية كالچراوية والزبون واليمني والنعل ، وهم يحيطون بكراسيهم منضدة قديمة لالون لها ، ويتندرون باحداث يومهم الحافل بالمغامرات ، وعن طيور الحمام التي يربونها فوق سطوح بيوتهم ، وفي احاديثهم القسم بالله والتباهى بما في ابراج طيورهم من انواع الحمام كالأورفلى والرمادي والعنبرى والمسكى والألاج . وحين علا صياحهم وصخبهم ، دخل مجلسهم (شرطي الاخلاق) المسؤول عن سلوك الملاهى والمواخير والمقاهي ، بوجه عبوس ، ورشقهم بنظرة غير راضية ، فنهض أحدهم وهو أبو زكية(مكي الواعظ) وتقدم من الشرطي وأخذه جانباً ودسّ في يده شيئاً ، فابتسم له الشرطي وعاد من حيث جاء ، وعاد أبو زكية (مكي الواعظ) الى كرسيه حول المنضدة وهو يتمطى ويمد ساقيه من بين فرجة زبونه فتظهر ساقاه العاريتان ، و رفع أحد (الشياش) التي انتهى من أكل ما كان عليها من قطع اللحم و(المعلاق) وخلل بطرفها المدبب وبصق ما أخرجه من بين اسنانه من نتف ، الشواء . وقال يتم حديثه عن طير الحمام قائلا وهو يزعق بصوت عال .

– أنه الطير الذي لايبيت في السماء ماياكل لقط عندي ، وثاني يوم املص عنقه وكان صالح (جابر محسن) ينظر اليه بتحدٍ ، فأدخل يده في (عب) زبونه الذي يلبسه على جلده وأخرج منه طيراً رمادي اللون ، وصار يدغدغ باصبعيه ماتحت منقاره باعتزاز وتفاخر ، وهو يقول مشيراً الى هذا الطير

– أبوهم ، صار له يومين وهو فوق الغيم

ويلتفت الى ابي حسين (عزيز محمود شكري) ويسأله .

- تمام ؟... ماتنطق ، سوهذا على أيدك ؟

فيجيبه ابو حسين

- والله يابه تمام ، شوف العين

ويسأل (جبوري) صديقه صالح

- هسه شد كول ؟

ويسكت (أبو علية) على مضض ثم ينفجر بصوت أبح

- اذا تريد طير صدك عليك بالحمام الزاجل

ويرد عليه جسّام (تحرير الكيلاني)

- هذا موطير ، هذا حمام

فيقول له أبو علية

- هذا طير ونص ، وأبو الطيور كلها

ويعود جسّام يسأله

- اسألك ، الزاجل يگلب ؟

فيقول أبو علية

- لا مايگلب ، اسمعنى الزاجل الذي عندي ، الفحل مو الطيرة ، غابت ثلاثة ايام ، وفي اليوم الرابع عادت الى برجها ويّه أذان المغرب . اسألني وين جانت ؟

- وين جانت يابه ؟

- جانت بجزيرة هيلانة

فسأله ابو علية باستهزاء

- جزيرة هيلانة وبن يابه ؟

- فوق البصرة

- زين شلون عرفت جانت بجزيرة هيلانة ؟

- المسألة هينة ، عصرت تغرتهاوزوّعتها فطلعت من حلكها اربع حبات هيل .

فأجابه جسّام مكسوراً

- لا اذا هيچي ، فسالفتك صحيحة .

وفي اثناء هذا النقاش دخل مجلس هؤلاء الاصدقاء أحد رفاقهم فهبوا جميعاً لاستقباله

- هاى وينك يأبو المصايب (حسين الارفلي)

- الصحيح كنت بالتوقيف طول هذا الاسبوع
وسأله اصدقاؤه مرة واحدة
- زين ، السبب ؟
فتنحنح أبو المصايب ، وقال
- كنت آنى ويا ابن خالتي نشرب بمطعم (هرمز) ، وسمعت البوى وهو واقف على البار يضحك ، فقال لي ابن خالتي هذا البوى يضحك علينا ولازم نأدبه ، فقمت من مكاني وچرخته بأم الياى (يقصد سكينة أم الياى) وخليت دمّه بطوله .
فقال له اصحابه بحماس
- حيل ، چان خلصت عليه ، والحبس للرجال يابو عليوى
وقال أحدهم ، لاتصيحون دخيل الله ، الشرطي يسمعنا وأخاف يسجّل علينا دعوة تهديد بالقتل . فقال أبو زكية بثقة واعتداد
- هذا الشرطي بعد مايجى ، دسيت بيده واشر (خمسين فلساً)
واذا جاء افصم خشمه بجمع واحد
وفجأة ظهر الشرطي على الباب ، فناداه ابو زكية تفضل باش . انت عزيز علينا
وفجأة دخل ذلك الشرطي ، وسأل بتبرم
- ماهذا الصياح ؟
فقام له (أبو زكية) تحرير الكيلاني وقال له بتوسل
- باش العفو ، بعد ماتسمع نفس من عدنا . تفضل اشرب ويانه !
فأجابه الشرطي
- لا مايصير أنا بالواجب
- اي واجب يامعودّ
- شنو هالزحمة
- ماكو زحمه ياباش
- طيب أشربه وكافي
وأخذ الشرطي كأس العرق من يد أبي زكية وعبه دفعة واحدة واسدلت الستارة .
وارتفعت الستارة في المشهد الثاني بعد استراحة نصف ساعة ، وفيه يقلدون كلا من الاستاذ چوبانيان والاستاذ جلال العزاوي . فعبر المسرح

رجل مربوع القامة ، اشيب الرأس وهو يدس اربعة أصابع من يده اليمنى في جيب سترته ، فضج المشاهدون بالضحك ، فقد كان ذلك الرجل أحد تلامذة الكلية وهو يقلّد هيئة الاستاذ چويانيان وطريقة مشيه ، كان مثيلًا له بشكل عويناته ومشيته الخاصة وبشيب رأسه الذي أصطنع بمسحوق الطباشير . وجلس هذا الاستاذ (چويانيان) وراء منضدة تمثل العيادة الخارجية للامراض الجلدية ، وهو اختصاص الاستاذ چويانيان . وطلب من الفراش ان ينادي على مريض قائلًا بلغته التي هي خليط من التركية والعربية والارمنية : - مخمد انتي جيبي سختة آخر

وتقدم منه الفراش وهو يمسك بعضد مريضة ؛

فقال لها الاستاذ وهو يؤشر باصبعه على كرسي قريبا من منضدته

- انتي (برده) اقعدى

وعرضت عليه شكواها

فسألها

- انت تحكين بين زرورى ؟

فاجابته بامتعاض

- دختور ، شنو هالچي الماصخ

وتلملم عباءتها على رأسها وتغادر عيادة الدكتور چويانيان

وتنسدل ستارة المسرح ليظهر الاستاذ جلال العزاوي

(الطالب حميد البستاني) بطوله الفارع وشعره الاشيب وشاربه المبتور وعوينتيه نواتي الاطار السميك ، فكان المكياج ناجحاً بامتياز . ودخل شخص قصير القامة داكن السحنة ، فصاح الدكتور جلال

- وينك مهدى افندى ؟

فاجابه

- يمك عمى

ومهدى (أفندى) هو المضمد الافضل في شعبة العيون التي يرأسها جلال العزاوي .

- شنو عدنا اليوم ؟

- عملية ماء أبيض .

- شنو عملية ، آني أسال عن (ريوگى) ، كبة إبن جون لو تشريب ؟

ويلتفت الدكتور جلال الى طلاب العيادة الخارجية ويقول

- رحم الله جون ، لانه خلّف ابن جون ، لو ما هو وين أولى لاكل الكبة ؟
ويقول مهدى (أفندى) وهو يخاطب الدكتور جلال
- عمى لو تاكل بعد العملية أحسن
فيجيبه الدكتور جلال
- هيچى تشوف ؟ زين مثل ماتكول .
وانسدلت ستارة المسرح .
كان تقليد طلاب كلية الطب لاساتذتهم متقنا خبراً ومخبراً حتى ان الاستاذ روجرز لم يستطع ان يلتزم برزانته وصار يضحك وهو يضرب بكفيه على فخذيه .

شيتا وبزن/ ١٩٤٧

سافرت زوجتي ومعها اطفالي الثلاثة الى لبنان ، ولم يبق معي في بيتي التي اسكنها في الصليخ الا الخادم (على) ليطهو لي طعامي ، ويهيىء لي ماأحتاجه لراحتي ، ومعنا ايضاً القردة (شيتا) والقطة (بزن) . وهؤلاء الذوات الثلاثة هم اعضاء اسرتي في الوقت الحاضر ، واني لاعدهم ايضاً من اصدقائي ، اثنان منهم يشاركانى حجرتي التي انام فيها ، وينامان قرب سريري ، كما يتناولان طعامهما على مائدتي احياناً ، وليس لي صديق من بني الانسان حظي مني بمثل هذه العلاقة الوثيقة باستثناء زوجتي طبعاً ، على ان الزوجات لا يردن ان يكن من الاصدقاء ، والزوج في الحقيقه لايعرف ماذا تريد زوجته اذا رفضت هذه الزوجة ان تكون لزوجها صديقاً .
وانا اعد (على) وشيتا وبزن من اصدقائي المحبين المخلصين . وقد أطلق ابنى الصغير اسم (بزن) على قطته ، وكان يوم خلع عليها هذا الاسم لايحسن النطق ولايعى معاني الاسماء وارتباطها بالمسميات . ونحن ، أنا ومن في بيتي مثل كل الناس نسمى القطة (بزونة) ، ويبدو ان الفهم اختلط على ولدى الصغير فسماها بزن لسهولة نطق هذا الاسم . وليميزها عن (البزازين) الاخر .
والقطة بزن جميلة الوجه والتكوين ، وذات انف دقيق وفراء كثيف بلون

التبر ، وذيل منفوش منتصب كسوارى الاعلام ، وهي ايضاً بمشيتها المحتشمة تجمع بين التواضع البشرى وبدائية الحيوان . وبزن اليوم أم في النفاس لثلاث قطط صغيرة لاتزال مغمضة العيون ، وتحبو على بطونها متمايلة وبلا اتزان . وكانت قد وضعت بزن ثلاث قطط قبل عام ، أكل هر منها اثنتين ؛ وأكلت الام طفلها الثالث !! وهذا الحادث مالوف بين أخوانها من القطط ، ويعرفه كافة الخلق ، ولكنه آلمنا ان تاكل (بزن) الجميلة ، ذات العينين الخضراوين الحالمتين والطباع الوديعة ، التي لاتعرفه العض والخرمشة اصلا ، ولاتاكل طعامها من اللحم الا ماهش منه ولان .. وفي ماعون نظيف .. فلم نتوقع منها ان تاكل فلذة كبدها ولما يعد الفطام . وكنا نظن ان الخلقة والخلق يتلازمان ، فلا يكون من جمال الخلقة قبح في الخلق ، فاذا ابدع الله في صورة اودع فيها اسمي الخصال واحمدها ، فلما وضعت بزن (اطفالها) في هذه المرة بدأنا نرقبها ، وقلنا لها حذار يابزن ان تعيدي سيرتك الأولى فاننا نغفر مرة لا اكثر من مرة ، فلما اغمضت بزن عينيها بهدوء عددنا ذلك منها طاعة وامتثالاً ؛

أما القردة (شيتا) فهي من فصيلة جنسها الصغار . وهي ذكية ككل القردة ، ويعجبني منها ان تتوسط على طرف فراشها وتغطي جسمها بالطرف الآخر ، ثم تخرج وجهها تتطلع متفرجة علي كما يتطلع الانسان من بين القضبان الى القردة الحبيسة في أقفاص حدائق الحيوان . وفي يوم دخلت بيتنا قطة غريبة ، وكانت هزيلة ذات فراء قصير أغبر وجذع نحيف طويل معوج يتلوى حين تمشى كما تتحرك الديدان الجائعة ، ولها وجه بذقن مدبب ، وذيل رقيق تسحله وراءها وكأنه قد ربط اليها ربطاً . فلما رأيناها أول مرة نهرناها باشمئزاز غيرانها استمرت تدور حول البيت حتى وصلت الى شيتا ، ونشأت بين الاثنين صداقة اشبه بالمحبة التي تكون بين الادميين . واستغربنا ان تميل شيتا الى هذه القطة القبيحة ، الشريدة ، الدخيلة التي لايعرف أصلها ومنشؤها ، بينما في البيت قطة أخرى آية في الجمال والكمال ، ولكن يبدو ان هذه المسالة ليس لها قاعدة ، وان الجمال قبح في عين ، والقبح جمال في عين أخرى . وقد تكون (شيتا) قد لمست في هذه القطة الغريبة مالم تلمسه في قطتنا بزن . فصارت شيتا تحفظ لها الطعام وتلعب معها وتفلى فراءها وتقبل وجهها وعينيها وفمها وكل موضع من جسدها .

أما خادمي (على) فهو طويل القامة معروق العود داكن البشرة ، وذو رقبة رقيقة طويلة . وهو يخدمني باخلاص ، ويغسل ملابسي ويكويها باعتناء وحرص .

وهو ايضاً الى جانب هذه الاعمال تلميذ في مدرسة ليلية ، ولكنه صار مكملًا في موضوع الحساب الذي كان يدعى انه يعرفه بسيطرة ، ورأيت من اللياقة ان أعزيه ، فابديت له اسفي على نتيجة امتحانه ، إلا ان عليا رفض هذ المجاملة واكدّ لي ان اجوبته كانت صحيحة وكاملة ، ولكنه على مايدعي ليس له حظ ، فقلت له مواسياً ان الحظ في بيتى لايعثر مرتين ، وسوف تنجح في امتحان المكملين ، غير انه عاد فقال : ليس لى واسطة ! ولما سكت ولم اعلق على ماقال : قال هو مقسماً انه اذا لم ينجح في امتحان الاكمال فسوف ينتحر . فاخافنى هذا التهديد ، وشعرت انه قد هدد بقتلي ، لانني اعرف ان علياً على طيبته ليس متزناً أو على الاصح ليس عاقلًا تماماً ، وعندي على ذلك ادلة كثيرة ، فقد رأيته مرة يلبس برنيطة (قحفية كما يسميها) ليلًا وداخل البيت فلم التفت الى هذا التصرف الغريب في بادى الأمر ، ولكني انتبهت الى غرابته بامعان حين رأيته اذا خرج الى الحديقة يرفعها عن رأسه ويضعها على حافة نافذة المطبخ ليعمل مايريد تحت الشمس الحارة فاذا انتهى من عمله عاد الى برنيطته ووضعها على رأسه قبل ان يلج الدار . كما اني سمعته اكثر من مرة يكلم بزن معاتباً او محابياً ، ويرد على نفسه بلهجة ليست مثل كلام الانسان ولامثل مواء القطط ، فيقوم بدور نفسه ودور القطة في آن واحد ، افليس لي اذن ان اشك في صحة عقل علي وأخاف منه ان ينفذ قراره فيقتل نفسه منتحراًاويقتلني غاضباً ، ولهذا رأيت ان اشجعه على الدرس ، ومن يومها لم اطلب منه خدمة تلهيه طويلًا عن مراجعة كتبه ولما دخل امتحان المكملين شعرت كانني على شفا هاوية اذا مافشل في امتحانه . ورسب علي للمرة الثانية لسوء حظي ، وقد عرفت بهذه النتيجة قبل اعلانها ، فلما عدت الى البيت وقت الظهر استقبلني علي لدى الباب وكنت في تلك اللحظات افكر في طريقة انقل بها هذا الخبر السىء . وفاجأنى

علي يسال :

- تعرف ؟

فقلت على عجل وبلا تحضير
- اعرف ماذا ؟
فاجابني ببرود وهو يميل البرنيطة الى جانب رأسه
- لقد رسبت في الامتحان .
ولما سكت معتمداً على ما تظاهرت به من الاسف على هذا الخبر .

سالني
- كيف تقول ان الحظ لايعثر في بيتك مرتين ؟
فاجبته
- كان حظى أنا هو الذي عثر في هذه المرة
وقطع الكلام معي ، وسكت أنا ايضاً . ورأيته وانا اتناول غذائي يلبس ملابسه كلها ، فيرتدي بنطلونا فوق بنطلون وثوباً فوق ثوب ، وظهر أمامي والبرنيطة على رأسه كبالون دعاية لاطارات مشلن ، قال
- انني ذاهب
- الي اين ياعلى
- الى بيت اختى
ولما ايقنت انه ابدل قراره الاول المخيف واكتفى بمغادرة بيتي فقط ، قلت له بلهجة المتاسف
- لك ماتريد ياعلى ، وانت على حق فموضوعك يتطلب حظاً
فقال لي على الفور
- وواسطة ايضاً
ولم اعارضه فقلت
- وواسطة ايضاً
ورأيته يغادر البيت وهو يرفع برنيطته عن رأسه كما اعتاد ان يفعل ذلك في كل مرة حين يغادر داري
وهكذا انتهت حياتي مع علي ، واني لجد آسف على فراقه ، فقد كان أميناً مؤنساً هيأ لي جواً هادئاً مريحاً في بيتي طالما كنت اتمناه ، فلم اكن اختلف في شيء معه ، ولاهو اختلف معي في شيء وأنا بطبيعتي اهوى الهدوء واكره الجلبة ، والشكليات التي تتكرر دون معنى في الكلام . و (علي) على كثرة عمله قليل الصخب والحركة ، وأوكد انني لا اذكر بوضوح

نغمة كلامه بشكل واضح . أما بزن فلا أحس بوجودها إلا لبضع لحظات حين ادخل البيت فتفزع الى لتتمسّح بذيل سراولي وحذائي ، ولا اسمع شيئا إلا حين اناديها فتجيبني كما ترد العروس على زوجها حين ياخذها النعاس . ثم ان العيش مع شيتا وبزن يضطرني راضياً ان اتجرد من قيود مصطنعة ليست انسانية ولا طبيعية فانا العب مع هذين الصديقين تماماً كما يلعب ابني الصغير معهما أو مع اترابه من الاطفال الصغار .

اعلى اجر عن عملية في حياتي/ ١٩٤٨

طلبني وكيل سيارات فورد (ابراهيم عدس) لفحص سيدة في بيتها ، أسمها (كرز) وهي مثله يهودية وكلاهما في الأصل من لبنان ، ولم اكن أعرف اية علاقة بين الاثنين سوى ان كليهما جاران في المحلة ، وكانت في نهاية الثلاثينات من عمرها ومتزوجة ولها من الاولاد بنت واحدة . أما ابراهيم عدس فكان ارملًا في نحو منتصف الاربعينيات من العمر . ووجدت المريضة مصابة بورم حوضي فنقلتها الى مستشفى العلمين حيث كنت أحد الاطباء الذين يشتغلون فيه . وكانت تجارة ابراهيم عدس باستيراد سيارات فورد رائجة ، وقد تكون اكثر السيارات استعمالًا في العراق بين العامة والخاصة . وكان ذا حظوة لدى المسؤولين الكبار في الدولة بسبب كرمه وتساهله حين يشترون منه السيارات . كما كانت له طريقة ذكية في الدعاية لسياراته ، فيبيع السيارة لوزير أو مدير عام ثم يسترجعها منهم بعد عام واحد ليعطيهم سيارة أخرى جديدة ، ويبيع التي استرجعها منهم الى أصحاب سيارات الاجرة بعد ان يتاكد من حسابه انه يربح من هذه العملية دعاية لسياراته التي تبقى في نظر الناس مفضلة عند كبار الدولة على غيرها من انواع السيارات الاخرى ، فضلا عن أرباحه من بيع السيارات التي يسترجعها منهم ، بالاقساط .

كانت العملية التي أجريتها للسيدة (كرز) سهلة ولم يستغرق انجازها اكثر مما تستغرقه مثيلاتها من العمليات . وغادرت صالة العمليات بعد ان اعطيت توصياتي عنها لرئيسة الممرضات رينة اسحاق . ثم نقلت المريضة الى غرفة خاصة كانت قد اعدتها رينة باهتمام وعناية . وفيما أنا اتوجه لاستقل سيارتي الى عيادتي سمعت ابراهيم عدس يقول لي :

- الى اين يادكتور سامرائي ؟
فاجبته ببساطة
- الى عيادتي طبعاً .
فقال لي بثقة
- لا يادكتور ، تبقى هذه الليلة في المستشفى
فقلت له
- لاضرورة لذلك ياسيد عدس
فقال لي باعتداد
- ولكني أنا أريد ذلك ، ولو لم يكن له ضرورة ، غير انه يدخل الطمأنينة الى قلبي .
فقلت له
- ساعود بعد عيادتي لأراها
- أرجوك ، وأنا ادفع لك اضعاف ماتحصل عليه في اليوم
- ليس الامر بهذا الشكل كما تتصور ياسيد عدس

وكانت رينة قد رأتنا نتكلم فيما بيننا فتقدمت منا تريد ان تقنعه ليرضى عن مغادرة المستشفى ، ورينة لبقة وساحرة حين تقصد الاقناع ، غير ان السيد عدس لم يقتنع ، وظل يلح على بقبول طلبه حتى صار يتوسل الي بخضوع واسترضاء .

وأخيراً لم أجد بدأ من العمل بطلبه . ونمت تلك الليلة في احدى الغرف الشاغرة بالمستشفى . أما ابراهيم عدس ففضل ان يبقى الى جانب سرير المريضة وهو مضطجع على كرسي وبعد نحو نصف ساعة ، دخل ابراهيم عدس الى غرفتي وهو يقول لي بهلع

- دكتور ، (كرز) تتحرك وبدأت تقنف !
- اليس الى جانبها رينة ؟
- نعم هي الى جانبها
- إذن لاتخف

وتبعته الى غرفة المريضة ، ولم يكن فيها ماهو غير اعتيادي بعيد مثل هذه العملية ، فقلت له
- كل شيء اعتيادي، والممرضة رينة تعرف متى تطلبني اليها .

ونمت تلك الليلة ولم تطلبني رينة لارى المريضة . وزرت المريضة في

الصباح الباكر ، وكانت تغط في نوم عميق ، والى جانبها السيد عدس بكامل ثيابه كما كان ساعة العملية ، والوسن يثقل جفنيه إلا انه لم يمنع إبتسامة الفرح من ان تطفح على وجهه .

– دكتور سامرائي ، عاشت ايدك

وفي اليوم الرابع بعد العملية أجزت المريضة ان تغادر المستشفى . فتقدم مني والتصق بجانبي ودسّ في جيبي مظروفا وهو يقول

– تستاهل اكثر ، وأنا حاضر لكل خدمة ، واعتدت ان اعرف مقدما ان في المظروف مكافاة لي ، وحين صرت في سيارتي فتحت المظروف فاذا فيه نضداً من الدنانير ، وعددتها فاذا هي خمسماية دينار !! ولم اكن اتقاضى يومئذ أجراً عن مثل هذه العملية اكثر من سبعين ديناراً .

بعد شهر تقريباً ، رأيت السيد عدس في مكتب الدكتور ماكس كروباخ بمستشفى العلمين وهو يشكو الى الدكتور ماكس من ان السكارة تحرق اطراف أصابعه فلا يحس بالم نارها ، وكان السيد عدس يدخن السكاير دون انقطاع . وبعد ثلاثة اشهر تقريباً سمعت ان السيد عدس قد حجز في داره ومنع الناس من الاتصال به لاصابته بالجذام ، وكان جزع كرز وراشيل ابنة السيد عدس من زوجته المتوفاة شديداً لا وصف له ، وبعد أيام سمعت ان السيد عدس قد وجد ذات صباح قتيلًا في فراشه بسكين أخذها الجانى من مطبخ بيته ، ولم تجد الشرطة شيئاً مسروقاً من بيته سوى دفتر الصكوك الصادر من البنك العثماني ، وهي غير موقعة . والقي القبض على خادمه الوحيد (ارزيق) ولم تثبت عليه التهمة لانه كان في تلك الليلة قد سافر الى أهله في العمارة . وفي ذلك الشهر نفسه أعدم أخوه شفيق عدس في البصرة لتورطه مع اسرائيل . وكان شفيق عدس شقيق ابراهيم عدس ووكيله في البصرة كما كان يتاجر بقطع غيار السيارات بجميع انواعها .

في شهر واحد زال من الوجود الاخوان شفيق عدس وابراهيم عدس ولا اعرف أحداً تالم لوفاتهما ، وقد يكون فرح له بعض من قاسى من جشع ابراهيم عدس في ابتزاز أموال الناس بشتى الطرق غير المشروعة .

عضو في مجلس العمادة وموقف من مواقفنا الادارية ١٩٤٩

كنت اول من تخرج في كلية الطب ووصل الى مرتبة الاستاذية . وفي وزارة نوري السعيد أصدر وزير الشؤون الاجتماعية بهاء الدين نوري امراً ينص

على تسمية اعضاء مجلس العمادة برآسة عميد الكلية الاستاذ هاشم الوترى وعضوية كل من مدير الصحة العام الدكتور حميد الطوخي ، ومدير المستشفى الملكي عبد الرحمن الجوربه جي وممثل الدروس الاساسية الدكتور منيّر وعميد كلية الصيدلة يحيى الصافي ورئيس قسم النسائيات الدكتور كمال السامرائي . وقد تهيبت هذا التعيين لكوني أصغر اعضاء هذا المجلس ولانني أجهل اكثر القوانين والانظمة التي صدرت بحق دوائر ومدارس العمادة ، غير اني سرعان ماالفت ضروب أعمال هذا المجلس والتصرف بالامور الى تحال اليه . وجلب نظري مبكراً ان مقررات هذا المجلس لاتصبح نافذة المفعول إلا بعد موافقة وزير الشؤون الاجتماعية عليها ، بالرغم من ان اكثر هذه المقررات علمية ، فلا مسوّغ للوزير ان لايصادق عليها إلا اذا أشار اليه مدير الصحة العام بالاعتراض عليها ، وصار معلوماً ان مايعترض عليه الوزير هو آت من دائرة مدير الصحة العام . ولم يفت علاج هذه الحالة على عميد كلية الطب الدكتور هاشم الوترى فسعى الى ترسيخ صداقة بينه وبين مدير الصحة العام الدكتور الطوخي .

كما لم يكن بين الوزير وعميد الكلية الطبية تحابب وتفاهم لاسباب شخصية في ماضى حياتهما كان لايخفيها الدكتور الوترى أحياناً في الفرص المناسبة بين اصدقائه المقربين اليه ، وقد عرفت قسماً منها من الدكتور الوترى نفسه . وفي هذه الظروف كان يفكر الوترى بتشكيلة تضم دوائر العمادة بما فيها كلية الصيدلة ومدرسة طب الاسنان ومدرسة الممرضات ومدرسة الموظفين الصحيين .. يطلق عليها أسم (بيت الحكمة) تيمناً ببيت الحكمة الذي انشاه هارون الرشيد العباسي ، ببغداد ويكون من نظامها سلطة مطلقة لمجلس العمادة في تصريف الشؤون العلمية . غير ان فكرة الدكتور الوتري هذا لم تتحقق إلا في الاشهر الأخيرة التي سبقت ثورة ١٩٥٨ . وبالرغم من ان وزارة الشؤون الاجتماعية كانت لها السلطة العليا في ابرام أو نقض مقررات الكلية الطبية غير ان مجلس العمادة لايتردد ان يؤكد على ضرورة تطبيق نظام الكلية ومقررات مجلسها مع علمه مقدماً باعتراض الوزير على بعضها .

وفي وزارة نوري السعيد العاشرة سنة ١٩٤٨ طلب رئيس الوزراء من وزير الشؤون الاجتماعية بهاء الدين نوري ان يقبل الطالب (كمال بطي)

نجل روفائيل بطي صاحب جريدة البلاد ، الى كلية الطب ، وكان يومها قد انتهى موعد قبول الطلاب الى هذه الكلية . وكان عميد الكلية الدكتور هاشم الوترى موفداً الى سويسرا فاناب عنه في رئاسة مجلس العمادة الاستاذ ملز ، فعرض هذا كتاب الوزارة في جلسة استثنائية على مجلس الكلية ، فرفض المجلس قبول الطالب كمال بطي استناداً الى نظام الكلية الذي ينص على عدم قبول الطلبات للالتحاق بصفوف الكلية بعد اليوم العاشر من بداية التدريس في كلية الطب ، بينما كان طلب الوزير قد وصل الى الكلية بعد خمسة عشر يوماً من بداية الدراسة فيها ، فطلب وزير الشؤون الاجتماعية الاجتماع باعضاء مجلس الكلية في دائرة العمادة . وحين حضر الوزير كان ذكياً في هذه اللعبة ، فافتتح حديثه مع اعضاء مجلس العمادة بقوله

- انني الآن اجتمع باعضاء مجلس العمادة بصفاتهم الشخصية لابصفتهم اعضاء في مجلس عمادة الكلية . واستطرد يثني على مواقف ابي الطالب كمال بطي من الاعمال الصحفية واسناده لمواقفه الوطنية والعربية ، وانتهى بحديثه الى ان طلبه بقبول الطالب كمال بطي هو في الحقيقة برجاء من رئيس الوزراء نوري السعيد . ونهض ليغادر الدائرة وهو يقول

- ان القرار الاخير لكم وأرجو ان تتخذوه بما يحقق قبول الطالب كمال بطي ، وانا أترقب وصول قراركم الي تلفونياً .

وتشاء الصدفة ان تصل برقية من عميد الكلية الاصيل هاشم الوترى بعد مغادرة الوزير مباشرة تفيد وصوله الى بغداد مساء ذلك اليوم بالذات ، فارتاح اعضاء مجلس الكلية والدكتور ملز بشكل خاص لهذا الخبر . وفي اليوم التالي انعقد مجلس العمادة استثنائياً برئاسة الدكتور هاشم الوترى للنظر في طلب الوزير قبول الطالب كمال بطي فقرر اعضاء المجلس بالاجماع التمسك بقراره الاول تطبيقاً لنظام الكلية المعمول به منذ تاسيسها وحتى وصول أمر الوزير . ولا شك ان هذا القرار قد اغاظ وزير الشؤون الاجتماعية ، فسخط على عميد الكلية واعضاء مجلسها عموماً .

وحدث بعد نحو شهرين ان أقام الزعيم عبيد عبد الله المضايقي رئيس اللجنة الاولمبية الرياضية حفلة في بهو الامانة باسم لجنة (صيد ابن آوى) ، وكنت واحداً ممن كان في هذه الحفلة . وبعد ان استقر المدعوون

حول مناضدهم دخل رئيس الوزراء نوري السعيد ، وكان طريقه الى صدر البهو محاذياً للمنضدة التي كنت أنا والدكتور هاشم الوترى والدكتور اسماعيل ناجي والدكتور مهدي فوزي نحيط بها ، ولما اجتاز نوري السعيد منضدتنا ببضع خطوات استدار فجاة نحونا ، واتجه نحو هاشم الوترى ، فقمنا له جميعاً ، فوضع نوري السعيد يمناه على كتف الوترى وهو يقوله بمرح لايخلو من الجد .

- استريح يادقتور ، انا ما اعرف انت اكبر مني (لو) أنا اكبر منك ؟ فلنقل أنا وانت بعمر واحد أو متقاربين في العمر ، (واضاف) هذا غير مهم ، والعمر بالعلم لا بالكبر . وأنا جئت اليك لاقول لك أنا ارتحت لصمودك تجاه وزير الشؤون الاجتماعية ، فاثبتت انك (رجل) ، وياليت ان يكون في دوائرنا من يدافع عن مصالح دائرته كما فعلت أنت حين رفضت قبول الطالب كمال بطى فمن يعارض نوري السعيد رجل اهنئك يادكتور هاشم . واستدار نوري السعيد واستمر يخطو الى مكانه في صدر القاعة .

ناظم ونظيمة/ ١٩٤٥

في صباح يوم الجمعة بتاريخ ٦/١٢/ ١٩٤٥ استدعتنى معرضة يهودية كنت عرفها في مستشفى ميرالياس لافحص إبنتها المريضة في دارها. وهذه الممرضة أرملة تعيش على راتبها من المستشفى كما تعمل ليلاً بخياطة الالبسة الشعبية . وكانت تسكن في بيت قريب جداً من دائرة التحقيقات الجنائية الواقعة خلف (اورزدى باك) بشارع النهر . ودخلت فناء البيت فاذا هو جد صغير ومن نوعية رديئة البناء وعليه كل علامات القدم والاهمال ، ولما صرت في داخله بدا لصغر فنائه وكأنه بئر وأنا في قاعه . وعلى الجانب الايمن منه (نيم سرداب) لمحت فيه وأنا أعبر وراء تلك الممرضة في اتجاه سلم ضيق يصل الى الطابق الاعلى من البيت رأيت في النيم سرداب شاباً في نحو العشرين من عمره منهمكاً في ربط نطاقه على محزم سرواله ، فلما رآني اصابه الارتباك فاولانى ظهره . وقادتني الممرضة الى مخدع ابنتها المريضة ، وهي حجرة صغيرة بنافذة صغيرة تطل على فناء البيت بما فيه (النيم سرداب) الذي يقابلها من تحت ، ومن هذه

النافذة رأيت عفوياً ذلك الشاب وقد أكمل ارتداء سرواله ، فرفع رأسه يتطلع اليّ باهتمام وقلق كانت المريضة صبية في نهاية عقدها الثاني من العمر ، نحيفة القوام ، شاحبة السحنة ، تستلقي على سرير منخفض . وسألتها . ماأسمك ياحلوة ؟ وهو سؤال لابد منه كمفتاح للحديث مع المريضة فاشاحت بوجهها عني وشرعت تبكي بصوت خافت ، ولم تجبني فتدخلت أمها فيما بين ابنتها وبيني

وقالت تجيب عنها

- اسمها نظيمة
- انت أمها ؟
- نعم أنا أمها

وعدت أسأل الصبية عن شكواها فارتفع نشج نحيبها ، ولم تجبني ، فقالت أمها

- هي تنزف منذ يومين ، وقد ازداد النزف في صباح هذا اليوم ، وكذلك اشتدت أوجاع بطنها .

وبلمسة سريعة وخفيفة على بطنها السفلى المنتفخة ، عرفت كل مابها ، وظننت ان ذلك الشاب الذي رأيته في النيم سرداب زوجها ، فسألت أمها

- متزوجة ؟
- فأجابتني
- لاغير متزوجة
- ومن ذلك الشاب الذي رأيته في النيم سرداب ؟
- أخوها ناظم

وفاتني ان أعرف ذلك قبل ان أسألها ، لما بينهما من التشابه . وفحصت الصبية ، صدرها ناهد بما فيه من اللبن ، والحلمتان داكنتان ، وبطن منتفخة ، ونزف رحمي جعلني لا أتردد ان اعتقد انها حامل ، وانها في حالة تهديد بالاسقاط ، فاردت ان أتأكد من ذلك ، فقد يكون ثمة سبب آخر لشكواها غير الحبل كورم ليفي في الرحم مثلاً ، فطلبت من أمها ان تغادر الحجرة . وفاجأت الصبية أسألها .

- هل انت مخطوبة ؟ . فنفت ذلك .

ثم سالتها :
- هل لك علاقة بشاب ؟
فتلكأت وغطت وجهها براحتي يديها ، وعادت تبكى من جديد ، فكان هذا آخر دليل قاطع على انها حامل
- اسمعيني يانظيمة ، يجب ان انقلك الى المستشفى لتوقيف النزف الدموي ، ولن أتيح مجالاً لاحد ان يعرف حقيقة مصابك ، فوثبت عن مخدعها وتناولت يدى على عجل وقبلتها واحتفظت بها الى صدرها وهي تتوسل
- أبدالك[1] ما أريد أمي تعرف
وفي سرى قلت وكيف لاتعرف وهي ممرضة ولها خبرة بمثل هذه الحالات المرضية والام تعرف عن ابنتها مالا يعرفه غيرها .
وطلعت على أمها التي كانت تنتظرني على مدخل الحجرة من خارجها ، وكان وجهها كالحاً ومعالمه ذات معنى غير مريح ، يستدعى العطف وأخبرتها بما اقترحته على ابنتها ، فسهمت قليلاً ، ثم سالتني
- عملية كرتاج ؟
ولم تنتظر مني جواباً ، بل لطمت وجهها براحتى يديها بقوة . ولما انحدرنا على درجات السلم الى فناء البيت كان ذلك الشاب يتهيأ لمغادرته ، فعاجلته أمه وقبضت على قميصه من دبر وصارت تلطمه بغضب جنوني وهي تقول له
- وقع (مزالك)[2] الحيوانات ماتعمله ، وفهمت من ذلك كل شيء قبل ان اغادر ذلك البيت .

علاقتي بالسيد صالح جبر/ ٨ حزيران ١٩٤٧

طلبت مني الانسة فيوليت أخت الدكتور كرجي ربيع موعداً لفحص السيدة فضيلة زوجة السيد صالح جبر ، وكان الدكتور كرجي طبيب صالح جبر وزوجته فضيلة ، ومن هنا كانت علاقة فيوليت بزوجة رئيس الوزراء

(١) ابدالك كلمة بلهجة اليهود العراقيين معناها نفسي فداء لك
(٢) وقع مزالك عبارة باللهجة نفسها معناها يشبه معنى العبارة العامية (طاح حظك) .

صالح جبر . والسيدة فضيلة في العقد الرابع من عمرها . وهي ذكية ونشطة ، وقد سافرت ذات سنة الى لندن وبصحبتها ڤيوليت ، وعادت الى بغداد بعد ثلاثة أشهر وهي تفهم ماتسمعه بالانكليزية واستهوتها هذه اللغة وشرعت تتعلمها على (ڤيوليت) حتى صارت تعبر بها عما تريد بنطق يكاد يكون سليماً ، ولايعوزه إلا اللهجة الانكلزية . وفضيلة بنت عداى الجريان ، أحد شيوخ عشيرة البو سلطان بلواء الحلة . وكان صالح جبر يوم زواجه منها أرملاً ، وله ولدواحد اسمه سعد من زوجته الاولى التي توفيت قبل سنين . وهو ممتلىء الجسم بقصر ، وقد درس القانون في كلية الحقوق في سنيها الأولى ، كما يجيد اللغة الانكليزية ويقال انه تعلمها في صباه يوم كان بخدمة الانكليز حين كانوا في الفرات الاوسط . وتأخر حمل زوجته فضيلة ، فسافرت مع زوجها الى لندن لتستشير أحد الاختصاصين فيها ، وعادت بعد شهرين الى بغداد بيأس من أملها ، ثم شعرت فجأة انها حامل ، وثبت لي بالفحوص السريرية والمختبرية انها حامل فعلاً ، فكانت فرحتها بالحبل عظيمة . ومر حملها طبيعياً دون شكوى حتى يوم المخاض بتمام الشهر التاسع من حملها ، وتوليت أمرها بخيفة حسبت له عوامل جعلتني ارى ان تكون ولادتها بالعملية القيصرية ، فاتصلت بزوجها السيد صالح جبر تلفونياً ، وكان يومئذ رئيساً لمجلس الوزراء ، وبدأت أشرح رأيي في حالة زوجته فضيلة ، فقاطعني بادب ولين يقول .

– هل لك ان تشرفني في بيتي يادكتور لنتكلم في موضوعها ، وسأرسل لك سيارتي لتحملك ، اليّ ، فقد لاتجد بيتي بسهولة .

ونقلتني سيارة صالح جبر عبر طرقات في منطقة الصالحية القريبة من محطة الاذاعة بالكرخ . كان بيته متواضعاً ولصيقاً ببيت جاره من الجهة اليمنى ، وحين دخلت صالون البيت كان صالح جبر منهمكاً بالتحدث الى جليسين هما السيد جواد جعفر ، وشخص آخر اكبر منه عمراً يعتمر سدارة على رأسه الحليق . وقطع صالح جبر حديثه مع جليسيه حين رآني أدخل صالونه ، ونهض ليتقدم مني ، وهو يرحب بي بتواضع لايخلو من الوقار . وسألني وهو يقدمني الى ضيفيه .

– تعرف ابا جعفر (يقصد جواد جعفر) ؟

فاجبته

- أبو جعفر صديقي

وانا أعرف هذا الصديق عن طريق زوجته السيدة رحيبة ، وهي أحد مريضاتي في حملين متعاقبين .

وسألني صالح جبر عن ضيفه الثاني .

- تعرف حاجى رضا ؟

ولم اكن اعرف يومئذ هذا الشخص فمددت يدي لاصافحه فتقدم مني فاذا هو أقصر قامة مما بدا لي وهو جالس على كرسيه الوثير . وسدارته تنحدر حتى تمس صواني أذنيه . وعلى انفه عوينات بزجاجات سميكة واطار معدني دقيق لمّاع ، وقال لي بلهجة ملائية

- تشرفنا ياامولانا

ودخل صالح جبر بيننا وقال لضيفيه

- تسمحون لي بضع دقائق مع الدكتور كمال

وقادني وهو يمسك بمعصم يمناى الى حجرة تنفذ من الصالون . وفي هذه الحجرة صرت اشرح الاسباب التي تدعوني الى التفكير بتوليد السيدة زوجته بالعملية القيصرية . وكنت صريحاً بذكر هذه الاسباب فذكرت له ارتفاع ضغطها الدموى وكونها لم تحمل الا بعد سنين من زواجها ، وحملها ، هو البكر ، وعمرها الذي يقرب من الاربعين .

وهنا قاطعني صالح جبر يقول

- لا يادكتور هي في الاربعين ، أو اكثر. وعدت أقول

- وهي حريصة على الحصول على هذا الطفل

فقال صالح جبر

- وانا أيضاً حريص عليه

ثم سألني

- هل في هذه العملية خطورة على حياة الام ؟

فاجبته باختصار

- خطورتها كخطورة اي عملية فتح بطن تقريباً .

ثم سألني وهو يبتسم بمعنى ضمنى

- هل حدثت وفاة بيدك في مثل هذه العملية ؟

فاجبته بصدق وصراحة .

كلا بالتاكيد ، ولكن هذا لايعنى انني أنفى احتمال الخطورة في هذه العملية ..

ويبدو انه توجس حينئذ خيفة من هذه العملية ، فسألني
- واذا تركناها تلد بلا عملية ؟
فاجبته
- قد تلد طبيعياً
وسألني ايضاً
- والجنين ؟
- قد يولد حياً
فقال
- وقد لايولد حياً
فقلت له
- نعم وقد لايولد حياً
وسألني
- ولماذا لايولد حيا ؟ احتمالاً
فقلت له
- لانني لا أعرف كم سيطول الطلق ، وعمرها وضغط دمها عاملان آخران يسيا في صالحنا
وفجأة قال السيد جبر يسألني وكأنه قد تذكر شيئاً مهما
- وماذا عن عملية السحب
وفهمت انه يقصد عملية الملقط فقلت له
- هذه العملية لاتطبق إلا بعد ان ينفتح عنق الرحم كلياً ، وهذا لايحدث إلا بعد استطالة الطلق ، وهو مايقودنا الى احتمال فقدان الطفل.ولم أكمل هذه العبارة الاخيرة حتى قال لي
- دكتور كمال ، أنا اثق بك واعتمد عليك فاعمل على بركة الله ماتراه مناسباً .
وانهيت اجراء العملية ، وكان الوليد ذكراً ، وهو ابن فضيلة الوحيد وقد سماه أبوه أحمد .
ولم يزر صالح جبر زوجته في المستشفى ، إلا انه كان يتصل بها تلفوذياً في صباح كل يوم ، كما اتصل بي مرة بعد انتهائي من العملية ومرة أخرى عند خروجها من المستشفى . وفي المرتين يطريني بالثناء على خدمتي لزوجته .

وفي اليوم العاشر بعد الولادة طلبتني السيدة فضيلة الى بيتها لارى جرح العملية ، فلم أجد مايحتاج اليه من علاج ، وعندما ودعتني على عتبة دارها كانت قد وصلت سيارة زوجها تواً وكان في داخلها صالح جبر فتقدمت منه لاصافحه فامسك بيدي وهو يقول

- لايادكتور ، هذا وقت تناول الغداء ، وعليك الحشم اذا لم تشاركني في تناوله

والتفت نحو سيارتي وسألني

- هذه سيارتك ؟

فاجبته

- نعم ، هي سيارتي

- انكليزية على مايبدو .. اسمها ؟

- نعم انكليزية ونوعها (ستاندارد) وهي صغيرة جداً ، وذات بابين لا اربعة أبواب وقديمة . فقال

- انت يادكتور تحتاج سيارة تريحك

وكنت على علم بان في كراج (شركة لاوى) للسيارات الامريكية سيارتان احداهما من نوع (بيوك) مسجلة باسم الزعيم غازي الداغستاني ، والثانية من نوع شفروليت لاتزال تنتظر أمر رئيس الوزراء لياخذها صاحب الحظ الكبير ، وكانت السيارات الجديدة قد توقف استيرادها الى العراق ، فوصلت اسعارها الى أرقام خيالية . فقلت للسيد صالح جبر

- في كراج شركة لاوى للسيارات الامريكية سيارة شفروليت لم تسجل باسم أحد بعد ، ولاتباع الا بترخيص منكم .

فاجابني وهو يبتسم

- هذه السيارة لك ان شاركتني الآن في تناول الغداء ، وكان الطعام شهياً على مائدة رئيس الوزراء ، كما تسلمت في اليوم التالي السيارة التي كانت اكبر من ان تدخل في احلامي .

حالة نزف مهبلي غريبة/ ١٩٤٧

المريضة فتاة في نحو السادسة عشرة ، ذات ملامح قروية ، قدمت مع أهلها من العمارة الى بغداد لتخدم في احد البيوت الميسورة الحال وتزوجت من شاب يقربها فاصيبت بنزف مهبلي لم يكن غزيراً ولكنه مستمر لاينقطع ، فاحالها مستوصف بغداد الجديدة الى الردهة النسائية بالمستشفى الملكي . على وجه هذه الفتاة علامات الزواج الحديث من اصباغ متنافرة على وجهها ، وكانت مضطربة ، وأمها لاتنفك تولول : ياريتني مازوجتك يابنتي . وسمعت بلسان هذه الصبية ماحدث ليلة الزفاف ومنه الدم الذي انحدر أثناء العلاقة الزواجية ، وتوقعت ان يكون مصدر الدم من تمزقات في غشاء البكارة وهذا ليس قليل الحدوث في ليلة الدخول (ليلة الزواج) ، بيد أنني لم أر في غشاء البكارة او قريباً منها مصدراً للنزف ، بل رأيت الدم ينحدر من اعالي المهبل . ولم أستطع فحص عمق المهبل كما يجب لما كانت عليه هذه المريضة من خوف ، فامرت بتخديرها بمزيج من الكلوروفورم والايثرفتبين لي ان الدم ينحدر من الرواق الأيسر وليس من اي مكان آخر في المهبل ، وبعد تحرٍ لم يطل ، اكتشفت وجود تمزق بطول اكثر من انج في قمة ذلك الرواق . وخطت التمزق فتوقف النزف في الحال . ولاني لم أر مثل هذه الحالة المرضية قبلًا عددتها نادرة بالنسبة لي واخبرت عنها الاستاذ روجرز كحالة غريبة فانصت الى وهو يصفر وطلب مني ان أطلعه على حالة مماثلة . وبعد نحو شهر أو اكثر قليلًا اتصلت تلفونياً بالاستاذ روجرز وانبأته عن حالة نزف مهبلي يحتمل ان يكون مصدره من اعماق المهبل ، فجاءني الى ردهة النسائيات على عجل ، وكانت المريضة صغيرة العمر ايضاً ، وفلاحية الهيئة ، وقد ظهر النزف عندها ليلة الزفاف الذي حدث في الليلة السابقة . وخدرنا المريضة وتاكدنا سوية من مكان الاصابة ، واراد روجرز ان يرى زوجها ، وكان هذا شاباً داكن السحنة مفتول العضل وطلب منه روجرز ان يرى (عضوه) فاستغرب الشاب من طلبه وامتنع في البداية ثم رفع دشداشته وكشف عنه بعد الحاح روجرز على طلبه . وحين رأى روجرز عضوه صفر متعجبا من طوله وحجمه ، وهو يقول

– لا غرابة منه ان يمزق المهبل اذا انتصب .

لقد شاهدت حتى نهاية العقد الخامس نحو اربع حالات مرضية من هذا النوع ، وصار لي مبدأ ان افحص كل حالة نزف من غشاء البكارة وان لا اهمل فحص جدران المهبل اذا مارأيت الدم ينحدر من مكان أعلى في المهبل ، ومنذ نهاية الخمسينات لم أر للغرابة حالة مماثلة اخرى

دعوة في بيت مولود مخلص/ ١٩٤٧

في اليوم العاشر من شهر تموز وأنا يومئذ في مستهل حياتي الطبية دعاني استاذي الدكتور جميل دلالى الى تناول الغداء في داره وكان بينه وبين مولود مخلص صداقة متينة ، وكان جل المدعوين من الاطباء الاحداث ، فبدت لي هذه الدعوة قد رتبت من قبل ولده سليم دلالى الذي كان حينذاك طبيباً مقيماً في دائرتي بالمستشفى الملكي . وحضر المدعوون متفرقين ثم دخل صالة الجلوس مولود مخلص بتمام الساعة المقررة في الدعوة . وقمنا له باحترام وتهيب ، وهو يتلو علينا تحية السلام بلهجة تكريتية واضحة . وخطا نحو صدر الصالة وأحتل كرسياً على طرف منها ، وهو مازال يردد (حيا الله الشباب ، حيا الله الشباب) ، ولما استقر في مجلسه شكا قليلاً من قيظ الصيف ، واردف قائلاً : الحر نفسه في كل سنة ، غير أننا نستمتع حين نشكو منه وحين نقول اننا لم نر صيفاً في مثل الحر الذي نمر به في هذه السنة . ثم قال : ان الانسان حين يتقدم في العمر يقصر عن احتمال الحر ، أما الشباب امثالكم فلا يهتمون بهذه المقارنة .

وكنا ننصت الى مولود مخلص باهتمام واندفاع ونحن ندير نحوه وجوهنا ، ولهجته لاتخلو من نغمة البداوة المحببة . وسكتنا ولم يتكلم أحد منا وكاننا تلامذة يتلقون درساً في مدرسة ابتدائية ، فقال مولود مخلص : تكلموا يا أولادى ، فان احاديثكم منعشة لمن هو اكبر منكم عمراً ، وكل ماتقولونه الآن بالنسبة لي كالمقبلات التي تقدم قبل وجبة الطعام لإثارة الشهية الى تناول المزيد منه ، وأنى اليوم سأكل اكثر منكم بالتأكيد . وتكلم الدكتور عبد الرحمن الجوريجي وقال يخاطب مولود مخلص : ياعم احاديثكم عدا انها ممتعة فهي ايضاً دروس وعبر ، فاجابه مولود مخلص على الفور : طيب يا ابن أخوى أريد اسمع ماتعلمتوه من

اخبارنا .

ونهضنا الى مائدة الطعام ، وكان يملأ وسطها منسف ممدد عليه قوزى تسيل للونه الاحمر لعاب الجياع . ونهض مولود مخلص ، وخلع عنه سترته وشمّر ردن قميصه الابيض وتقدم من القوزي وهو يقول : ان أكل القوزي بالايدي له طعم خاص لاتوفره الملاعق والسكاكين . وتقطيعه من اختصاص الاطباء الذين درسوا التشريح ، واضاف وهو يبتسم : ان القصاب يجيد تقطيع لحم القوزي قبل طبخه ، أما الاطباء فيحسنون تقطيعه بعد نضجه ، فهيا اليه ياأولادى . وصار يدفع قطع اللحم في فيه ، ويتبعها بقبضة من الارز ويعصرها بين اصابع يده حتى يسيل منها الدسم ، ولم يكن قد انتهى بعد من مضغ اللحم الذي سبقها الى حلقه . لقد كان لمولود مخلص في هذا اللقاء هالة من الشخصية القوية بكثير من التواضع والتصرف الابوي الحنون الذي لم تفسده نواعم المدنية .

تناوب الحبل في ازدواج الرحم/ ١٩٤٨

في الحالة التي سأتكلم عنها فيمايلي غرابة نادرة ، والحالة هي وجود رحمين في حوض إمرأة ، وقد راجعت هذه المريضة العيادة النسائية الخارجية تشكو من نزف رحمي ، وهي متزوجة وقد أسقطت حملها قبل سنة تقريباً في الشهر الثالث تقريباً . وفي صالة العمليات اكتشفت بالفحص المهبلي ان لهذه المريضة رحمين لكل منهما عنق منفصل عن الآخر ، وان الرحم الايسر هو الذي يلفظ حمله ، أما عنق الرحم الايمن فكان متوسعاً مما يدل على انه قد توسع في الحبل السابق أو اثناء عملية جرف الرحم حين اسقطت قبل سنة . وهكذا ثبت لى ان هذه المرأة قد حملت أولًا في الرحم الايمن . ثم حملت في الرحم الايسر وهو الذي دفعها الى مراجعة المستشفى لمعالجة النزف الرحمي . وللمريضة إضبارة كتب على صدر اوراقها عبارة (رحمين) . وبعد خمس سنوات عادت المريضة نفسها تشكو من ألم مفاجىء في بطنها السفلى ، وكان سهلًا علي ان اعرف سبب هذه الشكوى وهو كيس مبيض ملتو ، فكان لمعالجتها ان يقلع هذا الكيس الملتوي بعملية فتح البطن . وارتأيت ان أصور الرحمين وموقعهما

في جوف الحوض ، فاستدعيت المصور (ارشاك) لتصوير محتويات الحوض . وشرحت له مقدماً الهدف من هذا التصوير والعضو الذي يجب ان يركز على تصويره . والبسنا ارشاك ثياب العمليات المعقمة بمافيها قلنسوة الرأس ولثام الانف والفم ، وادخلناه صالة العمليات وبيده آلة التصوير . ولما فتحت بطن المريضة وضح لي بجلاء وجود الرحمين في الجوف الحوضي . وانتبهت الممرضة (مركريت) ان أرشاك بدا عليه الغثيان منذ بدأ الدم يندلق من جرح البطن . ولما التفت اليه رأيت وجهه باهتاً اخافني ، وحاول ان يغادر الصالة ، غير أن الممرضة شجعته على اتمام مهمته فتماسك واتمها .

في لبنان ومقلب مع صديق في بيروت ١٩٥٠/٧/٢٠

اعتدت منذ سني الاربعينيات ان آسافر في كل صيف الى لبنان ؛ وفي هذا القطر العربي كل مستلزمات الاصطياف ، من اجواء مريحة وطعام شهي ، كما ان في بيروت مسابح بحرية دافئة ، وفي مدن جباله وقراها ما يتوجّب لبرودتها ارتداء الالبسة الثقيلة . . كما ان في بيروت جميع أنواع بضائع الدنيا ، ولبنان بعد كل ذلك ضمن امكانات اكثر موظفي الحكومة العراقية والطبقة المحدودة الدخل الشهري ، فتقصده هذه الطبقات ليمضوا فيه شهراً أو اكثر ثم يعودون الى العراق فيصلونه بعد ساعة في الطائرة أو بعد ست عشرة ساعة في السيارة على اكثر تقدير .

وفي يوم ٢٠ من شهر تموز ١٩٥٠ كنت في بحمدون ، وهي مدينة على مرتفع جبلي يشرف على واد عميق من جهتها الشرقية وعلى البحر الابيض المتوسط من جهتها الشمالية . في صباح ذلك اليوم نهضت مبكراً لاقصد بنك (انترا) في بيروت لاصرف ما كنت أحمله من صكوك المسافرين . وأخذت موقفي أمام أحد الشبابيك المعدة لهذا الغرض في هذا البنك . الا ان صراف الشباك لم يلتفت اليّ بل ركز نظراته على شابة كانت تخطو في بهو البنك . كما لاحظت ان الصراف في الشباك الذي يلي الشباك الذي وقفت عليه هو الاخر صار يتابع خطوات تلك الشابة باهتمام وشغف ، وهو يقول لنفسه ـ (يخرب) بيتك ، شوها لخلقي ؟

كذلك لاحظت آخرين ممن كان في بهو البنك ينظرون الى تلك الشابة بعيون نهمة تتمنى لو تصل اليها . وتجاسرت وسألت صراف الشباك الذي وقفت عليه من تكون هذه الشابة فلم يعر سؤالي اهتمامه واكتفى بدفع مبلغ الصك الذي طلبت منه صرفه لي ، وانصرفت عنه . ولكنني بدافع حب الاستطلاع لمعرفة هوية تلك الشابة ، وقفت على الطريق الذي ستمر به إذا غادرت البنك . وإقبلت من كنت إنتظر رؤيتها عن قرب فاذا هي مخلوقة بصفات غريبة فيها كل معاني الانوثة والشباب ؛ قد ممشوق كأنه تمثال نحته فنان مرهف الحس ويثمن الجمال ؛ نحر وصدر يفتدى بالارواح ، وعينان وسيعتان بلون ماء البحر الازرق ، أما بشرتها فسوداء ابنوسية اللون سبحان من جمع بين لون سحنتها الأسود ولون عينيها الزرقاوين . كانت هذه الشابة حورية من شكل فريد . فمن تكون هذه الشابة ؟ وأخيراً عرفت هويتها من (شوان بابان) ، انها سكرتيرة السفير الصومالي ، وهي صومالية الأصل ، ولا تزال غير متزوجة . وغادرت البنك وليس ما يشغل بالي إلا الاحتفاظ فيه بصورة تلك الشابة . وقصدت مقهى (حدوة الحصان) بشارع الحمراء ، وارتميت فبه على كرسي على ناصية الشارع ، واسترعى إنتباهي حانوت صغير كأنه قد حفر في جدار ، وكان الشباب يتجمعون حولهليقلى لهم (الفلافل) فيأخذونها منه في قراطيس ويقضمونها واحدة بعد الآخرى وهم يتضاحكون ويتمايلون فتحتك اكتافهم وتتحرك اقدامهم بتخبط . كانت هذه الفئة من الشباب تلفت النظر وقد تثير الاشمئزاز وكنت اجلس في هذا المقهى على حافته المطلة مباشرة على ممشى السابلة في شارع الحمراء ، ولاحظت شابين من تلك الفئة الطائشة الباهشة وهما يتحفزان لعمل شيء ما ، ويلتفتان بلهفة الى كل الجهات ، وعيونهما لا تستقر على اي اتجاه . ومرت بهما في تلك اللحظات شابة ذات وجه فتى وشعر أشقر وترتدي سروالا يضيق على فخذيها الممتلئتين ، وقميصاً ينحدر عليه مدلوقاً ليكشف عن نهديها النافرين ، ورأيت أحد اولئك الشابين يكلم صاحبه ثم يلحق بعجلة بتلك الشابة ويمشي حذاءها جنباً الى جنب وبجرأة وحماس . وتابعت النظر اليهما فرأيته من بعيد يحرك يديه وكانه يدلها على طريق تجهله ، غير ان تلك الشابة ظلت لا تلتفت اليه ، ثم رأيته يغادرها فجاة ويعود ادراجه الى صاحبه الذي وقف ينظر اليه على ناصية الشارع وهو لا يبعد عني إلا

بنحو متر واحد ، وحين وصله سمعته يقول لصاحبه الشاب ،
- بنت كلب !
فقال له صاحبه
- شوبيها ؟
فأجابه الثاني
- كلمتها بالفرنسية فلم تجبني ، وكلمتها بالانكليزي فلم تجبني كمان
فقال له صاحبه
- انت لا تعرف إلا بضع كلمات بالفرنسية وإقل منها بالانكليزية فماذا قلت لها وقال
- قلت لها : آي لف يو !
- هكذا بهذه السرعة صرت تحبها ؟
- نحن في عصر السرعة يا(روف) وانت لو كنت بمكاني ماذا كنت تقول لها ؟ وانت لا تعرف لغتها ؟
وقد يكون اسم صاحبه (روفائيل) فدلّعه اختصاراً باسم (روف) أما اسم صاحبه فلم يمر على لسانيهما ولا اعرفه

وفجأة رأيت الحاج (ش) ولم اكن اعرف انه في بيروت فرحبت به الى المقهى وسألته :
- متى القدوم ؟
فأجابني
- وصلت البارحة .
- ان شاء الله كانت سفرتك مريحة
- جئت بسيارات (الانكرلي) الى دمشق ، وصليت الظهر في الجامع الاموي ، ثم أخذت سيارة (البوسطة) الى بيروت
- يا مرحباً بك يا حاجي (ش) ، وأرجو لك أقامة سعيدة في هذا البلد المريح ، وسترى فيه الأعاجيب ، مال وجمال واطايب في الحياة .

وقد تعمدت ان اثيره الى الكلام بهذه العبارة ، لاكشف حقيقته ، وأنا واصدقاؤه المقربون اليه الذين يعرفون أيّ متديّن هو . ورأيت مجالًا للكلام بهذا الموضوع ، وسبقني هو ففتح الباب للتحدث فيه . قال
- اسمعني يا (أبا نيران) ، أنا دائخ الآن
- لابد ان ذلك من تعب الطريق

فنفى ذلك قائلا
- اي طريق اي بطيخ !
- خير ان شاء الله ؟
- إسمعني . صعدت الى سيارة (سرفيس) لتوصلني الى هذا المقهى حيث سينتظرني فيه شوان بابان ، وما كادت تتحرك السيارة حتى أوقفتها فتاة تقف على ناصية الشارع . وفتحت بابها الخلفي وصعدت اليها ثم زحفت جانبياً حتى صارت تلاصقني
وسألته متخابثاً
- حلوة ؟
- سبحان الخلّاق ، عيون ، صدر ، المهم أنها من أجمل مارأيت من النساء في حياتي
فقلت له ، لأحثه على المزيد من هذا (الخرط)
- انت محظوظ يا حجّي ومحبوب صورة
- اسمع بعد اكثر ، سألتني إنت عراقي ؟
ولما أجبتها نعم انني من العراق قالت لي
- انا عرفتك عراقي ، وانا ادعوك الى الشاي في بيتي .
ولأستحثه على المزيد عن الكلام عن موقفه من تلك المرأة المزعومة ، كررت ما قلته له
- انت محبوب صورة ياحاج ، اكمل
- تعوذت من الشيطان فقلت لها أنا مشغول اليوم ، فأوقفت السيارة وترجلت منها بغضب
فقلت للحاج
- زعّلتها ، هذا غير صحيح ياحجي
فقال لي
- هذا ما قاله لي سائق السيارة فقد سألته
- من تكون هي ؟ فقال السائق :
- انت ما تعرف هذي مين ، هذه مجننة شباب بيروت وكلهم يركضون وراءها ولا بترد عليهم ، فكيف رفضت دعوتها ، يا رجل ؟
فقلت للحجّي (شِ) وانا اعرف بديهياً ويقيناً ان كل ما ذكره لي ليس له نصيب من الصحة باى قدر ، مع ذلك قلت له

ـ تسمح لي يا حجّي ، انت قصّرت ، وكان لازم عليك ان تعطيها وعد لنتناول الشاي معها
ـ هكذا ترى ؟
ـ نعم بالتأكيد يا حجّي
ورأيت الفرصة قد سنحت لألعب لعبتي معه ، وأنا اعرفه لا يبالي اذا قسوت عليه ، فقلت له ،
ـ أنا ايضاً دايخ وخف عقلي ، فالفتاة التي رأيتها اليوم سلبت من قلبي كل ما فيه من حب لاية إمرأة أخرى
فسألني بلهفة
ـ شابة
ـ نعم واية شابة ، غصن بان ، عيون غزلان ، زرق حجي زرق .
ولم يمهلني لأصف تلك الفتاة السوداء التي رأيتها في بنك انترا حتى صار هو يصف لى ما يجب ان نراه في المرأة ، فسألني : ونهودها ؟ يعنى بارزة ، يعني بارزة ، مو مهدّلة ؟
ـ شيء لا يصدق ، رمان أول نزلته
وكوّر الحجّي كفيه ووضعهما على موضع نهديه في صدره وسألني
ـ يعني هكذا ؟
ـ نعم هكذا
ـ وظهرها ؟
وحرك راحة يمناه في الهواء ليخط منظر الظهر كما يجب ان يراه وسألني
ـ هكذا ؟
فقلت له
ـ مراية ، وطوله فتر
ـ وبطنها ؟
ـ حجي ، كافي لا تثيرني .
وهكذا أخذ الكلام مني لوصف تلك الشابة الصومالية كما يتخيل ويحلو له ان يرى المرأة عارية ، ولكني لم اذكر له انها سوداء ، فانا أعرف ذوقه ، فانه يحب المرأة البيضاء حتى لو كانت بلون الشجر .
ووصل شوان بابان الى المقهى ، وجلس الى جانب الحجي (ش) وسألته ان يصف له شابة بنك انترا الصومالية ، ولم انتظر ما سيقوله

عنها فنهضت وغادرت المقهى قبل ان يفسد وصفي لها بذكر لونها الابنوسي

مستشفى السعدون ثم مستشفى السامرائي

حتى نهاية سنة ١٩٥٠ لم يكن في بغداد من المستشفيات الأهلية سوى مستشفى (سانت روفائيل) بادارة الراهبات الفرنسيات وهو خيري لا تجاري ، ومستشفى العلمين لصاحبة التاجر (عباس التميمي) ، ومستشفى مير الياس وهو أقدم المستشفيات الأهلية في بغداد ، وتديره هيئة يهودية ومستشفى السعدون بادارة الدكتور هادي الپاچه چي ، واصحابه عدد من التجار اليهود وطبيب واحد هو الدكتور أنور حنينا ، وكان هذا يمارس كل أنواع الجراحة بما في ذلك العمليات النسائية والولادية أما مدير المستشفى الدكتور هادي الباچهچي فقد أعطيت له هذه الوظيفة ليتابع شؤون المستشفى في دوائر وزارة الصحة . وأصل بناية هذا المستشفى دار واسعة يملكها (داوود باشا الحيدري) وقد ساءت أحوال هذا المستشفى في مطلع الخمسينات ولم يكن عمره يتعدّى أربع سنوات . وحاول المشاركون في المستشفى إغراء عدد من الأطباء الاختصاصيين بالدخول في شركة هذا المستشفى غير أن هؤلاء ترددوا في قبول الدعوة ، وكنت واحداً منهم . فقد زارني مدير المستشفى الاداري (سليم ربيع) ، وهو تاجر يهودي وأحد المشاركين في شركة المستشفى ، واجتهد ان يقنعني بالأنضمام الى الشركة ، فرفضت عرضه باصرار ، وفاجأني حين قال لي : - تدخل الشركة بلا ثمن مقابل على ان تحيل مرضاك الى مستشفى السعدون لا الى مستشفى مير الياس أو مستشفى العلمين ، وكان بيني وبين هذا المستشفى الأخير تعامل يرضيني ، بينما جاء عرض مدير مستشفى السعدون مغرياً ايضاً ، ولكنه بدا لي وكأنه ملغم بمتفجرات ، فازداد نفوري منه واصراري على رفضه . كما خطر ببالي الدكتور انور حنينا ، وهو جراح ومشارك في شركة المستشفى ، وله مرضاه بين يهود بغداد ، وقد يسبب لي مشاكل طبية في

معالجة المريضات اللاتي يدخلن المستشفى دون إحالة من طبيب معَين ،
فقلت لسليم ربيع لأحسم موقفي معه

ـ ان دخولي مشاركاً بهذا العرض لا أظنه يوافق الشركاء الاطباء ، كما قد يعارضني بعض هؤلاء ان أشاركه في اختصاصه ، وكنت اقصد بهاتين الاشارتين الى الدكتور (حنينا) ، فقال لي

ـ اذا انت تقصد بذلك الدكتور أنور حنينا فأنا اضمن لك موافقته تحريرياً .

فاستغربت جداً من هذا التساهل والاغراء الملح ، وهذا مما زاد في تخوفي من المشاركة في مستشفى السعدون ، وبذلك انتهت زيارة سليم ربيع بالفشل ، وسمعت بعد نحو شهر ان مستشفى السعدون قد اغلق ، وان شركته قررت بيع ممتلكاته من الاثاث والآلات والادوات وفي تلك الأيام بالتحديد زارتني في بيتي الآنسة (نجيبة عبد الاحد) وكنت أعرفها منذ كانت طالبة في مدرسة التمريض في المستشفى الملكي ، وحين عملت بدار التمريض الخاص بهذا المستشفى . وكانت فتاة في وسط شبابها ، ممتلئة الجسم ، قوية البنية ، ذكية وتحب مهنتها في التمريض والقبالة ، وذات طموح واسع وبعيد ، وقد حققت لنفسها بهذه الكفاءات منزلة طبية واجتماعية مرموقة من اترابها اللاتي يعملن في التمريض والقبالة وتوصلت أخيراً ان تكون احد مشاركي مستشفى السعدون ورئيسة الممرضات فيه . وقد عرضت علي في زيارتها فكرة تأسيس مستشفى اهلي باسمي . وبالرغم من ان هذه الفكرة كانت تداعب طموحاتي وأمانيّ دون انقطاع ، فقد فوجئت باقتراحها وترددت في قبوله ، فقالت لي

ـ لقد أغلق مستشفى السعدون أبوابه ، وعما قليل سيغلق مستشفى العلمين بعد وفاة طبيبه الدكتور كروباخ واضافت تقول ؛ ان الناس بدأوا يطلبون المستشفيات الأهلية ؛ ويفضلونها على المستشفيات الحكومية ، وطلباتهم اليها في زيادة مستمرة ،

فقلت لها محاججاً .

ـ ان مستشفى السعدون اغلق ابوابه بسبب قلة المرضى فيه ، وانه كان يخسر في الاشهر الاخيرة

فأجابتني

ـ انه صار يخسر لأن الطبيبين اللذين ساهما في تأسيسه ليس لهما مرضى

يحتاجون الى دخول المستشفى الا بعدد قليل ، كما لم يكونا من الممارسين في الجراحة ، وسبب آخر هو ان التمريض فيه لم يكن بالمستوى المطلوب فقلت لها

ـ انت ترأست التمريض في هذا مستشفى ، فهل استطعت ان تعملي شيئاً لتحسينه ؟

فأجابتني

ـ عرفت انني لا أستطيع تحسين التمريض فيه بعد الالتحاق به لا قبل ذلك ، ولم أستطع ان اجعل مدير المستشفى يتفهم ما أبدى له من أفكار لرفع مستوى التمريض ، فساءت سمعة المستشفى من هذه الناحية وأقترحت على مدير شركة المستشفى اعطاء حصص ضئيلة أونسب معينة للممرضات من ارباح المستشفى فعاب هذه الفكرة ونبذها ! ، وخضعت الادارة لفكرتي بعد فوات الاوان . وقطعت نجيبة حديثها في هذا الخط وقالت : بحماس ـ اسمعني يا دكتور كمال ، واقدم على تأسيس مستشفى وأنا أضمن نجاحه !

وكنت راغباً اشد الرغبة في تأسيس مستشفى ولو بتخوف فقلت لها

ـ ليس عندي مال يكفى لهذا المشروع . ، وبتقديري انه يحتاج الى مبلغ لا يقل عن خمسة آلاف دينار

فقالت نجبية

ـ وربما اكثر ، وأنا اشاركك . ثم اردفت ؛ ادارة مستشفى السعدون مستعدة ان تبيع اثاث مستشفاها وادواته صفقه واحدة بالفي دينار .

وعدت اقول لها

ليس عندي بقدر ما تملكين لنشترك في تأسيسه ، فقالت بحزم

ـ إرهن بيتك !

وفي ساعة حماس قلت لها :

ـ قبلت تطبيق الفكرة

ورهنت بيتي لدى مدير معارف عام متقاعد بالفي دينار ، وهكذا شرعنا نهيء ما يلزم لتأسيس المستشفى ، واشترطت ان يكون المستشفى باسمي فقالت نجيبة

ـ هذا هو ما أريده

ثم قلت لها

ـ ولا أريده ان يكون في بناية مستشفى السعدون اذا ما أغلق .
فأجابتني
ـ كما تريد ، ولو اني لا ارى مكاناً لانشاء المستشفى افضل من مكان مستشفى السعدون

وحصلنا على إجازة من وزارة الصحة لفتح المستشفى ولم نكن بعد قد وجدنا مكاناً ملائماً لا ستئجاره لهذه الغاية ، وأخيراً وجدنا ضالتنا في بيت بمحلة السعدون لصاحبته (حسيبة خان) زوجة السيد امين خالص باجار سنوي قدره سبعماية وخمسون ديناراً ونقلنا اليه كثيراً مما اشترينا من مستشفى السعدون . واشركنا فيه القابلة لطيفة سمرچي والطبيب المقيم فرحان باقر ، واعلنا عن اقسامه بجريدة صوت الاهالي يوم ٢٠ شباط سنة ١٩٥٠ بهذه الصيغة

(مستشفى السامرائي)

دفعنا الواجب الوطني ، واعتمدنا على الله فأسسنا مستشفى يتوفر فيه ما يحتاجه المريض من راحة وعناية طبية ، كما جهزناه بالآلات التي تحتاج اليها العمليات الجراحية وعمليات التوليد والامراض النسائية ، وهدفنا الأول خدمة الطب وخدمة المرضى ومشاركة المستشفيات الحكومية مسؤولياتها الكبيرة وتخفيف الضغط المتزايد عليها . ولسنا وراء النفع المادي ، فاذا حالفنا الحظ وساعدنا زملاؤنا فأقل ما نعد به هو معالجة الفقراء مجاناً على قدر ما تسمح به مالية المستشفى ، ومن الله التوفيق ادارة مستشفى السامرائي

وفي يوم ٢٢ شباط أي بعد يومين من هذا الاعلان وصلنا كتاب من وزارة الصحة لفحص مكان المستشفى ، وعمارته والاثاث والأدوات التي فيه ، وعدد المستخدمين واختصاصاتهم . كما طلب مفتش الصحة الدكتور على حسن انشاء غرفة لحفظ الموتى قبل نقلهم الى بيوتهم ، فشيدناها على عجل في ركن بحديقة المستشفى ، وقررنا ان لا نتقاضى أجراً من أول مريضة تدخل المستشفى . أما أول عملية كبرى تمت في المستشفى فلها حكاية استسيغ ذكرها لما فيها من غرابة . كانت مريضة هذه العملية

بدينة ، وسبق ان أجريت لها عملية رفع ورم ليفي من الرحم في المستشفى الملكى قبل اربع سنوات ، والبطون السمينة لا تريح الجراح وخصوصاً في عمليات الحوض ، فحسبت لها حسابي من الصعوبة التي أواجهها اثناء قلع الرحم وبالرغم من انني اعرف مقدماً ان طاولة العمليات التي اشتريتها من مستشفى السعدون كانت معمولة محلياً ولا تفي بالغرض غير انه لم يخطر ببالي قط انها لا تحمل ثقل الاجسام البدينة ، فما كدنا نضع هذه الطاولة بشكل (عكس فاولر) حتى حدث مالم يكن في الحسبان ولا ازال اذكره بفزع فقد انزلقت المريضة بثقلها نحو رأس الطاولة لعدم وجود ما يسند كتفيها ، وتكومت فوق المبنج الدكتور عبد الأمير الازري وقد حدث ذلك بسرعة لم تسمح لنا با ستيعاب هذا الحادث غير المتوقع ، كما الهانا منظر المخدر الدكتور عبد الأمير الازري وهو يحاول عبثاً تخليص نفسه من جسم المريضة الضخم الذي انهار عليه ، ولماصحونا من هول الحادث غلبنا الضحك على الدكتور عبد الأمير الازري الذي صار يتخبط تحت وطأة جسم المريضة وكان نقل هذه المريضة الى طاولة العمليات أمراً لم يتم الا بتعاون كل من كان في صالة العمليات ، فكيف بنقلها الآن من ارض الصالة واعادتها الى طاولة العمليات ؟ وكان هذا همنا الاول ، أما اخطار تلوث الجرح والأدوات وغيرها التي تناثرت فوق المبنج وعلى الارض فلم نفكر بها آنياً . أما الاضطراب النفسي الذي انتابنا فلم يكن له حد ، مع ذلك أخذنا حذرنا من ان يسمع صخبنا ذوو المريضة الذين كانوا يتجمعون عند باب صالة العمليات ، فصرنا نتهامس ، ويؤشر بعضنا لبعض بالاصابع حذرين من ان يسمع من كان خارج الصالة ما يحدث داخلها . فكان تفاهمنا كما لو كنا من الخرس .

كان كل شيء يخص هذه المريضة غير عادي ، فهي بدينة بافراط ، وذات رقبة ممتلئة قصيرة لا يسهل تخديرها . وبالرغم مما تعرضت له اعضاء بطن المريضة من تلوث ، والادوات الطبية التي التقطت من ارض صالة العمليات ، فكل ذلك للغرابة الشديدة لم يسبب اي اختلاط أو مضاعفات تذكر في المريضة في ايام ما بعد العملية

وطلعت الصحف البغدادية بعد يومين تثنى على فكرة انشاء المستشفيات الأهلية إلا واحدة منها فقد اشارت من طرف متستر ان (لا

يتعجّل الناس بالتفاؤل من هذه المستشفيات من حيث الخدمات والاجور وحدثت بعد ذلك شكاوى جميعها لأسباب تافهة وفي بعضها اعتداء على هيئة التمريض وصل بعضها الى دوائر الشرطة . فقد حدث ان رأت القابلة (كاترين) أحدى المريضات وهي تتهيأ لمغادرة المستشفى ـ رأتها تدسّ احدى بطانيات المستشفى في حقيبة ملابسها ، فطلبت من حارس باب المستشفى ان يفتش تلك الحقيبة ، فعارضته تلك المريضة وشتمته ولطمته على وجهه ، غير أن الحارس تمسك بموقفه وأصر على تفتيش الحقيبة ، وأخرج منها (البطانية) . وفي صباح اليوم التالي رفع زوج المريضة دعوى الى الشرطة مفادها ان ممرضات المستشفى سرقن من زوجته (سواراً) من الذهب . وكان مفوّض شرطة المنطقة عاقلًا وذكياً فسأل الزوج عن سبب تأخره وعدم تقديم الشكوى قبل مغادرة زوجته المستشفى ، كما فاجأه قائلًا ان شكواه المردودة ما هي الإ انتقام من حارس المستشفى الذي ضبط البطانية في حقيبة زوجته عند باب المستشفى . وانهار هذا المشتكي البليد وانسحب من دائرة الشرطة يجر وراءه الخزي والعار

وفي شهر ايلول سنة ١٩٦٠ طلعت جريدة (اتحاد الشعب) بالشكوى الآتية اذكرها كما وردت في هذه الجريدة (أدخل مريض مصاب بقرحة في معدته الى غرفة رقم (١٧) في مستشفى السامرائي ومكث فيها اسبوعاً كاملًا . لم ير خلالها وجه صاحب المستشفى (المدعو) كمال السامرائي (ثم يقول) وهذا متوقع فان الطبيب هدفه الأول من استحداث هذا المستشفى هو ملء جيوبه بما يحصل من المرضى ليفرغها على الموائد الخضراء في لياليه الحمراء). وقد استغربت من هذا الاتهام ، وأنا كما يعرف اصدقائي لا اشرب الخمرة الإ نادراً وبمقدار قليل جداً ، وفي ظروف تفرضها المناسبة واني لا اشربها ، ليس تعففاً فقط وإنما لانها تضر بصحتي أيضاً ، ولا انتشي اذا شربتها بل تورثني نعاساً لا استطيع مقاومته . وعن القمار فلا اعرف حتى مراتب أوراقه . وأما أني لم ازره في غرفة رقم (١٧) التي يرقد فيها بمستشفى السامرائي ، فلم يكن هذا المريض من مرضاي ، وإنا باي حال لا اطبب الرجال . وقد ازور المريض الرجل اذا دخل احدى غرف المستشفى بدافع الصداقة أو القربى ، بيد

اني لا اعرف هذا المريض على اي وجه من وجوه المعرفة لأزوره . وتمر الايام ويحتاجني ذلك المحرر في جريدة اتحاد الشعب لاعالج اخته المريضة فتجاهلت أمامه اهتمامي بما كتبه عني في الجريدة . وقد يكون من غبائه انه ظن انني لم أعرف كاتب تلك الكلمة ، أو عرف انني عرفته فركبه الغرور ان لا يتنازل عن موقفه (ككاتب حقائق) . وأخيراً انهار فسألني دون اشارة الى ما كتبه في الجريدة

ـ الا تزور المرضى الذين يدخلون في مستشفاك ؟

فأجبته

ـ ازور مرضاي فقط . أما المرضى الآخرين فتحت مسؤولية الاطباء الذين يدخلونهم الى المستشفى

ونظر الى وجهي لحظات وقال

ـ إذن أنا أعتذر

فسألته وانا اعرف ماذا يريد ان يشير اليه

ـ عن اي شيء تعتذر ؟

ـ عما كتبته في جريدة اتحاد الشعب

فقلت له

ـ أنا لم أقرأ هذه الجريدة .

وانقطع حبل الحديث بيننا وافترقنا :

سائق تاكسي في دوائر الامن ٣/٣/١٩٥٠

كبست على محرك سيارتي فلم تدر ماكنتها ، وكبست عليه مرة أخرى وأخرى وثالثة وخامسة فلم تتحرك ، فترجلت منها واقفلت أبوابها وتركتها في مكانها أمام الردهة العاشرة في المستشفى الملكي ، وتوجهت وأنا احمل بيدي حقيبتي الصغيرة الى حيث تقف سيارات الأجرة عند مدخل المستشفى . وتقدمت من أحداها وفتحت بابها الأمامي وجلست على المقعد الذي الى جانب سائقها وراء مقود السيارة . وكان هذا السائق شاباً صبيح الوجه لو أنه اهتم بحلق شعر ذقنه . وكان يرتدي سترة بنية اللون غير جديدة ، وسروالًا رمادي اللون وعلى كليهما آثار بقع من الزيت ، فبادرته قائلًا

ـ مرحباً بالشباب (ثم قلت له) الى المسبح رجاءً
وسألني
ـ المسبح بالكرادة ؟
ـ نعم الى المسبح بالكرادة
ثم قال لي
ـ أهلًا بالحجي ، وكثيراً ما يخاطبني الناس بهذا اللقب احتراماً لعمري أو لوفرة الشيب في رأسي . وما كادت سيارته تدرج قليلًا حتى دفع رأسه من نافذة السيارة ليتطلع الى إمرأة تمشي بتثاقل على رصيف الشارع المقابل له ، ونادى تلك المرأة .
ـ كاترين ، كاترين !
ولم تسمعه تلك المرأة ولا هو توقف لينتظر منها رداً ، فقال يكلم نفسه
ـ لم تسمعني (ثم اردف قائلًا) هاي شلون صايرة ، ما عرفتها أول مرة ، صايرة دبابة !
أما أنا فقد عرفتها ، وهي موظفة في مطبخ المستشفى . ومن عادتي اذا ركبت الى جانب سائق سيارة تاكسي ان ادردش معه ببراءة ، إذ ان بعضاً منهم مؤنسون وتصرفهم محبب ، وحكاياتهم ممتعة ، فسألته وأنا اشير الى تلك المرأة
ـ لازم تعرفها ؟
فأجابني
ـ شلون ما عرفتها ، كانت تسكن في محلتنا بفضوة عرب ، وكانت رفيعة مثل صل الحية . وسمعت انها توظفت في مطبخ المستشفى الملكي (وقهقه ضاحكاً واضاف) من إكل الهبر وحكاكة التمن ، لقمة بحلقها ولقمة بماعون المريض ، وهسّه هيّ متل الشليف . ولما اجتازت سيارته المنعطف في اتجاه شارع الرشيد ، خفف من سرعتها ليحاذي مفوض مرور يقف قريباً من رصيف الشارع وخاطبه
ـ أبو حسين ، أريد اسبسيال ، بكرة واحدة
فأجابه مفوض الشرطة
ـ تعال اليوم الى بيتنا بعد ساعة عشرة .
وفي هذه اللحظات : ارتفع صوت بوق سيارة كانت وراءنا لتحث سائق السيارة التي استقلها على السير ، فاسرع السائق بعد ان كال له

الشتائم ، ولكن بصوت خافت

ـ ابن الزفرة ، شصار عندك !

ولم أعرف ماذا قصد هذا السائق بالاسپسيال ، فسألته متطفلاً

ـ شنو الاسپسيال ؟

فاجابني

ـ هي طلقات هذا المسدس .

وأبعد يده عن مقود السيارة ورفع طرف سترته وكشف عن مسدس مربوط الى نطاقه (واضاف يقول) هذا المسدس أبو الحصان . (واستمر يقول) إحنا نشتري الطلقات بسعر رخيص . مائة فلس للواحدة .

ولما صارت السيارة قريبة من شرطي مرور آخر أوقف هذا سير السيارات لمرور السابلة من جانب الى جانب من الشارع ، وكان من بينهم إمرأة بدينة تتنفس بجهد اكثر مما تتحرك لقطع الشارع ، فقال للشرطي

ـ دير بالك على الغزال

وعرفت ماذا قصد الشرطي بهذا التنبيه ، لان تلك المرأة لم يمكن لضخامتها ان توصف بالغزال ولا بالريم ، فكانت اشارته الى زميله الشرطي استهجانا وعيباً لتلك المرأة البالغة السمنة

وبعد لحظات سكوت منه ومني سألته

ـ هذه سيارتك ؟

فأجابني

ـ هي سيارتي ، ولكن هي راكبتني ، علّي بعد ستماية دينار حتى أوفيها .

ـ تتو فى ان شاء الله .

ـ أنا اشتغل بها بعد الظهر فقط ، وقبل الظهر يشتغل بها عامل ، لانني موظف .

فقلت له

ـ أنا طبيب

فقال لي

ـ عمي أعرفك ، انت اسمك دكتور كمال ورقم سيارتك ٣٩٢ بغداد ونوع سيارتك (أولدز موبيل) تنتة ، بلونين حليبي وقمر الدين ، وبيتك بالمسبح ، وعندك مستشفى باسمك (واضاف) عمي اعرف عنك كل شيء .

فسألته

ـ من اين لك هذه المعلومات ؟

فاجابني ببساطة وهو يبتسم

ـ عمي هذه شغلتي .

ـ شغلتك شنو ؟

ـ أنا مخبر بالأمن (وسكت لحظة) ثم قال عمي العيشة تنراد وكنا قد وصلنا بيتي في المسبح فقلت له مؤيداً وانا اترجل من سيارته

ـ نعم العيشة تنراد .

السفرة الاولى الى اوربا ١٩٥٠

اتفقت في اوائل صيف ١٩٥٠ مع صديق لي هو التاجر عبد الجبار عبد الواحد ان نسافر الى انكلترا ، وقررنا ان نقطع البحر الابيض المتوسط بالباخرة (أزونيا) الايطالية الى (ڤينسيا) ومنها بالقطار عبر فرنسا الى انكلترا . وعلى سطح الباخرة عند اقلاعها من مرفأ بيروت تعرفت على التاجر العراقي المشهور عبد الله لطفي ، وهو من نبلاء الاكراد ، ومن عائلة معروفة بتجارة التبغ . وكان بالرغم من كبر عمره بالنسبة الى عمري وعمر صاحبي الثاني لطيف المعاشرة ومتواضعاً وسخياً . أما صاحبي الذي اتفقت معه على هذه السفرة فكان من الملاكين في البصرة ، ساذجاً وممسك اليد . وكان مصاباً (بداء النوم) وهي حالة أنا أُعطيتها هذا الاسم فليس لها ذكر في صنوف الامراض ، فاذا إستقر في مكان ولو بضع دقائق ، في اي ساعة من النهار ، وفي اي مكان ولو كان ذلك على كرسي في مقهى فسرعان ما يغط من نومه ويعلو شخيره ، وهو نفسه يقول ان ذلك قد يحدث حتى في الدقائق القليلة التي يّخلو فيها لقضاء (حاجته) في المرافق الصحية ، ولا يعود الى صحوه الا بعد ان تزلّ قدمه فيسقط على وجهه او على قفاه . وكانت هذه الحالة الغريبة هي الدافع لسفره الى انكلترا ليجد فيها العلاج على يد أطبائها ، أو في مستشفياتها .

كانت سفرتي هذه الأولى الى أوروبا ؛ فلم اكن قد زرت من الدنيا الى ذلك التاريخ الّا لبنان ومصر وفلسطين . وكانت المقصورة التي خصصت لي ولصاحبي البصري من الدرجة الثانية ، اما الصديق التاجر فكانت

مقصورته من الدرجة الأولى ، الا اننا في غير ساعات الاستجمام في المقصورتين كنا نجتمع سوية ونلهو على سطح الباخرة . وحمداً لاصوات مكائن الباخرة التي طغت على شخير صديقي البصري حين نأوي الى المقصورة

وكان البحر هادئاً طيلة عبورنا حتى وصلنا مضيق (مسينا) الذي يفصل جزيرة صقلية عن (كعب حذاء) البر الايطالي .

وعبرت السفينة هذا المضيق ليلا ، فرأيت انوار جانبي المضيق كلما التفتنا اليهما يمنة ويسرة ، لقد كان منظرهما خلاباً يدعو الى الانشراح . وحين رست السفينة عند مرفأ فنيسيا بهرني (الجندول) وهو يمخر قنوات المدينة التي تكوّن شوارعها المكتظة بالجندولات وحولها الدور الغاطسة في ماء البحر . كما سحرتني في صباح اليوم الثاني ساحة (سنت ماركوس) والحوانيت والمقاهي الأنيقة التي تحيط بها من جميع الجوانب إلا في فتحة غير وسيعة تنحدر الى شريعة تكتظ فيها القوارب ، كان كل ما رأيته في هذه المدينة ، وكأنه عالم أبعده البحر عن الكون كله . والجندول الى حد ما يشبه المشحوف الذي نراه في جبايش جنوب العراق ، وكلاهما واسطة النقل من حارة الى حارة ومن بيت الى بيت . وما عدا ذلك فالفروق التي بينهما كثيرة من حيث التركيب والأناقة والنظافة .

وبعد يومين غادرنا فينسيا الى روما بقطار اكثر ركابه يتكلمون الانكليزية أو الفرنسية ، أما الذين كانوا يتكلمون باللغة الايطالية فقلة .

وفي محطة روما طلبنا من سائق سيارة الأجرة ان يحملنا الى فندق جيد ، ويبدو أنه فهم من تعبير جيد ان يكون (بخمسة نجوم)

وفي هذا الفندق واسمه كويرنلى احدث لنا مالم يكن في الحسبان . فحين دخلنا مطعم الفندق لتناول وجبة العشاء تقدم منا رجل ذو هيبة وبلباس متميز وتوجه نحو صديقنا التاجر البصري وهمس في اذنه ماذعر له صديقنا . فالتفت نحوي يسألني عما يريده ذلك الرجل . ففهمت من هذا ان هذا الفندق لايستقبل زبونا بلا (رباط رقبة) ! فطلب من صديقنا التاجر ان يذهب الى غرفته ويلف رباطا حول رقبته . وصديقنا هذا التاجر الجلبى نفور بطبيعته ، فغضب من طلب ذلك الرجل . وغادر طاولة العشاء الى خارج الفندق ، فاضطرنا ان نلحق به ونفعل مافعله . وكنا جياعاً فمررنا في طريقنا بعربة تبيع (الهوت دوك) وكان حولها عدد من

الشباب الايطالي وهم يقضمون الهوت دوك ويتضاحكون بصخب ، ولم يكن أحد منهم من نزلاء هذا الفندق الفخم .

وفي صباح اليوم التالي استقللنا القطار الى باريس وكان مزدحماً بالركاب واكثرهم من الامريكان .

ولم نكن قد حجزنا غرفا في احد فنادق باريس ، ولكنها فرجت بسهولة ، فقد كان عبدالله لطفي يعرف اللغة الفرنسية ، وهو ذكي في تصريفه مثل هذه المواقف ، فدسّ في جيب سائق التاكسي مبلغاً من الفرنكات الفرنسية فحملنا بسيارته الى فندق متواضع باسم «لاروس» يقع في شارع صغير يتفرع من شارع (الشانزليزه) وقريب من السفارة العراقية . وفي هذا الفندق تعرفنا على كاتبة الفندق واسمها (لوسى) ، وهي زوجة ملاكم اسمه (جان) . وفي اليوم الثاني استطاعت لوسي ان تحصل لنا على ثلاثة بطاقات في مسرح (الفولى برجير) الشهير عالمياً ، فنفحنا لوسي ثمن بطاقة لنفسها لتصاحبنا الى المسرح . وعند مدخل هذا المسرح ، تعرفنا على شاب عراقي يدرس الموسيقى في باريس اسمه (حمدى) وكانت بصحبته شابة فرنسية جميلة لولا بعض تضخم في بطنها وعجزها واسمها ڤيڤيان . وكان حمدي لطيفاً معها ومعنا ايضاً . وصار كرسيي في المسرح بينها وبين كرسي عبدالله لطفي ، اما الصديق البصري وحمدي فكانا على الكرسيين التاليين في هذا الصف من الكراسي . وفي الظلمة التي عمت قاعة المسرح سألتني صديقة حمدي بانكليزية ركيكة فيما اذا كنت أعرف عائلة حمدي ، فأجبتها متأسفاً بالنفي وانا مدرك ماكانت تقصده من هذا السؤال .

ثم سألتني اموراً عن الحياة في بغداد ، وبخاصة عن حرية المرأة فيها . وكنت في خلال ذلك أتابع فعاليات الممثلين على المسرح اكثر مما كنت أستمع الى هذه الصبية ، فلم تستفد مني كثيراً كما توقعت على ماأعتقد . وفجأة ضجّ الصفير والتصفيق في قاعة المسرح حين ظهرت على خشبته الفنانة الاولى في هذا المسرح (جوزفين بيكر) . وهي سيدة ملونة ، انثوية الاعطاف ، وذات جسم فاتن، رشيقة . فهمست صديقة حمدي بأذني تقول : هذه هي جوزفين بيكر ، وكنت قد عرفتها قبل ان اسمع منها هذا التعريف ، وعند مغادرتنا المسرح أوقفنا شاب فرنسي ، يبيع انواعاً من الدمى المطاطية لها لون ملمس اللحم البشري ، وكان واحدة منها وأغلاها لجوزفين بيكر وهي عارية الا من ورقة التوت ، ونجمتان من مادة بلون

الذهب تكسوان حلمتي ثدييها الناهدين . ولما تلمست هذه الدمية لكزت جنبي صديقة حمدي وأخذت الدمية من يدي واعادتها الى البائع ، فاستغربت مما فعلته معي لتمنعني من شراء الدمية ، فسألت حمدي عن ذلك فقال لي : ان اكثر الفرنسيين يحترمون جوزفين بيكر لانسانيتها وعطفها على اللقطاء واليتامى من البنات والأولاد ، وان لها في الوقت الحاضر معهداً تربي فيه سبعة من هذه الفئات ، وتصرف عليهن مايحتجن من لباس وتربية وتعليم وما الى ذلك

وعدنا بعد إنتهاء فعاليات الفولى برجير نغذ خطانا الى فندقنا ، ولم يكن بعيداً عن الفولى برجير . ورأينا في طريقنا عربة عليها اكوام من انواع الفواكه الطازجة ، فاقترح عبدالله لطفي ان نشتري بعضاً منها لنأكلها في الفندق ، فلما إقتربنا من العربة وطلبنا من صاحبها مانريد قلت لعبدالله لطفي : حاذر ياعبدالله بك ، فان كثيراً من الباعة المتجولين محتالون وسرّاق ، ولايستبعد ان يكون هذا البائع أحدهم . وملأ ذلك البائع ثلاثة اكياس ورقية مما طلبنا منه وهو دائم الابتسام ، ودفعنا له ماطلبه منا ثمناً لها .

ولما استدرنا في اتجاه الفندق خاطبنيهذا البائع وهو يقول لي بعربية فصيحة .

ـ مهلًا ياأخي العربي ، لاسألك كيف عرفت أنا محتال وسارق ؟ وكم كان عجبي وخجلي مما سأله هذا البائع فاعتذرت منه فاذا هو من أهل فاس بالمغرب وانه يدرس في احد كليات پاريس . وفي اليوم الثاني ، ملأ لنا ثلاثة اكياس من القرطاس بالفاكهة كما فعل في الليلة السابقة ، ثم رفع من على عربته ثلاث خوخات كباراً وقدّم واحدة لكل منا وهو يقول

ـ هذه متاع الطريق من السارق المحتال !

وفي اليوم التالي كنا في احد مقاهي (الشانزليزه) . والمقاهي في هذا الشارع تنشر كراسيها المدهونة بالوان الورود على جانبي هذا الشارع الطويل الذي يمتد بين (الإيتوال) وساحة (الكونكورد) حيث تسمق في وسطه احدى المسلات المصرية . وجاء حمدي في الوقت الذي حدده لنا عندما غادرنا (الفولي بير جير) ، واتخذ لنفسه كرسياً حول المائدة التي كنا نتحلق حولها ، وبعد لحظات وصلت صديقته (ڤيڤيان) وهي تعتذر عن تأخرها بضع دقائق ، وأخذت كرسياً الى جانب حمدي ، وكانت بيدها

جريدة (الفيكارو) الفرنسية الشهيرة ، ومالبثت ان طرحتها على الطاولة وهي تقول شيئاً بالفرنسية لصديقها حمدي ، وعادت وتناولت الجريدة ثم بسطتها أمام حمدي واشارت باصبعها الى (كارتون) يحتوي على رسم (اطار) ليس بين اضلاعه شيئاً ، وامعن حمدي النظر الى الكارتون وقرأ ماتحته من التعابير فضحك وضحكت معه صديقته ڤيڤيان . ثم فسّر حمدي لنا ماهو مكتوب تحت هذا الكارتون ، فقال

ـ قبل يومين أقيم معرض لكبار الرسامين في فرنسا ، كان من بينهم (پيكاسو) الرسّام الاسباني الشهير ، فأسفرت المسابقة عن فوز هذا الرسام على جميع من اشترك بهذه المسابقة . وفي هذه الصورة تعليق انتقادي على طريقة پيكاسو في الرسم ، فأخذت الجريدة من يد حمدي وتطلعت الى الكارتون الذي ضحك منه حمدي وصديقته ، فلم أجد فيه مايضحك ، فقلت لحمدي

ـ ليس في الصورة مايضحك !

فاجابني

ـ ان المضحك في التعليق المكتوب تحتها

فقد كتبت تحت صورة هذا الاطار (البقرة في الحقل) وتحت هذا العنوان نقاش قصير بين اثنين ممن شاهدوا هذا الكارتون . سأل أحدهم صديقه وهويبحرّ في الصورة

ـ اين الحقل في هذه الصورة ؟

فأجابه صديقة

ـ لقد أكلته البقرة

وعاد صديقه يسأله

ـ واين البقرة ؟

فاجابه صديقه

ـ لقد غادرت الحقل بعد ان شبعت منه

وضحكنا على هذا التعليق ، وطلبت من حمدي ان يسأل صديقته ڤيڤيان عن رأيها في الصور التي لايفهمها إلا من رسمها ، فقالت

ـ ان المؤيدين لها والمعجبين بها كثيرون ، ويتوقعون لها مستقبلًا يطغى على سواها من الرسوم . فقلت لها (والمترجم حمدي)

ـ هذه الرسوم نظيرة لبعض الموسيقى الكلاسيكية الثقيلة التي لاأفهمها

ايضاً .
ـ فأجابتني
ـ هذا شيء وذاك شيء ، ولايصح المناظرة والمقارنة فيما بينهما. وشعرت حينئذٍ ان في حكمي على الموسيقى التقليدية قد ازعجها ، وهي وحمدي متحمسان لهذا النوع من الموسيقى ويدرسانها في معهد واحد . وسمعتها تقول بتواضع
ـ هناك من يحب تفاح (الستاركنك) وآخر من يحب تفاح (الكولدن)
فسالتها وانا انظر الى وجهها العذب
ـ وانت ماذا تفضلين من هاتين الفاكهتين ؟
. فأجابتني وهي تضحك
ـ أحب كلا النوعين من التفاح

في مطعم مكسيم

وفي اليوم التالي دعانا صديقنا ابراهيم فضلي القائم باعمال السفارة العراقية بباريس . لنتناول الغذاء في مطعم مكسيم وهو محل على صغر صالته واسع الشهرة . فأكلنا وشربنا وتحدثنا في ماطاب لنا التحدث فيه . وأخيراً نادى مضيفنا النادل ليأتيه بقائمة (الحساب) ، ومد يده في جيب سرواله الخلفي فلم يجد فيه محفظة نقوده ، وفتش جيوبه الأخرى فلم يجدها ، وبدا على وجهه الاضطراب والخجل ، فقلنا له
ـ أبوسعدي لاتهتم ، فنحن لسنا غرباء .
فقال
ـ اعرف ذلك الا ان في المحفظة اوراقاً مهمة جداً ، وبعضها ذات خطورة حكومية .
ودفعنا الحساب بعد ان تسابقتا نحن ضيوف هذه الدعوة على دفعه
وفي صباح اليوم التالي زرنا ابراهيم فضلي في السفارة لنودعه قبل سفرنا الى لندن ، فاستقبلنا باسماً وهو يقول
ـ صباح هذا اليوم ، قبل نصف ساعة بالتحديد كلمني تلفونيا شخص

واخبرني انه هو الذي خطف المحفظة من جيبي عند دخولك مطعم مكسيم ، وانه اكتفى ان يأخذ منها النرنكات اما غير ذلك فقد ابقاها في المحفظة التي قال انني سأجدها بين الاعشاب التي تحيط التمثال الصغير القريب جدا من باب السفارة العراقية (وقال ابراهيم فضلي وهرولت الى المكان الذي عينه لي ذلك المتكلم فوجدت المحفظة وفيها جميع الاوراق التي تهمني وتهم دائرة السفارة ، ولم يأخذ مما كان فيها الا الاوراق المالية !

وفي صباح اليوم التالي استقللنا القطار من باريس عبر مضيق دوفر كو الى لندن . وفي محطة فكتوريا التي انتهى اليها مسار القطار بهذه المدينة حدث ما هو مضحك محرج معا ، فقد مرّ المسافرون فرادى عبر دائرة الكمرك . وكان عبدالله لطفي يتقدمني الى موظف كمرك ليفتش محتويات حقائبه . واذكر ان هذا الموظف كان ساعده الايمن مقطوعا ، فدس ردن سترته في جيبها ، ومن فرط اضطراب عبدالله لطفي مدّ يده بجواز سفره الى الردن التي تغطي اليد المقطوعة لا الى يده اليسرى التي يستعملها هذا الرجل تعويضا عن يده اليمنى . ورايت هذا الموظف يعزل عبدالله لطفي جانبا لسبب لم احزره ولكنه قطعا لم يكن بسبب الخطأ الذي وقع فيه عبدالله لطفي حين مدّ جواز سفره الى يده المقطوعة . ومررت انا من استجواب موظف الكمرك بسهولة ، والتفت الى عبدالله لطفي الذي سبقني في خط المسافرين فاذا سحنة وجهه قد صارت بلون الليمونة الجافة . وهو يطوي جذعه على بطنه ويشير اليّ باصابعه اليها . وسمعته يقول من بين كفيه اللذين جعل منهما بوقا ليوصل صوته الي

- دكتور كمال بطني انهدت (ثم اضاف) وهو يشير باصبعه اليها ;هذا الرجل مايفهمني ، كلمه ياكمال بك

وتقدمت من رجل الكمرك واوضحت له حالة عبدالله لطفي المرضية فسمح لي ان اتقدم من عبدالله بك لأخفف من روعه ، وقلت له

- لن يحدث شيء ياعبدالله بك

ومال برأسه اليّ وهمس ، وكأنه يخشى ان يسمعه أحد ، ونحن بين موظفين لايعرف أحد منهم اللغة العربية

- عندي هدايا قضية لبعض وكلائي في لندن

- وما في ذلك ؟ نهاية مافي هذا الأمر انك تدفع عنها الرسوم الكمركية .

واخيرا إنحلت المشكلة التي اختلقها لنفسه دون صعوبة بعد ان دفع عنها الرسوم الكمركية ، وعند خروجنا من دائرة الكمرك قلت لعبدالله لطفي

- لم اصدق ان انفعالاتك النفسية سريعة التأثير هكذا !

- أنا احكي لك ، ان صديقنا التاجر (ص . ط) ، قبل عام في مثل هذا الشهر فتشت حقائبه فوجدوا فيها حليا فضية وذهبية حملها هدايا لاصحابه في لندن ، فضبطوها وصادروها ونشروا إسمه كمهرب في مجلة اقتصادية تصدر في انكلترا ، كما اوقفوا إعطاءه تأشيرة دخول لبريطانيا لمدة خمس سنوات .

فانكرت حدوث ذلك ، كما ذكره لي عبدالله لطفي واكتفيت بقولي له

- لابد ان ذلك الأمر له مخالفات قانونية اخرى . وعبرنا دائرة الكمارك بسلام .استقللنا سيارة تاكسي وسألنا سائقها ان يحملنا الى فندق معتدل الأجر وقريب من وسط المدينة . فارشدنا الى فندق (ستراند) القريب جداً من ساحة الطرف الأغر حيث عمود عال نصب على قمته تمثال القائد البحري (نلسون) الذي دحر نابليون في موقعة الطرف الاغر . وتقدمنا من دائرة الاستعلامات في هذا الفندق وسألنا موظفها عن ثلاث غرف لنأوى اليها فسألنا

- هل حجزتم مسبقاً ؟

فأجبناه

- كلا ، لم نحجز .

فخرجنا من طابور الوافدين الى هذا الفندق للحصول على غرف لهم ولم نكن نعرف أحداً في لندن لنستنجد به واذا كان عبدالله بك يعرف أحداً في هذه المدينة الصاخبة فانه لايعرف عنوانه فوقفنا متجمعين في ركن من بهو الفندق . وجاءنا الفرج من السماء حين تقدم منا على حين غرة الدكتور يوسف دانيال ، وكنت أعرفه يوم كان موظفاً في دائرة الپاثولوجي بكلية الطب ببغداد ، فهاجر الى انكلترا وفيها عمل في مختبرات لصنع الادوية ، فاكتشف معادلة فيها مادة من الحديد يمكن حقنها في عضلة المريض فكوفىء على هذا الاكتشاف بمبلغ من المال . فابتسمت للدكتور يوسف بملء فمي حين صار أمامي ، وعرضت عليه مشكلتنا في

عدم حصولنا على غرف في هذا الفندق ، فطلب منا ثلاثة باونات وغاب عنا وبعد ربع ساعة تقريباً عاد الينا وفي يده ثلاثة مفاتيح لثلاث غرف في هذا الفندق .

صحبنا عبد الله بك في صباح اليوم التالي لزيارة أحد وكلائه بلندن ، وهو يمثل أحدى شركات صنع الحبر ، فاستقبلنا ذلك الرجل بترحيب بلغة انكليزية وعبد الله لطفي لا يعرف هذه اللغة غير ان ما بدا على وجهه كان يدل على ما فهمه مضمون تلك المقابلة الكريمة ، وصار عليّ ان اكون المترجم في ما صار يدور بينهما من كلام . ولم تصعب عليّ هذه الترجمة إذ كان نطق هذا الانكليزي واضحاً وليس متعجلاً . وبعد مداولات بين الطرفين كانت جميعها دون استثناء تجارية بدت على وجه كل منهما امارات الرضا والتفاهم ،والخلو من التحايل لمزيد من الكسب . وقبل ان ينهيا ما عندهما من الأمور التجارية ، رأيت ان اسأل مضيفنا الانكليزي عن الاماكن التي تستحق ان نقتل فيها وقتنا في هذه الزيارة للندن ، فأجابني - غدا يوم أحد و (برايتون) أفضل مكان لما تريدونه ، وأخذ ورقة مما على منضدته من الاوراق ورسم عليها مخططاً للوصول الى هذه المدينة الساحلية . وعملنا بمشورته وأخذنا القطار الى برايتون . وفي يومي السبت والأحد ، قطار في كل ربع ساعة . وبرايتون منتجع صيفي على ساحل البحر ، يقصده الانكليز والاجانب ومن كل الاعمار ، وفيه كل وسائل التسلية على البر وعلى البحر وعلى طول ساحلها فنادق ومقاهي وبارات ، ترسو على شاطئه اليخوت والزوارق ، أو تمخر البحر في ابعاده القريبة والبعيدة والناس من كل الفئات تخوض البحر وهي مبتهجة غارقة في المرح ورأينا على اليسار من الشاطىء خيمة خردلية اللون علق على مدخلها لافتة كتب عليها بالانكليزية (صورة كاريكاتورية في خمس دقائق) وقد طلع منها لحظتئذ رجل غارق في العمر ووجهه يعبّر بوضوح عن طيات السنين المضنية التي مر بها ، ومع ذلك بقي يحتفظ بقامته المستقيمة وكان يحمل بيده صورة كاريكاتورية له اثارت إعجابي ، واقترحت على عبد الله بك ان ندخل هذه الخيمة ليصورنا هذا الرسام كما نتراءى للناس لا كما نرى انفسنا في المرآة ، ووافق عبدالله لطفي على مقترحي ، ولم نسأل رأي رفيقنا (الجلبي) في ذلك اليوم لعلمنا انه لا محالة يعارض الفكرة كما يفعل في كثير مما نعرضه لنحصل على الاجماع

في الرأي ؛ واكتشفنا أخيراً ان عدم اخذ موافقته افضل لنا وله ، فهو يوافق أخيراً على ما نقدم عليه بسكوت ودون اعتراض ، وربما بدون تفكير . ودخل عبد الله بك الخيمة . وانتظرته أنا و (الجلبي) في خارجها وعبد الله بك كما تقدم ذكره تاجر في التبغ والسكاير وبعد نحو خمس دقائق خرج وبيده الورقة التي رسمت عليها صورته وهو يجلس وراء منضدة واسعة نضدت عليها أعمدة من النقود المعدنية بفآتها المختلفة ، وعلى جانب اخر من الطاولة نضد من اوراق النقد ، يحسب عددها باصابعه وهو خالي الفكر الإ مّما يمكن ان يخطىء في حسابه ، فقد طال رماد سكارته التي في فمه حتى تدلّى منها على ذقنه . انها صورة ناطقة لما في فكر عبد الله بك .

ودخلت أنا الى الخيمة بعد عبد الله بك فاذا داخل الخيمة غير معتمة ولا شفافة ، ويدخل من خلالها النور الذي لا يكوّن ضلالًا معتمة . وطلب مني أن أجلس على كرسي صغير بلا متكأ لا من الخلف ولا من الجانبين وظل ينظر الى وجهي بدقة وهو يسألني عن عمري ومهنتي وهواياتي ؛ وما لبث ان أخذ القلم الاسود الغليظ وشرع يرسم على ورقة أمامه ما يراه على وجهي ، وبعد نحو خمس دقائق تقريباً قدّم لي الورقة التي رسم عليها صورتي فاذا أنا أجلس فيها وراء منضدة . وعلى جانب منها نضد من الكتب وأنا ادس وجهي بين صفحتي كتاب أركز على قراءة ما فيه ، ورسم على جانبي من المنضدة صورة السماعة التي يستعملها الاطباء المولّدون . نعم كانت هذه الصورة معبرة عما يعتمل في نفسي وفكري . وخرجت من الخيمة ليدخلها (الجلبي) وهو كما قلت رجل غير مثقف وذو طباع نافرة ، ولحوح في الطلبات وكأنه طفل مدلل وبعد دقائق سمعنا جلبة داخل الخيمة ويعلو صوت الجلبي بالشتائم والمصوّر الهندي يرد عليه بهدوء واستغراب ، وجاء الى ظني انهما لم يتفاهما في لغة التخاطب ، فاسفر ذلك عن نزاع أو عدم تراضٍ بين الاثنين ولم انتظر طويلًا حتى دخلت الخيمة ورأيت الجلبي في حالة غضب مستطيرة

- ما الامر ياجلبي ؟

- خليلي (أكتله) ، شوف شسوى بيّ ، رأسي بگد الجبل وجسمي والرجلين لطفل صغير !

- فقلت له : دعني ار الصورة

وما كشفها لي حتى تولدت في صدري ضحكة خنقتها خشية ان تثير

جلجلتها مزيداً من غضب الجلبي على الرسام فيحدث ما لا نرضاه . كان الجلبي في هذه الصورة طفلا يلبس السروال القصير وهو يدفع بحماس طوقاً أمامه كما يفعلُ الاطفال ، وهم يعدون ، رافعاً احدى رجليه الى أعلى والأخرى الى أمام ، وهو متحمس كما يبدو على وجهه انه يحقق بهذه العجلة نصراً بهذه السرعة فقلت لصاحبي الجلبي لاهدئه ، وهو سريع التحول الى الرضا أو السخط

ـ ليس في الصورة ما يدعو الى الغضب على هذا المصور ياجلبي.وسرعان ما هدأت ثورته واكتفى بتمزيق الصورة ونثر أوراقها على الارض .

الأيام الأخيرة من حياة الملكة عالية

كتب الله علي ان اعيش في قصر الزهور ببغداد نحواً من ستة اسابيع اعنى فيها بالملكة عالية زوج الملك غازي التي كانت يومئذ مصابة بمرض عضال لا يرجى شفاؤها منه . ولم اغادر القصر الا بعد ان لفظت انفاسها الأخيرة وهي مرتمية باعياء على كتفي الايسر . وقد سمعت وشاهدت اثناء اقامتي بهذا القصر أموراً كثيرة وغريبة سجلتها في ايامها بدقة وأمانة كجزء من تأريخ العراق الحديث .

* * *

شكت الملكة عالية من اوجاع في بطنها السفلى فسافرت مع أخيها الأمير عبدالاله الى لندن بناء على اقتراح احد الاطباء الانكليز العاملين في الجيش العراقي واسمه (دكسن فرث) وعادت الملكة الى بغداد بعد بضعة اسابيع بعد ان ثبت للاطباء الاختصاصيين ان مرضها قد استفحل في جوفها واصاب كل عضو فيه ، واجتاز مرحلة المعالجة الشافية ، ولم يبق في وسع الطب والاطباء الا استعمال الحقن لتسكين الآلام المبرّحة التي يثيرها ذلك المرض الخبيث فلا دواء ولا وسيلة أخرى في الطب لايقاف تفشيه ، وما يفعله من تخريب مميت ينتشر في اجهزة الجسم واحداً اثر آخر

* * *

فوجئت بخبر مرض الملكة عالية ساعة استدعاني رئيس التشريفات الملكية تحسين قدري الى قصر الرحاب . وحين صرت في صالة هذا القصر كان قد سبقني اليها كل من الدكتور هاشم الوتري والدكتور هادي الباچه‌چي وكان معهما الطبيب العسكري الانكليزي دكسن فرث . وعلمت من هذا الطبيب انه هو والملكة عالية وأخوها الأمير عبد الاله قد وصلوا نواً الى بغداد ، وفي تلك اللحظة ونحن نتحدث في مرض الملكة دخل عبد الاله الصالة وعليه علامات التعب جراء الرحلة الطويلة بطائرة الفايكاونت من لندن الى بغداد

قال يخاطب دكسن فرث : ارجوك ان تشرح للاخوان مشكلة جلالة الملكة وما يجب ان تفعلوه لأجلها . انها تتألم فاعملوا شيئاً بالله عليكم ، وسأترككم على ان تطلبوني حين تنتهون من التشاور في أمرها ؛ واستدار ليخرج من الصالة ، وما كاد يصل الباب حتى استدار وخاطبنا جميعاً قائلاً : ان الملكة لا تعرف طبيعة مرضها فاحذروا ان يفلت من لسانكم ما يشير الى ذلك ، ثم خرج من الصالة . وما كاد يوصد بابها من ورائه حتى عاد وهو ينادي كلبه الضخم ، الذي لم ينته بعد من شم أذيال سراويلنا واحداً بعد واحد ، وأخرجه عنوة وهو يسحبه من حلقة برقبته ، وكان يبدو على عبد الاله الاضطراب وهو يستنشق بتلاحق دخان سيكارته .

لم تكن صالة قصر الرحاب ، التي اجتمعنا فيها ، توحي بانها غير اعتيادية ، ولا هي أفضل من صالات البيوت البغدادية الميسورة الحال ، فسعتها معتدلة ، واثاثها مألوف ، وثمة صورة زيتية حسنة الصنع للملك علي (والد عبد الاله) وأخرى لأخيه الملك فيصل الأول ، وبينهما صورة لابيهما الملك حسين ، وصورة اخرى كبيرة معلقة على جدار جانبي تمثل عدداً من كلاب (الهاوند) تطارد ابن آوى وهو يعدو مذعوراً أمامها . ومن وراء الكلاب جمهرة من الفرسان على ظهور خيولهم . وتملأ معظم الجانب الأيسر من الصالة خزانة كبيرة صفّت على رفوفها كتب عرفتُ من بينها الموسوعة البريطانية ذات الغلاف الازرق الجلدي الثمين ، والى جانب الخزانة صندوق خشبي دقيق الصنع وقد رفع غطاؤه فبدت بعض الشيء اعناق قناني المشروبات المختلفة .

لم يطل النقاش في موضوع الملكة المريضة ؛ فعِلّتها قد شُخِّصَتْ في لندن ، لذلك اقتصر نقاشنا على ما يجب ان نعمله لراحتها وتخفيف الآلام

التي لاتنفك تداهمها بقسوة . نُسّب في هذا الاجتماع ان اكون (أنا) دوماً في قصر الزهور حيث تسكن الملكة المريضة لالبي طلباتها العاجلة .

لم اكن حتى ذلك اليوم قد رأيت الملكة المريضة ، وكل ما عرفته عنها وعن مرضها كان نقلاً اليّ من الدكتور دكسن فرث . وفي اليوم التالي إتصل بي هذا الطبيب وحدد موعداً لياخذني الى الملكة في قصر الزهور ، ويقدمني اليها كطبيب خلفاً له بعد ان يغادر الى لندن بعد يومين . كانت الساعة الرابعة بعد الظهر حينما وجدت الدكتور دكسن فرث ينتظرني عند جسر الخر من طرفه الثاني . وحين تبعته الى المنعطف الذي يؤدي الى قصر الزهور أوقفني رجل بهيئة فلاح وطلب مني ان اسلك الطريق الايمن لاصل الى المدخل الخلفي للقصر ، وهو اجراء حدث بعد عودة الملكة من لندن لابعاد أصوات السيارات التي تصل الى باب القصر الرئيس ، أو تغادره ، عن مخدع الملكة المريضة الذي يقع فوق المدخل الرئيس لقصر الزهور . وقد ظهر لي القصر ، وأنا أدرج في هذا الطريق ، بسقوفه القرميدية الحمراء وسط غابة تشكو الاهمال والعطش . وفي طريقي شاهدت بستانياً يعتدل واقفاً في مكانه ليرقب سيارتي وأنا اقودها ببطء . كما شاهدت بستانياً آخر قريباً منه ينحني على حزمة من الاغصان الجافة ، يلّمها بيده ويرصّها بركبتيه على الارض . وحين وصلت باب القصر الخلفي ، وهو المدخل الى مطبخه أيضاً ، الفيت الدكتور دكسن فرث في انتظاري ، فلما صرت الى جانبه تقدمني بخطى بطيئة الى داخل القصر لنجتاز صالة صغيرة صفّت على جوانب ثلاثة منها أرائك بدا لي قماشها باهتاً أو عتيقاً . وفي وسط هذه الصالة طاولة مستديرة عليها وعاء بلوري مليء بزهور طريّة . ولما اجتزنا هذه الصالة دخلنا دهليزاً قليل الاضاءة تنفذ الى جانبه الايسر أبواب ثلاثة غير متقاربة ، ومن جانبه الأيمن باب وسيع عرفت بعدئذٍ انه الباب الذي ينفتح على قاعة العرش .

■ مقابلة الملكة المريضة

لقد بدا ما شاهدته الى الآن من قصر الزهور كئيباً أو مهجوراً ، فلم أر في الصالة التي اجتزناها ، ولا في الممر ، من يقودنا الى السلّم الذي يوصلنا

الى الطابق الثاني من القصر . حيث حجرة الملكة المريضة . وبدا لي ان الدكتور دكسن فرث كان يعرف طريقه الى الملكة مثلما كان يعرف الطريق الذي يجب ان يسلكه الى المدخل الخلفي للقصر دون ارشاد من أحد . فقد تقدمني بثقة الى السلم العريض المرمري المقابل للمدخل الرئيس للقصر . وعلى ناصية السلم العليا صورة الملك فيصل الثاني في صباه والى جانبه الكلب الضخم الذي رأيته قبل يوم في قصر الرحاب .

كانت حجرة الملكة عالية على يسار نهاية السلّم ، وكان بابها مغلقاً الإ قليلًا . ولما نقر الدكتور دكسن فرث على الباب باصبعه ، طلعت علينا سيدة ملوّنة في عقدها الرابع أو الخامس من العمر ، ووسعت لنا فرجة الباب وهي تقول بلهجة لا تبدو عراقية : تفضلوا .

كان واضحاً ان الملكة قد أُخطرت بحضورنا الى القصر ، وأنها تترقب مثولنا أمامها بين لحظة وأخرى . كانت مستلقية في سريرها حين ولجنا حجرتها . وعلى وجهها ارتياح مصطنع . قلت لها : صباح الخير ستي الملكة . وشعرت حالًا اني اخطأت في هذه التحية فقد كان الوقت يقرب من المساء . اما الملكة فقد ابتسمت بغير تكلف وقالت لتسترخجلي : لا بأس ، فكل النهار في نظري صباح : وهنا قال الدكتور دكسن فرث يخاطب الملكة : انه الدكتور السامرائي ياصاحبة الجلالة ، فقالت الملكة : سمعت عنه قبلًا . واردفت وهي تلتفت نحوي : أهلًا دكتور كمال . وبسطت يدها اليمنى اليّ ، فصافحتها بحياء واهتمام وانا أشعر بارتياح مفاجىء إذ خاطبتني باسمي الاول ،

وتحوّل دكسن فرث نحو منضدة عند رأس سرير الملكة ، وصار يمر باصابعه على عدد من القناني التي صفت عليها . ففهمت انه يريد ان يعلمني بصمت ان ما على هذه المنضدة هي الأدوية التي ساحتاج اليها في معالجة الملكة بعد مغادرته العراق ، كانت تلك الأدوية انواعاً من العقاقير المقويّة للبدن والمسكّنة للآلام ، وجميعها مالوفة عندي ، فلم اعلق أو استفهم عن أحدها . وانتهت هذه الزيارة القصيرة بعد دقائق ، وانسحبت من حضرة الملكة وراء دكسن فرث وانا اقول لنفسي : ان قصر الزهور هو الملكة عالية ، وكلاهما في دور الاحتضار .

/

في مساء اليوم التالي أخبرني دكسن فرث تلفونياً ان ثمة تغييراً طرأ على نهج خدمة الملكة ، وبموجبه سيبقى هو في بغداد بناء على طلب الامير عبد الاله ، وساسكن أنا في قصر الزهور كطبيب ثانٍ الى جانبه لخدمة الملكة . وهذا ما حصل . فالتزمت مقامي في الطابق الأرضي حيث رتّبت لي حجرة مريحة فلا أصعد الى الطابق الأعلى إلا اذا طلب الي ذلك . وعموماً ، كانت طلبات الملكة مني بسيطة لا تتعدى الاستشارات الطبية العابرة . أما التي اكثر من ذلك فيضطلع بها دكسن فرث . وكنت انسحب من حضرتها حالما انفّذ طلباتها ، مالم تطلب مني خلاف ذلك فاذا سألت « عزّة » ان تاتي بكرسي الى جانب سريرها أفهم حينذاك أنها ترغب ان امكث الى جانبها لتتحدث معي . وعزة هذه ليست بنت الملك فيصل بل هي ربيبة أم عبد الاله ،وهي التي فتحت لنا باب حجرة الملكة حين زرتها مع دكسن فرث لأول مرة .

لا اذكر ان الملكة اشارت يوماً الى طبيعة مرضها ، أو استفهمت مني عنه . وفي ظني انها كانت تعرف ذلك ، فتعّبر عن مصيبتها بتكرار الاستغفار من الله والحمد له ، كما لا اذكر يوماً خرجت فيه عن شخصيتها المالوفة حتى وهي في أشد نوبات الألم . وكانت المسكنات في ايامها الأخيرة قد فقدت مفعولها ، فتطلب منا احياناً أن نتركها وحدها في هذه الحالة . وكانت تحصر حديثها حين يكون ألمها طفيفاً في شؤون ابنها الملك فيصل الثاني ، وفي موضوع الحديقة والاعتناء بتنسيقها والاهتمام بسقيها . قالت لي ذات يوم : سمعت انكَ تعنى بجني الورود : كان الكلام يتعبها فتنطق بتقطع وقد تكمل العبارة بحركة من يدها . هل في حديقتك وردة « الاميرة » فلما اجبتها بالنفي قالت : ان أصل اسم هذه الوردة الجميلة « انثينا » وأنا التي اطلقت عليها اسم « الأميرة » لنظارتها وكبريائها ، وقد ادخلت بغداد وطلبت من امانة العاصمة ان تعمّمها بين هواة الورود . واستراحت لحظة ثم قالت : وأنا أيضاً ، ادخلت وردة « ذي كنك » وسميتها « سلطان الورد » كانت الملكة تهوى الكلام عن الورود ، فتابعت تقول : ان « سلطان الورد » هي الوردة الوحيدة ذات العطر القوي ، ويزداد أريجها في الظل وفي الليل أيضاً .

ذات يوم كنت الى جانب الملكة المريضة وسمعنا طلقات نارية غير بعيد عن القصر . وبدا لي ان ذلك كان مألوفاً عند الملكة فقالت لي : انه فيصل يتمرن على اصابة الهدف . وفاجاتني بسؤالها : كيف ترى فيصل يا دكتور ؟ فقلت لها : يحفظه الله تعالى انه خير خلف لخير سلف . فقالت بلغة بغدادية :الله يسمع من (حلكك) . ثم سألتني : هل رأيت كتابه ؟ فقلت لها : اي كتاب ياسيدتي ؟ قالت : انه يؤلف كتاباً بعنوان « كيف تدافع عن نفسك » وقد زينه برسوم عملها بيده ، ويأمل ان يطبعه . . ثم سكتت قليلًا لتقول : ان الكتاب باللغة الانكليزية . أما أنا فلم أر الكتاب إلا ان الملك فيصل كان يشير اليه اثناء الحديث في مجالسنا أو اثناء تناول العشاء .

وسألتني الملكة عالية يوماً : هل تدخن ؟ فأجبتها : نعم ياسيدتي . فقالت : ان أمي تدخن ، وأخي عبد الاله يدخن بنهم ، أما أنا فلا احتمل شم رائحة الدخان . فحسبت هذا الذي قالته الملكة اشارة اليّ ان لا ادخن في حضرتها ، وما كنت أجسر اصلًا ان افعل ذلك . ومع هذا صرت لا ادخل حجرتها الا بعد ان افرغ جيوبي من كل أثر للسكائر بما في ذلك علبة الكبريت .

كانت الملكة عالية ذات حلاوة في خلقتها وخلقها ، وفي نطقها وتحدثها ، باسمة دوماً ، ولا تنسى قط ان تشكر من يقدم لها خدمة مهما كانت ضئيلة . كما كانت عطوفة على الفقراء .

ذات يوم سألتني الملكة : هل رأيت عمي الملك عبد الله ؟ لقد جاء ليراني . وما كنت اعلم انه في بغداد ، فأجبتها : كلا ياسيدتي . لم اتشرف بمقابلته ، فقالت : سأطلب من تحسين قدري ان يرتّب لك مقابلة معه . وفي مساء اليوم نفسه أخبرني تحسين قدري ان اكون جاهزاً في اليوم التالي لزيارة الملك عبد الله . ثم اردف : في الساعة الرابعة عصراً . وقال أيضاً : ان الملك عبد الله يعرف الدكتور الوتري وسأخبره ان يكون معنا في زيارته . وقبل الساعة الرابعة كنا في دار صغيرة متواضعة ذات حديقة كبيرة مهملة ، ربما كانت تسمىّ (قصر الملح) . واستقبلنا شاب انيق في العقد الثالث من عمره وهو يقول : مرحباً ، ان جلالة الملك في انتظاركم ، وسأخبره بحضوركم حالًا .

كان الملك عبد الله واقفاً وسط غرفة غير كبيرة ، غلّفت واجهتها بالواح خشب الساج عدا الموقد الانيق المحدد بقطع من القاشاني ، مرصوفة بذوق وموازنة . وكان الموقد مليئاً بأعواد الأشجار المقطوعة باعتناء ، ولم تكن موقدة .

بسط الملك عبد الله يديه نحوناً قبل ان يرحب بنا ، ثم قال : مرحباً بالحكماء يا مرحباً .

كان لمظهر الملك عبد الله طابع ديني برأسه الحليق وعمته البيضاء وعذبتها الرشيقة . وكرّر ترحيبه بنا وهو يقول : تفضلوا ، مشيراً بيديه الى اريكة الى جانب كرسي منفرد . ولما انتظرنا جلوسه على ذلك الكرسي قال بتودد : تفضلوا ياأخواني . . تفضلوا ارجوكم . وعاد يقول : قهوة مرّة ، أليس كذلك ؟ ودخل شخص غير الذي استقبلنا عند باب هذه الدار وهو يحمل فناجين القهوة ولم يكن الملك قد طلبها بعد . وبعد برهة سأل الملك الدكتور الوتري : هل لا تزال الملاريا والبلهارزيا منتشرة في العراق ؟ ولما نفى الدكتور الوتري ذلك قال الملك : الحمد الله . ثم عاد يسأل : حتى في جنوب العراق ؟ فأكد الوتري على ذلك بتحفظ . ثم قال الملك : ان الرجال والنساء في الأردن يعمرون ، ومن تجاوز المائة كثيرون . ثم تابع ذلك يقول : هل تعتقدون ان البيئة لها دخل في هذه الظاهرة ، أم العنصر ؟ ففي الاردن كثير من غير العرب دخلوها منذ الحرب العالمية الاولى . ثم قال : ارى ان هذه الظاهرة تستحق الدراسة .

كان الدكتور هاشم الوتري دوماً قليل الكلام او المبادرة الى طرح موضوع يدفع الجالسين الى التحدث فيه . كما كان الملك في هذه المقابلة يلاحقنا بالملاحظات والاسئلة دون ان ينتظر منا الاجابة أو التعقيب ، وكانت اسئلته موضوعية تجذب النظر حقاً .

سأل الملك الدكتور الوتري : قل لي ياحكيم . . ما هي هواينك بالاضافة الى ممارسة الطب وتعليمه ؟ وهنا ايضاً لم ينتظر من الوتري جواباً بل قال : انا أهوى القراءة ولعبة الشطرنج . والى يمين سريري المصحف الشريف والى يساره كتاب « مقاتل الطالبيين » لابي الفرج الاصفهاني ، وفي كليهما سلوى وعبر . وتذكرت حالًا وأنا مازلت بحضرة الملك عبد الله ماسمعته يوماً من عبد الاله ، وكان يومئذٍ جالساً الى جانب الدكتور الوتري في حفلة لكلية الطب بقاعة السينما . كان الوتري طبيب

الملك علي وسمعت بعضاً مما دار بينهما من حديث . قال عبد الاله : ان اباه الملك على كان يحتفظ دوماً بمصحف « عثمان » الى يمين سريره ، وبكتاب « مقاتل الطالبيين » الى يساره ، وها أنا أسمع من الملك عبد الله ماسمعته عن الملك علي على لسان ابنه عبد الاله ، فهل ان ذلك مصادفة أم تقليد بين كبار الأسرة الهاشمية ؟ وفي تلك اللحظات رنّ جرس التلفون الذي كان بمحاذاة كرسي الملك عبد الله فتناوله دون ان يتحرك من مكانه ، وسمعته يردد بشيء من الهلع : وماذا قال الطبيب ؟ لا بأس ، ابق معها والدكتور هاشم الوتري وكمال السامرائي معي .. هل تريد الدكتور الوتري ؟ طيب .. طيب .. سلامات . واعاد سماعة التلفون الى مكانها ،

والتفت الينا قائلاً : الملكة أم عبد الاله اغمي عليها . وبعد لحظة ارهاق ؛ ساعدها الله . ثم قال : كنت اتوقع ان ياتي عبد الاله وانتما معي ، لكنه اعتذر كما سمعت بسبب هذا الحادث . وسكت لبمول : ان الله مع الصابرين لابد لي من رؤيتها اليوم لانني ساعود الى عمان غداً صباحاً . ورأينا ، بعدما سمعنا ما حدث ، ان ننهي زيارتنا للملك عبد الله ؛ فودعنا الملك واقفاً ، وعاد يقول بتكرار : مرحباً .. يامرحباً .

* * *

واسم أم عبد الاله « نفيسة » وهي ابنة أحد اشراف مكة ، ذات حجم صغير وبدنٍ نحيف وسحنة سمراء يستشفّ منها حزن دفين . وهي تدخن سيكارة رفيعة اسمها « غازي » تضعها بعجلة وتوتر في مبسم غير قصير ، ثم تدفعها بعجلة ايضاً بين شفتيها . وهي تبدو صارمة دوماً ، ونطقها ذو رنّة آمرية ، إلا مع حفيدها الملك فيصل الثاني فهو يلين بتعاطف وعذوبة .

الملك فيصل الثاني قصير القامة باسم الطلعة ، وجرس نطقه رجولي بالنسبة لعمره ، ويتكلم الانكليزية بطلاقة وبنطق سليم القواعد ، وهادىء بلا تكلّف ، وظريف في حديثه وفي محادثة جلسائه . وأحب هواياته اليه استعمال السلاح ، والكلام عن ميكانيكية السيارات . وقد يذكر خالاته باسمائهن اذا اقتضت المناسبة أما عن امه الملكة عالية فلا اذكر انه أشار اليها من قريب أو بعيد ، وربما كان يتحاشى ذلك لكونها مريضة وموضوعها يؤلمه ، وخالته الاميرة عابدية عانس في العقد الرابع أو

الخامس من عمرها ، قريبة الشبه من أمها ، وهي مثلها ، قليلة الكلام أيضاً ، وملتصقة دوماً بالملك فيصل للعناية بحجرة نومه وشؤونه الخاصة في القصر .

أما خالته « بديعة » ففي نحو الثلاثين من عمرها ، ذات وجه سمح وعينين ضاحكتين براقتين ، وكنت طبيبها اثناء مرض الملكة ، وبعد وفاتها أيضاً وطيباتها علي كثيرة ، وكذلك زوجها الشريف حسين ، الجم التواضع والأدب .

والاميرة جليلة أصغر خالات الملك فيصل ، وأجملهن ، وادقهن عوداً ، وهي زوجة أحد أقاربها الذي عاش في استنبول ، وينطق العربية بتعثر . وكان في قصر الزهور لا أراه إلا نادراً ، ويكون ذلك في معزل عمن في القصر من الاميرات والأمير عبد الاله ، واراه أحياناً (يرفو) جورباً في يده فينظر اليّ بعين خفيضة فاستغرب من ذلك اشد الاستغراب . كما كنت اراه احياناً بصحبة الدكتور توفيق رشدي في الردهة الثامنة وقد اسمعهما يتكلمان التركية .

أما الأميرة جليلة زوجة الدكتور حازم فلا اذكر اني رأيتها يوماً بين أخواتها الاميرات ، ثم علمت أخيراً انها مصابة بلوثة عقلية وقد نصح الاطباء أهلها ان يراقبوا سلوكها وتحركاتها فقد تستغفلهم على عمل شنيع فتقتل نفسها او تقتل غيرها ، واحتاطوا لهذا الأمر من وجوه كثيرة ، ووضعوا قضباناً من الحديد على شبابيك حجرتها . على انها كانت دوما هادئة ومستسلمة وعلى ثغرها ابتسامة جامدة . ويدفعها القدر ذات ليلة ان تسكب على نفسها النفط وتشعله ، ولم يعرف بذلك من في الدار الا بعد ان انبعث الدخان من ملابسها المحترقة ولحمها المشوي .

كان الوقت في الساعة العاشرة مساءً حين كلمني أخوها الأمير عبد الاله بالتلفون ؛ ومن شدة اضطرابه لم افهم كلامه ، ولم أميز صوته ، فاستفهمت عن المتكلم ، فصاح بحدة : اختي الأميرة جليلة احترقت وسأخذها الآن الى مستشفى السامرائي ولم يزد على ذلك .

ودفعاً للمسؤولية اتصلت بالاستاذ « وردل » وهو خبير ، بحالات الحروق ، وطلبت منه ان يذهب حالًا الى مستشفى السامرائي لأمر مهم جداً . وبعد ساعة ، أو أكثر قليلًا ، وصل عبد الاله

وهو يقود السيارة وإلى جانبه زوج جليلة ، وفي المقعد الخلفي كان كل من أم عبد الاله والست أمة سعيد وبينهما جليلة المحروقة ، وقد نزلت جليلة من السيارة بغير مساعدة كبيرة . كانت الحروق تغطي اكثر جسدها ، من الرأس الى القدم ؛ ومع ذلك لم تفارق الابتسامة الجامدة فمها وهي تنظر الينا بمزيج من البلادة والخجل والاعتذار . وفي اليوم الثاني ، ظهراً فارقت جليلة الحياة بهدوء ، وأمها تنظر اليها بعينين جامدتين ، وشفتاها تختلجان ، ثم سقطت مغمية على صدر ابنتها الميتة ، فاحتضنها ابنها عبد الاله وساعدته انا على حملها الى خارج الغرفة حيث اودعناها الى الدكتور « هاريكريفز » ليتولى اسعافها ، وعاد عبد الاله الى اخته المسجاة في سريرها وانحنى على وجهها وقبّلها من جبينها ، وخرج من الغرفة وهو يسأل وفي عينيه الدموع أين أمي ؟

وعبد الاله أصغر من أخته مقبولة واكبر من جليلة . في وجهه وسامة إلا اذا تبسّم ضاحكاً فتبدو ملامح وجهه مصطنعة وهو ، كما يدّعي ، أطول افراد الأسرة الهاشمية . وهواياته الأولى مشاهدة سباق الخيل ، وله ، وللملك فيصل ، مقصورة خاصة تشرف على ساحة السباق في منطقة المنصور ببغداد ، كما كان يهوى رياضة صيد ابن آوى في ضواحي بغداد أو في جزيرة « أم الخنازير » القريبة من الدورة وكان نادي صيد ابن آوى ، الذي كان عبد الاله احد اعضائه ، يقيم حفلات سنوية في بهو أمانة العاصمة المجاور لوزارة الدفاع يحضرها من ضمن المدعوين بعض الوزراء وضباط الحرس الملكي .

وعبد الاله يدخن بكثرة ويشرب الوسكي حتى تنتفخ جفونه وتحمر عيناه ، وحينذاك ينكمش في غرفته يجالس فيها ضابط الخفر بالقصر . وهو ، مثل أخواته ، يحترم أمه ويخشى سخطها ، ولا اعتقد انه يقابلها وهو مخمور ، أو في فمه سيكارة . وتصرّفه المنظور مريح ، وقد يخرج عن طوره اذا اغتاظ ، فلا يتساهل مع من يستغفله أو يغالطه . ومما يدخل بهذا المعنى ، ما حدث ذات يوم في مكتبة القصر حين كان البيطار الانكليزي الميجر جادوك والدكتور دكسن فرث يلعبان الشطرنج ، وعبد الاله يتابع اللعبة واقفاً . ففي تلك اللحظات رن جرس التلفون فرفع تحسين قدري السماعة الى أذنه . وطال الحديث بينه وبين المتكلم في الطرف الثاني من خط التلفون ثم التفت نحو عبد الاله وهو يغطي

سماعة التلفون براحة يده وقال :
جماعة يطلبون مقابلة سموكم ، عاجلًا ان أمكن ، فقال عبد الاله ، بعد لحظة تفكير : ليأتوا . وبعد اقل من نصف ساعة كان في المكتبة خمسة اشخاص عرفت من بينهم جواد جعفر وذيبان الغبّان . أما الثلاثة الآخرون فلم أعرفهم مع ان وجوههم لم تكن غريبة عني . وبعد لحظات ، والزائرون واقفون ، رفع عبد الاله رأسه عن الشطرنج وقال يخاطب جواد جعفر : تفضل استاذ جواد . . خير ان شاء الله . ما هو الامر العاجل لهذه الزيارة ؟

كان عبد الاله يعرف جواد جعفر الذي كان لمدة طويلة يعمل سكرتيراً في مجلس الوزراء ، وكان قد حدث بينهما لاحقاً خلاف على تحديد أرضيهما المتجاورتين في كرادة مريم ، فرفع جواد جعفر شكوى الى القضاء ، ثم سوّيت القضية صلحاً . قال جواد جعفر يخاطب عبد الاله : « تعرفون سموكم ان للسيد عبد المهدي خدمات كثيرة ، لسموكم ولهذا البلد ، وهو الآن موقوف في مركز شرطة الكرادة ، فلو يتفضل سموكم وتأمرون باخلاء سبيلة بكفالة . . » . وهنا قاطعه عبد الاله ليسأله : من هو الذي أمر بتوقيفه ؟ فاجابه جواد جعفر : انه حاكم الكرادة سلمان بيات . فسأله ثانية : ولماذا أمر بتوقيفه ؟

فاجابه جواد جعفر : بتهمة التحريض على قتل الشيخ « سالم الخيون » وبعد لحظات ، وعبد الاله يحدّق في وجه جواد جعفر ، قال له : استاذ جواد . . انت « شلون » تقبل ان أتدخل باختصاصات القضاء ؟ ثم أردف بغضب : اتصلوا بالحاكم بالطرق الاصولية والامر بيده لا بيدي ، ولا تجعلوني وسيطاً لكم ، لا ، هذا ما لا أعمله ، وأدار ظهره لجواد جعفر وعاد يتابع لعبة الشطرنج ، وانسحب الزائرون خارجين من المكتبة .

تقع مكتبة القصر الى يسار المدخل الرئيس للقصر ، وفي مقدمة الدهليز الذي يصل الى قاعة العرش . وهي غرفة غير واسعة تشغل وسطها منضدة قوائمها رشيقة ومزخرفة ، وخلف المنضدة كرسي يناظرها جودة ونوقاً . وعلى المنضدة تلفون احمر اللون وبعض اوراق طبع على زاويتها اليمنى شعار الدولة العراقية وعلى الجدار المقابل لمدخل المكتبة ثلاث صور زيتية ، الوسطى منها للملك حسين رأس الأسرة الهاشمية ، واليمنى

للملك فيصل الاول واليسرى للملك غازي . وتغطي ارض المكتبة سجّادة من نوع البخارى ، نحاسيّة اللون ، نفيسة الصنع لولا انها متهرئة من زاويتها اليسرى .

كنت في المكتبة وحدي ذات يوم ، فدخلها ناظر الخزينة الخاصة سعيد حقي بينما كنت أتصفح جريدة الزمان البغدادية . وكان بيني وبينه سلام وكلام منذ زمن ، قبل التحاقي بخدمة الملكة في قصر الزهور . وكان يتردد الى القصر لرؤية الملكة اثناء مرضها وقد يجيء فلا يراها ، فنجلس في المكتبة ونطرق باحاديثنا ابواباً وفنوناً كثيرة من شؤون الحياة . وقد لمست من احاديثه انه يحترم الملكة عالية ويخدمها بصدق واخلاص . كما كانت هي توليه مصالحها بثقة ، وتوكل اليه حقوقها ، بما في ذلك حصتها في معمل الغزل والنسيج المعروف بمعمل الوصي . وحين ذكر سعيد حقي هذا المعمل قال مستدركاً : ان هذا المعمل شركة مساهمة اكثر حصصها لنجيب الجادر وليس لعبد الاله اكثر من (١٫٤) بالمائة من رأس مال الشركة . أما الخزينة الخاصة فلها ٣٠ بالمائة ، وللملكة عالية نصيب من هذه الحصص الاخيرة . وتكلم سعيد حقي بتفصيلات ملكية العائلة المالكة ، ثم قال بصراحة استغربتها : ان عبد الاله لا يريده ان يدير أموال الملكة ، فادخله وزيراً للدفاع في وزارة ارشد العمري ليبعده عن الخزينة الخاصة . ثم قال : ولذلك اسباب . وسكت . ثم عاد بعد برهة يتكلم فقال : كنت مرّة ، في احد أيام الجمع ، لدى الأسرة المالكة ، وكان بين الحاضرين نوري السعيد وعبد الاله . وقد ذكر الملك غازي في هذا الاجتماع أنه يرغب في ان يكون عمه الامير زيد وصياً على ابنه فيصل فيما لو حدث له شيء ! . فلما توفي الملك بحادث السيارة ، إدعت عالية أنها كثيراً ماسمعت زوجها الملك غازي يولي الوصاية على ابنه لاخيها عبد الاله . وأيدّ نوري السعيد هذه الشهادة . ولكي تحقق عالية الوصاية لاخيها عبد الاله اتصلت بي (اي بسعيد حقي) تطلب مني ان لا أدلي بشهادتي عما سمعته من الملك غازي بشأن اعطاء الوصاية الى الامير زيد ، وان أقول كما قال نوري السعيد . وبررت تفضيل عبد الاله على الامير زيد بكونه اخاها ، وانه اعلم بامور العائلة وشؤون المملكة من الامير زيد . ثم اردف سعيد حقي : فقلت للملكة « في هذه الحال ارجو استبعادي عن اداء الشهادة لكي لا أفسد شهادتك وشهادة نوري السعيد » وكان موقفي هذا هو الذي جعل الملكة

توليني تقديراً خاصاً ، وبعكس ذلك جعل الأمير عبد الاله يمقتني ولا يرتاح اليّ .

كنا نتناول وجبات العشاء في غرفة الطعام الصغيرة المتصلة بالمطبخ . ويحضر العشاء عادة كل من تحسين قدري والدكتور دكسن فرث والمرافق الاقدم للملك اللواء عبيد المضايفي وأنا . وكثيراً ما يترأس المائدة الملك فيصل ، وحينئذ يقوم هو بملء صحوننا بالطعام ، ينقله من صحن كبير يضعه خادم المائدة في متناول يدي الملك . كما كان يطيب للملك ان ينقل الطعام الى صحوننا بالملعقة والشوكة في يد واحدة كما يفعل الندل المتمرس في خدمة الزبائن بالمطاعم الفخمة . فاذا قلت له : شكراً يا سيدي . . هذا يكفي ، قال ، وهو يضيف ملعقة أخرى الى ما في صحني : يا شيخ . . انت أكلك قليل . ولم يكن طعام مطبخ القصر شهياً بالنسبة لي ، ولا كانت الفاكهة طرّية دائماً . وبعد الانتهاء من تناول العشاء نعود الى مجلسنا في الصالة الصغيرة لنحتسي القهوة . وقد يحضر بعض الوزراء في هذا الوقت فنتحدث في أمور الحياة الدنيا ، ما خلا الحديث عن مرض الملكة ، والملك ينصت الينا أو يعقب على احاديثنا باقتضاب . وقد يحضر نوري السعيد عن طريق غرفة الطعام ، وشعره منفوش ، وبيده السدارة الممتلئة بمسدس صغير من نوع « سمث آند ويلسون » ويسأل حين يطلع علينا عند عتبة الصالة : أخباركم ياربع ؟ ويقصد بذلك صحة الملكة . فنجيبه بمثل ما نجيبه في سائر الأيام رغم انها في حالٍ أسوأ من السابق . وما يكاد يرتمي في احد الكراسي حتى يطلب كوباً من الشاي ، فلا يشربه حتى يبرد تماماً . . ولم يكن يدخن يومئذ . .

لم يكن عبد الاله يحضر مجلسنا بعد العشاء إلا اذا حضره نوري السعيد . وكان يحترمه ويحجم عن مقاطعته اذا تكلم ، ويخاطبه بلقب « باشا » دون ذكر اسمه ، بينما يخاطب الوزراء باسمائهم أو بلقب « بك » بعد اسمائهم . أما نوري السعيد فيخاطب عبد الاله بلقب سمو الأمير ويخاطب الوزراء بلقب « بك » أو « استاذ » .

* * *

كنت في صباح كل يوم انتظر الدكتور هاشم الوتري والدكتور مهدي فوزي لنضع صيغة التقرير الطبي اليومي عن صحة الملكة ، ولم يكن أي منهما قد رأى الملكة مدة مرضها . ثم نترجمه الى اللغة الانكليزية ليوقع

عليه الدكتور دكسن فرث الى جانب تواقيعنا قبل ان يذاع من الاذاعة أو ينشر في الصحف المحلية في باب « التشريفات » الملكية » .

وفي ليلة ، جرّنا الحديث الى الكلام عن تاريخ بغداد في العهد العثماني وعن الطب والأطباء في تلك الحقبة . وقال نوري السعيد فيما قال انه ، في صغره ، أصيب بحمى طالت به بضعة أسابيع ، فاستدعي له الدكتور يانقو ثم الدكتور مظفر بك ، وهما تركيان ، وكانا اشهر طبيبين في بغداد ، فلما عجزا عن ابرائه من الحّمى التجأت أمه الى عجوز من محلة الطوب تستشيرها ، فنصحتها هذه العجوز بشربة بول أم البنت ، وكان نوري السعيد يتكلم بالانكليزية ليفهمه دكسن فرث . وبينما كان يضحك وهو يسرد حكايته عن البول سأله دكسن فرث متعجباً : وهل شربت ذلك البول ياباشا ؟ فاجابه نوري السعيد ضاحكاً : لم اعرف أني شربت بولا إلا بعد أيام تالية ، حين اختفت عني الحّمى نهائياً ! وانقطع عن الضحك فجاة حين ظهر عند باب الصالة وزير الشؤون الاجتماعية ماجد مصطفى وخلفه مدير الصحة العام الدكتور هادي الباجه جي وهو يتأبط رزمة مغلفة باتقان . وقبل ان يأخذا مجلسيهما سأل نوري السعيد : ماذا تتأبط « يادكتور » هادي ، خيراً أم شراً ؟ فاجابه الدكتور هادي : خيراً ان شاء الله . وعاد نوري السعيد يسأله : وماذا في هذه « اللّفة » ؟ فقال هادي الباجي جي : انها قنينة الماء الذي طلبته الملكة من أحد أديرة باريس . في هذه اللحظة اعتدل نوري السعيد في كرسيه ، وقال له بتهكم : انت تريد ان تشفيها بهذا الماء ؟ أهذا هو طبك يا هادي ، لو تريد أهل بغداد « يدكّولي طبل » . أنا « صوفتي حمرة » ، والملكة كما قّرر الاطباء ميؤوس من حياتها . وهنا بحّ صوته وقال بحنق وغضب : سيقول « الظلّام » ان نوري السعيد جاء بسم من باريس وقتل به الملكة مثلما قتل زوجها الملك غازي .

كان عبد الاله قد اسكتته ثورة نوري السعيد على وزير الشؤون الاجتماعية ومدير الصحة العام ، فانسحب وغادر الصالة . أما دكسن فرث فبدأ وكأنه لا يفهم شيئاً مما قيل باللغة العربية ، فترك الصالة بهدوء . سألني نوري السعيد بعدها عن مختص بتحليل المشروبات ، الماء وامثاله في المستشفى ، فاجبته إنه الدكتور ملز . قال : آخبره ،

تلفونياً ، ان قارورة في طريقها اليه ، وأريد ان اعرف محتوياتها فأخذ اللواء عبيد المضايفي القارورة ، وبعد نصف ساعة تقريباً اتصل اللواء عبيد هاتفياً وقال لتحسين قدري: ان محتويات القارورة ماء قراح ، وردد تحسين قدري . هذا التقرير الشفهي ليسمعه نوري السعيد ، فقال نوري السعيد : أنا أريد هذا التقرير مكتوباً وبتوقيع « الدكتور » ملز . ثم طلب من تحسين قدري ان يتصل بالوزراء لعقد اجتماع غير عادي ومستعجل في قصر الزهور . وحضر الوزراء واجتمعوا بقاعة العرش ، وهي قاعة طويلة ليس فيها ما يجذب النظر الا ثلاثة تصاوير زيتية لملوك العراق مثيلة للصور الثلاثة التي في مكتبة القصر ، معلّقة في صدر القاعة . وهناك ست ستائر خضر تنسدل بثقل لتمس ارض القاعة . وعلى كل ستارة شعار الدولة العراقية ، أما الطاولة الطويلة التي تملأ وسط القاعة فمصنوعة من خشب الساج الداكن اللون ، وقد صفّت حولها كراسي عديدة ذوات متكآت عالية ، وعلى رأسها البعيد عن مدخل القاعة كرسي يزيّن متكأه الخلفي التاج الملكي المطلي بماء الذهب .

طرح نوري السعيد موضوع الماء الذي في القارورة والحرج في اعطائه أو عدم اعطائه للملكة . ثم قال : اترك هذا الموضوع لقراركم . ولم يطل النقاش ، فقد تقرر اعطاؤه للملكة . حينذاك أخذ نوري السعيد سدارته وغادر القاعة عن طريق المطبخ ، وهو يردد : مهزلة . . مهزلة . ولابد ان اذكر أنني لم أحضر إجتماع الوزراء الذي بحث موضوع الماء الذي وصل من باريس بل وقفت على اخباره من الدكتور الباجه جي الذي حضر الاجتماع .

* * *

بعد ثلاثة أيام ، وفي حدود الساعة الثامنة صباحاً ، استدعيت على عجل الى حجرة الملكة ، وعند بابها رأيت أم عبد الاله مضطربة ووجهها شاحباً . وفتحت لي الوصيفة عزة باب الحجرة وهي تحمل بيمينها المصحف وبادرتني بهلع : ستي الملكة ! ولم تزد على ذلك . كانت الملكة حينئذٍ في حالة بين الوعي والاغماء ، واشارت اليّ بيدها ان اقترب منها ، وقالت بصوت خافت متقطع : إنْهضني يا دكتور فعاونتني عزّة واسندناها بايدينا لتنهض على الوسائد في فراشها . وشكرتنا بعينيها ، وتمتمت بالشهادة . ثم سمعتها تقول : لا أريد ان يشهد دكسن فرث ساعة وفاتي ،

فانا مسلمة ، والله ربي ، ومحمد نبيي ، والقرآن كتابي . وفي هذه اللحظة تقيأت وقذفت ما في جوفها على صدرها ، فأخذت المنشفة التي كانت دوماً موضوعة في متناول يديها ، ومسحت بها فمها وصدرها مما سال من القيء ، ولم تنس حتى في هذه اللحظة ان تشكرني وهي في حالة شديدة من الاعياء . ثم اسدلت جفنيها برهة وهي تطلب مني ان ترى أمها الملكة نفيسة . كانت أمها عند مدخل الحجرة ، وربما سمعت طلب الملكة . فدخلت ووقفت الى جانب سريرها ، فمدّت الملكة يدها ببطء وجذبت يد أمها الى فمها وقبّلتها وجهاً وقَفاً وقالت : اغفري لي يا أمي اذا كنت قد غلطت معكِ يوماً . ولم ترد عليها أمها بل انحنت وقبلتها وانسحبت بعجل وغادرت الحجرة والدموع في عينيها وبعد ان التقطت الملكة أنفاسها طلبت مني رؤية اختها عابدية ، فدخلت ووقفت قريبة من سرير الملكة ، فطلبت منها الملكة ان تقترب منها وقالت تخاطبها : انك يا اختي كثيرة الافضال عليّ في تربية فيصل ، وأنا أطلب منك ان تبقي أمه بعد وفاتي كما كنتِ أمه دوماً ، وسكتت قليلًا لتقول : أريد أن أرى بديعة . ودخلت بديعة وقبّلت اختها الملكة . فقالت لها أوصيكِ يا أختي ان تعتني بزوجك ، فهو رجل طيب ، كما انت طيبة . وارادت ان تقول شيئاً آخر إلا ان بديعة انسحبت وخرجت متعثرة من الحجرة . بعد ذلك بدت الملكة وكأنها قد صحت من كابوس ، ودبّ فيها قدرٌ من النشاط وطلبت رؤية أخيها عبد الاله ، فجاءها ، بعجلة وقلق ، وارتمى على قدمي أخته الملكة دون ان ينبس بكلمة . فسحبت الملكة رجليها وهي تقول : استغفر الله . ورأيت عبد الاله يشير اليّ بعينيه ان اخرج من الحجرة ، أو هكذا خُيّل اليّ ، فنهضت لأخرج إلا ان الملكة اسرعت تقول : لا ، أنا أريد ان يبقى دكتور كمال شاهداً على ما أقوله لك ، أمام الله ، ثم اردفت تقول له : يا أخي عبد الاله ، كان فيصل يتيم الأب وعما قريب سيكون يتيم الام ايضاً . فعدني ان تكون له اباً وأماً لأغفر لك كل ما مضى . واراد عبد الاله ان يقاطعهما الا انها ردّته بحزم : عِدْني أمام الدكتور فهو شاهدي في دار البقاء . . عِدْني يا عبد الاله . . وكرّرت ذلك مرتين . فتمتم بالوعد وخرج من الحجرة وهي تشيعه بنظرات باردة . ثم سمعت الملكة تسائل نفسها قائلة : هل أطلب فيصل لأراه ؟ ثم اردفت : لا ، فقد يكون نائماً . وطلبت مني ان أناولها صورته الموضوعة في اطار فضي عند رأس سريرها ، فقبلّتها



بحنان ، وبسطتها على صدرها واجهشت تبكي بارتياح ؛ واعقب ذلك اضطراب في تناسق انفاسها ، وهو أول علامات الاحتضار . وبعد نصف ساعة لفظت انفاسها الأخيرة ، وكان ذلك في الساعة العاشرة والربع من صباح يوم الخميس المصادف ٢١ كانون الأول سنة ١٩٥٠ .

ولما خرجت من حجرة الملكة المتوفاة ، كان يقف قريباً من بابها كل من نوري السعيد وتحسين قدري والشريف حسين ، وناظر الخزينة الملكية سعيد حقي ، ولم يكن معهم عبد الاله . بدا لي أنهم ادركوا ما حدث للملكة من قسمات وجهي الحزينة . فلقد آلمني ان تموت الملكة عالية بين يدي فلا استطيع ان أفعل لها شيئاً .

ونزلنا بأمر من نوري السعيد الى المكتبة لنضع صيغة التقرير الطبي لسبب وفاة الملكة ، وتأريخه ، وكتبنا التقرير وختمناه بآلاية الكريمة (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضيّة فادخلي في عبادي وادخلي جنتي . .) وذّيلنا التقرير بتوقيع كل من الدكتور هاشم الوتري والدكتور مهدي فوزي ودكسن فرث وانا . ولم يكن أي من هؤلاء ، باستثناء دكسن فرث وأنا ، قد رأى الملكة طيلة مدة مرضها . وأنا الوحيد الذي رآها ساعة وفاتها . ودخل المكتبة في هذه الآونة (شخص) تقدم من نوري السعيد وقال له : خابرتُ ادارة السباق لكي توقف « هدّات » الخيل حداداً على وفاة الملكة ، فقال له : نوري السعيد ، باستخفاف ظاهر : تشكر .

وقبل ان نغادر المكتبة طلب مني نوري السعيد ان أدوّن كل ما دار من حديث بين الملكة ، قبيل وفاتها ، وبين أمها وأخيها واختيها ، ففعلت ذلك بأمانة ، وهو واقف الى جواري ، وقدمته اليه . وكنت أنا ونوري السعيد آخر من غادر المكتبة . . وكان ذلك ، أيضاً آخر عهدي بقصر الزهور ومن سكنه .

* * *

ولقد بلغني من مصادر كثيرة أن ما كتبته في مجلة آفاق عربية عن (الملكة عالية في ساعاتها الأخيرة) كان قطعة أدبية رائعة . وسمعت أحد محرري المجلة يقول ان (هذا المقال قد جدد شباب المجلة) . وقال موظف اخر من ادارة هذه المجلة : ان العدد الذي نشر فيه هذا المقال كان الوحيد الذي لم تعد منه الى الادارة قط نسخة واحدة فقط .

وعقب نشر ذلك المقال وصلني من رئيس دار الشؤون الثقافية العامة الكتابة الآتى .

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة

العدد ٥٢٩٧
التأريخ ١ / ٩ / ١٩٨٧ .

الى / الدكتور كمال السامرائي المحترم

م / شكــر وتقدير

تنظر اسرة مجلة آفاق عربية بعين التقدير والاحترام لجهودكم المتميزة والمسهمة في مسيرة تطورها ، ويسرها في عيد المجلة الثاني عشر ان تهديكم شكرها وتقديرها . . وتأمل ان يظل هذا العطاء متدفقاً لخدمة العراق المنتصر .

مع خالص الشكر ، ، ،

د . محسن الموسوي
رئيس مجلس الادارة ورئيس التحرير

من أحداث إقامتي بقصر الزهور
مقابلة وحديث مع الملك فيصل الثاني

قابلت صباح ذات يوم الملك فيصل الثاني في البهو الصغير الذي يفصل كريدور قصر الزهور عن مطبخه ، وكان ذلك يوم جمعة ، وأنا وحدي أجلس بارتياح في أحد كراسيه الضخمة وبيدي عدد قديم من مجلة (البيت والحديقة) الامريكية وجدته على الطاولة التي في وسط هذا البهو . ولم أشعر بمقدمه حتى صار قريباً مني ، فنهضت متهيباً واحتراماً له ، وتقدمت منه بضع خطوات لأصافحه ، وحل عقدة من لساني حين بادرني يقول

- صباح الخير دكتور

فقلت له وانا امد له يمناي لأصافحه بالتحية

- أنا ياسيدي كمال السامرائي

فأجابني

- اعرف ، وقد سألت عمن يكون في هذا البهو فذكروا لي اسمك ، فاهلا بك يادكتور كمال

كنت لا زال واقفاً فقال لي

- استرح أرجوك

ومكثت واقفاً في مكاني حتى جلس على أحد كراسي البهو القريب من مدخله ، وجلست أنا على كرسي قريب من كرسيه ، فقال لي

- مكانك بعيد عني يادكتور

فنهضت وجلست على كرسي غير بعيد عنه ، وكانت بيده ثلاث حلقات معدنية لمّاعة غير صغيرة ، تنفذ بعضها في بعض مكونة سلسلة غير طويلة لولا كبر حلقاتها . ولم أركز نظرى على هذه الحلقات بقدر ما ركزت باهتمام على معالم وجهه ، وأنا انتظر ما يبادرني به من حديث ، الا أنني ادركت حالًا ان لهذه الحلقات سراً يقصد به التسلية ، وانه لم يأت بها الىّ الا ليسألني فيما اذا استطيع كشفه .

كان وجه الملك صبوحاً وضّاءً باشاً ، لكنه في الوقت نفسه لا يخلو من مسحة حزن جذورها دفينة في صدره ، وانقطع تفكيري بملامح وجهه حين سألني وهو يمد يده نحوي بالحلقات الثلاث ويسألني ،

- جرب ان تفصل هذه الحلقات عن بعضها البعض

فقمت عن مكاني وأخذتها من يده ، وشرعت انظر اليها باهتمام وتفحص ، ثم حاولت فكها ولكننى أخفقت ، كما قررت حالًا انها مصنوعة للتسلية وخداع من يظن انها قابلة للانفكاك وهي غير ذلك ، فقلت له .

- لا اظن ياسيدي انني استطيع فصل هذه الحلقات عن بعضها البعض

وسألني

- قد لا تستطيع ذلك ، ولكن هل تظن انها قابلة للفصل ؟

فعدت انظر اليها مجدداً ، وأحاول فصلها ، وما لبثت ان قلت

- انها غير قابلة للانفصال ياسيدي

فأخذها الملك من يدي ، وبثلاث حركات أو أربع صارت كل حلقة منها

منفصلة عن الاخرى . ولابد ان التعجب بدا على وجهي حينذاك ، أما جلالته فلم تبد على وجهه البهجة بالنصر في فصل هذه الحلقات . وقال وهو يقدم لي هذه الحلقات

- خذها يا دكتور فعندي واحدة أخرى مثلها ، واطلب من اصحابك فصل حلقاتها

فأخذتها من يده وانا أحاول ان أظهر أمامه في غاية الامتنان منه . وبقيت واقفاً وأنا اظن انه لم يأت الى هذا البهو الصغير الإ ليريني هذه اللعبة ، وانه سيغادره بعد الانتهاء من عرضها عليّ ، فلما قال لي استرح يا دكتور عرفت حينئذٍ انه جاء أيضاً ليتحدث اليّ عن أمه الملكة المريضة الراقدة في حجرتها فوق البهو الذي نحن فيه ، فعدت حسب طلبه أجلس على الكرسي الذي كنت أحتله . وقال بعد لحظات صمت وهو يشير الى المجلة التي كانت بيدي

- غريب كم تكون صور البيوت أجمل من حقيقتها ، بعكس الحدائق فانها تبدو أجمل من صورها (واردف يقول) ان اكثر المعالم التي تعطى الهوية الحقيقية هي التي في الوجه البشري ، وان العين في صور الوجه هي ابرز معالمه ثم يليها الأنف

وكانت اشارته الأخيرة قد لفتت نظري الى منخريه الضيقين بدرجة ملحوظة ، فايدت ملاحظته حالًا ودون تفكير .

وتوقعتُ بعد ملاحظاته عن الصور ان يتطرق الى حالة أمه الملكة عالية ، بل اني اعتقدت انه ما جاء اليّ إلا لنتحدث عنها ، غير انه لم يفعل ذلك باي قدر ، وطبيعي ان لا يكون ذلك اهمالاً منه ، بل تعمداً وقد تكون حالتها المرضية لها علاقة بظواهر الحزن الذي يلوح دوماً على وجهه ، أو يكون له علاقة بمصرع أبيه الملك غازي ، أو بكليهما معاً . .

وعاد الملك يتكلم عن المجلة التي كنت أعدتها على الطاولة فقال لي وهو يتهيأ لمغادرة البهو :

- سابعث اليك اعداداً جديدة من هذه المجلة .

فقمت له ، فقال لي :

- استرح يادكتور في مكانك

وغادر البهو بمثل الهدوء الذي فاجأني به حين ولج البهو ، وخلف وراءه هالة من الشخصية فرضت عليّ ان أزيد من حبي له ، فضلا عن

الاحترام الذي تهتز له مشاعري بلذة . لقد طغت هذه المقابلة القصيرة مع جلالته على جميع مقابلاتي الأخرى معه وكانت اكثرها عابرة إلا حين يترأس مائدة العشاء فيملأ بيده صحون من يشاركه المائدة ، وكنت أبداً واحداً منهم ايام مرض امه الملكة عالية .

الاميرة بديعة ومولودها البكر / نيسان ١٩٥٠

كنت أتولى العناية بالأميرة بديعة زوجة الشريف حسين حين كانت في الاشهر الثلاثة الأخيرة من حملها البكر ، أما في الاشهر قبل ذلك فكانت برعاية الدكتور العسكري (دكسن فيرث) احياناً واحياناً آخرى برعاية الدكتور (انتوني جارلس) حين تكون الأميرة في لندن .

وفي الشهر الأخير من حملها فحصتها مرتين ، فكان رأس جنينها في الاسبوعين الأخيرين منحشراً في مدخل حوض أمه ، كما كان ضغط دمها طبيعياً ، وكذلك ضربات قلب الجنين . . كما كانت صحتها العامة جيدة ، أما حالتها النفسية فلم تكن مثل ذلك بسبب وفاة أختها الملكة عالية قبل بضعة أسابيع . كانت حزينة وقلقة ومرتابة من طبيعة ولادة جنينها واحتمال تعسّر ولادته وحين آن مخاضها كما سبق ان حسبته كلمتني تلفونياً السيدة (أمة سعيد) ان أحضر الى قصر الزهور لفحص الأميرة . فتوجهت حالًا الى القصر ، وارتقيت السلم المرمري الوسيع الى الطابق العلوي حيث حجرة الأميرة بديعة ، فاستقبلتني بنفسها عند باب حجرتها وهي تقول بابتسامة خفيفة

- حان الوقت يادكتور ، وهو اليوم الذي حددته انت للولادة . فقلت لها :
- دعيني افحصك ياسيدتي الأميرة

وكان الطلق حقيقياً لا كاذباً ، واثناء ذلك انفتح باب الحجرة لتدخل امها الملكة نفيسة ، فسألتني

- ولادة يادكتور ؟

فأجبتها :

- نعم ولادة ياستي الملكة
- تريد شيئاً نستحضره ؟

- لا ياسيدتي ، سأنتظر قليلاً ، انما أريد ان تحضر القابلة نجيبة ، وكانت (امة سعيد) تقف الى جانب سرير الأميرة فذهبت الى التلفون وطلبت نجيبة ان تحضر الى القصر

وارتأت الأميرة بديعة ان توفر لي مكاناً أرتاح فيه ،

فبادرتني تقول :

- في الحجرة الجانبية مكتب صغير للأمير عبد الإله أظنه يلائمك يادكتور لتستريح فيه

وكان هذا المكتب حجرة متوسطة الحجم تطل نافذتها الوسيعة على حديقة مهملة ، ولكنها لا تخلو من الجمال الريفي . والى جانب هذه النافذة منضدة خشبية لصيقة بالجدار وعليها عدد من الأقلام ومسطرة بلاستيكية صغيرة ، وعلى هذه المنضدة من جانبها الايمن نضد من الأوراق ، وقليل من الكتب العربية والانكليزية ، وثمة ثلاثة كراسي تحيط بمنضدة تحتل وسط الحجرة . وأخذت من على المنضدة كتاباً عربياً ، وقرأت عنوانه قبل ان ارتمي على احد الكراسي ، كان الكتاب عن بعض رجالات العرب أثناء حركة الملك حسين بقلم (لورنس) . ولم أطل القراءة فيه لانني سبق ان قرأته ، فأخذت كتاباً آخر وكان بعنوان نفح الطيب للمقرى التلمساني . وكان باب هذه الحجرة مفتوحاً فولجته سيدة نصف ملونة كانت هي نفسها (عزة التي كانت تقرأ في القرآن الكريم الى جانب رأس الملكة الراحلة عالية في ساعات احتضارها) وسألتني هذه السيدة :

- دكتور تأمر شيء ؟
- لا ، أبداً واشكرك ياست عزّة
- فاكهة ، شاي ، قهوة ؟
- اذن شا ي ان أمكن

وسمعت اثناء ذلك صوت القابلة نجيبة عبد الاحد وهي تكلم الأميرة بديعة ، فارتحت لذلك ، وكانت قد دخلت لتوها حجرة الأميرة .

وما لبث الطلق الضعيف ان ازداد بسرعة غير مألوفة ، وعلا صراخ الاميرة بالألم منه . ودخلت اثناء ذلك الملكة الأم الحجرة التي أجلس فيها وفي يمناها المصحف الكريم ، فقمت لها ، وسألتني :

- كم تطول الولادة يادكتور كمال ؟

فأجبتها :

- هي بكر، والمهم ان كل شيء طبيعي، والاوجاع لابد منها .
فقالت وقد عاد وجهها الى ذلك الوجه الحزين المتألم ساعة توفيت ابنتها الملكة عالية، وتمتمت تقول :
- الله أرحم الراحمين
وفي اثناء ذلك سمعت صرخات من الاميرة بديعة وأنا عليم بمدلولها فقصدت حجرتها . فاذا (جيب المياه) قد تمزق، وبان بعض من شعر الجنين في حلقة المسلك الولادي الخارجية . فدهشت من تقدم رأس الجنين بهذه السرعة، وهو مالا أرتاح اليه في كثير من هذه الحالات الولادية، فقد تتمزق انسجة تلك الحلقة الرقيقة الرخوة عند انطلاق الرأس من بينها . فوقفت الى جانب القابلة نجيبة وطلبت منها ان تقاوم براحة يمناها اندفاع رأس الجنين المفاجىء . وبعد دقائق انقذف الجنين الى الخارج، غير انه ظل مسترخياً شاحب اللون دون ما سبب ظاهر، إذ اني لم الحظ عليه من علامات التعب اثناء الطلق، ولا كان الحبل السرّوي ملتفاً حول عنقه، ولا اندفعت مع رأسه مادة العق التي تدل احياناً على تعب الجنين حتى لو كان معتلناً برأسه . وصرت استعرض هذه الاسباب بسرعة لا تقاس بزمن، وغامت الدنيا في عيني لحظات، حتى صرت اسمع ضربات قلبي في أذني لا في صدري . ومما زاد من اضطرابي وخوفي حين جاء زوج الأميرة جليلة (الدكتور) حازم وحشر رأسه فيما بيني وبين القابلة نجيبة وهو يسأل عن الطفل بهلع
- ميت ؟
والدكتور حازم لا يعرف شيئاً عن الطب الولادي . وقد تكون الملكة الوالدة هي التي طلبت منه ان يدخل حجرة الأميرة النفساء ليستطلع سبب هدوء عاصفة الولادة، وهدوء من في الحجرة جميعاً . وقد أخافني هلع الدكتور حازم وانساني كل معلوماتي في تدبير الولادة وفي حالة الوليد لحظات ولادته . وجاء الفرج حين عطس الوليد، وحين صرخ غاضباً وكأنه ينقد تشاؤمنا دون سبب . وكان الوليد ذكراً تام الخلقة نشط الحركة والتنفس والحمد لله . وعدت الى حجرتي المجاورة التي هي مكتب الأمير عبد الإله، فوجدته واقفاً يتطلع من خلال النافذة الى الحديقة، فلما احس بدخولي الغرفة إستدار نحوي، فقلت له :
- الحمد لله على سلامة الأميرة ووليدها الصغير ياسمو الأمير

فقال لي :
- اشكرك يادكتور ودفع الله ما كنت أخشاه فلسنا نحتمل مأساتين في سنة . ثم اخرج من جيب سرواله الخلفي علبة سكاير من الذهب وقدمها لي وهو يقول :
- اعرف انت تدخن ، وبداخلها بعض السكاير التي تدخنها ، (واضاف) افتحها ، واعطني سكارة مما فيها ، وخذ أخرى لك . هيا دخن يادكتور فانت لا تقدر كم أديت لنا من خدمة ، جزاك الله خيراً .

الدكتور ماكس ماكو فسكي والدكتور ماكس كروباخ / ١٩٥١

وكلاهما ممن هرب من جور (هتلر) قبل اشتعال الحرب العالمية الثانية ببضعة أشهر حين سدّت الحدود بوجه من يغادر المانيا من اليهود . وماكس ماكو فسكي قصير القامة ، حنطي السحنة ، وأسود الشعر ، ويتكلم العربية برطانة واضحة . أما زوجته الحسناء فذات بشرة وردية صافية ، وشعر كثيف بلون الذهب . وهي التي تسوق سيارتهما بين بيتها وبين عيادة زوجها في شارع المتنبي ، بينما زوجها يجلس الى جانبها منتفخ الأوداج . وقد عرفت ماكس ماكوفسكي من خلال المرضى الذين يطلبونني لاشاركه في معالجتهم . وقد عرفته في هذه المناسبات انه قصير النظر بالرغم من عويناته السميكة . ولم تكن معلوماته الطبية بمستوى سمعة الطب الالماني الرنّانة . وعرفت منه انه عمل قبل مجيئه الى العراق في بعض مدن جنوب جزيرة العرب ، وحكى لي ذات يوم انه طلب لفحص مريض في قرية قريبة من صنعاء فذهب على ظهر (حصان) ثم إستدرك وقال : لا على ظهر (خمار) ثم استدرك بعصبية وقال : لاخصان ولا خمار ، وضاع عليه ان يتذكر أية دابة امتطاها الى القرية ، فقلت له : هذا لا يهم ، فماذا بعد ان وصلت الى القرية ، فقال لي : ووجهه خالٍ من اي تعبير
- كان المريض حين دخلت الى مخدعه ، قد توفي ، فعدت ادراجي الى صنعاء على ظهر .. وقال بحماس (تذكرت) على ظهر (بغل) .

وغادر ماكس ماكو فسكي العراق اثر ثورة سنة ١٩٥٨ ولم تغادر

صورة زوجته الجميلة أحلام بعض معارفها في بغداد. أما ماكس كروباخ، فكان على الضد من صنوه ماكو فسكي، كان أطول منه قامة، كستناني الشعر، واكثر علماً كذلك. وقد دخل العراق بعد ماكس ماكو فسكي بسنوات عديدة، كما اشتغل في بعقوبة مدة، وبعدها عمل طبيباً في مستشفى (مير الياس) ببغداد حين التقى رئيسة ممرضات هذا المستشفى (رينة اسحاق) فصارت بينهما علاقة وثيقة استطاعت رينة ان تقنع ماكس كروباخ على انشاء مستشفى خصوصي بتمويل من التاجر عباس التميمي. فاسسا المستشفى باسم (مستشفى التميمي)، وبعد نحو اسبوع ابدل الاسم الى (مستشفى العلمين) (وقد مرّ ذكر كل ذلك) وبقى بهذا الاسم الأخير حتى يوم أغلق المستشفى إثر وفاة ماكس كروباخ. كما نجحت رينة اسحاق في ايقاع ماكس كروباخ في حبائلها فتزوجها سراً بالرغم من أنهما كانا يعيشان معاً في حجيرة واحدة في ملحق بهذا المستشفى: ومضت سنتان ولم تنجب رينة من هذا الزواج فسافرت الى لندن وراء العلاج، وهي لا تقتنع ان عمرها الذي تجاوز منتصف العقد الخامس، هو سبب عدم الانجاب

وكان لماكس كروباخ مرضى لا يحصى عددهم، ومن جميع شرائح المجتمع البغدادي. وكانت معلوماته في الطب واسعة، كما كان يتتبع التطورات التي تدخله في شتى اقطار العالم الأوربي والأمريكي، غير أني استغربت ذات يوم الى حد العجب حين طلب منه ذوو مريضة ان يدخل صالة العمليات ويتابع خطواتي في عملية على احدى ذويهم، فاذا هو يوليني ظهره ويقف عند نافذة الصالة وينظر الى حديقة المستشفى التي الى جانب صالة العمليات، وحسبت سبب ذلك عدم اهتمامه بموضوع جراحي ليس من اختصاصه، أو انه يثق بما اعمله بهذه العملية ولا ضرورة لمراقبتي في خطواتها. غير انه عرفت من (رينة) انه لا يستطيع سماع الادوات الجراحية أو الكلام عنها اثناء العملية. ومما يلحق باخبار الدكتور ماكس انني ذات صباح مررت بمدخل معرض فتاح باشا الذي احتل مكان (بنك دي روما) عند مدخل شارع السموأل من جانبه الايسر، فرأيت الدكتور ماكس متكئا على باب مدخل المعرض فحييته كما يجب، غير انه لم يستجب لتحيتي، واكثر من ذلك فقد بدا على وجهه الاستغراب والانكار، فقلت له :

- ما بك ياماكس ، الا ترد على التحية
حين ذاك ابتسم وقال لي :
- انت واهم ياسيد ، فانا مايكل كروباخ مهندس بمعامل فتاح پاشا ، وأخو ماكس كروباخ ، ونحن توأمان .

وحين كنت في مستشفى العلمين نقلت الى الدكتور ماكس ما حدث لي مع أخيه عند مدخل معرض فتاح پاشا ، فقال لي وهو يضحك :
- نعم ، هو أخي التوأم (ثم اضاف يقول) وقد حدث لي ما يشبه ما حدث لك حين كنت في بعقوبة . فقد طلبت اجازة يومين من رئيس صحة اللواء الدكتور صائق علاوي لاذهب الى بغداد ، فطلب مني ان احمل معي سلّة من البرتقال الى أخيه الدكتور هاشم في وزارة الصحة ببغداد ، وبعد ساعة كنت في الوزارة ودخلت غرفة أخيه الدكتور هاشم فإذا الدكتور صائق علاوي أمامي فذهلت لهذه المفارقة فقلت له بتعجب
- كيف يادكتور صائق انت هنا وقد فارقتك في بعقوبة قبل ساعة ، فادرك وقوع الاشتباه وقال لي : بل أنا الدكتور هاشم علاوي والدكتور صائق أخي التوأم .

* * *

وفي صباح يوم باكر نادتني تلفونياً الدكتورة (فرحة) أخت رينة ، وهي تصرخ باعلى صوتها ، فقلت لها تكلمي بهدوء لأفهمك يا فرحة فقالت :
- ماكس مغمى عليه في فراشه فتعال ، ارجوك بسرعة . فقلت لها :
- اطلبي الدكتور كرجي ربيع وأنا سأتوجه حالًا اليكِ .

ووصلت فعلًا الى بيت كروباخ ، ودخلت مخدعه ورأيت أباه يقف على رأس ابنه ماكس وهو يهز جذعه ويدندن بصلاة عرفت انها باللغة العبرية . كما لاحظت حالًا انه قد بال على سرواله فانحدر البول على طوله الى الارض ، وكان ماكس قد فارق الحياة وهو يحاول النهوض من فراشه فصارت رجل منه على الارض وبقيت الرجل الأخرى في فراشه . وحضر في هذه اللحظات الدكتور كرجي ربيع فتعاونت معه على وضع ماكس في فراشه واسدلنا عليه غلة كانت عند قدميه . ولم ابق لاحضر تجهيزه على الطريقة اليهودية ، إلا اني حضرت ساعة حمل الى مقبرة اليهود القريبة من دار العجزة في جانب الرصافة . وكان ذلك اليوم هو موعد وصول زوجته رينة

عائدة من لندن . وكان في استقبالها عباس التميمي وأختها فرحة . وكنت أنا في مستشفى العلمين ساعة وصلت اليه لتصعد الى مخدعها في الطابق الأعلى ، وتقدمت منها لأواسيها على مصابها الجسيم ، غير اني لم أر على وجهها ما ينم عن حزن بمستوى فاجعتها الأليمة ، إذ ردّت على تعزيتي لها بابتسامة ترحيب جعلتني أشعر بموقف بارد منها ، فلم أطل البقاء في حجرتها مع اني لمست منها رغبة شديدة في التحدث اليّ في أمر ما لم يحن وقته بعد ، وهو باحتمال كبير (بحسب ظني) في استمرارية العمل بمستشفى العلمين وهي لا تعرف انني قد قطعت شوطاً واسعاً في تأسيس (مستشفى السامرائي) فلم أر فائدة من الاستماع اذا تحدثت في هذا الموضوع . فنهضت وغادرتها ، وهي لا تعرف شيئاً عن موقفي منها . وسرعان ما لملمت رينة أطرافها المتباعدة وهي اليهودية الذكية التي تعرف بفطرتها سبل الحذر من السقوط ، فباعت سيارتها ، وبيتها الذي بناه زوجها ماكس في منطقة (السباق القديم) وغادرت العراق دون ان تودع أحداً من اصدقائها (على ما علمت) .

ومضت سنوات عشر كنت بعدها في يوم في فندق متواضع بباريس ، وذات ليلة سمعت طرقاً على باب غرفتي ، واذا بخفير الفندق يعتذر مني على ازعاجه لي . فقد كنت الطبيب الوحيد من نزلاء هذا الفندق في تلك الليلة . فطلب مني ان افحص سيدة تشكو من الم حاد في بطنها ، وقادني الى غرفة في الفندق ، واذا المريضة رينة اسحاق ، ما أغرب المفاجأة لكلينا معاً . فوجدتها مصابة بورم مبيضي ملتوٍ ، فنقلت الى المستشفى حسب وصيتي ولم أرها بعد ذلك .

الدكتور توفيق رشدي

توفي صباح هذا اليوم ٢٤ / ٦ / ١٩٥١ الدكتور توفيق رشدي ، فسحبني هذا الحادث الى استذكاره يوم كنت أراه يومياً وهو يقطع كريدور المستشفى الملكي ليدخل الجناح السابع أو يدخل مختبره السريري الصغير المحاذي لمدخل هذا الجناح . والدكتور توفيق ذو بدانة في بطنه ، أما رأسه الصغير فكأنه كرة وضعت على كومة من بدنه بعد ان اكتمل بنيان جسمه . وهو اذا مشى ترتطم فخذاه ببعضهما حتى ليبدو انه يفتر لموازنة

جسمه مع خطواته الواسعة . وكان وجهه عذباً وعيناه ساهمتان تنطقان بالادب والمجاملة . وقد اعتدت ان أحييه كلما تقابلنا ، فاسمع منه أطيب جواب . وعلمت من صديقه الاستاذ شوكت الزهاوى أنه من أصل تركي ، غير اني لم اسمع في نطقه نبرة تركية ، كما قيل ايضاً انه بغدادي الأصل ، غير انه لم يعرف له قريب او نسيب في العراق ، فهو مقطوع الشجرة كما يقول المثل . وكان يعرف عدة لغات منها الالمانية والروسية والفرنسية والتركية والكردية والفارسية وشيئاً من الانكليزية . غير انه لا يكتب وصفاته الطبية للمرضى الا باللغة العربية التي يجيدها نثراً ونظماً . وكان مسؤولاً عن الردهة السابعة للامراض الباطنية ، وله مختبر سريري الى جانب مدخلها يعمل فيه فحص النماذج المرضية بيده . وهو حريص على الدوام ، وملتزم بدقائق أوقاته ، فيحضر الى ردهته قبل ان يحضرها مضمد الردهة أو ممرضتها ، كما انه آخر من يغادرها . وكان قليل الكلام الا مع مرضاه في عيادته أو في ردهة المستشفى ، ومع بعض اصدقائه الخلص من الاطباء وهم قليلون جداً ، ويبتعد عن مقابلة الاطباء الانكليز في المستشفى ، فاذا رأى أحدهم مقبلاً ، وقدّر انه لا يستطيع ان يدخل مختبره أو ردهته قبل ان يصله عاد أدراجه لكي لا يبادله التحية بغير صدق . وقد سمعت من الدكتور شوكت ان كرهه للانكليز يعود الى يوم كان موفداً الى انكلترا للاطلاع على سير التدريس في كلياتها الطبية ، فلما طُلب منه ان يملأ إستمارة كان من فقراتها واحدة عن (لون) وأصل طالب الانتماء الى الكلية ، فلما قرأ ذلك الدكتور توفيق رشدى استشاط وغضب ومزق الاستمارة وهو يقول

- ان العلم الذي يُعنى باللون والأصل لا خير منه ولا اريد ان أتعلمه

وحزم الدكتور رشدي امتعته وغادر بريطانيا على احدى بواخرها البطيئة عبر البحر الابيض المتوسط الى بيروت متوجها الى بغداد .

ولم يتزوج الدكتور توفيق رشدي في حياته ، ولا يعرف انه عاشر إمرأة . وكان مصاباً بداء السكرى ، وأكولاً بنهم ، وهو لا يشرب الخمرة ولا يدخن التبغ ولا يرتاد الملاهي ، ويعتذر عن قبول الدعوات الخاصة أو العامة ، وهوايته المفضلة الجلوس في مقهى صغير مغمور على رقبة جسر مود (الاحرار) فيشترى من بائع متجول بين تخوت المقهى ، قدراً من حب (الركى) المقلى ، وصار بائعه على مرور الايام يعرف نوع وكمية ما

يريده الدكتور رشدي ، فاذا استقر على احد تخوت المقهى تقدم منه ذلك البائع وكال له من حب الركى دون ان يسأله عن كمية ما يريد .

وعيادة الدكتور رشدي برأس القرية في شارع الرشيد ، وهي مسكنه ايضاً . ويخدمه رجل من اهل العمارة اسمه حميدي . ويوماً تزوج حميدى من فتاة من عشيرته فانجب منها بنتاً سرعان ما صارت في عمر الصبا مدللة الدكتور رشدي ووحيدة لهو بريء له ، فلما ادركت البلوغ كان الدكتور قد فقد بصره بسبب داء السكرى ، وعسر عليه الخروجُ من داره ، فخول خادمه حميدى بوكالة رسمية ان يسحب ما يحتاجه من مدخراته في البنك العثماني ، واقتحمت الدكتور رشدي فكرة مفاجئة ان يعقد على ابنة خادمه حميدى لترث ما يملكِ من مال وأثاث ، تعبيراً عن امتنانه من ابيها ، غير ان الدكتور رشدي اكتشف يوماً ان آباها يسرق من ماله في البنك بلا انصاف ، فطلق ابنته وطرد اباها ، وعاد عزباً قانوناً وفعلًا ، وهو يقول لصديقه الدكتور على البير

- العزوبة أفضل من الزواج

ويوماً قال لي على البير

- ولا اظن ان الدكتور توفيق رشدي قد عرف (الزواج الفعلي) ليقرر ان العزوبة أفضل ، ومع ذلك أوصى قبل وفاته بما يملك لخادمه حميدى .

حمة مالطة ومانسون بار / ١٩٥١

في اوائل صيف هذه السنة ١٩٥١ ، وبالتحديد اليوم الثاني عشر من حزيران شعرت بسخونة في جسدي ، وارتفعت في أواخر هذا اليوم ، ثم اختفت في اليوم التالي ، ثم ما لبثت ان عادت مع قشعريرة وتعرّق شديد لم آلفهما من قبل الا حين اصبت بالملاريا في سنة ١٩٤٩ . وحسب زملائي الاطباء أنني أصبت مجدداً بالملاريا حتى ثبت لهم بفحص دمي انها غير ذلك . وصارت الحمى بعد ذلك تتناوب يوماً فيوم مع الم في ظهري . ودام هذا الحال زهاء أسبوعين قاسيت فيهما الأمرين وخصوصاً من التعرّق وآلام الظهر ، فلا يبقى في البيت ما يمكن إستعماله ليلًا لامتصاص العرق الذي يتصبب من جسدي الإ وصار مبتلا ، كما لو أنه ادخل في اناء من

الماء . ويوماً فطن الدكتور كرجي ربيع الى إحتمال (حمة مالطة) التي تعرف بحمى البحر الابيض المتوسط . ولم تكن هذه الحمى مألوفة يومئذ في العراق ، وقد اكتشفها بعد طول تجارب الدكتور شوكة الزهاوي . وحين دخل مخدعي الدكتور كرجي ربيع وهو يحمل بيده تقرير المختبر الذي اثبت اصابتي بهذه الحمى ، كانت على فمه ابتسامة الفخر والنصر بهذا التشخيص . وحان دور العلاج في ضوء هذا التشخيص بحقن البنسلين فلم يكن من هذه فائدة ، واقترح الدكتور ماكس كروباخ الفؤادين الذي يستعمل في علاج البلهارزيا ، فلم يكن من ذلك فائدة ، ثم عولجت بحقن (السلفرسان) الذي يستطب لعلاج السفلس فلم يكن من ذلك جدوى ايضاً . فكتبنا الى (مانسون بار) بواسطة الجمعية الملكية البريطانية ، ووصلنا رد من الجمعية ان مانسون بار قد توفي ، وحل محله صهره الذي تسمى باسم مانسون بار ايضاً . . وكتبنا الى هذا الطبيب عن علاج حالتي المرضية فلم أجد في رده إلا عبارة (إقرأ كتاب مانسون الموسوم بامراض المناطق الحارة) فرجعنا الى هذا الكتاب واذا ولم يكن فيه اكثر من تناول حبات الاسپرين وعلاج نوبات الحمى بالتكميد البارد . ولما اشتد الحر في مطلع شهر تموز نصحني الزملاء ان اسافر الى (بيرن) في سويسرا حيث تعالج الحميات المزمنة في مستشفى يختص بها . فسافرت الى بيروت كخطوة اولى بطيارة من نوع (دوق) ذات ثمانية مقاعد ، ولمدى طيرانها القصير اضطر قائدها ان تهبط في (إيج ثرى) لتتزود بالبترول . وقد ارتحت لتوقفهافي هذا المطار الخاص بشركة النفط العراقية (IPC) حيث اتنفس الهواء الطلق والراحة في بهوه الصغير ، واقلعت الطائرة لتتأهب لطريقها الى بيروت ، وحين زأرت وطقطقت مفاصلها عرفت انها تعبر سلسلة الجبال الى الاراضي اللبنانية ، ثم شعرت انها ارتاحت من طيرانها فعرفت انها تنحدر بتؤدة الى مدرج المطار الذي يعلو قليلًا عن سطح البحر .

ونقلتني سيارة تاكسي الى فندق (خير الله) في بحمدون ، وهذا الفندق من أقدم فنادق جبل لبنان . وأصحابه كيسون وكرماء في الخدمة والإطعام . وفي اليوم التالي زارني ابراهيم فضلي القائم باعمال السفارة العراقية في لبنان ، وهو من اقارب زوجتي ، وعرف مني انني مزمع السفر الى سويسرا بعد بضعة أيام لمعالجة حالتي المرضية ، فاقترح عليّ

استشارة طبيب في جامعة بيروت الامريكية اسمه (ينى كمشيان) ، فلم أر في ذلك باساً خاصة وأنا في غير عجلة للوصول الى سويسرا فضلاً على انني احتاج الى راحة لاستئناف السفر اليها وكان يني كمشيان يومئذ قد تجاوز عمره الستين سنة ، ذو جمة خفيفة فيها الكثير من الشيب ، ويبدو من بعيد وكأنه مصاب بداء الثعلب ولغته عربية لا تخلو من اللكنة الارمنية ، وهو من هذا العرق . وبعد الاستجوابات التي وجهها لي كما يفعل مع اي مريض ومنها عن . اختصاصي في الطب ، قال لي

- نعم ان هذا المرض هو حمة مالطة ومصدره حليب الاغنام (وكنت اعرف ذلك) واضاف : ويعتقد ان الاطباء المولدين عرضة للاصابة بمكروب هذا المرض اكثر من غيرهم .

ولما سألته ، وكيف يكون ذلك؟اجابني

- يحدث حين يستخلص المولد المشيمة المحتبسة من رحم الحامل التي تحمل المكروب ان يكون الكف المطاطي ممزقاً ، فتخترق (البراسليا) وهي جرثومة حمة مالطة ، من تحت أظافر اصابع المولد الى دمه ، ولم أناقشه فيما إدعاه ، كما اني لا اعرف كثيراً عن جرثومة هذه الحمى .

وسألته

- والعلاج يادكتور ؟

أجابني

- لابد من تصوير صدرك أولًا

- قبل الفحص السريري ؟

- نعم قبل الفحص السريري

وقادني فراش الدكتور يني كمشيان الى دائرة الأشعة ، وكانت في الطابق ما تحت الارضي بمستشفى الجامعة . هذه الدائرة فسيحة الارجاء بسقف واطئ ، ولا يشغل المكان الا ماكنتان ضخمتان معلقة إحداهما من السقف ، أما الأخرى فبدت لى متنقلة على ثلاث عجلات ضخمة بقطر قصير . وقد استقبلتني عند باب هذه الدائرة ممرضة وطلبت مني ان انتظر طبيب الاشعة (الكسندر) حتى ينتهي من فحص مريض . وبعد دقائق غير كثيرة مر من أمامي كهل في ظهره حدبة ثم اختفى وعاد مرة أخرى يمر أمامي ، وتقدمني ثم جلس على المصطبة الى جانبي وكانه أحد اصدقائى ، أو بالاقل له معرفة بي ، وقال لي :

ـ أنا الكسندر، طبيب الاشعة (ثم اضاف) تبدو يائساً يارجل !
فاجبته بملل وضيق ؛
ـ اتعبتني الحمى
ـ وكم صار لك بهذه الحالة
ـ زهاء شهرين ؟
ـ زهقت من طول هذه المدة ، اليس كذلك ؟
ـ فقلت له
ـ زهقت من الحمى التي صارت لا تنقطع والتعرق الغزير والم الظهر الذي يقض مضجعي
فضحك هذا الرجل الأحدب وقال لي
ـ اضحك يا هذا ، فأنا كنت حبيس قفص من الجبس لمعالجة فقرات ظهري التي نخرها داء التدرن ـ اربع سنوات بطولها ، وكنت في خلال ذلك استعمل العيدان الطويلة التي تستعملها أمي لحياكة (البلوزات) ، فاحك بتلك العيدان جلد ظهري الذي يغطيه الجبس حين تنحدر عليه قطرات الصديد من الفقرات النخرة ، وأخيراً ها أنذا أمامك ، فقد قهرت المرض (واضاف يخاطبني) تحد المرض ياصاحبي والا قهرك ، وتغلب على معنوياتك واملك بالحياة .

وصلت رقوق الإشعة الى الدكتور ينى كمشيان ولم يكن فيها ما يدل على وجود مرض في صدري . فقال لي .
ـ لن أفعل الآن إلا فحص قلبك ، وضغط دمك . واقول لك مقدما أن حمة مالطة ليس لها علاج نوعي في الوقت الراهن ، وقد ينتهي عمرها فيك فتختفي تدريجياً . على عكس ما جاءت مفاجئة . وكان هذا ما حصل بعد ستة أشهر أخرى

التهاب في اذني / ١٩٥٢

في اذني اليمنى استعداد للالتهابات ، وخصوصاً في فصل الشتاء ، وهي حالات تسبب لي الماً مبرّحاً . وكنت استشير لعلاجها الدكتور اوليفر استاذ هذا المرض بكلية طب بغداد ، فيريحني الى حد ما من آلامها ويمنع

استمرارها ، غير ان نوباتها لم تنقطع ، والخوف من توقعها لم ينقطع .
والدكتور اوليفر امريكي ، وكان يعمل استاذاً في كلية طب بيروت بالجامعة الامريكية في بيروت ست سنوات متعاقبة قبل ان تستقدمه كلية طب بغداد إثر انتهاء عقد الاستاذ الانكليزي ولسن ومغادرته العراق . وكان اوليفر في كلية الطب ببيروت يدرس امراض الاذن والحنجرة والانف والعين باسم (امراض الرأس) . ويبدو انه تقدم الى العمل في بغداد لينهي حياته الطبية في الشرق الاوسط ، وفعلًا لم يعد الى بيروت بل عاد الى موطنه بامريكا ليتقاعد فيها ، وكان اذ ذاك بعمر الستين سنة غير انه كان بنشاط من هم أصغر من ذلك بكثير ، وهو معتدل القامة ، غير طويل ولا قصير ، وببشرة وردية لا تخلو من النمش القليل ، وشعر كستنائي فاتح حتى في اهداب عينيه . وكان دمث الاخلاق مع المرضى ومع زملائه الاطباء وكنت أنا احد المودعين له في مطار المثنى تعبيراً عن امتناني منه على اهتمامه باذني اذا مرضت .
وخلف اوليفر في معالجة اذني الدكتور قاسم البزركان ، وفي اول استشارة منه وكنت يومئذ أقاسي آلاماً شديدة كنت أحس انها تفتت عظام رأسي ، وتنفذ الى عقلي فتفقدني صوابي ما دخلني الدكتور البزركان الى غرفة رقم(٢) بدار التمريض الخاص بالمستشفى الملكي بدعوى انني احتاج الى تضميد حار وتقطير ادوية في اذني باوقات منتظمة ، وهذه لا تتحقق الا في المستشفى .
ودخل غرفتي الدكتور البزركان ومن ورائه عربة التداوى تدفعها ممرضة ، وعلى العربة عدد من القناني الصغيرة ، بحجم واحد ولون واحد ، لا فرق فيما بينها الا ما كتب على ورقة ملصقة على ظاهرها اسم الدواء الذي في داخلها . ودفعت الممرضة العربة حتى صارت حذاء سريري ، فتناول الدكتور البزركان واحدة من القناني التي على سطحها وسكب منها سائلًا في اذني المتألمة ، فشعرت حالًا كأن شعلة من نار ادخلت في اذني ، فصرخت ونهضت عن فراشي ، وعدت اليه أتلوى باضطراب فزع له الدكتور البزركان ، واستدار في مكانه مرة وأخرى حائراً فيما يجب عمله لتسكين الالم الذي هاج في اذني ، وعاد الى القنينة التي سكب منها السائل وقرأ ما في الورقة الملصقة بها فصرخ في وجه الممرضة يقول لها : ماذا اعطيتني يا حمقاء ؟ ، فاجابته فزعة : أنا لم اعطك شيئاً ، فانت الذي أخذت

هذه القنينة دون غيرها . وصاح الدكتور البزركان بها ان تحضر حقنة من المورفين ، وهدأ الألم بهذه الحقنة ، فقررت مغادرة المستشفى مساء ذلك اليوم . ومنذ ذلك اليوم لم تؤلمني اذني أبداً . وصار الدكتور البزركان حين يلتقيني يقول لي بتفاخر

- من أفادك اكثر في علاج اذنك ، أنا أم الدكتور أوليفر ؟

توأم مقفل / ١٩٥٢

في ظهر يوم الاثنين من شهر آب / ١٩٥٢ وصلني نداء تلفوني من القابلة (سليمة غالو) وهي (جدّة) مشهورة في بغداد ولها زبونات في كثير من البيوت البغدادية الرفيعة والوضيعة ، ولا تنافسها في هذه المهنة الا (الجدّة) ميري السنليّة وهذه قد شاخت فصفا الميدان لها وقد تعرفت على هذه القابلة عن طريق أخيها (انطون غالو) كاتب كلية الطب وهي عانس ضخمة الجسم بطول فارع ، وقوة جسدية طافحة ، وذات شعر كث أشيب وخدين مترهلين ، وعينين خضراوين واسعتين) تتحرك وتتكلم بسرعة ونشاط ، وجميع هذه الصفات ضرورية للقابلة المثالية

وسمعت الجدة سليمة تقول لي بارتباك

- أنا أكلمك من مركز شرطة الشورجة ، ولدى حامل وقد خرج جنينها معتلئاً بالمقعدة بينما جسمه لا يزال داخل الرحم .. سيكون زوجها في انتظارك قرب عيادة الدكتور نور الله بآخر سوق الشورجة (أضافت) أرجوك تستعجل

وسألتها هل المريضة بكر؟ فاجابتني نعم هي بكر!

وأرادت ان آطمنها فقلت لها : لا داعي للقلق ولا الى الاستعجال ، فالجنين لن يبقى حياً حين أصلك وبيني وبينك مسافة طويلة ، ومع ذلك ساجيئك فوراً . كانت القابلة مضطربة وهي تكلمني ، وهي لابد قد عالجت استخلاص رأس الجنين فلم تتوفق ، والقوابل في حالات عسر الولادة يحاولن ان ينجزن أعمالهن دون مساعدة طبيب لكي يستأثرن وحدهن بالثناء والتكريم ، وكان على الجدة ان تستقدم طبيباً في توليد مريضتها البكر قبل اندفاع جسم الجنين الى خارج الجسم . واستقبلتني الجدة

سليمة على باب بيت مريضتها في القشل . وهي تلهف ليتفهم أهل مريضتها عظيم إهتمامها بامرأتهم ، وقالت

- استعجل دكتور

وتقدمتني الى داخل البيت ، وفي نظرة عابرة الى المريضة عرفت كل شيء عن حالتها . كان جسم الجنين يملأ ما بين فخذيها ، ولم يكن كبير الحجم ، كما كانت بطنها ما تزال كبيرة الحجم ، فخطر على بالي ان يكون فيها جنين آخر لا يزال داخل الرحم وان رأسي الجنينين قد أمسك أحدهما بالآخر ، فعسر خروج رأس الجنين الأول . وفي هذه الحالة يختنق الجنين الأول ويموت . وحين لمسته بيدي كان جسمه بارداً وبلا حركة انعكاسية . يكون علاج هذه الحالة بهدف الحفاظ على حياة الجنين الثاني ولا يتحقق ذلك إلا بقطع رقبة الجنين الأول . وفسرت الحالة للجدة سليمة غالو بحضور أهل المريضة ، ووافق الأهل على تطبيق هذا العلاج ، ولابد في هذه الحالة من إستعمال مقص خاص لقطع الرقبة ، وفي لحظة قررت ان أستعمل أي مقص طويل يتوفر في بيت المريضة ، وجاؤوا بمقص طويل من جارة لهم وتمت العملية كما أردت ، وفي تفكيري احتمال الإلتهابات التي يمكن ان تعقب هذه العملية في هذا البيت . وفي اليوم الثالث زرت هذه المريضة كما أفعل عادة في مثل هذه الحالة بل في كل حالة ولادة فوجدتها منهمكة في غسل ملابس زوجها ولا تشكو من اي إختلاط مرضى متوقع ، بينما سمعت صراخ طفلها من الجوع في مهد متواضع على ارض غرفة مظلمة . كانت القناة الولادية السفلى تلوثت دون شك بايدي القابلة سليمة ، كما ان المقص الذي استعملته لقطع رقبة الجنين لم يكن معقماً كما يجب فهل كانت العملية قد اجريتها في غفلة من المكروبات ؟

استاذ الامراض النسائية والتوليد بكلية الطب ورئيس شعبة الامراض النسائية والتوليد في المستشفى الملكي ١٢ / ١٠ / ١٩٥٢

بعد مغادرة الاستاذ كروكشانك العراق شغرت شعبة الامراض النسائية والتوليد في كلية الطب والمستشفى الملكي من استاذ رئيساً لهاتين الوظيفتين ، وكنت في جميع تلك السنوات اعمل رئيساً لها

بالوكالة ، وبحكم هذه الوكالة كنت امثل شعبة النسائيات عضوا في مجلس عمادة كلية الطب . وفي يوم ١٢ / ١٠ / ١٩٥٢ افتتح الاستاذ هاشم الوتري جنسة المجلس بالكلام عن اعمال (الدكتور كمال السامرائي) في المستشفى وفي التدريس بكلية الطب ، فقال مما قاله (ان الدكتور السامرائي) كان أول طبيب مقيم في المستشفى الملكي ، واطول مدة أقامها من اي طبيب اقام في المستشفى بعد ذلك ، وهو ايضاً أول من حصل على شهادة الماجستير في الجراحة ، وقد ناقش اطروحته في البواسير المهبلية كل من الاستاذ ملزريث والاستاذ فيوذر من معسكر الحبانية واستاذ التشريح أمين بك

وكنت استمع الى الاستاذ الوتري وانا بانتظار ما سيصل اليه من غاية لأستعراض اعمالي الطبية منذ تخرجي وحتى هذا اليوم ، وأتت المفاجأة حين قال : (والآن أعرض على المجلس تقرير الاستاذ ماهاني عن الدكتور كمال السامرائي قبل ان يغادر العراق ببضعة أيام)، وعددت هذا الكتاب سرياً يفشى بمناسبة (واستطرد الاستاذ الوتري يقول) وعلى ما تقدم أقترح منح الدكتور السامرائي لقب استاذ في الاختصاص الذي يعمل به منذ اكثر من اربع عشرة سنة ، وانتظرت بصبر قاتل رأى اعضاء المجلس . فاذا هم يوافقون على مقترحه بالاجماع وصرت بذلك أول استاذ من خريجي كلية طب بغداد في هذه الكلية .

معنى السعادة البيتية / ١٩٥٢

في عصر يوم ١٩ / ٢ / ١٩٥٢ طلب مني رجل أن اعود زوجته المريضة في بيته بالكرادة الشرقية . ولما توجهت الى سيارتي التي أوقفتها في باحة مستشفى السامرائي لنستقلها الى بيته قال لي : ان الطريق الى بيته في زقاق غير معبدّ ، وموحل ، وان يفضل أن يأخذني الى بيته في سيارة الأجرة التي جاء بها اليّ . وقد بدا لي هذا الرجل عصبي المزاج ولا يستقر في مكانه الا بعد حركات غير مقصودة . وحين درجت السيارة بنا سألته عما تشكو منه مريضته ، فانفجر قائلاً

- دكتور ، الله لو يأخذ روحي ولا هذا الزواج الاكشر ، يوم تشكو من

أولادها . ويوم تشكو مني ، ويوم تشكو من بطنها ويوم من صدرها . . . هاي شلون عيشة يادكتور؟ نقمة وموت . فقلت له أريد أولًا ان اعرف شكواها المرضية يا أخي .

فاجابني

- الصحيح أنا لم أعرف شكواها هذه المرة ، خابرتني أمها وطلبت ان آتي لها بطبيب بأسرع وقت ، ولما سألتها عما بها أجابتني بامتعاض

- آني ما أعرف ، تعال انت وشوفها بنفسك . وعاد هذا الرجل يسبّ الأقدار والأهل الذين ورطوه بالزّواج . ولما وصلنا بيته ترجل من السيارة .

ليخطر زوجته بحضوري ، فاستدار سائق السيارة نحوي وهو في مقعدة وقال لى

- عمى الله يطول عمرك ان الرجل غير طبيعي ومختّل ، شنو الزواج نقمة ، والله ياعمي الزواج نعمة وأنا صار لي اكثر من عشر سنين متزوج ، أطلع من الصبح على باب الله وأعود في منتصف الليل فأجد كل شيء في بيتي كما أريده ان يكون ، فأنا اشعر اني أسعد زوج والحمد لله .

وانقطع الحديث بيننا حين طلع الزوج علينا ليقودني الى داخل بيته . حيث رأيت زوجته مضطجعة في فراشها وأمها الى جانبها تولول ، وفي ركن من الغرفة طفل يحاول الوقوف على ساقيه ، والى جانب سرير الزوجة وليد في مهده ، ورأيت بعد الفحص ان شكواها مبالغ فيها وقد تخف لو ان أمها لا تثيرها اليهابتحريض متعمد ، ووصفت للمريضة بعض المسكنات وغادرت البيت الى سيارة التاكسي التي ما زالت تقف بانتظاري عند باب البيت ، واراد الزوج الشاب ان يصحبني في السيارة فشكرته وقلت له لا ضرورة لذلك ، والمهم ان تشتري الدواء لزوجتك الآن . وأنا في الحقيقة اردت بذلك ان أكون وحدي مع سائق السيارة التاكسي لاستعلم منه كيف حقق لنفسه السعادة التي يدعيها . ودرجت السيارة بنا فسالته

- الاسم بالخير؟

- اسمي محمود

وقلت له

- نعود الى حديثك عن السعادة التي اشرت اليها ، فكيف حققتها

لنفسك ؟
فاجابني
ـ أنا اقول لك ، بسيطة ، اذا فتحت زوجتي فمها لطمتها على وجهها فتسكت طول النهار ، واذا شكت مني لأمها فابصق في وجهها وأكفخها على رأسها فلا تعود تشكو مني لأمها (واضاف) عمي الله يطول عمرك ، الزوج لازم يصير حوك ، البيت جهنم لمن لا يعرف السعادة .
وقطعت التحدث الى هذا السائق بعد ان عرفت منه معنى السعادة بمفهومه

هدية ثمينة جداً من الوزير المفوض بالسفارة الايرانية ببغداد / ١٩٥٣

زارتني يوم ١٨ / ٦ / ١٩٥٣ سيدة ايرانية إسمها (پروين) ويصحبتها زوجها الوزير المفوض بالسفارة الايرانية ببغداد ، وقدم نفسه لي باسم (عبد الأحد دارا) وكانت هذه السيدة حاملًا في نحو الشهر الخامس . وسبق ان فقدت طفلين (على ما ذكرا لي) بسبب اعراض الانسمام الحبلى ، وخصوصاً في تورم ساقيها ، وكان ضغط دمها يوم زارتني ١٥ / ٨ ملغم ، وفيما عدا ذلك فلا شيء آخر يدعو الى القلق بالنسبة لي . واستمرت هذه السيدة تزورني في عيادتي بمستشفى السامرائي شهراً فشهراً وفي مطلع الشهر التاسع من حبلها وكان ضغط دمها قد ارتفع قليلًا ، كما ظهر في قدميها تورم طفيف ، فطلبت رؤيتها بعد اسبوع لاقف على سرعة إرتفاع ضغط الدم ، وما يطرأ على حجم الجنين وضربات قلبه ، فوجدت ضغطها قد ارتفع الى حدود ١٦ / ٩ ، فرأيت ان يكون توليدها قبل أوان وقته المتوقع باسبوعين . وفسرت لها ولزوجها دوافع قراري ، فاقتنعا برأيي ووافقا على قراري حالًا . وفي الوقت الذي حددته أجريت لها (العملية القيصرية) ، وكان الوليد ذكراً وبصحة

جيدة ، ومرت أيام النفاس طبيعية دون تعقيد ، وغادرت هذه النفساء المستشفى والابتسامة تملأ وجهها وهي تحمل على ساعد يمناها طفلها (جمشيد) وفي اليوم الثاني زارني زوجها عبد الأحد دارا وقدّم لي رقعة من رق الغزال وفي وسطها تسعة ابيات شعر للشاعر الماجن الايراني حافظ الشيرازي المشهور ، وحول هذه الابيات صور عدد من الحسان بين أصص الزهور . ومع هذه الرقعة كتاب اعتزاز وتقدير لشخصى وفي ما يأتي نص الكتاب .

(شعار الدولة الايرانية)
سفارات كبراى شاهنشا هي ايران
بغداد

بغداد ٢٢ حزيران ١٩٥٣

عزيزي الدكتور كمال السامرائي .

بعد ابداء أعمق الشكر واجزله عن العملية الجراحية التي اجريتموها لزوجتي السيدة (پروين مقدّم) والتي نجت هي وابنها بفضل الله تعالى وعملكم الجراحي من خطر الموت المحتم ، أرجو التفضل بقبول هذه الرقعةالمزخرفة التي هي تحفة غير جديدة غير ان تأريخها يتجاوز مائتي سنة ، وبما انها تعبر عن ناحية من افكار العارف الروحاني ولسان الغيب الخواجة حافظ الشيرازي فهي ثمينة بالنسبة للمخلص . وإني اتشرف بتقديمها الى سعادتكم عربوناً للصداقة الوثيقة الدائمية بين رجل ايراني وبرفسور عراقي جليل القدر ورفيع المقام . وانتهز الفرصة للاعراب عن احتراماتي الفائقة ومودتي الخالصة

عبد الاحد دارا
الوزير المفوض والمستشار في السفارة الايرانية
في بغداد

ولقيمة هذه الرسالة والهدية التحفة التي معها حفظتهما في أطار بزجاجتين لتظهر في صفحة منها صورة الهدية وفي الصفحة الثانية أصل الرسالة ، فكانت من التحف التي زينت مكتبي

قبول عناد / ١٩٥٣

في صيف ١٩٥٣ دخل بيتنا طفل في الثالثة من عمره ، جاءت به الينا السيدة الفاضلة أم مؤيد الجميل من البصرة لتربيته . وكان بسبب عمره وحالته الصحية ضعيفاً ورقيقاً كرغيف الحنطة المرقوق أو صحون الصيني الخفيفة . وهو أسود اللون وذو عينين غائرتين ، ولا يقوى على الحركة دون مساعدة ، فينكفىء ويعلو صراخه ، ويبكي لاقل من هذا السبب . كما كان يتبول لا إرادياً في فراشه اثناء الليل ، وينهض منه ويمشي وهو نائم ، وما عدا ذلك فكان طفلاً وديعاً يستحق الرعاية والعطف ، كما كان في محياه كثير البشاشة ، وابتسامته حلوة ببراءة . واسم هذا الطفل (قبول) وهو اسم يذكرنا مجالس النساء في البيوتات الموسرة ببغداد ، كذلك يدعونا الى احتمال ان يكون اسماً للاناث اكثر منه للذكور . وفي زمن غير طويل لاحظت على قبول بواكير الذكاء ، وروح الفكاهة السانجة ، ويوماً رأيته يلعب بدمى سيارات صغيرة فسالته

- هل تستطيع سياقة هذه السيارات ياقبول ؟

فاجابني وهو يقهقه

- استطيع ولكني أخاف من شرطي المرور !

وفي مرة أخرى طلبت منه ان يراقب كلبنا الصغير لئلا يخرج من البيت فقلت له

- خلّي عينك على الكلب يا قبول

فاجابني

- وآني شلون ، ابقى بلا عين ؟

ونما قبول بسرعة كما ينمو (ابن السالفة) في قصص العجائز . وبرزت أول علائم نموه في طول يديه وساقيه ، فاخذته الى أحدى رياض الاطفال ، وصرت انقله هو وإبني اليها في صباح كل يوم ، وكانت تظهر على

وجهه علامات فرح عميقة حين يراني اتوجه الى كراج سيارتي ، فيسرع راكضاً ليقف على باب داري من جانب الشارع ليعطيني اشارة اذا ما قطع الشارع أحد المارة أو احدى السيارات ، فاذا انتهيت الى الطريق فتح باب سيارتي الامامي وقذف بحقيبته المدرسية الصغيرة الى مقعدها الخلفي وقفز الى جانبي في مقعدها الامامي ، وقد يكون ابني في هذا المقعد فلا ينازعه قبول عليه وذات يوم سألني قبول ولم تكن السيارة قد تحركت بعد .

- عمو ، من يكون ذلك الشايب الذي يقف في كل يوم وفي مثل هذا الوقت بهذا المكان ليستقل سيارة مصلحة نقل الركاب ؟

وكان ذلك الرجل في يوم الشديد البرودة لا يرتدي الا قميصاً دون فانيلا ورباطاً ، وسروالاً وفي رجليه نعلين من الجلد المشبك ، وكنت قبل ذلك اليوم انظر الى ذلك الرجل دون اهتمام إلا في استغرابي ان يرتدي لباساً خفيفاً لا يصد عن جسمه لفحات البرد القارسة . . . فأجبت قبول

- لا أعرف هذا الرجل (واضفت) ولابد انه يقاسي من هذا البرد ، ومظهر وجهه يدل على ذلك بالرغم من انه يتظاهر بقدرته على تحمل البرد فقال قبول

- هذا مخبّل أكيد

فقلت

- يمكن أنت صحيح ، واذا كان مجنوناً فهو لا يشعر بالبرد وسألني قبول

- شلون ما يشعر بالبرد ؟

فأجبته وانا ابغى التفكه معه

- تقول العامة : ثلاثة لا يبردون (السقا والجاهل والمجنون) .

وفي اول يوم دخل قبول (الروضة) كلمتني مديرة المدرسة تقول

- دكتور ، يا معّود هذا الطفل قبول خلق لي مشكلة في المدرسة

- خير ان شاء الله !

- اي خير ، الاطفال لا يعقلون ان يكون من بعمرهم طفل بلون أسود

- ماذاتقصدين ؟

- حبذا لو أخذته الى مدرسة أخرى !

- واذا اعتذرت المدرسة الاخرى عن قبوله للسبب نفسه ؟

- هذه ليست مشكلتي يا دكتور ، أما أنا فلا استطيع الاحتفاظ به في

مدرستي .

فقلت لها ، اسمحي لي بضعة أيام لأسوي هذا الامر . وبعد ثلاثه ايام قصدت هذه الروضة واذا المديرة تفاجئني بقولها

- دكتور كمال ، ما أطيب هذا الطفل (قبول) انه آنيس ووديع وذو شخصية ساحرة ، وقد أصبح بسرعة حبيب اطفال هذه الروضة جميعها . وتخابثت مع هذه المديرة وقلت لها .

- جئت لانقله الى روضة أخرى ، كما طلبت ذلك مني فقالت :

- لا يا دكتور ، قبول يبقى عندي في الروضة ، أرجوك . ونما الطفل جنبا الى جنب مع ابني محمد ، وحمدت الله انهما صارا على وفاق وحب متبادل حتى بلغا الرشد ، فاذا قبول حكيم اولاد المحلة ، وغدا ذوو اولئك الأولاد يحبونه ويدعونه الى بيوتهم وكأن قبول أخ لهم . كما نما قبول على حب الكتابة والقراءة فيه ، وصار يكتب القصة القصيرة ، ويتذوق الموسيقى والغناء الريفي ويقلده ، كما صار يقلد المقرئ المصري عبد الباسط عبد الصمد . وصرت أفخر به علناً أمام اصدقائي . غير ان سعادتي به لم تدم مع الأسف ، فقد اكتشفت فجأة انه مصاب بمرض القلب الخلقي ، فظهرت أعراضه وعلاماته لتخيب احلامي في مستقبله ، فقد غادر السنة السادسة الثانوية دون شهادتها وعمل موظفاً في دائرة (اليونسكو) ببغداد ولايزال فيها .

مستشفى الشفاء / ١٩٥٣

زارني شخص من أهل مندلي اسمه (ع . س . موسى) ، وكنت عرفته يوماً ما بواسطة أخي الاكبر عبد المجيد وقد بدا لي خيّراً ، هادئاً ، لا يتكلم الإ بما فيه الفائدة . قال لي بلهجة حزينة إن له أختاً في دار الشفاء وانه يرغب برؤيتها . وفي غرفة الدكتور (جاك عبودي) بدار الشفاء دخلت الى هذه الغرفة بطلب من الدكتور جاك إحدى ممرضات الدار وهي تقبض على ذراع إحدى المريضات ، ولم أخطىء حين نظرت الى وجهها الكئيب انها أخت السيد (ع . س . موسى) ، لما كان بينهما من الشبه الكبير . وكانت هذه المريضة ترتدي دشداشة فضفاضة من الصوف

الخشن بلون البن ترتفع حواشيها السفلى المتمزقة الى ما يقرب من ركبتيها . وأطالت هذه المريضة النظر الى أخيها (ع . س . موسى) ثم استطال فمها بابتسامة باهتة ، ثم حاولت ان تستدير لتغادر الغرفة الا ان الممرضة أوقفتها بالضغط على عضدها ، فامتثلت لها المريضة طائعة . وكان لابد لأخيها ان يقول لها شيئاً غير انه لم ينبس بكلمة معها بل رأيته ينخرط منحنياً على نفسه ويجهش بالبكاء ، وغادر الغرفة ولما ينقطع نحيبه : وقلت للدكتور جاك : تبدو هذه المريضة هادئة وقد تكون هذه علامة تحسن في صحة عقلها ، فقال لي : ان دواخلها غير ظواهرها ، فقد تسللت قبل ليلتين الى سطح (الدار) ورمت بنفسها منه الى الارض ، وركضت بسرعة الغزال الى باب المعظم ، ومنه الى شارع الرشيد ، ودخلت ملهى الفارابي ، وقفزت على مسرحه وصارت ترقص وتغني بلا انتظام ولا نغم ، فهربت الراقصات فزعاً منها ، وحار رواد الملهى فيما يجب ان يفعلوه وهم بين الاستغراب والرثاء لهذه المرأة التعيسة فقد أدركوا حالًا انها مجنونة . وصعد شرطي الاخلاق المسؤول عن الملهى وامسك بيدها وقادها الى مركز شرطة السراي وهي تضحك وتغني . وعرف ضابط الشرطة الخفر ان هذه المرأة من مريضات دار الشفاء ، فاتصل بالحارس الخافر في هذه الدار واعادوها اليها واضاف الدكتور جاك عبودي ، ومنذ ليلة ذلك الحادث وهي لا تنفك تغني وترقص فتتجمع حولها المجنونات يشاركنها بالغناء والتصفيق والرقص . . وقد استغربت هدوءها قبل قليل وانصرفت من غرفة الدكتور جاك وفي صدري احساسات مؤلمة متضاربة عقلت لساني عن الكلام ، الا ان اقول لنفسي هذه الدار بؤرة شقاء لا محل شفاء

مقلب وقعت فيه / ١٩٥٤

كنت أحاضر في صباح اليوم الرابع من شهر نيسان ١٩٥٤ في القاعة رقم (٢) بكلية الطب وكان موضوع محاضرتي عن (المشيمة المتقدمة) ، وبينما كنت اخط على السبورة موقع المشيمة الطبيعية ، وموقعها حين تكون قريبة من عنق الرحم . . سمعت نقراً على باب القاعة ، ثم انفرجت الباب ليطلع منها شاب لم اكن قد رأيته قبلًا . كان

الشاب يرتدي بدلة أنيقة من الخاكي بهيئة نظيفة وشعر رأسه مصفف بدقة . وسألني بلغة انكليزية سليمة .

ـ تسمح ان أدخل لاستمع الى محاضرتكم ياسيدي ؟ فأجبته حالًا

ـ تفضل

وتوقف في مكانه قليلًا ، وقال

ـ أنا دكتور جيمس ، استاذ مشارك في الامراض النسوية بجامعة دبلن بارلندا

كان هذا الشاب ذا ملامح إنكليزية ، بأنف دقيق وشعر كستنائي ، فتقدم وإتخذ مقعداً بين طلبة الصف ، وبعد دقائق استأذن مني ليتكلم ، فقلت له .

ـ تفضل يادكتور جيمس

فقال :

ـ يؤسفني أنني لم استمع الى محاضرتكم من أولها ، واعتقد انكم لم تنسوا ان تذكروا لطلبتكم ان هذه الحالة المرضية تكثر في الحوامل الولودات

فقلت له :

ـ لقد ذكرت ذلك قبل ان تدخل القاعة يا دكتور جيمس

فقال معتذراً :

ـ آسف يا استاذ سامرائي

وانتهيت من القاء المحاضرة ، ووقفت عند باب القاعة من داخلها انتظر ضيفي دكتور جيمس لنخرج سوية منها تقديراً له على هذه الزيارة . وحين صرت خارج القاعة وجدت على بابها صديقي الدكتور نصرت عبد الحميد والدكتور احسان محفوظ ينتظران الضيف دكتور جيمس وسألاه وهما يخفيان ضحكة على شفاهما ، وسألا هذا الضيف

ـ كيف رأيت الاستاذ كمال في محاضرته يا دكتور جيمس ؟

فاجابهم برضا يقول

ـ محاضرته جيدة ويؤسفني انني لم أحضرها إلا قبل انتهائه من القائها بقليل ، وقد ذكرت ذلك للاستاذ كمال أمام طلبته ، اليس كذلك يا استاذ كمال السامرائي ؟

كان الدكتور جيمس يتحدث معي بسيطرة وأدب في انكليزيته

الطلقة . وفجأة رأيت صديقي نصرت واحسان ينفجران بالضحك وبضربات على فخذيهما ويستديران أمامي حتى كادا يسقطان على الارض أما الدكتور جيمس فقد اختفى دون ان يودعني بكلمة ، فسألت دكتور نصرت عما يحدث

ـ ما الأمر يا نصرت ؟

فقال لي وهو يغصّ بالضحك

ـ هذا الشاب الذي دخل قاعة المحاضرة ليس انكليزياً بل آثوري يعمل ببدالة تلفون (iPC) بكركوك وهو ليس طبيباً بل هو مشهور جداً في كركوك بتقليد الاصوات واللغات . وقد أعطيناه بضع معلومات عن المشيمة المتقدمة وطلبنا منه ان يدخل قاعة المحاضرات ويناقشك في موضوعها كان ذلك مقلباً جد مضحك .

نوط انقاذ بغداد من الغرق / ١٩٥٤

تراكمت ثلوج هائلة على جبال كردستان وتركيا في شتاء سنة ١٩٥٤ ، وانذرت بخطر قد يحيق ببغداد عند ذوبانها في شهر نيسان . وبدأت في مطلع شهر آذار ترتفع مناسيب مياه دجلة حتى وصلت يوم ٢٨ آذار ستة وثلاثين متراً ، واحاطت المياه الفائضة على حوض دجلة مدينة بغداد من جميع جهاتها واصاب أهاليها هلع شديد ، وانتقل كثير من سكانها من جانب الرصافة الى جانب الكرخ ، وناقشت الحكومة إخلاء الرصافة قبل وقوع الكارثة التي أصبحت وشيكة ، فعارض وزير الداخلية (سعيد قزاز) الفكرة وحجته ان الاخطار التي تلحق المواطنين اثناء عبور الجسرين ستكون بقدر ان لم تكن اكثر من اخطار الغرق اذا اكتسح بغداد الفيضان ونجح سعيد قزاز في معارضته ، وتكاتفت قوات الجيش والشرطة وكثير من طلاب المدارس في تعلية سدّة ناظم پاشا لمنع تسرب المياه الى داخل بغداد . وفي يوم ٢٩ نيسان توقف تدفق المياه في نهر دجلة وانخفض ارتفاعه ، فزال خطر الفيضان عن بغداد ، فتنفست الحكومة الصعداء وارتاحت الناس من كابوس الخوف الذي أطبق على صدورهم طيلة عشرين يوماً . وفي شهر تشرين الثاني من السنة نفسها أصدرت

حكومة نوري السعيد (نوط الانقاذ) برقم ٦٩ ووزعته على من شارك في انقاذ بغداد من الغرق . وهذا النوط عبارة عن قرص من النحاس صور فيه رجل ينقذ إمرأة من الغرق وهو واضع رجله اليمنى على اكياس التراب ، وخلفه شجرتا نخل غمرها الماء ، وزورق محمل بمواد الاسعاف . وفي أقصى هذه الصورة منظر لمآذن بغداد المهددة بالخطر . أما الوجه الآخر من هذا (النوط) فقد كتب فيه عبارة (نوط الانقاذ) وتحت هذه العبارة كلمتا (الملك فيصل الثاني) ، ومن تحت هذه . بغداد ١٩٥٤

الدكتور يعقوب وذن يقلع ضرسي / ١٩٥٤

يصاب الانسان بألم في مواضع عديدة من جسمه ويكون الالم محتملًا أو غير محتمل بحسب العضو المصاب . وقد قالت العرب : (ثلاثة لا رأى لهم ، رجل ضاق عليه حذاؤه ، ورجل احتبس بوله ، ورجل أوجعه ضرسه)

وفي يوم آلمني ضرسي في الفك السفلي الأيمن ، وصرت لا أستطيع إحتماله ، فقد كان الألم شديداً وكأنه في رأسي جميعه لا محدداً في ضرسي ، فلا استطيع مضغ الطعام ولا التحدث مع اي انسان . وذات ليلة لم أنم فيها حتى الصباح من نوبات الألم التي كنت أحس بها وكأنه مسمار يدق في رأسي . ولم اصدّق ان النهار سيبزغ لكي أتصل بالدكتور وذن طبيب الاسنان المشهور في بغداد ، وكنت أعرفه عن طريق زوجته السويدية الحسناء التي كانت يوماً من مريضاتي .

والدكتور يعقوب وذن يهودي من مواليد الحلة ولعائلته اراض زراعية فيها . وحين كان يدرس طب الاسنان في لندن تعرف على زوجته في أحدى مطاعمها فتزوجها بالسرعة التي اتما بها التهام عشائهما في ساحة بيكادلي .

اتصلت في الصباح الباكر بالدكتور وذن وطلبت منه ان ياتي الى عيادته ليعالجني من وجع ضرسي ، وختمت مكالمتي بقولي : أنا في الطريق الى عيادتك يادكتور وذن ، واغلقت التلفون قبل ان اسمع منه كلمة . وفي العيادة وأنا أريح جانب رأسي المتالم على راحة يمناي ، اقعدني الدكتور

وذن على كرسي خاص ، كما جلس هو على كرسي صغير يتحرك بسهولة في كل إتجاه . وسألني الدكتور وذن :
ـ قل لي ، اين تحس بالألم ؟
فاشرت باصبعي الى خدي الايمن . فقال لي :
ـ طيب ، افتح فمك لأرى الضرس الذي يؤلمك
ومن خوفي من عملية قلع الضرس قلت له
ـ خف ألم الضرس ولا أريد قلعه .
ـ انت خائف من قلع الضرس ، والألم موجود ويبقى مالم تقلعه ، وقد خف الألم بفعل التخدير ، فلابد من قلعه . ولم يمهلني حتى دفع (كلابتين) وقبض بهما على الضرس الموجع ، وفي حركة سريعة واحدة اقتلعه وعرضه على ، ولكن بغير حماس ولا فخر ، فقد اقتلع قطعة من الضرس لا كلّه ، فبقيت قطعته الأخرى مغروزة في فكي . وحركت لساني تلقائياً في فمي ، فشعرت بوخز القطعة المطمورة في عظم فكي ، فادرك على ما يبدو انني عرفت ان جزءاً من الضرس ما زال في مكانه ، فقال ليهدىء روعي
ـ أن ما بقي من الضرس اقتلاعه بسيط ولا يؤلم ، وشرع حالًا يبحث في لحم اللثة عن شظايا جذور الضرس التي تكسرت اثناء قلعه . وكانت هذه الحركة مؤلمة لا تطاق بعد أن نفذ مفعول المخدر ، وكاد يغمى عليّ ، فخفض رأس الكرسي الذي طمست في مقعده ليصل الدم الى رأسي . ولم البث بهذا الوضع طويلًا حتى إنتعشت واستطعت ان أنهض عن كرسيه الممقوت لأغادر عيادته غير انه اقنعني ان اعود اليه ليتم رفع جذر الضرس المكسور .

وبعد عام آلمني السن المجاور للضرس الذي خلعه الدكتور وذن قبل عام وتعوذت من الشيطان من هذا الألم لاحتمال تطوره الى ما قاسيت من قلعه في عيادة الدكتور يعقوب وذن . وعرف الطبيب الاقدم في الجناح العاشر الدكتور على الامير ما أنا مشرف عليه من آلام ، فالح عليّ بقلعه وأنا اتظاهر أمامه بان الألم محتمل ، وقد يزول بذاته ، وهو لا يعرف انني في الحقيقة اخاف إعادة تجربة القلع المؤلمة مرة أخرى وفي يوم حملني الدكتور على الامير بسيارته الى عيادة الدكتور على (ابن الأسطة ناصر) بمدرسة طب الاسنان في العيواضية ، وعلى كرسي قلع الضرس بهذه العيادة رأيت السيدة راشيل زوجة الدكتور كرجي ربيع ، وقد فتحت فاها

ليدخل فيه الدكتور على ناصر كلابنيه لقلع ضرسها المنخورة ، فاخجلتني شجاعتها ورباطة جاشها على تحمل آلام هذه العملية ، ونهضت عن الكرسي وهي تمسك باصبعها قطنا حشاه الدكتور علي في مكان السن التي خلعها وحان دوري فجلست على كرسي عملية قلع السن ، وفتحت فمي وأنا اراقب بعيني الالة التي التقطها الدكتور علي من على منضدة آلاته الجراحية ، فسألته

- ماذا تريد ان تفعل يا دكتور ؟

فاجابني

- دعني أرَ السن المؤلمة أولًا لاقول لك ما سافعله

وفتحت فمي بحذر وخوف من الألة التي شرع يدخلها في فمي ، وهي طويلة المقبض وتنتهي بمرآة صغيرة ، وقال لي وهو يحدق فيها ما يراه في السن التي اشرت اليها ،

- لابد من قلع هذا الضرس

فسألته بسذاجة

- كيف تقلعه ؟

فاجابني

- ساحقن اللثة التي حول هذا الضرس بمخدر فلا تشعر بالألم اذا قلعته . وتصبب العرق على وجهي لحظة سمعت قراره بقلع الضرس وبابرة التخدير وبين جلد كاذب ورضوخ بالحياء دفع الدكتور علي ابرة التخدير في لثتي وهو يقول

- بعد دقائق ستحس بخدر في شفتك

وانتظرت الدقائق فلم أحسن بخدر في شفتي ، ولما علم ذلك بدأ عليه الاستغراب . وبعد لحظات استحضر حقنة أخرى ، وخفت من تكرار المحاولة ، وطغت شدة خوفي على شدة الألم ، فقلت له وأنا اتهيأ لانهض عن الكرسي

- خف الألم يا دكتور علي ، ولا أرى لزوماً لقلع الضرس . فقال باستخفاف

- انت خائف وليس غير ذلك

وفي هذه اللحظات دخل (نوري السعيد) وكان يومئذٍ رئيساً لمجلس وزراء الدولة ؟ فبادرني قائلًا :

- خيرك ، دقتور كمال ؟

وتظاهرت بالشجاعة ، فقلت له
- جئت ليقلع الدكتور على ضرسي
- يؤلمك ؟
- جداً ياباشا
- أقلعه واخلص من شره .
والتفت نوري السعيد الى الدكتور على ناصر . وقال له
- ابن أسطة ناصر ، اسمعني ، دقتور كمال يقدر ينتظربضع دقائق ، أما أنا فلزوماً عليّ ان أحضر مجلس الاعيان بعد دقائق . ولم ينته من كلامه حتى كان قد استلقى على كرسي عمليات الاسنان ، وفي لحظات اقتلع الدكتور علي ضرس الپاشا . وجاء دوري بعد ان شاهدت شجاعة (السيدة راشيل) وهي تخضع دون مبالاة الى يد الدكتور على ناصر ، واستهانة نوري پاشا بقلع ضرسه ، فلا مناص لي إلا أن احذو حذوهما واركب ماركبا من الصعاب ، فاذا الأمر في تخدير اللثة وقلع السن غير ما قاسيت في عيادة الدكتور يعقوب وذن والحمد لله ، ونهضت عن الكرسي وفي داخلي حس بأنني لست خلواً من الصبر والشجاعة . اذا حكمت الاحوال .

وادي شعيب في الاردن / ١٩٥٤

في يوم ٨ / ٨ / ١٩٥٤ كنت ضيفاً على السيد (شبلي بشارات) في عمان . وكان هذا الرجل كريماً ومضيافاً ، ولداره طابع تختص به الاردن ، ففي وسطها بركة صغيرة تتحرك بين أطرافها سلحفاة قبل لي ان عمرها بعمر البيت ، وقد بني هذا البيت قبل عشرين سنة . وطلبت مني زوجتي ان نزور القدس ، وصاحبني اليها أردني من عمال السيد بشارات ، وكان يسوق سيارته بسرعة لم استطع اللحاق به ، ووراء منعطف رأيته يبطىء في سياقته ثم يترجل عنها في انتظاري ، فاذا هو يقول لي : انظر يا حكيم ، كان قد حدث زلزال في هذه المنطقة وتحرك قسم منها نحو عشرين متراً الى الغرب الى مكان ابتلعته الارض ، فحدث بذلك نزاع في ملكية الارض التي زحفت . وكان القاضي ذكياً وحكيماً فابدى أمره ان يتناوب صاحب الارض التي إختفت وصاحب الارض التي زحفت على استغلال

الارض بالتناوب سنة فسنة .

وزرنا المسجد الاقصى وقبة الصخرة وتناولنا غدائنا في مطعم متواضع ثم تهيانا للعودة الى عمان لنصلها قبل غروب الشمس لارتباطنا بموعد مع صديقي السيد بشارات . واشار لي مرافقي الاردني بان نسلك طريقاً غير الذي جئنا منه ، فقد يتعرض اليهود في هذا الوقت لسيارتنا اذا عدنا من الطريق الأول وهم يفعلون ذلك احياناً لمجرد الازعاج والتباهي بالقوة . وكان الطريق الذي اقترحه متعرجاً وشديد الانحدار . وتقدمني مرافقنا بسيطرة لم استطيع اللحاق به . وكانت سيارتي من نوع (الكريسلر اوتوماتيك) . ورأيت الطريق يتعرج وينحدر ثم يتعرج مرات ثم ينحدر حتى أشرفت على منحدر أرى منه وادي شعيب وكأني انظر اليه من خلال منظار معكوس ؛ عميقاً بؤرياً ، والاضوية متناثرة في قاعه تختفي بعضها ثم تظهر كأنها عيون حيوانات حبيسة في جب وازدادت سرعة السيارة كلما ازداد انحدار الطريق ، وكبست بقدمي على فراملها لأخفف من سرعتها ، غير ان انحدار الطريق صار يزيد انحداراً ويزيد والسيارة تسرع وتسرع اكثر فاكثر ، وصار الضرب على فراملها دون جدوى ، وسرعان ما تلاشى عملها نهائياً ، وحسبت اول الأمر انني من فرط خوفي خف ضغط قدمي عليها ، فاعدت كبس قدمي عليها بقوة اكثر فتأكدت انها لا تعمل باي قدر ، ونظرت الى الاضواء من قعر الوادي ، فبدا لي انها لاتزال بعيدة عني . وان سيارتي تنزلق الى هاوية لا قعر لها ، وفقدت متابعة معالم الطريق ، ولا ادري كيف وصلت الى الوادي حيث كان ينتظرني صاحبي الشاب الاردني . وتنفست الصعداء وانا مرتم على مقعد السيارة باعياء ، ومشى الدم في عروقي بعد إستراحة طويلة . ولم يعلم صاحبي الأردني ما انتابني من خوف فقال لي ببساطة وهو يمعن النظر الى وجهي الخالي من الدم .

- هذه من سيارات (الاوتوماتيك) ، وكان عليّ ان اتجنب هذا الطريق ، ولكنني فضلته على غيره من الطرق لأتجنب في ساعات المساء والليل تحرشات مخافر اليهود القريبة جداً من الطريق الآخر المستوى

الشيخ عبد الله الصباح الكويتي / تشرين الثاني / ١٩٥٥

المكالمة تلفونياً
- دكتور كمال السامرائي
- نعم أنا كمال السامرائي .
- كلموا السيد رئيس التشريفات تحسين قدري .
ووصلني صوت تحسين قدري المميز يقول :
- دكتور ، أرجوك تذهب تواً الى القصر الابيض لتفحص سيدة كويتية هي أحدى شيخات بيت (الصباح) ، و (علي صائب) ينتظرك عند باب القصر

هكذا كانت المخابرة التلفونية مختصرة ومحدودة .

وتوجهت حالًا الى القصر الابيض ، وكان علي صائب في انتظاري ، وهذا الشاب في مثل عمري ، ويشغل منصباً في وزارة الخارجية العراقية وبيني وبينه تعارف بدأ خاطفاً . وقصته لا تخلو من متعة وغرابة سأذكرها بعد ان أتم قصة الشيخة الكويتية ، وحين وصلته كان الى جانبه أحد اصدقائي القدامى اسمه سليم ويخاطبه اصدقاؤه بابي علوان ، وهو مسيحي متحرر ، ولطيف العشرة ، وقد وجد له اصدقاؤه مكاناً فسيحاً بين شيوخ دول الخليج بعد ان ارتدى العقال والكوفية البيضاء وسمح لذقنه أن تغطية لحية محترمة . وكان يقف الى جانب ابي علوان شاب لبناني حسن الطلعة قدّم نفسه الي كطبيب وسكرتير الشيخ . وشرع رأساً يسرد على مشكلة المريضة التي طُلبت لفحصها .

- دكتور كمال هذه الشيخة هي أخت الشيخ عبد الله المبارك الصباح ، وتشكو من اعراض نسائية ، وهي أم لاربعة أولاد .

واضاف ابو علوان مقاطعاً طبيب الشيخ او سكرتيره

- ونوري السعيد يهتم بامور الكويتيين في الوقت الراهن بدوافع سياسية .

ولما سألتهما اين أخو المريضة أجابني انه غادر الآن الى البلاط الملكي لمقابلة الملك فيصل ورئيس الوزراء نوري السعيد .

كانت المريضة في نحو الخمسين من عمرها ، ممتلئة الجسم . وتشكو من نزف مهبلي صار يزداد قليلًا قليلًا ، ولم اطلب فحص هذه المريضة ،

واكتفيت بتأريخ مرضها لأطلب نقلها الى مستشفى السامرائي وفحصها تحت المخدر وأخذ عينة نسيجية من مصدر النزف . وغادرت القصر الابيض ولم أر اخاهاحينئذ . وفي مستشفى السامرائي أخذت العينة المطلوبة فثبت فيها وجود مرض خبيث . وحضر أخوها الشيخ لزيارتها ، فاخبرته صراحة بحقيقة مرض أخته ، وانها تحتاج الى علاج إشعاعي وهذا لا يتوفر في بغداد . وبعد لحظات وهو يفكر سألني

- هل من ضرورة لبقائها في المستشفى ؟

فاجبته

- تستطيع ان تغادر المستشفى الآن

وسألني بادب جم .

- تتلطف عليّ لنحملها معاً الى القصر الابيض ؟

وحُملت المريضة الى المقعد الخلفي من سيارة الشيخ ومعها مرافقتها السوداء ، وأشار الشيخ ان آخذ المقعد الامامي الى جانبه ، ثم صعد الى مقعد مقود السيارة .

هذه السيارة سوداء فخمة من نوع أمريكي متطوّر ، وزجاج نوافذها من نوع خاص ، ويرتفع من خلفها (ايريلان) . وقاد الشيخ السيارة بتؤدة ، وفتح مجال الحديث معي بقوله

- تعرف يا دكتور ان في الشارع لا يرى من في داخل هذه السيارة !

وابديت له استغرابي وقلت

- ان مثل هذه السيارة ليس لها وجود في بغداد

وقال وهو يشير الى تلفون مثبت قريباً من مقود السيارة :

- من هذا التلفون استطيع ان أكلم (العيال) ودوائر الدولة حين اكون أطارد الغزلان ، أو أصيد الحبار في الصحراء .

ولم يسألني شيئاً عن مرض أخته ، ويحتمل انه لم يفعل ذلك خشية ان تسمعنا أخته فتوجعها الحقيقة

ولما اقتربنا من القصر الابيض رأيت من بعيد سيارة نوري السعيد السوداء (رقم ٢٠ بغداد) تقف عند باب القصر فقلت للشيخ

- هذه سيارة نوري پاشا ، ولابد انه جاء ليزورك .

ودخلنا القصر وكان في صالونه نوري السعيد وهو يكلم طبيب الشيخ السوري (أو اللبناني) وقد وقف هذا أمامه بخضوع واحترام . وأراد ان

ينهض نوري السعيد لاستقبال الشيخ غير ان هذا أسرع وصافح نوري السعيد مرحباً به وهو يضغط على كتفه ليبقى جالساً في مكانه . ويبدو ان الشيخ الكويتي قد سبق ان أخبر نوري السعيد عن قراره مغادرة العراق بعد ظهر هذا اليوم ، فقال له

- ياپاشا سابقى حسب أمر (ملكنا) فيصل الى يوم غد .

فقال له نوري السعيد

- هذا مكسب لنا جميعاً وسنتناول العشاء على مائدة جلالة الملك في هذا المساء .

وفهمت سبب تأجيل الأمير سفره الى الكويت ، غير اني لم أفهم يومئذٍ مغزى قوله (بأمر من ملكنا فيصل) الإبعد سنوات كثيرة . ثم شرع نوري السعيد يكلم ضيفه الكويتي في أمور تخص النفط والماء العذب لايصاله الى الكويت . ثم نهض الشيخ ليدخل حرم القصر وهو بضع غرف صغيرة متواضعة في جناحه الأيسر ، فمال نوري السعيد نحوي وكان كرسيي قريباً من كرسيه ،

وسألني

- ما بها هذه المرأة ؟

وطوى صوان اذنه بيده اليمنى ليسمع جوابي ، فقلت له

- مرض خبيث .

- يعني سرطان ؟

- نعم سرطان

وعاد الشيخ الكويتي وبيده علبة ذات غطاء مخملي عنابي اللون ، وقام نوري السعيد وقمت أنا ايضاً ، وقدم الأمير العلبة اليّ وهو يقول

- هدية رمزية (واضاف) وارجو ان تعدني أخاً لك عند الحاجة ، ثم تبع نوري السعيد ليشيعه الى سيارته الواقفة عند باب القصر . وعدت أنا الى المستشفى متشوقاً لارى محتويات العلبة . كانت ساعة ذهبية من نوع ممتاز منقوش على مينائها اسم الشيخ الكويتي .

* * *

وفي شهر تموز من السنة نفسها كنت في فندق (شاهين) بعالى (لبنان) وفي الفندق صالة تطول حتى تنتهي الى صالة صغيرة تشرف على بيروت . . وكنت قبيل الظهر اتصفح كتاباً لارنست همنكواى الامريكي

بعنوان (وداعا للسلاح) وفجأة مرّ من أمامي الشيخ عبد الله الصباح بلباس عربي والي جانبه شابة لا يصل عمرها الى الثلاثين سنة ، سمراء البشرة جميلة التقاطيع وبطول رشيق معتدل ، لو تقدمت لمباراة الجمال مع عشر فتيات أخر لفازت بالاولوية دون غيرها . وتقدمت هذه الصبية صاحبها الشيخ الكويتي الى قعر الصالون . ويبدو ان ندل الفندق يعرفون كليهما فتقدموا لخدمتهما . وسرعان ما دفعت في اتجاههما عربة على سطحها عدد من القناني والكؤوس . وكنت في مدخل الصالة الكبيرة فلم أر ما فعلا بتلك القناني من المشروبات ولا رأيت ما فعلت المشروبات بهما . ونويت متعمداً ان امكث في مكاني ليراني الشيخ اذا نهض ليغادر الصالة ، وطال الانتظار ودق جرس الفندق معلناً وقت الغداء . فغادرت مكاني الى صالة الطعام . وحين انتهيت من تناول غدائي رأيت الشيخ وصاحبته يدخلان صالة الطعام ويأخذان مكاناً قصياً عني . وسألت صاحب الفندق خواجه (حنا) عمن تكون تلك السيدة فابتسم وقال لي

- هي سامية جمال

وسامية جمال يومئذٍ من اشهر راقصات مصر ، وذات صفات انثوية جذابة ، ولا تخالط الا كبار الناس ، وقيل انها كانت من نديمات الملك فاروق ويستأثر بها وهي تسبح في ماء بوعاء شفاف كبير .

صديقة الملاّية والملاّ البصير / كانون الثاني ١٩٥٥

ترددت كثيراً في كتابة هذه الحكاية ، ولولا اني وعدت أن لا أكتم ما يمتع قراء هذا الكتاب لما ذكرتها . وفي هذه الحكاية كشف عن بعض جوانب حياتي وحياة بعض من لا يتوقع التصرفات الجنونية الغريبة من أمثالهم ، وافراد هذه الحكاية ثلاثة . مقرىء ضرير مشهور وله مستمعون حين يرتل آيات القرآن الكريم في الاذاعة والتلفزيون العراقي ، وسيدة تجاوزت الاربعين من عمرها ، ذات صوت رخيم تعرف باسم (صديقة الملاّية) ، أما الشخص الثالث فهو حميد الأنكرلي وهو صاحب سيارات نقل بين العراق ودمشق ، وهو مرح الطبع وله مقالب مع أصدقائه تضحك الثكلى ، و (ابراهيم شندل) المشهور باسم ابراهيم إطفائية لكونه عمل

سنين معاوناً لمدير إطفاء بغداد المستر (فشر) ثم أعقبه مديراً لهذه الدائرة حتى يوم إحالته على التقاعد . وفي يوم طلبني هذا الصديق لاعالج مريضة هي زوجة صديقه (الملا الضرير) ، واستجبت لطلبه حالاً ، فحملني بسيارته الى محلة الفضل حيث يسكن صديقه الملّا . في شقة باحدى عماراتها بشارع غازي . وقابلنا الملا الضرير على أولى درجات السلم الى شقته في العمارة والدمع ينحدر على خده من تحت عويناته السود . وبكاء الأعمى يؤلم من ينظر اليه اكثر من بكاء البصير ، كما ان العين التي لا تبصر سخية في الدمع اكثر من العين التي تبصر . ورأيت المريضة في حالة إسقاط فنقلناها الى مستشفى السامرائي حيث عالجتها كما يجب ، وخرجت بعد يومين من المستشفى بحالة جيدة وبعد نحو إسبوعين اتصل بي ابراهيم شندل ، وقال لي

ـ دكتور كمال ، ليلة الجمعة تتعشى عندنا بالبيت . والمدعوون قليلون جداً منهم حميد الانكلرلي ، وأسطه على (وهو أخو ابراهيم شندل) و (الملّا) وصديقة الملاية .

وقلت له هذه دعوة غريبة .

فقال لي

ـ هكذا ارادها الملّا ، كما آراد ان يقوم هو بكل تكاليف هذه الدعوة ليرد لك الفضل في معالجة زوجته

وحضرت بيت (أبي كروم) ابراهيم شندل الكائن خلف مستشفى العلمين فوجدت الملا قد سبقني اليها ، ونهض يرحب بي بحرارة وبعد دقائق قليلة وصلت صديقة الملاية ، وحار الملا كيف يقدمني اليها ، وكنت أسمع غناءها في اذاعة بغداد واستلطفه وخصوصاً اذا غردت بمقام البهرزاوي واتبعته بالاغنية الشعبية (بذاك الصوب لاگني فخاتي خذن عقلي ونسني عباتي) ، ومدَّ الملا يمناه نحو صوتها وأمسك بها وسحبها الى صدره وهو يقول لها

ـ كم انت عظيمة يا ملا صديقة ، إلا انك ستكونين أعظم في قلبي من اي وقت مضى . . تعرفين السبب ؟ أنا أقول لك السبب . دكتور كمال دخل في قلبي ، فادخلني الدنيا من جديد ، فقد انقذ حياة زوجتي من الموت ، وحياتها حياتي ، وحضورك سرني كثيراً

فقلت للملا
- لم اعمل شيئاً أستحق عليه هذا الثناء ياملّا
فاجابني وكانه أراد٠ان يحسم أمراً نختلف فيه
- هذا أنا أقدره يا دكتور، لا أنت، وجزاك الله كل خير.
وكنا لا نزال واقفين في إستقبال صديقة الملاية. وجلست (الملّاية) بيني وبين الملّا الضرير. وجرى حديث قصير بينهما، كان فيه عتاب ثم تراضٍ، وقطعت حديثها مع الملا وخاطبتني قائلة
- الملّا وفي وما ينسى الافضال، وزوجته عزيزة عليه، ولابد ان تكون أنت صاحب فضل على الملّا وأنا اسمع انك صاحب فضل على الناس.
وكانت صديقة الملّاية تلبس الثياب السود، وهي داكنة السحنة وبقيافة شعبية، وعينين (دمكتين) دامعتين، ولم يكن على جيدها أو معصمها أو أصابعها حلية من أي نوع
ونادى (الملّا) على أبي كريم، وأسرّ في اذنه ما إستطعت ان أسمعه بما يقرب من الوضوح، وسمعت ابراهيم يقول له
- ألا تصدقني، مثل ما اتفقنا عليه، الموجودون هم الدكتور كمال وانت الذي طلبته حضوره، وأخي أسطة علي، وحميد الانكرلي في الطريق الينا.
فقال له الملّا:
- أنا أمين من حميد الانكرلي؛ والوليمة للدكتور كمال وهو يقدر الموقف
ودخل حميد الانكرلي في هذه اللحظات وهو صديقي وصديق ابراهيم شندل، وهو دوما العنصر الذي يبث المرح والأنس في الولائم الخاصة، وهو من القلائل جداً الذين ظلوا يلبسون الطربوش الاحمر حتى آخر عمره قتيلًا بداء السرطان. وبادر حميد يقول
- أشو يابسه الكعدة، لو عندنا فاتحة، هذه ما تصرف لي
فقال الملّا
- (الجنبش) ما يّتم إلا بحضورك يا حميد.
ومدّ الملّا يده الى يمينه وحركها يمنة ويسرة حتى عثر على آلة (العود) فتناوله وشرع يلاعب بإصابعه أوتاره، وضبط بيسر نغماته، ثم أعاده الى مكانه واعتدل في مكانه، والمكفوفون يبالغون في اعتدال ظهورهم حين يجلسون، وفي لحظة عاد الى تناول العود وصار يضرب على أوتاره

بنغم البيات ، وداوم عليه بضع دقائق فأنّت صديقة الملّاية من أعماق صدرها مع أنين انغام العود ، وكأنهما صوت وصداه ، وقالت

- تعيش يا ملّا

فابتسم لها الملّا وهو يومىء لها باصبعه ، فعرفت من ذلك انه يريد منها ان تبدأ بالغناء ، فالتفتت نحوي وسألتني عما افضله من الالحان ، فانقذتني المجاملة وقلت لها

- كل غناء من فمك يهزني ويطربني ، وخصوصاً (البهرزاوي) والابوذيات

وسمع الملّا ما دار بيني وبين صديقة الملّاية ، فحوّل ضربات اوتار عوده بما يناغم البهرزاوي وصرخت الملّاية تغني ، واعقبت البهرزاوي بالاغنية (بذاك الصوب لاكني فخاتي خذن عقلي ونسني عباتي) . وطرب الملّا ولعب الهوى في قلبه ، وصار يتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، ورفع يده عن عوده ومدّ كفه الى صدر صديقة الملّاية وتلمّس نهدها الذي الى جانبه وهو يقول هذا البيت من الشعر

يملأ الكف ولا يفضله وإذا اثنيته لا ينثني

ولعمري فلم يكن صدر الملّاية كما وصفه هذا الشاعر ، غير أن الملّاية أستسلمت لقبضة الملّا ، ولما اطالها تململت لتدفع يده عنها بغنج ودلال ، فحبكت النكتة مناسبتها وأثارت بطلها حميد الانكرلي ، فخرج من الغرفة وعاد بعد دقائق وقد حشا تحت قميصه في موقع نهديه فوطتين ، وسحب صديقة الملّاية بهدوء من مكانها واحتله عوضاً عنها ، ولما حان دور الملّا ليتلمس نهد صديقة الملّاية صارت يد الملّا على مالم يره شبيها بالنهد ، وادرك حالاً ان ما يلمسه ليس نهداً بل شيئاً آخر ، كما ادرك حالاً ان حميد الانكرلي هو صاحب النكتة ، فلم يبد عليه انه ادرك ما يتلمسه حتى أطمأن حميد الانكرلي ، وعاد الملّا يمدّ يده نحو مكان صديقة الملّاية ليتلمس صدرها ، غير انه في هذه المرة لم يهدف بها صدر الملّاية صديقة بل رفعها عالياً وهوى بها بقوة على رأس حميد حتى انحدر طربوشه الى أذنيه . فنهض حميد وهو يطوي ظهره هارباً من الضربة . وضحكنا حتى دمعت عيوننا .

ألا ما أحلى دعابات هذه الطبقة من الناس ، كأن نهارهم قد خصص للعمل الجاد وليلهم للمرح والانس بلا قيد ولا حدود .

كرين ارميتاج / ١٩٥٥

دعا المجلس الثقافي البريطاني ببغداد الاستاذ الدكتور (فيفيان كرين ارميتاج) لزيارة العراق وبشكل خاص كلية الطب الملكية ببغداد . وهذا الطبيب من مشاهير اطباء انكلترا في الامراض النسائية والولادية ، وله بحوث ومؤلفات وادوات جراحية تعرف باسمه الى الوقت الراهن . وقد عمل في بومبى بالهند وصارت له سمعة واسعة هناك ، كما وضع فيها كتاباً بعنوان (الامراض النسائية في المناطق الحارة) طعّمه باشارات تأريخية جد شيقة . وقد رأيت كرين ارميتاج لأول مرة في مكتب عميد كلية الطب العراقية ولمست منه حين صافحني انه ذو سيطرة شخصية وعلم غزير في اختصاصه ، ومرح في قلبه وتصرفاته . ثم اجتمعت به اكثر من مرة وكان في خلال ذلك ماهراً في توزيع حديثه بين الطب وبين الاخبار المسلية . كما سمعت له محاضرة في المجلس الثقافي البريطاني(بالوزيرية) بعنوان (الجوانب المرضية في عباقرة التاريخ) وأنهى هذه المحاضرة قائلًا : ان اكثر الاطباء لا يجيدون الخط في الكتابة وهذه من صفات عباقرة التاريخ .

وكان كرين ارميتاج في هذه المحاضرة متمكناً غزير المعرفة بموضوعها ، وحاضر الجواب على الاسئلة التي وجهت اليه ممن كان في قاعة المحاضرة وفي مقابلة أخرى بدار مدير المعهد الثقافي البريطاني وكان من المدعوين في هذه الامسية السفير البريطاني والدكتور هاشم الوتري ووزير الصحة عبد الأمير علاوي . وكان كرين ارميتاج مرحاً يكثر من الكلام عما شاهده من الملح والغرائب والعجائب في اقطار الشرق والغرب بما في ذلك الهند واندنوسيا ومصر والسودان وغير هذه . وكان يومئذ شاه ايران وزوجته البختيارية (ثريا) في بغداد هاربان من ثورة (مصدّق) ، ولم تكن قد انجبت من الشاه بالرغم من مرور سنتين على زواجهما ، فاقلق هذا الامر الشاه وزوجته فطافا عواصم اوربا ينشدان علاجاً لحالهما دون جدوى ، وبهذه المناسبة اقحم كرين ارمتياج في حديثه ذكر استشارة الامبراطورة له ، فقال عنها مما قال :

ـ ان هذه المرأة ليست جميلة بل هي الجمال كله . وكان في تلك اللحظات قد تعالى من الكرامافون عزف مقطوعة (حلاق اشبيليا) فضحك كرين

ارمتياج وتنحنح وهو يقرب وجهه من وجهي ، ويقول :
- هذه الموسيقى تأخذني عشرين سنة الى الماضي . فقد كنت ذات صيف في اشبيليا باسبانيا . ورأيت يوماً ان اقص شعر رأسي ، فدخلت دكان حلاقة الى جانب الفندق الذي أقطن فيه ، واذا بصبية عند مدخله تقدم لي ورقة صغيرة يملأها رقم بخط كبير ، تكلمني بالاسبانية التي لا أعرفها ولكني عرفت بالبديهة ان الرقم هو دوري الى كرسي الحلاقة . ولما مددت يدي لاتناول من يدها تلك الورقة رأيت نفسي من فرط دهشتي لجمالها أمد يدي لاتلمس أصابعها لا لاتناول الورقة منها . لقد كانت يا كمال خمرية اللون بعينين دعجاوين ، وشعر فاحم ، وصدر ناهد ينطق بحرارة الشباب الملتهب . فأخذت الورقة وقصدت كرسي الحلاقة في عمق الدكان ، وفتشت عن موقع تلك الصبية في المرآة التي أمامي ، فدلني قلبي اليها بسهولة ، كما لو ان انفاسها قد نفذت الى حشاشتي كما تنفذ المرئيات الى العين الباصرة (وهذه هي نصوص تعابيره أو قريبة منها) ثم قال : لقد كانت جميلة جذابة جعلتني اتلهف الى التحدث اليها قبل ان يتم الحلاق قص شعري . وانتظرت هذه اللحظات دون صبر ، فنهضت عن الكرسي لأتجه اليها ، ووقفت حيالها وتباطأت في اخراج محفظة نقودي لاشبع ناظري من وسامة وجهها الصبوح . وغادرت الدكان بحسرة ، إذ لم ارتو من حلاوة مجياها بالقدر الكافي (وكرين ارمتياج يومئذٍ في الخمسين من عمره) وإستمر يقول : وكنت معتاداً ان أحلق ذقني بيدي ، فوجدت مبرراً لأحلقه في كل صباح بهذا الدكان لأرى تلك الصبية في مدخله حين الجه وحين اغادره ؛ وحين اراها في المرآة وانا تحت موسى الحلاق . وكنت الاطفها بارتباك حين ادفع لها أجر الحلاقة . وفي يوم كان بعد اسبوع من معرفتي بهذه الصبية ، دعوتها ان تتناول العشاء معي في المكان الذي تفضله ، فما تناولت ورقة دوري في حلاقة ذقني من يدها في اليوم التالي الا وتقدم مني (الحلاق) وهو يشهر موسه بوجهي ويقول :
- ياسيد ، أخرج من الدكان ولا تعد اليه ، وإلا قطعت عنقك بهذا الموس ، ونتش الورقة من يدي ومزقها وقذف بقطعها على وجهي ، وهو يزعق بغضب مخيف :
- أخرج حالًا انت ايها العجوز
فخرجت طائعاً وخائفاً من هذا المنافس . وفي اليوم نفسه حزمت

حقيبتي وغادرت اشبيليا الى قرطبة . (ثم اردف) نعم أنا لا انسى البتة تلك الصبية ، ولا اعتقد انها كانت ابنة الحلاق ، فقد كان هذا شاباً وسيماً لا يكبرها إلا قليلاً ، وقد يكون حبيبها أو خطيبها إحتمالاً .

وتشعّب الحديث فيما بيني وبين كرين ارميتاج ونحن منعزلان عن الشلة ضيوف مدير المعهد الثقافي البريطاني ، ولا اذكر كيف وصلنا بحديثنا الى معاني اسماء الاعلام بالعربية والانكليزية . فقلت له ان الاسماء العربية لها معان وضربت له امثالاً على ذلك ، أما الاسماء في لغة الانكليز فلا أعرف لها معنى إلا التي تشير الى مهنة العائلة كـ(وترمان) اي السقاء وكولد سمث (اي صائغ الذهب) وبلاك سميث (اي الحداد) وشپرد (اي الراعي) أما الاسم وليم ، تشرشل وكندي فلا أعرف لها معاني ، فقال لي : انت على حق ؛ وأنا لا أعرف معنى اسمي الاول (ڤيڤيان) إلا اني أقص عليك حكايته ، فقال

ـ فقد احببت في صباي فتاة جارة لبيتنا ، وكان الحب بيننا قوياً جارفاً ، ولاسباب عائلية لم يتحقق زواجي منها . فهجرت أنا لندن الى الهند وراء السلوى ، وتزوجت هي من شاب موسر فانجبت منه طفلة سمتها باسمي (ڤيڤيان) وهي التي صارت بعدئذ اشهر ممثلة انكليزية (ڤيڤيان لي) وضحك كرين ارميتاج وقال : ان معنى ڤيڤيان هو حكايتي مع أمها التي أصر القدر ان لا تتزوج مني . وسكت كرين ارميتاج برهة ثم سألني

ـ ان بعض العرب يسمون ابناءهم باسماء بعض الحيوانات . وعرفت انه بهذا السؤال يشير الى نظرية (التوتزم) فتجاهلت أمامه هذه النظرية ، وقلت له

ـ اذا تقصد باسم أسد ، ونمر ، وذئب ، وفهد فذلك لتخويف الاعداء والانداد ، وهي باي حال اسماء لم تعد تستعمل في الوقت الحاضر إلا نادراً .

السيد خرموش وزوجتاه / ١٩٥٥

المريضة التي دخلت عيادتي يهودية اسمها (ستير) وهي لا تتجاوز الثلاثين سنة من عمرها ، وزوجها الذي كان يصاحبها تاجر اسمه يعقوب خرموش ، وهو في نحو عمرها أو اكبر قليلاً ، مجدور الوجه ويضع

على انفه عوينات باطار معدني دقيق . وستير هذه هي زوجته الثانية ، وقد اجاز له الحاخام ان يتزوجها على زوجته الأولى (ماري) التي لم تنجب منه بعد عشرة معه دامت اكثر من اربع سنوات . وكانت ستير مثل ضرتها عمراً ، وعلى ضدها شكلًا بضة الوجه شقراء الشعر والعينين . وهي ابنة اخته ، اي ان يعقوب خرموش خالها . وأول مرة عرفت عند زيارة خرموش وزوجته لعيادتي ان الشرع اليهودي يجيز زواج الرجل من أبنة أخته . كما يجيز ان يجمع بين زوجتين اذا ثبت ان الزوجة الاولى عقيم .

وعرفت من زيارة خرموش الأولى انه شخص خفيف الروح كثير المزاح والمقالب بأدب . وسألته كما افعل في كل حالة من نوع شكواها عن تأخير الحبل فيما أذا فحص مادته المنوية فأجابني بكثير من التباهي والتفاخر .

- دكتور أنا فحل وقد كنت في القدس قبل ثلاثة أشهر فاثبت البرفسور زونديك انني سليم من اي مرض وبمقدوري ان أنجب من زوجتي توأمين لا طفلا واحدا ! وان السبب في عدم الحبل هو من حبيبتي ستير (وأضاف يسائلني) تعرف زونديك ؟

فأجبته

- أنا تلميذه وقد درست عليه ستة أسابيع في مستشفى هداسه .

فقال :

- هذا هو المستشفى الذي استشرنا فيه زونديك . وفيه فحص ستير بالاشعة الملونة فتبين انها مصابة بانسداد الانبوبين ولما سألته عن العلاج أجابني : عملية جراحية ، ولكنها لا تضمن تحقيق الهدف منها .

وابتسم خرموش ليقول لي :

- دكتور أنا عندي زوجتان الواحدة أجمل من الآخرى ، وكل واحدة بشكل ولون . وحين فحصت زوجتـه ستير وجدتها حاملًا بنحو ستة اسابيع ، فلما سمع زوجها ذلك ، نهض واحتضنني بحبور وهو يقبل وجهي بتكرار ، وانحنى ليقبل يدي ، وأقسم ان كان حملها صبياً ليسميه (كمال) .

وقال لي خرموش جاداً أو مداعباً .

- ستفرح ماري لانني سأتفرغ لها . (وضحك)

ثم سألني

- دكتور، هل أنام على الجانب الأيسر أم على الجانب الايمن ؟
ولم افهم غرضه من هذا السؤال، فادرك ذلك فقال لي :
- دكتور، ثلاثتنا ننام على سرير واحد، ستير على يميني وماري على يساري.
وخلته يهزل، فأكد لي انها الحقيقة، واضاف يقول
- دكتور أنا أشعل الشمعة من الطرفين، وضحكت بحياء، ولما همّا بمغادرة عيادتي قال لي خرموش :
- دكتور كمال، أنا وكيل شركة شاي سيلاني ممتاز ووكيل سكاير (بلاك اند وايت)، وسأزودك منهما شهرياً، فارجوك ان لا تشتري منهما من السوق حتى يشرفنا (ولي العهد) وهو يقصد ولادة أبنه. وصار هذان الزوجان يزوراني شهرياً وبانتظام، فلما كان الشهر التاسع من حبل زوجته سألني
- ماذا ستلد ؟ في ظنك ؟ (واضاف) أنا اعرف السبع لازم ينجب شبل
فقلت له :
- العلم عند الله.
فقالت زوجته ستير
- ألد بنية.
فقال خرموش يخاطبها
- على كيفك يا أم كمال، لا تصيرين طبيبة والطبيب موجود. وعدت اقول :
- العلم عند الله
فقالت ستير
- كل النساء يقلن انك تعرف
فاكدت لها أنني لا اعرف ذلك، غير أنني لا أريد أن اكذّب من يقول أنا اعرف، والشهرة الطيبة خير من سواها. فقال خرموش لزوجته ليطمنها
- انت فرس أصيلة يابنت أختي
وأخيراً ولدت ستير ولداً ذكراً سمته (كمالاً)

كتاب دعوة الاطباء لابن بطلان / ١٩٥٥

فقدت كثيراً من كتبي عن طريق الاعارة وكانت زوجة الاستاذ فاضل الجمالي (سارة) اشطرمنى . ومكتبة الجمالي ضخمة بحيث لم يسعها من بيته إلا السرداب الذي يشمل كامل الطابق الارضي من بيته . وكان في مدخل هذا السرداب طاولة عليها دفتر كبير ، تكتب فيه اسم من يستعير كتاباً من مكتبة الجمالي ، ورقم تلفونه ، وتأريخ الاستعارة . ثم تسأل من يستعير الكتاب . ان يوقع باسمه في حقل يكتب فيه مدة الاستعارة . فاذا فات يوم اعادة الكتاب كلمته السيدة سارة لاعادته . وهذه طريقة فيها فائدة تضمن الى حد كبير اعادة الكتاب ، ولكنها لا تضمن اعادته اذا ماطل المستعير أو ادعى فقدانه .

وكنت اسمع عن كتاب دعوة الاطباء من استاذي هاشم الوتري ، ثم عرفته من جملة مؤلفات ابن بطلان التي ذكرها ابن أبي اصيبعة في كتابه عيون الانباء في طبقات الاطباء ، فاشتقت لاقتنائه ، أو قراءته في الاقل . فلم أجده في حوانيت باعة الكتب بشارع المتنبي أو سوق السراي . وقال لي صاحب المكتبة العصرية محمود حلمي ان هذا الكتاب لا يوجد في حوانيت باعة الكتب بل في المكتبات الخصوصية ، واضاف . قد تجده في مكتبة المتحف العراقي أو المجمع العلمي ، فلما قلت له اني لم أجده في المكتبتين ، قال لي : إذن لا تحاول ان تفتش عنه في اية امكنة أخرى في بغداد .

وفي يوم من شهر حزيران من سنة ١٩٥٥ ، بينما كنت أقطع سوق السراي لأصل الى سوق الهرج على الجانب الجنوبي من رقبة الجسر ، لمحت الكتاب الذي أنشده بين مجموعة كتب معروضة على قارعة الطريق . فقد كان بعض المتكسّبين يحصلون على الكتب القديمة أو الكتب المدرسية المستعملة ويعرضونها منشورة في الطرقات ويبيعونها باسعار زهيدة . فتسمرت في مكاني وخفضت قامتي لأقرأ عنوان الكتاب وأتاكد هل هو كتاب دعوة الاطباء لابن بطلان أم كتاب آخر بالاسم نفسه ، فوجدته هو بذاته . فسالت البائع العجوز عن سعره فأجابني

ـ ستة دراهم (ثم استدرك) يقول : انه مبتّل قليلًا فادفع خمسة دراهم

وخذه .

فدفعت له أكثر من ستة دراهم ، فبدا على وجهه الاستغراب وهو يقول لي :

- يزيد الله فضلك يا إبني .

فتأبطت الكتاب وكأنه كنز ثمين أخشى عليه من السرقة ، ولم انتظر لاصل الى بيتي لاتصفحه بل شرعت حالًا أقلّب صفحاته كمن يتفقد محتويات كنزه . . فاذا أنا أقرأ من صفحة عنوانه عبارة مكتوبة بخط نسخ جميل (هدية المدرسة اليسوعية الى التلميذ النجيب (جورج غصن) لتفوقه في درس الرياضيات) وتحت هذه العبارة كلمة لم استطع قراءتها وهي اشبه بتوقيع اسم شخص . وتحت هذا (التوقيع ؟) تأريخ ١٢ / ٥ / ١٩٢٥ وفي ذيل الصفحة اسم محققة (بشارة زلزل) وسنة طبعه في المطبعة الخديوية بالا سكندرية سنة ١٩٠١ اي ان عمر الكتاب يوم اشتريته زهاء اربع وخمسين سنة وهذا يفسر ندرته . فمن جاء بهذا الكتاب الثمين من بيروت الى العراق ليباع برخص التراب يا ترى ؟ وأخذت هذا الكتاب في اليوم التالي الى المجلد محمد صالح الاعظمي وبعد اسبوع كان يحلي مكتبتي على أعلى رفوفها .

وكنت على مدى سنة تقريباً استقبل الزميل الدكتور ضياء الموسوي . في مكتبتي لنجمع بعض المعلومات عن أيام كلية الطب الأولى لنجعل منها كتاباً من تأريخ نشوء هذه الكلية ، فتجمعت لنا مئات من القصاصات عن تأريخ هذه الكلية ومن عمل بها الاساتذة . والدكتور ضياء الموسوي يهوى قراءة التراث الطبي العربي ، ويستنسخ بعض مخطوطاته ، وفي يوم حمل الى نسخة بخطه الجميل من كتاب التشويق الطبي . وديج في آخر صفحاته العبارة الآتية (هدية لاستاذي الدكتور كمال السامرائي رداً لبعض افضاله عليّ) وبينما كان يفتش عن كتاب التعريف لمن فاته التاليف لابي القاسم الزهراوي على أحد رفوف مكتبتي لمح كتاب دعوة الاطباء فاتسعت له عيناه ، فأخذه بين يديه وطلب مني ان يستعيره بضعة أيام ، فلم أر بأساً من ذلك ، وفي صباح اليوم التالي كان قد تجرع السم الذي دسته أحدى طالبات الكلية في (مشروب المشن) فوقع صريعاً وهو يصرخ منذراً فريق الممتحنين من تناول كؤوس ذلك المشروب . ونقل الى المستشفى مغمياً عليه وبقي بهذا الحال اكثر من اسبوع لفظ

بعده انفاسه الأخيرة .

وفي صباح يوم اربعينه الذي أقامته عمادة كلية الطب نهضت من مكاني مع اني لم أكن من جملة من طلب منهم ان يؤبنوه ؛ نهضت وأبنته بحرقة حتى دمعت عيناي .

رحمة الله على تلميذي وزميلي وصديقي الدكتور ضياء الموسوي

في مقهى ڤينوس بحمدون / ١٩٥٥

حين كنت في لبنان دعاني الصديق مجيد الدهان الى تناول العشاء بمقهى ڤينوس بحمدون ، وهو ليس بالمقهى بالمعنى المفهوم ، ولا هو مطعم ولا ملهى ايضاً بل هو مجموع من هذه المسميات كما هو متنزه فسيح فيه خمائل الورود وعرائش الكرم واشجار الفاكهة ، وقد وصلنا اليه بالسيارة في طريق متعرج ينفذ من الطريق العام الذي يصل الى صوفر . ويشرف المكان من جهته اليسرى على بيوت برمانة وظهور شوير عبر الوادي العميق الذي يفصل جبلي هاتين القريتين عن جبل بحمدون وعالى ، وقد وصلنا المقهى بعيد غروب الشمس ، وسرعان ما تقادحت من بعيد أضواء البيوت البعيدة على الطرف الآخر من الوادي ، ولم نعد نرى من الوادي شيئاً سوى الظلام الدامس وما في مخيلتنا من الاشجار الكثيفة في قاعه . وقادني مضيفي مجيد عبر باب وسيع يكشف عن مجاز غير طويل زينت جدرانه بصور ملونة لشخصيات رجالية ونسائية باثواب غير مألوفة ، وعلى هذه تسطع اضواء مصابيح ملونة مثبتة في عريشة كرم لتظهر تفصيلات أجسام تلك الشخصيات ، وحركاتهم الراقصة . وأخذنا أنا ومضيفي مكاناً في مقصورة صغيرة تقابل مسرحا يرتفع على قوائم من أعواد الخشب . وما كدنا ننتهي من طلباتنا من النادل ليأتينا بالمأكول والمشروب ، حتى سمعنا الضربات التقليدية التي تعلن عن بدء العمل الفني على المسرح . ولما ارتفعت الستارة ظهر على خشبة المسرح أربعة كراسي بلا متكآت صفت على شكل نصف دائرة ، وسرعان ما أحتل الكرسي الذي كان على الطرف الايمن رجل في العقد الرابع من عمره ، واحتلت الكرسي الذي على الطرف الايسر شابة في العقد الثالث من العمر ، سمراء السحنة ، ذات شعر اسود فاحم ، وعيناها سوداوان لوزيتان ، وبين طرفي

الحلقة شاب يضرب على كمان وشاب آخر يضرب على الكيتار وبدأ العرض في هذه التشكيلة بمقدمة موسيقية لم تطل كثيراً ، وكأنها توفر الوقت لما يليها من الفعاليات المثيرة .

ونهض الرجل الذي في الطرف الايمن وشرع يغني بطبقة خافتة متئدة ، فلما علا صوته صار واضحاً لديّ انه يغني بالاسبانية بلحن ابرز ما فيه الحنين واللوعة ، وكان هذا المغني حنطي السحنة وعلى خده الأيسر ندبة رفيعة طويلة توازي قصبة انفه وتنتهي قريباً من زاوية فمه ، وهي الجزء الوحيد من وجهه الذي لم يشارك في التعبير عن معاني انغامه . وكان هذا يقف معتدلًا كالرمح الافريقي وهو يزفر مقاطع اغنيته من اعماق مهجته . وما كاد ينتهي من مقطوعته حتى مازج غناءه غناء تصاعد من فم الشابة التي تبعد عنه في الطرف الآخر من الحلقة ، كما لو انها شعلة الهبتها شرارة من نار ذلك المغني .

ثم توقف هذا المغني ، وتابعت الشابة الغناء وحدها ، كان في صوتها بحّة طفيفة كأنها صدى لما في قلبها من حياة تخبو ، كانت تغني وهي جالسة بينما ظل ذلك المغني واقفاً ، غير انها كانت تتمايل بيسر ، يمنة ويسرة بحسب نغماته وبدا لي كانهما يتعانقان أو يتناجيان ، وتمنيت وأنا منغمر في الانصات اليها ، لو انني أعرف لغتهما عوضاً عن لغة أمي وأبي . وكما أعجبني ان أجالس هذين الفنانين ، فرجوت من مضيفي ان يستدعيهما الى مقصورتنا . واستدعاء الفنانين والفنانات من قبل روّاد الملاهي وما هو مثل هذا المكان مألوف على ان يقدم لهم من يدعوهم اليه كأساً أو كأسين من الكحوليات بحسب المدة التي يمكثونها معه . وجاءت الشابة تتقدمها في مخيلتي هالة من الجمال والحصانة خلقهما اعجابي بها . وحين قربت مني رأيتها اكثر سمرة مما بدت لي وهي على المسرح . وكان كل وجهها إبتسام ، في عينيها معان غير محدودة جميعها محببة ، قالت تلك الفتاة :

- باكيتو يعتذر (ثم قالت) والصحيح انه لا يلبي الدعوات منذ توفيت زوجته قبل سنة

واردت ان أثير حديثاً فيما بيني وبينها فقلت لها مشيراً الى الثنائي الذي تشكله مع الرجل الذي غنى معها

- انتما رديفان كانكما خلقتما لتكونا معاً

فقالت بتواضع :
- كانت (لويزا) أفضل مني بهذا التشكيل
وسألتها
- وأين لويزا
وابطأت لتجيبني ثم قالت
- هي أختي ، وقد توفيت قبل سنة في مستشفى العصفورية .
واردت ان اثني على الرجل الذي غنت معه فقلت
- ان الندبة الطويلة على خده الايسر لم تؤثر على سحنة وجهه ولا على غنائه ، بل هي كضابط الايقاع ، تحفض من غنائه اذا علا اكثر مما يريد .
فقالت لي
- ان هذه الطعنة من سكين بيد أختي حين كانت في ساعة ثورة جنونها .

طالب شيوعي في الامتحانات النهائية بكلية الطب / ١٩٥٥

لم انتم في حياتي الى حزب سياسي ، وقد سألني ذات يوم سياسي مرموق عما اذا كنت أميل الى حزب سياسي بالتعيين ، فأجبته بعد تفكير قليل : اذا قلت أنا شيوعي النزعة فانت نفسك لا تصدقني ، واذا قلت أنا بعثي فستقول انني منافق ، فأنا قومي وليس غير ذلك، وأنا بهذه النزعة اكون كما تكون حكومتي في اي خط من خطوط السياسة شريطة توفر حرية القول والحركة ، وارى من الجور ان تحاسب الحكومة مواطناً لأنه لا يتبنى فكرة سياسية ضيقة . وقلت لذلك السياسية أنني سأذكر لك حدثاً واترك لك الحكم على عقيدتي السياسية .

في يوم دخلت الردهة العاشرة حيث كان الطلاب يؤدون امتحاناً في موضع الولادة ، واستغربت حين رأيت شرطياً يحمل على كتفه بندقية ، يقف بجانبه طالب يستجوب مريضة ، فلما سألته عما يستوجب وقوفه الى جانب الطالب أجابني بأدب

- هذا أمر ، ان لا ابتعد عن هذا الطالب

وسألته

- ولماذا يجب ان لا تبتعد عنه

ـ انه موقوف رهن التحقيق
ـ أنا مسؤول عنه الآن ، فقف عند باب الردهة
فأجابني جازماً
ـ لا أستطيع الابتعاد عنه يا دكتور
ولما لم أر فائدة من الجدل مع هذا الشرطي ، عدت الى غرفتي وطلبت مركز شرطة المستشفى الملكي ، وكلمت معاون مدير الشرطة المسؤول
ـ أنا اكلمك من الردهة العاشرة
ـ تفضل دكتور
ـ في الردهة طالب تحت التوقيف ، وهو يؤدي امتحاناً ولا يمكن ان يفكر والشرطي يقف الى جانبه .
ـ أأمر يا دكتور ماذا تريد مني ان أعمله
ـ أريد ان تبعد الشرطي عن الطالب وأنا المسؤول عنه .
فأجابني بلطف
ـ هل ثمة مانع اذا اوقفنا الشرطي عند مدخل الردهة ؟
فأجبته
ـ هذا ما أريده
وبعد دقائق حضر معاون الشرطة وأمر الشرطي ان يقف عند مدخل الردهة .

ولما مررت بالطالب لاسأله عما يراه في مريضته شكرني بحرارة ، فقلت له :
ـ لا داعي ان تشكرني . والآن انت في موقف الامتحان ، فقال لي :
ـ استاذ أنا مكمل واذا رسبت مرة ثانية فانت تعرف ما يحل بي لو رسبت في هذا الامتحان
وسألته
ـ مكمل في موضوع النسائيات فقط؟
ـ مكمل في الدروس الثلاثة ؛ الطب والجراحة والنسائيات.

وقد عرفت من جدول اسماء الطلبة المكملين ان هؤلاء هم على الاكثر من ذوي الميول السياسية المتطرفة ، فهل ان الطالب الذي يدرك انه عاجز عن متابعة دروسه يميل الى ممارسة السياسة باغراء ممن يقودون هذه

الحركات المعارضة للدولة ؟ وقد كلمني قبيل هذا الامتحان صديق سياسي طالب ان أساعده هذا الطالب الذي اتكلم عنه الآن ، وكلاهما من اتجاه سياسي واحد ، اليس هذا تخريب للشباب الناشيء ؟ وأخذت موقف الجد كممتحن وسألت الطالب الموقوف

- ما هو شكوى هذه المريضة ؟

فقال لي باعتداد وكأنه واثق من صحة تشخيصه

- شكواها من المشيمة المتقدمة .

- هل قالت لك ذلك ؟ وكيف عرفت انها مصابة بالمشيمة المتقدمة ؟ طيب أسألك

- عرّف لي المشيمة المتقدمة

- هي المشيمة المتقدمة في الرحم .

- انت فسرت الماء بالماء لا أكثر من ذلك

- ما هي العلامة التشخيصية لهذه الحالة المرضية ؟

فقاطعني

- استاذ أنا مكمل ، ومروءتك ! وأنا معتقل وكيف استطيع مراجعة كتبي في المعتقل !

- طيب يا أبني ، أي موضوع تعرفه بثقة لنتكلم فيه ؟

- استاذ ، أرجوك

- طيب يا أبني أخرج ، واعدك أنني سأتكلم في موضوعك بمجلس الكلية ، تفضل أخرج .

وتساءلت مع نفسي هل ان رؤساء هذا الطالب في الحزب يتغاضون عن اخطائه في تطبيق أوامرهم ؟ فكيف نتساهل معه اذا اخطأ في الامتحان وهو مقبل على تولي ارواح الناس ؟

ذكرت ذلك لصديقي الذي سألني عن ميولي السياسية ، واظنه فهم موقفي من الاحزاب

فقال لي :

- فهمت !

الاستاذ وردل والرهان على تشخيص حالة مرضية/ ١٩٥٥

الدكتور وردل أحد الاساتذة الانكليز الزائرين في قسم الجراحة بكلية الطب بغداد . كان صغير الحجم ، ويعمر يزيد على الستين سنة ، ثقيل السمع وقصير البصر الا بعوينتين سميكتين على أنفه . وكان يميل الى الفكاهة ويجيد سردها لولا انه يضحك أو يبتسم على الاقل قبل ان يشرع بها ، وهو يضم شفتيه ليخفي طقم اسنانه المصطنعة ، غير ان طقطقاتها اشد من ان تخفى . وهو اسكوتلندي ولكن لايتردد ان يضحك من ملته اذا حكمت المناسبة . قال لي يوماً ان الاسكوتلندي اذا أراد شتم احد فيقول له

ـ اراهن انك لاتعرف أباك ! (واضاف) وهذه أقبح شتيمه في جعبة اولئك الانذال !

ومرة قال لي

ـ ان استاذي (بويد) الپاثولوجست المشهور ، كان يصر على طلابه ان يذوقوا (البول) للتأكد من طعمه ، ويريهم كيف يفعلون ذلك فيغمس إصبعه الأوسط في بول المريض المعد للفحص ثم يخرجه ويمص سبّابته ، ويقلده الطلبة الإ انهم لم ينتبهوا الى أنه مص السبابة لا الاصبع الاوسط الذي غمسه في البول فيمص الطلبة الاصبع نفسه الذي غمسوه في البول .

وقال لي

ـ بالمناسبة عن تذوق طعم البول في الطب ! ان الاطباء العرب في ايام الخلفاء العباسيين كانوا يذوقون البول للتأكد من حلاوته ودرجتها (ثم اضاف) واظنهم كانوا يفعلون ذلك لتشخيص مرض الديابتيس (داء السكري)

وكان الاستاذ وردل رئيساً لدائرة الجراحة في الردهة الثانية عشرة بالمستشفى الملكي ، ويساعده الدكتور خالد ناجي وقد اولاه اهتماماً خاصاً حتى صار يعتمد عليه في العمليات الجراحية واعطاء المحاضرات ، واستفاد منه الدكتور خالد مالم يستفد منه غيره من الاطباء ، فكانا خير معلم وخير تلميذ في هذا الاختصاص . كما كان خالد يهتم بتوفير الراحة

لاستاذه وردل فيبكر لحمله بسيارته من نادي العلوية حيث يسكن وردل الى المستشفى الملكي ، ويعيده بسيارته الى نادي العلوية بعد انتهاء الدوام الحكومي في المستشفى . وسألت وردل يوماً .

- متى تشتري سيارة لنفسك ؟

فأجابني بجدية أو بفكاهة .

- سأشتريها حين تخترع لها دواليب ضد التلف والبلى ، وحين تسير بلا وقود، والأهم من ذلك حين تصلني تلك السيارة هدية بلا مقابل !

وفي يوم طلبني الى مكتبه في الردهة الثانية عشرة ، ولما صرت في غرفته نهض عن كرسيه وتقدمني وهو يمسك بيدي الى سرير رجل مريض في احد اسرة الردهة في العقد الثالث من عمره، والتقط أحد اوراقه المختبرية ، واذا فيه ورقة بفحص بول هذا المريض بنتيجة موجبة عن وجود الحبل فيه بينما المريض رجل لا إمرأة ، فسألني كيف أفسّر هذه الحالة الغريبة ؟ وعرفت حالًا ان في هذا الأمر مقلب ، فسألته عن شكوى المريض فأجابني ورم في خصيته ، وضحك وضحكت معه ، فالورم من صنف السرطانات التي تفرز الهورمون الذي يعطى فحصاً موجباً عن وجود الحبل فقال لي .

- هذا جواب صحيح لو انك قلته امام لجنة امتحان بانكلترا ، أما هنا في بغداد فان أول مايتبادر الى ذهني ان يكون البول الذي فحص في المختبر هو بول إمرأة ، وان الخلط قد وقع بين قاورتين من بول رجل وبول إمرأة وضعتا دون اهتمام جنباً الى جنب على طاولة الابوال المعدة للفحص ، وهذه المعلومة يجب ان لاتنسى ولدى امثلة على الخلط الذي اشرت اليه .

(ثم قال) نعم انت مصيب فان الورم المصاب به هذا المريض ورم خبيث (سمينوما) في خصية هذا الرجل .

وطريقة تعليم وردل استقرائية ، بلماذا وكيف ؟

وقد علق على الجدار الذي خلف كرسيه قطعة من الخشب كتب عليها هاتين العبارة (لاتنس ان تسأل : لماذا وكيف)

وذات يوم احتجت الى رأيه في حالة مرضية بمستشفى السامرائي اعقبت عملية رفع الرحم ، وكنت اشك بوجود نزف ثانوي داخلي ، وحين حضر صحبته الى غرفة المريضة وان اقول له انني لست متأكداً من تشخيصي لاعيد فتح البطن واربط الوعاء الدموي الذي ينزف الدم . وحين وصل الى جانب سرير المريضة ركز النظر على وجهها ، ثم مدّ كفه ولمس

انفها ، ثم سألني عن ضغط دمها فلما اجبته انه ليس واطئاً بقدر اعده كثيراً ، استدار وردل نحوي وسألني : هل لمست انف المريضة ؟ واستطرد :

ـ انه دافىء ، كما اني لم ألمس انتفاخاً في البطن ، ولذلك فانني أنفى ان يكون ثمة نزف داخلي وحاجته فيما اعتقده عكس مايعتقده ، فقال لي مازحاً أو جاداً : الى الرهان ياكمال فاذا كنت انت مخطئاً فاشتري لي حذاء من شركة (باتا) وان كنت المخطىء فسأعطيك السيارة التي سأقتنيها . وغادر وردل المستشفى ونحن متفقان على هذا الرهان . أما انا فلم اغادر المستشفى حتى الرابعة صباحاً حين تأكدت من وجود دم في الجوف الحوضي ، فنقلت المريضة الى صالة العمليات وفتحت بطنها واذا الدم يكاد يملأ بطنها فربطت الوعاء الدموي الذي كان منبع الدم وكان من أوعية المبيض الايمن واعدت سدّ البطن . وفي الساعة العاشرة صباحاً كلمني الاستاذ وردل تلفونياً يسأل

ـ اخبارك ياكمال ؟

وعرفت انه بهذا السؤال قصد المريضة التي اختلفنا على تشخيص حالتها المرضية في الليلة الماضية فأجبته .

ـ لقد خسرت الرهان يااستاذ وردل ، وانا بانتظار السيارة .

فقال لي على الفور

ـ وأنا على وعدي ، وستصلك بعد ان تأتيني هدية كما قلت لك حين سألتني عن اقتنائها .

في بون عاصمة المانيا الاتحادية/١٩٥٦

في شهر تموز من سنة ١٩٥٦ كنت ضيفاً على سفير العراق في بون (المانية) علي حيدر سليمان . واتفق ان كانت زوجته (أم عامل) يوم وصولي الى بون قد شكت من آلام بطنية مفاجئة فاستشارت استاذ الامراض النسائية واسمه (زيكه) فطلب مني زوجها أبوعامل ان اصحبها الى مجمع جامعة بون حيث يشتغل الاستاذ زيكه . بدأت سيارة السفارة العراقية التي اقلتنا الى ذلك المجمّع تصعد الطريق الذي يتلوى بشكل حاد ليصل الى قمة جبل (ڤينوس برغ) الى جبل الزهرة الذي تتربع عليه

العمارات الملحقة بجامعة بون بما فيها المستشفى الذي يعمل فيه الاستاذ زيكه . وحين ترجلت من السيارة اجتذبني منظر ابراج الكنائس واشجار الحور والسرو وهي تبرز من بين الضباب الكثيف الذي يحف بالمنطقة من جميع جهاتها بينما يفصل الجبل الذي اقف عليه عن المنطقة التي يغلفها الضباب واد عميق ينتهي بقاع تكسوه اشجار غنية بالخضرة تقاطعها اكواخ بسقوف قرميدية اللون متقاربة أو متباعدة ، كان هذا المنظر من مكاني الذي اقف فيه خلاباً يدخل البهجة الى النفس .

ودخلنا المستشفى لنقابل الاستاذ زيكه في مكتبه ، وكان هذا المكتب مليئاً بالاضابير وفي جانب منه منضدة وراءها كرسي تحتله سيدة بقيافة ممرضة في خريف عمرها . وفور ذكرنا لها اسم السفارة العراقية ، قالت لنا : الاستاذ زيكه في انتظاركم ونهضت عن كرسيها وتقدمت من باب الى جانبها ونقرته باصبعها ولم تنتظر اجابة من داخله بل فركت أكرة الباب ودفعته الى داخل وهي تقول تفضلوا .وفي صدر الغرفة كان رجل في نحو الستين من عمره رأيناه يقوم لتوه ووجهه نحونا وهو يقول بالانكليزية

ـ اهلا وسهلًا (ثم اردف) أنا الاستاذ (زيكه)

ان زيكة ممتلىء الجسم ، وسيع الوجه ، منتفخ الخدين ، املط واقرب الى سحنات القسس ، وبرزت هذه الملامح بشكل واضح حين تكلم وخيل لي صوته يشبه صوت الخصايا ، على انني عرفت بعد ذلك انه أب لولد قتل اثناء الحرب العالمية الثانية ، وبنت متزوجة من طبيب يعمل في دائرته ونهض الاستاذ زيكه عن كرسيه وطلب من (أم عامل) ان تتبعه الى غرفة أخرى لفحصها وبقيت أنا وزوجها أبوعامل في غرفة الاستاذ زيكه . وكانت الكراسي التي في هذه الغرفة وثيرة ، والارض مغطاة بطنفسة فيزوزية اللون ، أما جدران الغرفة فمغلقة بالخشب الذي تظهر فيه اليافه بلون داكن . وأمامنا كانت نافذة واسعة تنسدل عليها ستائر خفيفة بلون سنجابي فاتح ، وعبر هذه النافذة تستبين اشجار الصنوبر . ويضع من شجيرات الورد بمختلف الالوان . وانفتح باب غرفة الفحص وخرج منها الاستاذ زيكه وحده وشرع يقول لنا

ـ ساحاول ان اتكلم بالانكليزية

وبدأ يفسر لنا ماوجده بفحص أم عامل قائلًا

ـ الرحم متضخم وملحقاته متورمة ، وثمة مايدل على التصاقات فيها

بينهما (واستطرد يقول) وعلاج هذه الحالة برفع الرحم ، واتوقع ان تكون عملية سهلة ، لأن الرحم يخضع بسهولة للحركة الى اعلى والى الاسفل .
وسألني :
- هل سبق لك ان فحصت هذه السيدة ؟
هي في الواقع من مريضاتي في بغداد ، وأنا الذي اوصيتها برفع الرحم وملحقاته بما في ذلك عنق الرحم والمبيضين ، وعمرها يسمح بالعملية بهذه السعة . وفجأة غير الكلام عن هذه المريضة وسألني
- اي الامراض النسائية عندكم كثيرة ؟
فأجبته
- عسر الولادة . واورام الرحم
- والبواسير المهبلية ؟
- كانت كثيرة وهي الآن آخذة في النقصان بسبب توفر مراكز رعاية الأمومة
- والصرع النفاسي
- لاأذكر انني شاهدت حالة واحدة منذ عشر سنين
فقال
- للغرابة . ان هذه الحالات المرضية لايزال لها وجود في المانيا وخصوصاً في مناطق الجبال . (ثم اردف) هل لي ان اسألك ان تتكلم عن هذه الحالات أمام الاطباء والطلاب ، غداً أو في اي يوم تراه مناسباً لك ؟
وفي اليوم التالي ادخلت المريضة أم عامل الى المستشفى بينما اعلن الاستاذ زيكه عن المحاضرة التي سأتكلم فيها عن البواسير المهبلية في العراق وفي اليوم الثالث كنت احاضر في هذا الموضوع بينما كانت أم عامل تحت التخدير لتجرى لها عملية الرحم ، وكان في قاعة المحاضرات تلميذان من أهل بغداد تقدما مني بعد الانتهاء من المحاضرة وحيياني فرحين بوجودي هنا وكوني احاضر امامهما في موضوع لم يشاهدا من حالاته المرضية الا قليلاً جداً

عملية مستعجلة لطالبة بكلية الطب ١٩٥٦/٥/٦

بينما كنت اتفقد مرضى جناح الحادي عشر للامراض النسائية ، استدعيت للاجابة على طلب تلفوني من كلية الطب ، وكان الذي طلب مكالمتي عميد الكلية .

- استاذ كمال ، طالبة اغمي عليها في قاعة الامتحان ، وقد افاقت الآن غير انها تشكو من آلام حادة في بطنها السفلى ، اعتقد ان لموضوعها علاقة باعضاء الحوض .

وذهبت مسرعاً الى قاعة الامتحان بكلية الطب ، فوجدت المريضة لاتزال متمددة على حشية خفيفة على ارض القاعة . كان وجه هذه المريضة شاحباً وعيناها قلقتان ، والنبض سريعاً . وتلمست بطنها من تحت الغطاء الذي كساها . فلمست كتلة حساسة تملأ ماتحت سرّة المريضة . وكانت هذه الطالبة تؤدي الامتحان النهائي قبل التخرج في الطب الباطني وقد أتمت الاجابة قبل ان ينتابها الألم بدقائق . وهي من خيرة الطلاب خلقة وخلقاً ، رشيقة وخفيفة الروح ودائمة الابتسام . وهي من اب عراقي وأم انكليزية وكلامها بهذه اللغة يميزها عن جميع اترابها على طول سنى الدراسة ، وبفحص سريع عرفت ان في بطنها انصبابات دموية . وطلبت من ادارة الكلية نقلها الى أحدى غرف دار التمريض الخاص ، واتجهت نحو دائرة العميد لأخبره بضرورة اجراء عملية على الطالبة المريضة ، وكان ابواها قد وصلا الى غرفة ابنتهما بدار التمريض الخاص . كما كانت ابنتهما قد استعادت كامل وعيها ، فاردت ان استزيد من تأريخ حياتها الصحية والمرضية .. فوجدت ان العادة الشهرية طبيعية في الكمية سوى أنها مصحوبة بألم في اسفل بطنها ينتابها بين حين وحين ، وكان محتملا ، وليس له علاقة زمنية بالعادة الشهرية . وسألتها

- وماذا عن حسك بالامتلاء في بطنك السفلى ؟

- نعم المسه أو ان اتصور انى المس زيادة تدريجية في حجم بطني السفلى ، وقد يكون ذلك خيالا او حقيقة ، غير انى صرت المس منذ شهر صلابة في بطني لم اكن المسها قبل ذلك .وسمحت لي هذه الطالبة المريضة ان افحصها كما يقضي فحص الحوض في مثل حالتها المرضية ، فتأكدت من اصابتها بورم في احد المبيضين مع وجود إنصباب مواد سيالة تملأ

مابين الورم وجدران الحوض . وقررت اجراء عملية ، ولم تعترض المريضة على هذا القرار ولا مانع ابواها . ولم تكن العملية كما توقعت ، اذ كانت من نوع الاندوميتريوسس وهو ورم صفته البارزة الالتصاقات فيما بينه وبين اعضاء الحوض وانسجته ، وفصل هذه الالتصاقات لايكون سهلًا اذا شملت لفات من الامعاء . وخرجت المريضة بعد خمسة ايام بحالة تبدو جيدة ، ولو انى اتوقع ان هذا الورم قد يعود مرة اخرى في وقت آت ، ولابد ان الطالبة هذه وهي من أنجب طالبات الكلية تعرف ذلك ايضاً . فسافرت الى انكلترا لمتابعة علاجها وللدراسة العليا ايضاً . وانقطعت اخبارها عني اكثر من عام .

وفي يوم ٤ / ٨ / ١٩٥٧ كنت في جنيف عضواً في المؤتمر العالمي الأول للامراض النسائية والتوليد . وفاجأني أحد اعضاء المؤتمر

- دكتور سامرائي ؟

فأجبته

- نعم أنا دكتور كمال سامرائي من بغداد

- قرأت ذلك في بطاقة هويتك هذه واشار باصبعه الى البطاقة التي تتدلى من عروة سترتي .

كان هذا الطبيب طويل القامة ، ركيك العينين ، احمر الشعر وبادرني يقول :

- أنا (إيان دونالد) ، ولي مريضة كانت يوماً احدى مريضاتك في بغداد ، وقد رفعت منها كيس اندوميتريوسس في الحوض ، تذكر ذلك ؟

- اذكر ذلك ، وكانت يومئذٍ طالبة تؤدي الامتحان واسمها سعاد صبحية

- هي بالضبط ، وأريد ان اسمع منك عن عمليتها . فقد عادت تشكو من آلام في بطنها ، واني لمتردد لصغر سنها ان ارفع ما بقي في جوف حوضها من الاعضاء الانثوية ، فقد يساعدها الحظ فتحبل ولو ان ذلك احتمال ضئيل .

وبعد نحو عام بلغني ان الدكتورة سعاد . قد حملت ، وهي حالة لا تحدث إلا قليلًا وكان ذلك من حسن الحظ لا بتدبير الطب .

في كوبنهاكن / ١٩٥٦

• دعتني شركة اوركانون الهولندية لصنع الادوية الطبية المشهورة لحضور مؤتمر في الهورمونات النسائية يقام في استكهولم بالسويد ، واقترحت عليّ ان استحضر كلمة بهذا الموضوع تخص مستحضراتها التي نستعملها في الامراض النسائية . وكان في خاطري منذ مدة غير قصيرة ان مستحضر (جستانون) الذي تصنعه هذه الشركة يحتمل ان يكون اكثر فعالية في منع أو ايقاف تقلصات الرحم اثناء الحبل وبالتالي يعالج حالات سقوط الجنين ، لو أضيف اليه قليل من (الاستروجين) ، فصممت ان اتكلم في هذا الموضوع في المؤتمر الذي دعتني شركة (اوركانون) اليه ، وهذه الشركة هي التي تصنع حبات (الجستانون) التي ذكرتها أنفاً .

واستقبلني في مطار (كوبنهاكن) عاصمة الدنمارك شخص أشيب في العقد السادس من عمره ، وحملني بسيارته الى فندق (كرانسنابولسكي) الذي يحتل جبهة واسعة من الساحة التي تحمل الاسم نفسه وهو الفندق نفسه الذي اقمت فيه اربعة ايام في سنة ١٩٥٦ الا تغييرات طفيفة في بعض اركانه الداخلية ، فدائرة الاستعلامات لم أرها في مكانها القديم بل هي الآن الى يمين مدخل . بهو الفندق ، كما ادخلت لمسات جمالية في جدران الصالة وسقفها ، والسلم الامبراطوري الذي يلتوي بثقل ليصل الى الطابق الاعلى ، لا أراه الآن ، وحلّ على قاعدته مكتب للسياحة والسفر

وفي صباح اليوم التالي استيقظت على أصوات صاخبة أمام الفندق ، فاستعلمت عن ذلك فاخبرني من في دائرة استعلامات الفندق انه من الأسلم ان لا اغادر الفندق ، غير اني كغيري من نزلاء الفندق تقدمت الى بابه الزجاجي الوسيع ، ومن خلاله شاهدت جموعاً من الشباب والشابات بعمر المراهقة تحتل مداخل الشوارع التي تنفذ الى الساحة ، وهي ترمي زجاجات مليئة بالنفط فتتدحرج على الارض وينسكب منها ثم يوقدون مسحلها فتندلع النيران لتلتهم ما وصل اليه النفط من سيارات ومخازن البضائع .

وفجأة اندفعت الى الساحة مجموعة من الشباب ومن ورائهم عددة اقل من رجال البوليس بخوذ معدنية وبايديهم الهراوات ، ورأيت رجال

البوليس يقفون عند المنفذ الى الساحة ولم يتقدموا الى داخلها لملاحقة المتظاهرين . وبعد دقائق تكررت مثل هذه العملية من منفذ آخر الى الساحة ، ولم تمض ساعة واحدة إلا كان جميع المتظاهرين يحاصرون ضمن نطاق الساحة ولم تمض إلا دقائق بعد ذلك حتى دخلت الساحة شاحنات البوليس وحملوا عنوة إلا بمقاومة ضئيلة ذلك المجموع الثائر وخلت الساحة إلا من قناني النفط الفارغة . وفيما أنا اترقب من يأتي لاستصحابي الى شركة ساس لتحملني الى استكهولم ، طلبني نداء تلفوني الى دائرة الاستعلامات ، وكان المتكلم من شركة أوركانون يخطرني ان استحضر نفسي باقصى سرعة ليأتي ويأخذني الى المطار (واضاف يقول) ان اكثر شركات الطيران قد اضربت ويخشى ان يعم الاضراب شركة KLM الهولندية وطائرتها هي الوحيدة التي لا تزال تعمل بين كوبنهاكن واستكهولم ، وانها ستقلع بعد ساعتين من (بروكسل) ببلجيكا . واجتزنا الحدود الى بلجيكا دون اعتراض من بوليس الحدود أو الكمارك . وأسرعت الخطى ومعي مرافقي الهولندي الى دائرة شركة طيران KLM في المطار ، وبينما نحن ندخل بهو المطار سمعنا من يعلن عن إضراب هذه الشركة . وهكذا عدنا أدراجنا الى أمستردام . ولولا وساطة مرافقي الهولندي لما حصلت على غرفة دون حجز مسبق في الفندق الذي غادرته قبل ساعتين ، وفيما كنا نستريح في بهو الفندق بانتظار تهيئة الغرفة التي حصلت عليها . قال لي مرافقي

- عندي فكرة ان نجمع بعض اطباء شركة اوركانون في قاعة الشركة المخصصة لالقاء المحاضرات ، لتبحث معهم موضوعاً طبياً له علاقة بمستحضرات الشركة وبذلك نكون قد عملنا شيئاً يبرر أستدعاءكم الى شركة (أوركانون) في (أوس)

ورأيت الفرصة مناسبة والفكرة مقبولة لابحث فائدة خلط مقدار من (الاستروجين) في حبوب الجستانون التي نصفها لحالات التهديد بالاسقاط أو للوقاية منه . وهذا ما حصل ، وعدت في صباح اليوم الثاني على متن احدى طائرات شركة KLM الهولندية الى بيروت .

في فندق الكرمة ببحمدون (لبنان)

وصلت الى بيروت في تمام الساعة الواحدة ظهراً ، وبعد استراحة بعد الغداء في فندق الكرمة بحمدون ، دخلت صالون هذا الفندق وكان فيه حشد من الاطفال يتحلقون حول التلفزيون لمشاهدة فلم (مكي ماوس) ، وكان ضجيجهم اعلى من صوت التلفزيون بكثير ، وتنازعهم على احتلال الكراسي لا ينقطع ، وإذ انني أميل الى مراقبة تصرفات الاطفال ، كما استمتع بمشاهدة افلام (مكي ماوس) والكارتون وبين ابطال هذه الافلام وبين تصرفات الاطفال على ما ارى تقارب كبير في الحركات ، كما ارى في تسلسل حركات مكي ماوس خيالًا ما بعده خيال ، وفيه كثير من سمات الفن والذكاء . ولكل هذا فضلت ان أبقى قريباً من هؤلاء الصغار وفلمهم المفضل قبل ان الجأ الى قيلولتي التي اعتدت عليها اكثر أيام حياتي .

كان أحد هؤلاء الاطفال متحمساً لبطل القصة في فلم التلفزيون . وكان هذا البطل هندياً بضفيرة شعر من رأسه يزينها بريشة دائمة الاهتزاز وهو على جواد بذيل طويل ، فاذا نط هذا البطل على ظهر جواده بقفزة واحدة ، أو اذا ركبه حضراً صفق له ذلك الطفل وهو يحرك كرسيه بعصبية تزداد كلما ازدادت سرعة جواده . وكان الى جانب هذا الطفل طفلة أصغر منه عمراً تنفخ في لبان يندفع من بين شفتيها ثم ينفجر ثم تعيده الى فمها ، وتكرر هذه الطفلة نفخ اللبان مرة أخرى ، وهكذا لم تنقطع عن هذه اللعبة الرتيبة ، وهي تفعل كل ذلك دون حماس ملحوظ ، فكأنها في عالم آخر غير عالم الاطفال الذين حولها بالرغم انها تنظر الى شاشة التلفزيون من وقت لآخر . وقد تصيبها ضربة عابرة على كتفها من ذلك الطفل المتحمس الذي يجلس الى جانبها فتتنبه لمتابعة حركات البطل الهندي فتحملق في الشاشة ثم سرعان ما تعود الى عالمها في اللهو بنفخ اللبان وهو ما يجول بخاطر هذه الطفلة .

ويبدو ان تلك الطفلة ضاقت ذرعاً وبرمت بمضايقات جارها الطفل المتحمس للبطل الهندي ، فنهضت عن كرسيها وهي تسوّى محزم قميصها لترفعه ، واتجهت الى طرف الحلقة وجلست على كرسي لم يكن

لصيقا بالكراسي الأخرى التي حول التلفزيون ، ولم تعد تنفخ في اللبان الذي في فمها حين ظهرت في شاشة التلفزيون فتاة مقيدة بالحبال الى جذع شجرة ، وحرك مشاعرها هذا المشهد فصارت تركز عليه اكثر فاكثر حين لاح في الافق ذئب يعدو في اتجاه تلك الفتاة ، وسرعان ما ظهر ذلك البطل الهندي الذي لم تكن تهتم له ، وطعن الذئب بمدية استلها من محزمه ، وفك وثاق الفتاة بالحبال الى جذع الشجرة وحرر الفتاة ، حينذاك شرعت هذه الطفلة تشارك الاطفال الآخرين في التصفيق والتهليل لهذه العملية الجبارة التي انقذ بها البطل الهندي حياة الفتاة ، وبدا على وجهها فرح النصر حين اردف البطل تلك الفتاة وراءه على ظهر جواده ، وابتعد حتى غاب عن الانظار

ما الطف حركات الاطفال وما أنبل براءتهم. وبينما انا متشاغل بافكاري فيما حدث لي بهولندة مرت بجانبي سيدة وجلست على كرسي ليس بعيداً من مجلسي . كانت هذه السيدة في نحو الثلاثين من عمرها ، حنطية البشرة ، عذبة المحيا ، ضاحكة السن ، ولما التفتت نحوي سألتني .

- حضرتك من العراق ؟

فأجبتها

- نعم من العراق ، من بغداد

فقالت :

- أنا من هون ، بالضيعة

وأدارت وجهها نحو التلفزيون ، وبعد برهة عادت والتفتت نحوي وسألتني

- عندكم في العراق تلفزيون ؟

- عندنا تلفزيون بقناتين ، ونشاهد عروضه في بغداد وحواليها ، وبرامجه منوعة للكبار والصغار .

طفل يسرق من ردهة الولادة / ١٩٥٧

إنقضت عطلتي الصيفية بلبنان ورجعت الى عملي في ردهة الولادة في المستشفى الملكي ، كل شيء على وضعه الذي الفته قبل سفري الى خارج

العراق . واستقبلني (بواب) الردهة ، وهو رجل في وسط العمر ، يلف على رأسه يشماغ ، وفي عينه اليسرى حول يسير ، وهو عموماً عبيط ، غير انه جشع ووضيع ، ولا يتردد من ان يأخذ اي عطاء من اية مريضة ، فقيرة أم غنية ، بل كان ينوه لهن عن ذلك اذا تناسين مطلبه . نهض هذا البواب عن كرسيه الصغير ، وتقدم يستقبلني بترحيب .

- اهلا بعمي ، نوّرت المستشفى .

وانا اعرف هذا الرجل متملقاً كاذباً ، وإعتدت أن لا أجيبه على تحياته متعمداً ، ولكنه لا يبالي بذلك فيعيد ترحيبه لي حتى لو مررت به عشرات المرات ، واسرع الخطى وهو يقول للمريضات المزدحمات على مدخل الردهة

- بالكم ، المدير

وتأتي رئيسة الممرضات الى غرفتي وتقول لى معاتبة

- لم تخبرنا بقدومك يا أستاذ ، غرفتك غير مرتبة .

وأنا أعرف أن هذه الغرفة لم تكن يوماً ما مرتبة ، فاجبتها وأنا غير صادق

- لابأس

وتأتي اكثر الزميلات الواحدة تلو الأخرى . فاستقبلهن واقفاً

- أهلاً وسهلاً بكن جميعاً .

واسمع منهن بعض ما حدث في الردهة اثناء غيابي عنها ، وتحضر المقيمات الجدد ، غير ان القسم ما زال بلا مقيمة قدمى . وفي اثناء حديثي مع الزميلات سمعت صخباً في الردهة ظننت أولا انه من زائري الردهة الذين يكثرون بشكل خاص في يوم الاثنين وهو يوم الزيارة ، وازداد الهرج والمرج بشكل اضطرني الى ان أخرج من غرفتي لاتبين السبب ، فقابلتني ممرضة الردهة نجيبة جرجيس ، فسألتها .

- ما الأمر يا نجيبة ؟

فأجابتني وهي تقبض على يد إمرأة تحاول ان تفلت منها بينما تحمل هذه المرأة طفلاً صغيراً بين ذراعها الأخرى ، قالت نجيبة .

- انتهزت هذه المرأة ازدحام الردهة بالزائرين فنهبت طفلاً صغيراً من مهده حين ذهبت أمه لقضاء حاجة .

فانتبهت باهتمام الى هذا الاتهام الخطير وسألت المرأة .

- هل صحيح انك حاولت ان تسرقي هذا الطفل الذي على ذراعك ؟

فأجابتني بخوف .
- أبداً ، هذا إبني
وسألتها
- هل انت وضعت الطفل في هذه الردهة ؟
- نعم وضعته في هذه الردهة .
- متى ؟
- قبل يومين
- إسمك يا إمرأة ؟
- علية بنت حسين
فقلت للقابلة نجيبة
- احضري لي سجل المرضى في الايام الأخيرة
فانها رت المرأة وتصنعت الغيبوبة ، فرأيت أن اطلب مفوض الشرطة في هذا المستشفى ، وحين حضر أمامي التفت نحو المرأة وحياها مع ذكر اسمها الذي عرفته منها ، فسألت المفوض
- تعرفها ؟
فأجابني
- هي من محلتي بمنطقة (السباع) بشارع الشيخ عمر ، وزوجها جداد بحانوت غير بعيد من بيتي
وقلت له
- تدعي هذه المرأة ان هذا الطفل الذي تحمله ابنها ، وقابلة الردهة تدعي انها حاولت ان تسرقه من الردهة ، كما أننا لم نجد في سجل المريضات واحدة بمثل اسمها ، وهذا ما استدعيتك لأجله .
فقال مفوض الشرطة
- أنا أعرف من أهلي ان علية حسين تزوجت دون ان تنجب ولا اعرف غير ذلك . ورأيت هذا الموضوع مبهماً فطلبت من مفوض الشرطة ان يستدعي زوجها من محله في منطقة السباع ، وبعد نحو ساعة حضر زوجها فسألته .
- هل هذه المرأة زوجتك ؟
- نعم زوجتي ، وما الأمر ؟
وسألته :

- متى وضعت طفلها
فأجابني
- قبل يومين .
وسألته
- هل هذا الذي بين يديها هو ابنها ؟
فنظر الى الطفل باستغراب واجابني
- كلا انه اكبر منه بكثير .

وفي هذه اللحظات دخلت غرفتي إمرأة من الردهة وهي تحمل طفلا بعمر سنة ، وقالت تشير الى الطفل الذي تحمله ، ان المرأة التي تدعى ان الطفل الذي اخذته غفلة من مهده ، هي كانت تحمل هذا الطفل الكبير وهي التي رفعت الطفل الصغير من مهده . وفي هذه اللحظات قال مفوض الشرطة

- عرفت الآن تفاصيل هذا الأمر ، فقد اختفى من محلتنا طفل بعمر سنة ، واني اعرف أباه .

واستدعي أبو هذا الطفل فتعرف على ابنه الصغير ، وفي لحظة مفاجأة هجم زوج المرأة السارقة على زوجته واشبعها ركلا وضرباً . والتفت الينا يقول :

- هذه بنت الملعون خدعتني تسعة أشهر متظاهرة بالحبل بعد زوج دام اكثر من ثلاث سنوات ، ويوماً أخذتها أمها الى المستشفى لتلد فيه وعادا ومعهما طفل كبير ، ففرحت به فرحاً كبيراً فاكرمت أمه بعشرة دنانير ، واشتريت لها قدراً من التفاح والعرموط ، واستغربت ان الطفل الذي إدعت انه ابننا قد نتش تفاحة من يدي وحاول قضمها .

وهكذا وضح هذا الأمر ، فقد سرقت تلك الزوجة طفلاً من بابه داره ، وادعت امام زوجها انها ولدته في المستشفى ولما رأت ان الجيران سينكرون انها ولدت ابنها بذلك العمر التجأت الى تبديله بطفل اصغر تسرقه من الردهة العاشرة في المستشفى الملكي ، فدخلت هذه الردهة في يوم الاثنين وهو يوم زيارة المرضى وعملت وخططت له . ولكن حيلتها انكشفت ، وسيقت تلك المرأة الى القضاء .

الفنانة نجاح سلام / آذار ١٩٥٧

هذا الموسم في التلفزيون العراقي عن الفنانة اللبنانية نجاح سلام ، وقد ملأت شاشة التلفزيون بحجمها المترهل وهي تغني .

ياما حبينا وبنينا قصور

وحواليها جناين وزهور

وقد سحبتني هذه الفنانة وأنا انظر اليها في التلفزيون خمسين سنة الى الماضي يوم سمعتها تغني في اسطوانات بيضافون مقطوعتها الشهيرة (يا جارحة كلبي والجرح يؤلمني) ومقطوعتها الاخرى (حوّل يا غنام حوّل ، بات الليلة هين) وكنت لا اسمع أحدى هاتين الاغنيتين إلا وانا أتخيل عمر هذه المغنية فتياً بعمر وردة الصباح الفواحة بالطيب . ثم رأيتها لأول مرة يوم دخلت عيادتي التي كانت فوق مقهى (شريف وحدّاد) الواقع على رقبة جسر الاحرار ، دخلت هذه الفنانة عيادتي ومن ورائها أبوها البدين (سلام)

وشاب عراقي صار واسطة التعارف فيما بيني وبين الزائرين اسمه (طالب التميمي) وذهشت بفرح حين قدم لي هذه الفنانة باسمها كاملاً (الانسة نجاح سلام) وعرفت ايضاً في هذا اللقاء ان أباها هو الذي يلحّن لها أغانيها ويصاحبها حين تغنى في الضرب على أوتار العود .

أما طالب التميمي فمن عائلة موسرة تعمل بالزراعة والتجارة .

وكان ذلك اليوم من أيام تموز الحارة الرطبة ، فكانت الفنانة نجاح سلام ترتدي غلة رقيقة النسيج من خيوط الحرير الناعم بلون الوردة ، وتكشف عن صدر ناهد مثير ينحصر عند محزمها كما تحزم الورود لتكون منها باقة لمزهرية في صالون ، فقمت لها لأصافحها وارحب بها ، فقالت وهي تحرك الهواء بيمناها ليلطف وجهها المتورد ،

- شو هالحر عدكم ببغداد ، يالطيف !

فقلت لها مداعباً ببراءة .

- انك يا أنستي تزيدين في حرارة غرفتي

وفهمت الاشارة فقالت :

- مرسى يا حكيم

ثم قلت لها :

- تفضلي أنا بخدمتك يا أنسة نجاح.
وفجأة مدت يدها ورفعت ذيل فستانها دون توانٍ أو تأنٍ الى ما فوق فخذها الأيسر من وجهه الانسي وهي تشير الى بثرة صغيرة في أعلى فخذها وتقول
- هاى دى تضايقنيْ يا حكيم، إمسكها يا حكيم، هي قوية.
وتلمست تلك البثرة الصغيرة، فاذا هي قوية فعلًا ولكنها ليست ذات أهمية، ولما قلت لها ذلك قالت:
- كيف لا شيء؟ وهي (تنخسني) يا حكيم؟
ورأيت من اللياقة والكياسة ان اقول لها انها بصيلة زغب ملتهبة بفعل الحر والعرق لا اكثر من ذلك، ولكن اين الزغب في جسمها الناعم ليلتهب، ولكنه موجود ولو بصورة لا يرى فيها كثيفاً، فامسكت عن ذكر ذلك. وعادت تطلب مني ان امسكها باصابعي، فاذعنت لطلبها، واكتفيت بقولي
- نعم انها قويّة
- شو أعمل لها دخلك؟
- لاتعملي شيئاً
- دواء؟
- لا تحتاجين الى دواء لها، (واردفت اقول) الحقيقة أنا لا اختص في علاج مثل هذه الحالة، ولكن من أجل عينيك (ياجارحة گلبي) قلت ما قلته لاريحك يا آنسة نجاح
وابتسمت لهذه الاشارة وقالت
- الكل هون في بغداد يذكرون هذه الاغنية ويحبوني من أجلها.
فقلت لها:
- بل يحبون الاستماع الى هذه الأغنية من اجلك يا آنسة.
تذكرت ذلك وأنا انظر الى نجاح سلام وهي تغني وتهز كتفيها في التلفزيون العراقي. كما تذكرت ليلة كانت بعد ثلاثين سنة من ذلك اللقاء في عيادتي، انني كنت ومعي صديقي الدكتور عزيز محمود شكري، ليلة كنا فيها في ملهى بعالي بلبنان، فرأيتها على منصة الفنانات وكانت قد تزوجت وانجبت، فسمنت واكتنز صدرها وثقل عجزها، غير ان صوتها بقي رخيماً كما كان في صباها، غنياً بالعذوبة، ولاحظتها تصوّب نظراتها

اليّ ثم ما لبثت ان انحدرت من المنصة واتجهت نحوي بخطى خفيفة سريعة ، فقمت لها باحترام

- اهلًا وسهلًا بالحكيم

- واهلًا بك ياست نجاح ، ولكن ما هذه الذاكرة القوية لتستذكري ملامحي بعد هذه السنين الطوال .

فقالت :

- يا عيب الشوم ، كيف انساك ، على الأقل اذكر تلك الليلة الجميلة في بيتك !

ودهشت لهذه الاشارة ، فاية ليلة كانت فيها في بيتي ! فلابد انها خلطت بيني وبين شخص آخر دعاها الى بيته الفخّم ، فمن يكون ذلك الشخص يا ترى ، وقد اقيمت لها دعوات كثيرة في بغداد ؟ وسكت ولم أصحح ذلك الخلط ، وأنا الرابح فيه

ونهضت لتودعني وهي تقول

- تريد أغنية خاصة ؟

فقلت له على الفور ؟

- يا جارحة گلبي

وغادرتنا الى منصة الغناء

عبد الرضا وقسمة

احتجنا في سنة ١٩٥٨ الى صبي صغير لاعمال البيت الطفيفة كالكنس ، والاجابة على النداءآت التلفونية ، وفتح باب البيت للزوار وما الى ذلك ، فحصلنا على صبي من (الشوملي) بمحافظة الحلة في نحو العاشرة في عمره اسمه عبد الرضا ، وكان في حالة صحية سيئة كما كان نصف أطرش ، وقد تحسنت صحته بشكل واضح بعد اشهر معدودة بالغذاء الجيد والأدوية . وكان في حديقة داري فلاح كبير العمر ومصدور اسمه (لازم) ، وله خبرة بتسميد الاشجار وسقيها حصل عليها من اشتغاله في حدائق أمانة العاصمة اكثر من ثلاثين سنة . وكان له ولد من زوجته الأولى التي توفيت اثر ولادته ، وله ايضاً ابنتان من زوجته الثانية التي تزوجها على الكبر ، وكبرى هاتين البنتين اسمها (قسمة) وكانت في

مثل عمر عبد الرضا ، وهي سمراء السحنة مليحة التقاطيع واسعة العينين ، مفتولة الاطراف . ويوم دخل لازم وعائلته بيتي كانت في حديقتي غرفة منعزلة عن البيت وتحتها الاشجار الكثيفة ، وفي ظني كانت تلك الغرفة مناسبة لسكن هذا الرجل وعائلته ، غير ان لازم فأجأني بقوله :

- سأشيد لي كوخاً بين اشجار الحديقة من العيدان والحصران وسعف النخل (وأضاف) وقد نقلت هذه المواد التي كنت استعملتها لكوخي الأول في حدائق الأمانة وسأستعملها لاقامة بيت منها في يوم واحد لا أكثر ،

- لكن ، يا عم لازم ، ادخل الغرفة التي في الحديقة وستجدها افضّل من اي كوخ

- لا يا دكتور ، نحن معتادون نسكن بالاكواخ وعلى طريقتنا ، والله يخلف عليك ، ويزيد خيرك .

ورضخت لرغبة لازم وتركته يعمل ما يريده . وبعد عشر سنوات تقريباً بينما كنت منغمراً في القراءة بمكتبي دخل عبد الرضا عليّ ؛ وعلى وجهه معانٍ لم تخطر على بالي ، وقال لي دون مقدمة

- اريد أتزوج !

فقلت له بما يفهمني ويرضيه

- الزواج تكملة للدين ، وهو سنة نبينا محمد (ص)

فأجابني وهو يمد عنقه نحوي

- ولكن لازم يريد مني ثلاثين دينار

- وما دخل لازم في زواجك ؟

فاجابني . .

- هي بنت لازم ، قسمة

وكان جوابه مفاجأة ذهلت لها ، ولكنها جعلتني أفسرّ اهتمام قسمة بشؤونه الخاصة فتنقل اليه بسريّة الماء المثلج في الايام الحارة أو بعض الاكلات الساخنة في الشتاء ، فقلت لعبد الرضا

- ولكن قسمة لا تزال صغيرة للزواج يا عبد

فاجابني كمن يدفع عنها تهمة .

- ليست صغيرة عمرها ١٥ سنة
- وكيف عرفت ان عمرها ١٥ سنة
- هي التي قالت لي ، واهلي في الشوملي يزوجون بناتهم باصغر من هذا العمر .

وبالاختصار تزوج (عبد الرضا وقسمة) في غرفة لصيقة بكراج سيارتي في احد اركان حديقة بيتي وانجبت قسمة ولداً سميناه علياً وصرنا نكني قسمة بام علي ونكني عبد الرضا بأبي علي .

وصار المولود علي ملهاة مربية اولادي الحاجة (أمونة) كما صار مدلل عموم من في بيتي . وكانت أمونة هي القابلة التي تولت ولادة علي علماً بانها غير متزوجة وهذه أول تجربة لها في توليد الحبالى . وحدث ان مرض (علي) بفقر الدم الخبيث ، واقتضت حالته ان تعالج في مستشفى ، فحملته بسيارتي الى (مستشفى الفردوس) مستشفى سلمان فائق سابقاً ، واستأجرت له غرفة خاصة لتقيم معه أمه قسمة فضلًا على إهتمام ممرضات المستشفى به . وبرىء علي إلا من الشلل الذي ترسبَ في يده اليمنى فصارت تتهدل ثقيلة الى جنبه ، بقيت يده في هذه الحالة على مدى حياته . على ان أمه قسمة وخالته (صبيحة) ظلتا تعتقدان ما أصاب يد (علي) كان جراء الادوية التي عولج بها اثناء مكوثه في مستشفى الفردوس . وفي غضون عشر سنوات تالية انجبت قسمة بنتين وثلاثة أولاد . وكانت قسمة وأهلها يعارضون بإصرار وشدة ان نستشير طبيباً اذا تعرّض أحد اطفالهم الخمسة الى وعكة ، خوفاً (على اعتقادهم) من ان يصاب بما أصاب علياً .

وفي سنة ١٩٧٩ انتقلت الى داري الجديدة في الشماسية (الصليخ القديم) وعائلة عبد الرضا معي طبعاً ، وخصصت لهم ثلاث غرف متصلة بكراج سيارتي . وقسمة ذكية . فقد كانت تراقب طباخي (الاسطة احمد) سنين كثيرة حتى اتقنت الطبخ . واختلفت يوماً مع الاسطة احمد فغادر هذا بيتي وهو على غير رضا مني وانفردت قسمة في الطبخ وصارت تحسنه بشكل مدهش ، حتى صرنا نقول انها لو تسخّن الماء لصار له طعم افضل من طعمه الأول ، عذوبة واستساغة ، والطبخ كما يقال (نفس) من انفاس الطباخ ، والمثل صحيح في تطبيقه على قسمة في المطبخ ، فهي لا تفارق قدور الطبيخ حتى لو طالت مراقبتها ساعات .

وقسمة وزوجها امينان على بيتي ومصالحي الى حد بعيد ، وخدماني بصدق واخلاص ومحبة ، ولما توفيت زوجتي ، كانا لي خير من عني بي واهتم بأموري ، ولما رأيت ان ذلك غير كاف اذ تقدم بي العمر ، وأنا مريض في قلبي وفقرات ظهري ، تزوجت بطبيبة اسنان هي سمية الهاشمي وذات يوم وأنا في مكتبتي دخل عليّ عبد الرضا وفأجأني بقوله انه هو وأهله مضطرون لمغادرة بيتي ، ولما تغلبت على هذه المفاجأة قلت له كمن يستعطف

- عبد ، كيف تسوّغ لنفسك ان تهجرني وأنا الآن أحوج ما اكون اليك والى قسمة ؟

فأجابني

- مكاننا ضاق علينا

- اذا كان ذلك هو السبب فانتقلوا الى (العيادة) وفيها ستة غرف

فأجابني بغباء عددته صلافة وقلة وفاء

- لا يا عمي نريد نطلع من البيت .

ولما رأيت ان في الأمر ما اخفاه عني ، وأنا اعرف ان قسمة هي صاحبة القرار النهائي فيه ، طلبتها بعد ان غادر عبد الرضا مكتبتي وقلت لها

- هل صحيح تريدون ان تتركوني يا قسمة ؟

فأجابتني بحجة هي نفسها لا اظنها تؤمن بها

- البنات والولد كبروا ، وقد يجيء نصيبهم للزواج ، ومن يقدم ليتزوج من بنت أمها خادمة ؟

فأجبتها بصدق ، وهي تعرف ذلك يقيناً

- انت لست خادمة يا قسمة ، انت ابنتي الثالثة ، ومثل نيران وجهان ، واولادك أولادي ، واقبلكم في الاعياد كما اقبل اولادي ، واكسوكم بمثل ما اكسوهم ورأيت قسمة لأول مرة في حياتي بهذه العزيمة والصلابة على مغادرة بيتي ، فقلت لها

- كما تريدين يا قسمة ، ولي الله .

وفي اليوم التالي رأيتهم ينقلون امتعتهم الى سيارة حمل تقف عند مدخل كراج بيتي ، فتقدمت منهم ، وناديت على كل من عبد الرضا وزوجته قسمة وقلت لهما

- ادخلا بيتي وخذا منه كل ما تحتاجان من أثاث ومتاع . فأجابتني قسمة
- أخذنا بعض الاشياء فأوهبنا عليها
- موهوبين والله يحفظكم
ان قسمة وزوجها واولادهما قطعة من حياتي فكيف انساهم ولي ذاكرة ، فدرت منذ تركوا بيتي ابعث اليهم في اكثر المناسبات ما يحتاجونه من تمن ودهن وسكر فضلًا عن الهدايا النقدية في العيدين والمناسبات الأخرى ، إلا ان ذلك مع الاسف لم يقربهم اليّ ولا هم ابتعدوا عن قلبي وافكاري .

حالة صرع نفاسي في الكاظمية / ١٩٥٧

في انساعة الثانية صباحاً كلمني هاتفياً رجل بلهجة تنم عن اضطراب شديد ، فطلبت منه ان يكلمني بهدوء لأفهم منه ما يطلبه مني .
- دكتور مروتك ، زوجتي بحالة تنذر بالموت
فسألته
- ما بها يا أخي ؟
- على الولادة وبدأت تصرع ، وأريدك ان تأتي لفحصها . ومن حديثه عرفت بسهولة انها مصابة بالصرع النفاسي ، وهي حالة مرضية خطرة حتى في المستشفى حيث يتوفر لها تمريض خاص بغرفة خاصة لهذا المرض ، فسألته
- لماذا لا تحملوها الى المستشفى ، فانا لا أستطيع ان اعمل لها ما تحتاجه من علاج في البيت ؟
- دكتور ، أريدك تشوفها أولًا ، لخاطر الله .
وأعرف أني في هذه الحالة عاجز عن رد طلبه ، فسألته
- اين بيت المريضة ؟
- في الكاظمية ، وأنا انتظرك عند باب الحضرة الرئيسي ، وبيتنا قريب من هذا الباب .
وارتديت ملابسي على عجل ، وقدت سيارتي الى حيث ينتظرني ذلك

الرجل ، فوصلت اليه بوقت غير طويل ، فاذا هو ينتظرني هناك بقلق ظاهر ؛ وقادني متعجلًا من خلال (درابين) متعرجة ضيقة الى بيت المريضة ، وكان من فيه من الرجال والنساء في هرج ومرج بين من تبكى بعويل ، ومن تشد شعر رأسها بحالة هسترية وأخرى تضرب بكفها على صدرها . وتسللت من بين هذا الحشد الذي لا يمكن ان يكون إلا خليطاً من الأهل بكثير من الجيران .

وكانت المريضة بعمر لا يتجاوز العشرين سنة ، منتفخة الوجه ، متورمة الاطراف ، لا يسمع إلا تردد انفاسها التي تزفرها بكثير من العناء . وعرفت من اهل هذه المريضة انها في حملها الأول ، وان هذه الأيام أيام وضعها ، غير انها بدأت فجأة تصرع .

- هل سبق ان فحصها طبيب اثناء الحمل
- كلّا
- كم مرة صرعت .
- خمس مرات في ساعة واحدة تقريباً

وفي هذه الحالة رأيت اني لا استطيع ان اعمل لها شيئاً مفيداً ، فقد بدت لي انها في الساعات الأخيرة من حياتها ، ان لم يكن موتها آتياً .

وسألني زوجها .

- دكتور ، حالتها خطرة ؟

وهدأ من كان حولي ليسمعوا جوابي ، فقلت له .

- نعم حالتها خطرة !

حينذاك ارتفع عويل النساء من كل طرف في البيت وكأن جوابي لزوجها بمثابة دق جرس لهم ليعملوا ما يريدون

وسألني زوجها باستعطاف وخذلان

- دكتور ، دواء ؟ أبرة ؟

ونبهني هذا الطلب ان أرضي اهل المريضة بحقنها بالمورفين ، وأنا اعرف ان هذه الحقنة لا تكفي لعلاجها . وعاد الزوج يطلب مني ان اعمل شيئاً لزوجته .

- يا أخي لا فائدة ترجى إلا من ادخالها المستشفى
- دكتور ، اطلب الذي تريده ، أي مبلغ ؟

وفي لحظات توقفت نوبات الصرع نهائياً . فاذا هي قد زفرت اخر انفاس حياتها . فتدافع من كان خارج غرفة المريضة الى داخلها . واردت ان اخرج من الغرفة من بين من دخلها ، فحصروني على الجدار . وأخيراً وصلت الى بابها بصعوبة . وانتظرت الزوج ليقودني عبر الدرابين المظلمة الى سيارتي ، ولما رأيته يتجاهلني وهو يبكي بحرقة ، اردت ان اسأله بلطف فيه معنى الاسف على فجيعته ، غير انه استمر يبكي دون ان يستمع الى ، وطال انتظاري ليلتفت اليّ فقلت له مضطراً .

- يا أخي أنا متأسف على ما حدث ، فاطلب أحداً يوصلني الى سيارتي ..

فاذا هو يقول لي بحدة

- دكتور ، توسلت اليك ان تعطيها إبرة رأساً ليش ما انطيتها ؟

ولم أر فائدة من التحدث الى هذا الرجل ليوصلني الى السيارة فأخذت طريقي الى حيث أوقفتها فوصلتها بصعوبة ، وعدت الى بيتي . وبعد نحو ساعتين طرق باب بيتي زوج المتوفاة ، يطلب مني شهادة وفاة تلك المرأة .

فعدت الى مكتبتي .

وسألته ما اسم المريضة ؟

- اسمها بهية بنت موسى

- واسم زوجها رجاءً ؟

- عليوي صادق

وغادرني وهو يطوي شهادة الوفاة ويدسها في جيبه . ولم أر احداً من اهل المريضة بعد ذلك واستغربت ان يكون قادراً ان يدفع لي اي من مبلغ اطلبه (كما ادعى) ولا يدفع اجراء اتعابي في تلك اللحظة

هذا الحادث يذكرني بحكاية لا أذكر فيما اذا كنت قد سمعتها أو قرأتها ، ومغزاها له بعض العلاقة بالحادث الذي اشرت اليه ، وهي (استدعي طبيب لعيادة مريض في داره ، وسار هذا الطبيب وراء من استدعاه في ازقة ضيقة قذرة ليدخل بيتاً يدل مظهره على فقر ساكنيه . وقعد الطبيب على حشية هزيلة الى جانب رأس المريض الذي كان يستلقي على حصير بالٍ ، وفحصه كما يجب وبدقة وكتب له وصفة دواء ليشتريه من احدى الصيدليات . وحين تهيأ لمغادرة بيت المريض تقدم منه أبو

المريض وسأله عن أجر أتعابه ، فأجابه الطبيب . دينار واحد ، فطلب منه الاب ان ينتظره قليلًا ، وغادر البيت ثم عاد وقدّم للطبيب خرقه كانت فيها (الدينار) بفئات مختلفة من النقود المعدنية ، فاستغرب من ذلك الطبيب ، فسأل أبا المريض عنها فأجابه أبو المريض بخجل .

- ليس في الفقر معابة ، والرزق من الله ، وانا لا أملك الدينار الذي طلبته ، فذهبت أطرق ابواب بيوت المحلة واحداً واحداً استجدي منهم ما تجود به انسانيتهم ، فكان منها هذا الدينار . غير ان الطبيب بعد ان رأى بأم عينيه النحس والفقر اللذين تعيشهما هذه العائلة رفض أجر اتعابه المشروعة ، كما تحركت شهامته واخرج من جيبه ديناراً وهو يقول لأبي المريض :

- وهذا الدينار تشترون به الدواء الذي وصفته لمريضكم (واضاف) وسوف اعوده بعد يومين لاراه مرة أخرى ، وغادر الطبيب بيت المريض وهو يتمنى له الشفاء العاجل

وبعد يومين عاد الطبيب مريضه ، وشدّ ما كان استغرابه حين رأى الى جانب رأسه أدوية هي غير التي وصفها له قبل يومين ، ولم يكتم استغرابه ، فقال لابي المريض

- ان هذه الادوية هي غير التي وصفتها لابنك !

اضطرب الأب وتلعثم وارتبك ، وحار فيما يقوله ، ولما الحّ عليه الطبيب على معرفة الحقيقة ، قال له الأب :

- الحقيقة يا دكتور ، جيراننا حين عرفوا انك لم تأخذ أجر اتعابك ، قالوا لنا الطبيب المجاني لا يشفي المرضى فاستدعيت لإبني طبيباً آخر بعد ان غادرت انت بيتنا ، وهو الذي وصف لابني هذه الادوية التي تراها الى جانب رأسه ، فسأله الطبيب ، كيف استطعت ان تدفع أجر ذلك الطبيب وانت لا تملك ديناراً كما رأيت ؟

فأجابه أبو المريض

- اعطيته الدينار الذي تصدقت به علينا يا دكتور !

وهذه الحكاية على اكثر الاحتمال موضوعة ، ولكن لاغرابة ان تكون واقعية ، على انها ايضاً تذكرني بما كان يدعيه طبيب مصر وطبيب المهديين بالقيروان . اسحاق بن سليمان الاسرائيلي فقد قال في كتابه (مرشد الاطباء) ينصح زملاءه الاطباء قائلًا أطلب اجرك لما يكون

المرض في أخطر مراحله ، لان المريض ينسى ما فعلت لأجله متى أبلّ)
وأصل مخطوطة هذا الكتاب باللغة العبرية لا بالعربية ، وقد ترجمت بعد ذلك الى اللغة العربية والانكليزية والالمانية . وقد ذكرت هذا الكتاب بالرغم من أني ولا فخر لا أومن بوصية مؤلفه .

مزاحم الباجه‌چي وسعيد قزاز / ١٩٥٧

في اليوم الثاني عشر من تشرين الاول كلمني تلفونياً وزير الداخلية سعيد قزاز ليدعوني الى تناول الغداء في داره بمنطقة العلوية ، وهذه الدار من مخلفات الانكليز ومعمولة من اللبن والطين غير انها مريحة صيفاً وشتاءً . وحين وصلتها بحدود الساعة الواحدة ظهراً كان قد سبقني اليها كل من صديقي بهاء عوني والدكتور اسماعيل ناجي ، ثم توافد آخرون كان من بينهم رؤوف الجادرچي وسامي فتاح ويحيى قاسم ، ودهشت حين دخل الصالون أبو عامل علي حيدر سليمان ، ولم اكن اعرف انه في بغداد وان هذه الدعوة على شرفه . وكنت اترقب قدومه الى بغداد لأقابله بمثل ما قابلني به في بون بالمانيا يوم كان سفير العراق فيها قبل ما يقرب من عام ؛ فتصافحنا وتعانقنا وصار مجلسه الى جانب مجلسي في الصالة . وسرعان ما شعرت بعدم الارتياح من الكرسي الذي قعدت بين ذراعيه ، وصرت أراوح جلستي بين وضع ووضع لأعرف منهما ما يريحني ، فقد كنت أحسّ بوخز من الكرسي في مقعدي ، وقد انتبه سعيد قزاز الى ذلك وهو يعرف ما في هذا الكرسي من عيوب القدم وسوء الصنعة فقام من مكانه واتجه نحوي وأخذ بيدي وهو يقول لي :

- هذا الكرسي أعرفهُ ، قديم ونوابضه قد مزقت غطاءه باطرافها المدببة ، وقادني الى كرسي آخر وعاد وجلس على الكرسي الذي كنت أجلس عليه الى جانب علي حيدر سليمان ، وهو يقول لي :

- أنا اكثر منك سمنة ، واني اعتدت الأذى منه كما اعتاد هو حمل ثقلي عليه بعد ان يأس من اثارتي على التذمر منه .

وسمع يحيى قاسم صاحب جريدة الشعب ما قاله سعيد قزاز فقال يداعبه

- انت يا أبا پري تعودت على وخز نوابض الكرسي فمتى تعتاد على وخزكم بما اكتبه في جريدة الشعب ؟
فقال له سعيد قزاز على الفور
- لا يمكن أن اعتاد على سماع النعرة الشيوعية يا عزيزي يحيى . وسكت يحيى قاسم حين قال سامي فتاح بغمز
- وزير الداخلية وهذه أثاث بيته المتواضعة التي يخصصها له التقدميون .
فقال سعيد قزاز :
- ان هذه البيت لا يليق به إلا مثل هذا الاثاث ، وكلاهما على قدر الحال .
وعاد يحيى قاسم يخابث سعيد قزاز
- على قدر حالك يا أبا پرى ، فما ذنبنا أن لا نحقق ما يوافق حالنا ؟
وضحكنا جميعاً ونحن نقوم الى مائدة الغداء لنتناول (القره خرمان) والبرغل بالرمان وكلاهما من الأكلات الكردية اللذيذة .

ولعلي حيدر سليمان فضل عليّ حين زرته في بون ، فانتهزت وجوده في بغداد ووجهت الدعوة له ولمن كان في ضيافة سعيد قزاز لتناول طعام العشاء في بيتي ، واتفقوا ان يكون ذلك في يوم الجمعة القادمة . وانفردت بعلي حيدر سليمان لاسأله عمن يريد دعوته بجانب ضيوف اليوم في دار سعيد قزاز فأصر ان يترك هذا الامر لي . وسألت صديقي بهاء عوني وهو من أصدقاء علي حيدر سليمان أيضاً ، فذكر لي اسم مزاحم الپاچه‌چی الذي كان زميله في وزارة علي جودت الايوبي الثانية سنة ١٩٤٩ . وكان أول من حضر بيتي في هذه الدعوة الدكتور اسماعيل ناجي وبهاء عوني وآخر من حضر سامي فتاح . وسررت حين رأيت الانسجام فيما بين من يكلم بعضهم بعضاً ، سوى ما بدا على وجه مزاحم الپاچه‌چی من عدم الارتياح كما تخيلت ذلك ، وقد يكون سبب ذلك الطرش الخفيف الذي يشكو منه . وفي لحظة قادني بهاء عوني جانباً وأسرّ لي ان بين سعيد قزاز ومزاحم الپاچه‌چی مودة مفقودة ، وطلب مني بصفتي صاحب الدعوة ان أحاول مصالحتهما بطريقة ما ، فتوجهت حالاً الى سعيد قزاز وكان مع يحيى قاسم يستمعان في مكتبتي الى تسجيل للمقرىء المصري مصطفى اسماعيل يرتل فيه سورة القصص من القران الكريم ، وقلت له :
- يا أبا پرى ، عندي رجاء منك

فاجابني بلهجة كردية
- انفذه حالاً
واستبشرت من هذه البداية في تطبيق مشروعي ، فقلت له
- أنت الآن أبو البيت ، وأنا ومزاحم الپاچهچي ضيفاك .
ولم أأمن الى ما اردت ان أرجوه منه ، حتى أدرك ما أهدف اليه من هذه المقدمة القصيرة فبادرني يسأل :
- تريد مني ان أتكلم مع مزاحم الپاچهچي ، اليس كذلك ، فهيا اليه فهو اكبر مني عمراً فلا يصح ان ياتي هو اليّ .
وقادني من يدي الى حيث كان يجلس الپاچهچي بجوار رؤوف الجادرچي وهو يطوي بيمناه اذنه الثقيله السمع ليتابع ما يقول له الجادرچي . ولما رآنا الپاچهچي قادمين اليه نهض لاستقبالنا ، وقد يكون هو الآخر قد ادرك الغاية من مجيئنا اليه . وفي طريقنا اليه فكرت بسرعة عما أثيره بينهما من الحديث الودود فاذا سعيد قزاز يسبقني الى ذلك ، ويقول للپاچهچي وهو يصافحه
- ان خلافي معك يا مزاحم بك بدافع المبادىء ، لابخلاف شخصي ، فانا بطبيعتي لا ارتاح الى رجل ينقذ زميله في غيابه
ورأيت هذه الفاتحة فيما بينهما لا تخلو من جفاف ، وقد يفشل مشروعي للمصالحة بينهما لو استمر سعيد قزاز يتكلم بهذا الاسلوب شبه العدائي ، ورأيت الغضاضة قد طافت على وجه الپاچهچي غير انه لحسن حظي سرعان ما اسعفته الحكمة فأخذ بيد سعيد قزاز واجلسه الى جانبه ، ورأيت أنا ايضاً من الحكمة واللياقة ان انسحب لافسح لهما المجال ليقولا فيما بينهما ما يقولاه ولم اقطع نظراتي اليهما من بعيد لارى ما سيحدث بينهما ، فكان ما ارتحت اليه كثيراً ، ثم رأيتهما يقومان معاً وعلى وجهيهما إمارات الرضا والتفاهم ليستمعا في مكتبتي الى مصطفى اسماعيل وهو يرتل الآيات الكريمة ، وقال سعيد قزاز للپاچهچي بصوت عالٍ ليسمعه
- ان مصطفى اسماعيل حين يجود في قراءة القرآن وكأنه يغنى ولا تعوز قراءته الا الضرب على آلة موسيقية لينافس النصارى حين يصلون في كنائسهم !
ولم يعلق الپاچهچي على كلام سعيد قزاز غير انه اكتفى بابتسامة

خفيفة . وحمدت الله على انني نجحت بمشروعي في مصالحة هذين الضيفين الكريمين في بيتي

الدكتور عبد الله برصوم والخادم مهدي / ١٩٥٧

عرفت الدكتور عبد الله برصوم من بعيد يوم كنت طالباً في متوسطة الحلة ، وكان يومئذٍ رئيس صحة هذا اللواء ، ثم عرفته عن قرب بعد ذلك بعشرين سنة في بيت الدكتور عبد الله قصير ، وكلاهما من مدينة الموصل . والدكتور برصوم بهي الطلعة حنطي البشرة ، خشن العظام ، جهوري الصوت وبلهجة موصلية واضحة ، وكان في مجلس الدكتور عبد الله قصير مسيطراً في حديثه على كل من فيه من الزوّار . وحديثه كثيراً ما يطعمه بالسباب والكلام البذيء حتى على شخصيته . وذات يوم كلمني تلفونياً الدكتور برصوم حين كنت في مستشفى السامرائي

ـ دكتور كمال ، أنا دكتور عبد الله برصوم ، انت ما تعرفني فانا من الجيل القديم ، وانت من الجيل الجديد فقلت له :

ـ دكتور عبد الله ، كلانا ممن يعملون في الطب . آأمروا وانا بخدمتكم . فقال لي

ـ هذه مقابلة أشكرك عليها .

وكنت حينئذ مشغولا بالمرضى الذين يتجمعون عند باب عيادتي فقلت له مرة اخرى

ـ أأمروا يا دكتور عبد الله

فأجابني

ـ عندي خادمة في بيتي ، وهي آدمية بنت اوادم ، غير ان ابنها كلب ابن كلب ، وهو يضايقها ويضايقني ، وتريحني منه ان انت اعطيته عمل بمستشفاكم (بأكل بطنه) وياليت لو تسمح له ان ينام في الغرف التي ينام فيها خدم المستشفى ، خاصني منه الله يخلصك من اولاد الحرام امثال هذا العجي .

وفي اليوم الثاني بدأ (مهيدي) يعمل خادما في المستشفى براتب الخدم ، وسمحت له ايضاً ان ينام مع الخدم الخفر ليلا . كما طلب مني

ذلك الدكتور برصوم . وكان هذا الفتى للحقيقة نشطاً ومطيعا لولا انه يقتحم عزف مريضات المستشفى حين يعرف انهن على اهـبة مغادرة المستشفى ليحصل منهن على بعض العطاء ، بل ولا يتأخر ان يطلب المزيد من المريضات الموسرات . وفي يوم من شهر شباط سنة ١٩٥٨ ، جاءني احد موظفي وزارة العمل وخاطبني بلغة لا تليق بموظف حكومي طالباً ان يدفع المستشفى لكل من ينام في المستشفى ليلاً ١٧٢ دينار عن خدمتهم في الليل منذ تأسيسه سنة ١٩٥٤ والا فسأتعرض (كما قال لي) لمشاكل قانونية لا ترضيني . وبالرغم من ان اثنين من الخدم الذين ينامون في المستشفى هما اللذان طلبا هذه الاقامة وانهما لم يكلفا باية خدمة لمرضاه ، غير ان هذا الموظف لم يستمع الى ادعائي ولم اسمع منه إلا قوله

ـ هذا الكلام يفيدك ، ادفع وإلا ستندم

واستدار فجأة وغادر المستشفى غاضباً

وإتصلت بالدكتور عبد الله برصوم اسأله عما فعله الصبي مهيدي من شغب بين خدم المستشفى فقال لي باختصار

ـ الم اقل لك انه كلب ابن كلب !

واكتفيت بهذا الجواب واقفلت التلفون

صبية حامل من زوج أمها / ١٩٥٧

المرأة التي دخلت عيادتي بمستشفى السامرائي مساء يوم ١٦ / ٩ / ١٩٥٧ سورية بعمر الاربعين تقريباً ، وهي زوجة عامل بشركة فتاح باشا للغزل والنسيج ، ومع هذه المرأة صبية بعمر المراهقة . وما كادت المرأة تأخذ مكانها على كرسي الى جانب منضدتي حتى نهضت وإرتمت دون مقدمات على حذائي لتقبله ، فدفعتها عني لأعرف خبرها ، وسألتها

ـ ما الأمر أولاً يا إمرأة .

كان وجهها باهتاً كما لو انه خلو من الدم ، وفمها جافاً حتى ليصعب عليها الكلام . . أما الصبية فكانت ساهمة وشاردة النظرات . وقالت المرأة تشير الى الصبية

ـ هذه ابنتي من زوجي الاول الذي توفي بداء القلب قبل سنتين فتزوجت شاباً كان يسكن مشتملاً الى جوار بيتنا . وابنتي الآن حامل وأرجو منك ان تسقط جنينها .
فقلت لها :
ـ اسقاط الجنين جناية يحاسب عليها القانون فاعذريني ولن أعمل ذلك باية حال
فقالت لي :
ـ لوعرفت موضوعها على حقيقته لعملتها برضا وارتياح . واجتذبت هذه العبارة الأخيرة انتباهي ، فسألتها بغير اهتمام
ـ وما هو موضوعها ؟
فأجابتني بنفس كسيرة ، وعين دامعة
ـ هي حامل من زوجي !

وفزعت من حيوانية هذا الزوج ، ودفعني أمره حينذاك ان أعود انظر الى وجه هذه الصبية وهيئتها العامة . لأرى قدر الاغراء الذي قاد ذلك الزوج الوحش الى ارتكاب هذه الجريمة البشعة . كان وجهها طفولياً ناعماً وعذباً ، وصدرها ناهداً وعيناها كحيلتين ، ولكن ذلك لا يضاهي جمال أمها لولا البؤس الذي يطغى على وجهها ، وسمعت أمها تقول : ـ كان زوجي يراود إبنتي ولم يمض على زواجنا إلا بضعة أشهر ، فنهرته بتوسّل ، فهددني بالطلاق ان لم اتغاضَ عما يفعله مع ابنتي . وعاد الى بيتنا في ليلة وهو مخمور وقادها على مرأى مني وهي تصرخ وتستنجد بي ، وادخلها الى المطبخ واغلق وراءه الباب .

وشرعت أمها تبكي وقالت لي .
ـ اعذرني يا حكيم لا أستطيع ان أكمل لك حكاية هذه المأساة .

فقلت لها والغيظ يعصر وجداني
ـ وماذا لو طلقك لتنقذى شرفَ ابنتك ؟
فأجابتني بحزن شديد
ـ ليس لي أحد في الدنيا ، لا هنا في العراق ولا في سوريا ، فألى اين أوليّ وجهي . وقد اقترحت عليه ان يطلقني ويتزوج ابنتي فهزيء مني وهو يقول :

- (هذا غير جائز شرعاً ، وأنا أريد التفاحتين في وقت واحد) . فانقذ شرفي يا شهم والطب وجد لمثل حالتي
وسكتُ برهة ثم قلت لها بأسف
- لا استطيع ان اعمل ما تريدينه مني يا سيدتي . ثم اذا اسقطت ابنتك حملها ، أفلا يجوز ان تحبل منه مرة أخرى . (ثم قلت لها بلوم) كان عليك ان تطلبي الطلاق منه قبل وقوع الكارثة مهما كانت النتيجة .

ونظرت الىّ المرأة وفي عينيها كل معاني الخيبة ، وغادرت عيادتي وهان عليّ موقفها حين خطر ببالي إحتمال ان تكون حكاية هذه الصبية مختلفة وليس لها نصيب من الصحة ، وان حملها قد يكون من غير زوج أمها ، كما يحتمل ان لا تكون ام هذه الصبية متزوجة !

وبعد بضعة ايام رأيت وانا ادخل كريدور المستشفى الملكي تلك المرأة أم الصبية الحامل تبكي بحرقة ، وحزرت ان ذلك محاله علاقة بحبل ابنتها ومع ذلك سألتها
- ما الأمر يا أمرأة
فقالت لي : أدخل وشوفها ، وانت السبب.ولما سألت الممرضة الرئيسة عن الجناح عن الصبية قال لي
- تطريح جنائي وحالتها سيئة .

ودخلت غرفتها فوجدتها بحالة احتضار وتوفيت بعد ساعات !

صبي لبناني يخطط ليكون مليونيراً ٢٥ / ٨ / ١٩٥٧

حين كنت في لبنان اضطرت زوجتي ان تعود الى بغداد يوم ٢٥ / ٨ / ١٩٥٧ لتكون مع أولادي أيام افتتاح المدارس فبقيت وحدي في فندق سپلديد بحمدون فوضعت جدولاً غير مكتوب لأيامي في غيابها ، وحرصت على تطبيق بنوده إشد الحرص ، ولكنني لم اتوفق الى ذلك إلا بقدر يسير ، فقد الهتني قراءة الكتب الادبية والتأريخية التي اعتدت ان أحملها معي في سفراتي الى خارج العراق ، على ان ذلك لم يكن ذا فائدة الا لتحقيق بعض الراحة التي لا تتوفر لي في بغداد ، وفي مقدمتها اني كنت انام متى أشاء واستيقظ متى أشاء ، واقرأ ما أجد فيه المتعة الروحية ، لا الكتب التطبيقية الثقيلة الوطأة على تفهمي .

وتناولت القهوة ذات صباح على شرفة الفندق لا في صالة مطعمه ، وعلى بعد مني كان صبي يتنقل من طاولة الى طاولة في هذه الشرفة ، كنت لا أرى منه بسبب ما بيني وبينه من الكراسي والمناضد إلا القميص الاحمر الذي يرتديه ، وشعره الاسود الذي يجلل وجهه الصبيح ، ورأيته حين وصل الى طاولتي يرتدي سروالاً قصيراً أبيض اللون ، ويحمل بيمناه نضداً من بطاقات اليانصيب ، وبيده اليسرى حزمة من الاربطة بالوان واشكال مختلفة . كانت ملامح وجهه جذابة ، وعيناه واسعتان براقتان ، وثيابه نظيفة وكذلك يداه وما بان من صدره في فرجة قميصه الأحمر .

واقترب مني وهو يقول :

- يا نصيب والسحب قريب ،

كان نطقه متلطفا متودداً ، فاعجبني جرسه كما اعجبتني قيافته قال لي

- خذ بطاقة ياخواجه

واردت ان ادردش معه

- ما اسمك يا صبي ؟

- اسمي ميشيل

- في المدرسة ؟

- أنا في الصف الثالث

ولما حمل اليّ النادل قهوتي ، وذلك الصبي يحاول ان يقنعني ان اشترى منه بطاقة ، صاح به

- إفسح يا ولد ، إفسح بدنا نشتغل

فنظر اليّ ذلك الصبي وكأنه يطلب العون مني على ذلك النادل .

فسألت الصبي لأبقيه الى جانبي .

- كم تحصل من بيع هذه البطاقة ؟

فأجابني

- قليل

- كم قليل

- اشتر بطاقة واقول لك كم أربح منها .

- قل لاشتري منك بطاقة

فقال بابتسامة
- اربح كثيراً اذا نجحت البطاقة في اليانصيب . والآن أشتر بطاقتين .
- بطاقة واحدة
- بطاقتين يا خواجة !
- بطاقة واحدة
وأخيراً اشتريت منه بطاقتين ، فقال لي وهو يمد بيده بطاقة ثالثة
- خذ هذه البطاقة ورقمها جيد .
ولما قلت له لا اريدها ، قال لي وهو يشير الى الاربطة التي يحملها
- رباط جيد ، ألا ترى هذه الاربطة الانيقة
- كفى يا صبي وانت لحوح
فأجابني
- لابد ان أبيع جميع ما حملته في هذا الصباح يا خواجة .
وانصرف هذا الصبي الى طاولة أخرى في الشرفة حيث صرت اقول لنفسي سيكون هذا الصبي في يوم من الايام صاحب حانوت كبير أو شركة كبيرة أو رجل اعمال كبيراً . وفكرت في للأم التي ربته هذه التربية التجارية وهو بعد بعمر الصبا . . وقد قرأت مرة ، ولا اذكر اين كان ذلك في مجلة أم كان في كتاب ؛ ان أبا روكفلر الأمريكي الملياردير ، طلب من ابيه دولاراً . فسأله أبوه
- وماذا تعمل بالدولار ؟
- أريد ان اشتغل به كما انت تشتغل ؛ وسأجعل من الدولار دولارين في يوم واحد .
- كيف تجعل منه دولارين يا ولد ؟
- جرّب واعطني دولاراً يا أبي .
فأعطاه أبوه دولاراً ، واشترى ابنه به صابوناً ، وفي اليوم الثاني سأله أبوه عما فعل بالدولار فقال له وهو يعرف ما قصد أبوه بهذا السؤال
- عملت منه دولارين يا أبي
- كيف يا ولدي ؟
فقال له :
- اشتريت صابوناً بدولار ، فصار عندي صابون بدولار ، وصار دولار بيد

البائع . وهكذا صار من الدولار دولارين .
فأعجب الأب بتفكير ولده وقال بينه وبين نفسه
- سيكون لولدي شأن كبير في سوق المال
وهذا ما حصل .

الاستاذ إيان دونالد / ١٩٥٨

دعا المجلس الثقافي ببغداد بطلب مني الاستاذ إيان دونالد من جامعة كلاسكو لزيارة قسم النسائيات في المستشفى الملكي التعليمي ببغداد . ورأيت من اللياقة ان أستقبله في مطار المثنى في الليلة التي حددها المجلس الثقافي البريطاني . واستذكرت هيئته حين قابلته في سويسرا أيام المؤتمر النسائي العالمي الاول سنة ١٩٥٥ ، وكانت ابرز معالمه في طوله الفارع ، وشعر رأسه الكستنائي المائل الى الحمرة ، وهذا كل ما يمكن ان يساعدني ان أعرفه من بعيد خاصة وان النور القليل في ساحة المطار يضيع كثيراً من ضبط الرؤيا لمعرفة شخصه ، وبعد أن حطت الطائرة على ارض المطار شاهدت رجلين طويلين ينحدران على سلم الطائرة ، واعتقدت ان ايان دونالد أحدهما على الاكثر ؛ واردت ان الحق بهما لأراهما عن قرب ، غير اني ان لم افعل ذلك فقد سمعت في اللحظة من يناديني من الخلف : برفسور سامرائي ؟ وادرت وجهي الى من يناديني فاذا إيان دونالد يسرع الخطى ليلحق بي ، فكان هو بعينه يوم قابلته في جنيف سنة ١٩٥٥ ، ورحبت به بحرارة وأنا اقول له
- انت لم تكبر يوماً واحداً يا إيان !
فاجابني بمرح
- أتمنى ان تسمع زوجتي هذا الاطراء ، ولكنها عنيدة وستبقى تعييني على تقدمي في العمر .
- ولكن كيف عرفتني بين زحام المسافرين .
- كنت أراك تفتش في وجوه المسافرين ، فحزرت انك تفتش عني لا عن غيري
- كيف كانت سفرتك ؟
- مريحة غير أني كدت أفقد الطائرة من فينا

ولم يكن له من الامتعة سوى حقيبة يدوية لم تكن كبيرة ولكنها كانت على ما بدا لي ثقيلة عليه ، وأنا اعرف انه مصاب بالقلاب فأخذتها من يده عنوة . وحملته بسيارتي الى فندق الامباسادور المطل على نهر دجلة . وما كاد يدخل غرفته حتى ارتمى باعياء على سريره وهو يلهث طلباً لمزيد من الهواء ، فأخافتني حالته ، ولكن الله حفظ .

ويبدو ايان دونالد في نهاية العقد الخامس من عمره ، أو في الخامسة والخمسين كما يقول هو عن نفسه ، وهو دوماً في حالة نشطة ، ويكثر من الكلام والحركة ، وقد اشترك في الحرب العالمية الثانية طبيباً في السلاح الجوي الملكي البريطاني ، وهو يذكر عن تلك الحرب ما يملأ قلب المستمع اليه بالرعب . وبسبب حالته الصحية اعفي من الخدمة والتحق بمستشفى (چلسي) بلندن بمعية الاستاذ (چارلس ريد) فكان هذا معلمه الأول والأخير في الامراض النسائية والتوليد كما يقول ايان دونالد ، كما يقول عنه بثناء انه كان سريع الحركة باتقان وسيطرة في الجوف الحوضي وقلما يكرر الحركة الواحدة في داخله . وسألت إيان دونالد بهذه المناسبة .

- هل صحيح ان چارلس ريد تدّرب على استعمال أصابعه في القطع والخياطة أمام مرآة فيحذف منها ما يجب حذفه عند التطبيق ؟

فأجابني

- هذا ما يشاع عنه ولكنني لا اذكر انني سمعت منه ذلك .

وبعد وفاة چارلس ريد التحق ايان دونالد بمستشفى (سنت توماس) ومن هذه المستشفى رشح لرئاسة الامراض النسوية والولادة بجامعة كلاسكو . وفي هذه الجامعة حصل على لقب (استاذ ملكي) اثر زيارة الملكة اليزابيث للمستشفى الولادى الذي شيّد حديثاً في هذه المدينة

ولايان دونالد هواية في الادوات الالكترونية ، وكانت من اعماله في هذا الميدان محضنة للاطفال الخدج ، وآله أخرى في (ما فوق ذبذبات الصوت) المعروفة اليوم باسم (السونار) . ومن هواياته ايضاً بناء القوارب وقد صمم واحداً وبناه ليعبر به المحيط الى أمريكا . وقد اكتشف عندما أتم بناء هذا القارب في كراج سيارته ، انه كان أوسع مما يسمح لإخراجه من داخل الكراج إلا بهدم جانب منه ، وكان هذا السهو مدعاة

تندر زوجته عليه . وفي حديثي مع زوجته قالت لي :
ـ ان تهديم جانب من كراج سيارته لا يكون مشكلة بالنسبة لايان ، انما المشكلة بالنسبة اليه هي إيجاد اسم لقاربه بما يشير الى التحدي وقهر المحيط .

وأيان دونالد من اسرة تتكرر فيها الوفيات بداء القلاب فقد توفيت أمه بهذا المرض . وتوفيت أخته على طاولة العمليات حين كان جراح القلب المشهور (كليلاند) يرمم شرايين قلبها . فلما احتاج ايان دونالد الى مثل تلك العملية طلب من احد تلامذة كليلاند ان يجري له العملية . فاستغرب اصدقاء أيان دونالد ان يوكل أمره في علاج قلبه الى تلميذ كليلاند لا الى كليلاند نفسه ، فأجابهم بجد .
ـ ان كليلاند صديقي وقد توفيت بيده اختي . فلا أريد ان يموت على يده شخص آخر من أسرتي !

وهذا هو ايان دونالد في بعض تصرفاته . وذات يوم أخذني لزيارة متحف مدينة كلاسكو حيث يحفظ فيه تمثال لكل من يقدم خدمة من نوع خاص لمدينة كلاسكو سواء كان شرطياً أو طبيبا أو عالما بالاحياء . وفي المتحف أجنحة متعددة ، وكان جناح المتميزين من اهل كلاسكو يضم ثمانية تماثيل من هذه الفئات . وقال لي إيان دونالد ونحن نقطع الكريدور لمغادرة المتحف .
ـ كمال ، ان أمنيتي الوحيدة ان أحصل على تقدير من أهل كلاسكو ليضعوا لي تمثالاً في هذا المتحف ، ولابد ان أحقق هذا الهدف .

وغادرت كلاسكو ولم أره بعد ذلك . ثم عرفت انه قد توفي بمرض القلب ولم يوضع له تمثال نصفي في متحف مدينة كلاسكو

في كندا والاشتراك في مؤتمر الطب النسوي العالمي الثاني بمونتريال / ١٩٥٨

دعت ادارة الجمعية الدولية للجراحين في الامراض النسائية والتوليد . وزارة الصحة العراقية لترشيح من يمثلها من الاطباء في مؤتمرها الثاني الذي سيعقد بمونتريال بكندا ما بين اليوم السابع

والحادي عشر من شهر تموز ١٩٥٨ . وأبلغني مدير الصحة العام الدكتور عبد الحميد الطوخي ان استعد للسفر الى أمريكا الشمالية والشقة بينها وبين العراق طويلة ، ولابد ان تكون متعبة أكثر مما تصورها الخرائط الجغرافية . كما اقلقني استحضار ما اقرأه عن الطب النسوي في هذا المؤتمر . وفي الوقت نفسه رحبت بهذه الدعوة لأرى تلك البلاد النائية التي يقال ان وسطها لا يزال مجهولًا ، أو لايزال بيد الهنود الحمر . وحين راجعت المصرف العثماني لأحوّل عن طريقه المبلغ الذي اعطته لي الوزارة ، أخبرني من قام بهذه العملية (يوسف معلّم) ، وهو زوج أحدى مريضاتي انني سألاقي في كندا من العراقيين . من سيقدم لي مساعدات لا غنى لي عنها ،وطبيعي أنني عرفت انه قصد (بالعراقيين) بعض الأسر اليهودية التي نزحت من العراق الى كندا ، وسألته ان كان يعرف احدها بالتعيين فأجابني على الفور : يعقوب فتال ، وسليم زلخة ، وموشى شمعون أخو زوجة الدكتور كرجي ربيع والدكتور سميح ، فارتحت حين ذكر لي هذه الاسماء اذ كنت أعرفهم جميعاً يوم كانوا في بغداد ،

ولابد انهم سيحتفون بي ويزيحون عني كربة الاغتراب ثم قال لي معام . لعلمك ان الدولار الكندي أغلى من الدولار الامريكي فانتبه الى هذا الفرق عند التصريف . وفي خلال ساعة تقريباً تسلمت منه صكوك المسافرين بالدولار الكندي . كما اكملت معاملة سفري في اليوم نفسه على طائرة D.C—7 في شركة KLM الهولندية بسرعة مماثلة . وهذه الطائرة ذات اربعة محركات مروحية وحمولتها لاربعين مسافر . وبعد استراحة قصيرة في ڤينا حطت الطائرة في مطار (استوكهولم) لتتزود بالوقود ولتحمل مزيداً من المسافرين الى كندا . . وحين اقلعت الطائرة من هذا المطار كانت الشمس على وشك المغيب فانيرت مصابيح الطائرة وما لبث ان ساد الظلام خارجها ، واحسست ان الطائرة تعبر نفقاً لا تستبان جدرانه . وحين استقر بي المقام تعرفت على المسافر الذي يحتل كرسياً الى جانبي ، وهو شيخ له وجه القسس المعمرين ، يلوك بفكيه لباناً دون انقطاع ، ولكن بلا صوت . وقال لي هذا الجار انه من اساتذة جامعة (اوبسالا) السويدية وانه يقصد مونتريال للاشتراك في مؤتمر الجراحة النسائية هناك ، فقلت له وانا من بغداد واقصد كذلك الاشتراك بهذا المؤتمر . وقرأت في عيني هذا

الرجل استفهامات كثيرة غن بغداد ، ثم ما لبث ان سألني

- بغداد عاصمة العراق اليس كذلك ؟ (واردف قائلاً) انه يخلط احياناً بين ايران وعراق بسبب الحرف الاخير من اسمي هذين القطرين ، فاردت ان أهوّن عليه جهله بجغرافية الشرق الاوسط فقلت له :

- لا غرابة ان يختلط عليك هذا الامر ، فقد وصلني كتاب من ادارة مجلة التوليد والامراض النسائية الانكليزية بلندن وعلى غلافه كتب (بغداد / ايران) فلما وصل الكتاب الى طهران كمحطة رئيسة لتوزع منها مفردات البريد الى نواحي ايران لوحظ الخطأ المكتوب على الغلاف فشطبت كلمة (ايران) وكتبت بدلاً عنها (عراق) وهكذا وصل اليّ ذلك الكتاب . ولم يطل استغرابي مما قرأته على الغلاف حين رأيت عليه ختم بريدي باسم (طهران / ايران) فعرفت ان الكتاب قد وصل بحسب العنوان المكتوب عليه الى ايران ، فانتبه القائم بتفريق الكتب الى ان بغداد في العراق لا في ايران فشطب كلمة ايران وكتب في اعلاها كلمة (عراق) . وابتسم جاري حتى برز كثير من طقم اسنانه وهو يقول لي :

- اذا اخطأت اكبر مجلة بريطانية بجغرافية الشرق الاوسط الذي كان يوماً ما من مستعمرات بريطانيا فلا عيب مني اذا وقعت بمثل هذا الخطأ .

كان هذا الرجل السويدي قد تجاوز بتقديري العقد السابع من عمره ، وهو لابد قد احيل على المعاش قبل سنين . ولم أر من اللياقة ان اسأله عن عمره فسألته فيما اذا كان لا يزال يمارس الطب ، فاجابني انه استاذ فخري في جامعة اوبسالا لاعطاء بعض المحاضرات واعطاء رأى في بعض الحالات المرضية ، وانه منذ سنين انقطع عن ممارسة العمليات الجراحية الكبرى ، واستمر يقول وهو يداور اللبان بين طرفي فكه . وأنا لا ازال اتابع ما ينشر في موضوع اختصاصي ، واحضر الاجتماعات والندوات في مواضيعه ، (واضاف) ولولا ذلك لسقطت في فراشي عاجزاً عن التفكير والحركة .

ويبدو ان هذا الرجل ادرك استغرابي من مضغ اللبان وهو يتكلم ، فقال لي : معذرة فانا أعيش (بسبب قلبي على الاسبرين ، واللبان الذي استعمله معجون بالاسبرين . ولم اكن اعرف يومئذ ان هذه المادة العقاقيرية لها نفع في حالات مرض القلب فسألته زيادة عن فائدة

الاسبرين في امراض القلب فأجابني : ان الاسبرين ضروري لي وخصوصاً حين تقتضيني الحركة والكلام بجد وحماس . (ثم قال) ان ممارسة الطب وقراءة كتبه تحتل اكثر ساعات أيامي ، وانها والاسبرين ضروريان لحياتي . وهنا تذكرت ما دار يوماً بين استاذي هاشم الوتري واستاذي عبد الله قصير . وكان بينهما توادد وتواصل . وفيما كنت يوماً ادخل على الاستاذ الوتري في عيادته بعمارة (أپولو) المقابلة لدائرة كهرباء (العباخانة) كان الوتري يشيع زميله الدكتور قصير بابتسامة لها معنى . إذ كان للوتري ابتسامات خاصة لها تعابير بحسب ما يدور برأسه أو ما يسمعه من محدثه . وقد ادركت نوع الابتسامة التي وقفت على شفتيه . كانت هي باحتمال كبير ان لم يكن بالتأكيد اعتراضاً على ما كان يدور بينه وبين الاستاذ قصير . وبعد ان اطال الوتري النظر اليّ بعينيه الوسيعتين الرطبتين قال لي قبل ان يرخصني بالجلوس

- ان عبد الله (يقصد عبد الله قصير) واهم !

وسكت الوتري وهو ما يزال ينظر الى عيني ثم استأنف كلامه قائلًا

- عبد الله واهم !

وسكت برهة ، وهذه هي طريقة الوتري في التحدث ، يكرر العبارة للتركيز على ما فيها من معان . واستمر يقول لي

- عبد الله ينصحني ان اتوقف عن ممارسة الطب وان الراحة بعمري ترياق لإطالة الحياة .

وعاد الوتري يكرر

- عبد الله واهم ، ولا استغرب ان هو وصل ما وصلت اليه من العمر فسيبقى يعمل بين صراخ مرضاه الاطفال ، وقد يدخل عليه أحد اصدقائه وينصحه ان يريح نفسه ويتوقف عن ممارسة المهنة ، فيهزأ عبد الله منه ومن نصيحته الخائبة ويبقى يمارس اختصاصه الى ان يتوقف المرضى عن استشارته فيتوقف هو عن متع الحياة وينتهي . وعاد جليس في الطائرة يكلمني ويقول :

- أنا لا استطيع مقاومة اغراء مزاولة الطب ، وأنا حتى هذا اليوم حريص على الحضور الى عيادتي في تمام الساعة التي يعرفها مرضاي لأستقبالهم ، ولا يهمني ان زارني مريض واحد فقط أو لم يزرني مريض ، وحضوري في العيادة يجعلني أشعر أنني ما زلت مرتبطاً بالمهنة التي

سلكت طريقها برغبة

وانقطع تسلسل تفكيري بشخص أستاذي الوتري حين رنّ جرس التنبيه في الطائرة ليجتذب انتباه المسافرين على متنها . واذا بجاري الرجل السويدي يلكزني بمرفقه ويقول لي :

ـ لا تستمع الى هذا المذيع فان ما سيقوله هراء .

وجاء صوت المذيع بالراديو يقول فيما قال :

ـ اذا سقطت الطائرة في اليم فان في الحقيبة التي تحت مقاعدكم مصباح يعمل ببطارية جافة . وشصّ لصيد السمك . فلا تستعملوا المصباح إلا في ظلمة الليل . ولا تأكلوا السمك الذي تصطادونه إلا بعد ان يجف . وتلقائياً التفت بعد ان انتهى المذيع من نصائحه لانظر من خلال زجاج النافذة الصغيرة التي بجانبي الى خارج الطائرة . فاذا أنا لا أرى بحرا ولا ارضاً ولا سماء . وكأن الطائرة واقفة لا تتحرك من مكانها . وما في داخلها من الارواح في كف القدر . والحذر لايغلب القدر . ومن لا يخاف في هذا الموقف ؟ . فجائني النعاس واقتادني الى سلطان النوم . واستيقظت على صوت المذيع مرة ثانية يعلن عن قرب وصول الطائرة الى مطار مونتريال . وكانت الشمس في بدء بزوغها . وتراءى لي ساحل كندا الشرقي وكأنه شريط من غابة مقطوعة اطرافها العليا . وحطت الطائرة على ساحة المطار بهزة أزعجتني . ودرجت وهي تهدر . ثم هدأت قليلا ثم توقفت قريباً من قاعة المطار . وحمل المسافرون حقائبهم اليدوية متجهين نحو باب بناية دائرة المطار . وانتهت معاملة الخروج منها بسرعة اثارت استغرابي واعجابي . وقرأت لافته بحروف كبيرة مرفوعة على ناصية الخروج من قاعة المطار مفادها ان يتجه الوافدون للاشتراك في المؤتمر الطبي النسوي لمراجعة المكتب المتخصص لخدمتهم . ودلّنا السهم الاحمر الذي خط تحت هذه العبارة الى ذلك المكتب . وعلمت من الموظفة الجميلة التي استقبلتني ان استقل الحافلة رقم (٤) التي تقف على يسار باب المطار . ثم دفعت أمامي على الطاولة بطاقة كتب عليها اسمي واسم بلدي واسم الفندق الذي خصص للاقامة فيه . فترجلت من الشاحنة ومعي ثلاثة اشخاص عند باب فندق (لورنشيان) . وهذا الاسم منسوب بتطوير الى نهر (سنت لورنس) وهو فندق ضخم ولا يضاهيه إلا فندق (كوين اليزابيث) المقابل له على الجانب الثاني من الشارع . وكانت

غرفتي الانيقة في الطابق العاشر بهذا الفندق وتطل على البحر من جانبها الايسر، وهو في الحقيقة ليس بحراً بل هو مصب الاطلسي فيصبح لسعته وكأنه جزء من بحر المحيط. وتمت في تلك الليلة نوعاً عميقاً لم استيقظ منه إلا على رنين جرس التلفون الذي كان الى جانب سريري، واذا بصوت نسوي ناعم يسألني

- دكتور سامرائي ؟

فسألت : من يتكلم ؟ نعم أنا الدكتور سامرائي

- أنا ليزا ياكمال، الا تذكرني ؟

وتذكرتها على التو من اللثغة الجميلة في لسانها حين تنطق بحرف الراء، فقلت لها على الفور.

- يا فرحتي، كيف انت ياليزا، وكيف زوجك جان ؟

وكنت عرفت جان عن طريق زوجته ليزا التي كانت يومئذٍ تدير فندق (لاروس) القريب من الاتيوال بباريس، وكان ذلك في تموز سنة ١٩٥٠. وانحدرت من غرفتي بالفندق لأقابل ليزا أمام موظف الاستعلامات. لم تتغير ليزا كثيراً عما رأيتها لاول مرة في پاريس إلا في شيء من النحافة التي اكسبتها رشاقة وخفة وجعلتها تبدو أصغر من عمرها، وسألتها

- خبريني ياليزا كيف اكتشفت انني هنا في مونتريال ؟ ولم اكن قد وصلتها إلا البارحة

فاجابتني وهي تذكرني بضحكتها الخافتة التي تدافع بها ما يثيره كثرة التدخين من السعال اذا ما ضحكت بحرية.

- أنا اعمل سكرتيرة للأستاذ (سالي)، هل سمعت بهذا العالم ؟

- أنا اقرأ له في المجلة الامريكية للامراض النسائية والتوليد فيما يكتبه عن توازن هورمونات الجسم.

وتابعت ليزا كلامها تقول :

- سالي يقيم حفلة كوكتيل لبعض المؤتمرين، ولما كلفني بطبع بطاقات الدعوة خطر ببالي ان اطلب منه قراءة قائمة الدول التي تشارك في هذا المؤتمر فوجدت من بينها (العراق)، فتذكرتك يا كمال وسألت عنك العاملين بتنظيم شؤون المؤتمرين فعرفت اقامتك بهذا الفندق

وان المرأة لا تنسى من تحب أو من تكره وتزايد على كل منهما ذكرى

النعمة او النقمة بمرور الزمن .

وفتحت ليزا حقيبتها لتخرج منها بطاقة دعوة موجهة اليّ لحضور حفلة شاي في بيت مخدومها الاستاذ سالي في داره على ضواحي مونتريال وسألت ليزا لتستطرد معي في الحديث

- هذه الدعوة منك أم من الاستاذ سالي ؟

فأجابتني

- من كلينا ، وسيدهشك هذا الرجل بافكاره في الهورمونات وتطوير معارفها للتطبيق ، وباحاديثه الشائقة عن الحرب التي خاضها في (پرل هاربر) (ثم قالت بلهفة) لنترك هذا الموضوع الى أوانه ولنتكلم عنك يا كمال منذ سافرت من پاريس الى بغداد قبل ثماني سنوات . وبينما كنا نتحدث بمتعة وفرح سمعت من ينادیني بمكرفون الفندق لمقابلة موظف الاستعلامات ، فقابلت معه رجلاً نحيفاً طويلاً في نحو الثلاثين من عمره ، واخبرني انه من ادارة تنظيم شؤون المؤتمر الذي سيعقد صباح غد ، ولابد من رفع اعلام الدول المشاركة على مسرح قاعة المؤتمر ، وطلب مني ان ارسم له العلم العراقي بابعاده والوانه ، وكان ذلك سهلاً علي إلا في ضبط الابعاد طولاً وعرضاً . وعدت الى ليزا التي استمرت تنظر اليّ من بعيد على طول الوقت وانا اشرح لذلك الرجل شكل العلم العراقي واخطه له على الورق . وعدت الى ليزا فقالت لي :

- ذلك الرجل الذي أبعدك عني قد سرق مني الوقت الذي يجب ان يكون لي لا لرسم العلم العراقي . كنت اراقبك وانت تشرح وترسم على الورق لذلك الرجل . ثم اردفت بتصميم ان ما بقي من هذا اليوم سيكون لنا ، وقد أخبرت جان انني ساكون معك في هذا الوقت بهذا الفندق ، ولابد انه الآن في طريقه الينا ، وهذا اليوم عطلتنا الرسمية في كل يوم أحد كما تعلم . وسرعان ما حضر جان ، وقد تغيّر كثيراً عما عرفته في پاريس فقد نحف بدنه وبدا لي اطول قامة مما كان يومئذٍ فيها وحياني بحرارة ، باللغة الانكليزية ، ولم يكن قبلاً يجيدها ولا يحاول التكلم بها ، فتعلمها بكندا ، فقلت له :

- انت لم تكبر ياجان ، وليزا صغرت عمراً ، فما هو السحر في هذه البلاد ؟

وأخذاني الى شقتهما الانيقة القريبة جداً من دار البلدية وتضاعفت دهشتي حين تذكرت شقتهما

المتواضعة في باريس ، فتجاهلت المقارنة فيما بينهما تأدباً ، ثم أخذاني بسيارتها الفارهة من نوع (دي سوتو) الى مسابح سانت لورنس . وكان النهر في هذه المنطقة عريضاً وكان شاطئه رملياً نظيفاً ومياهه البعيدة داكنة سريعة الجريان كما بدت الاشجار الكثيفة على ساحله المقابل وكأنها مغروسة في عمق النهر لا في تربة ساحله . ولم أر المستحمين يبتعدون كثيراً عن شاطىء النهر ، فيزدحمون متقاربين بعضهم من بعض وهم يمرحون متضاحكين برش الماء على اجسادهم العارية . ودخلت ليزا وجان كابيناً صغيراً الى جانب سيارتهما وخرجا منه وهما يرتديان لباس السباحة ، وحين خاضا الماء امتطت ليزا كتفي جان وبقيت على ظهره وهو يمخر في ماء النهر اكثر مما سبحت ليزا فيه ، وخرجا من النهر بعد حين وهما في ذروة النشاط ، وقاد جان سيارته بمهارة وسرعة ، ورأيت ان اثني على جمال سيارته ، فقال جان بقدر من التباهي

ـ أنا في كل سنة لي سيارة من معمل جنرال موتور الذي ينتج هذه السيارة

وقالت ليزا توجه كلامها الى

ـ لقد ترك جان مهنة الملاكمة بعد ان كسر أنفه ، وهو يعمل الآن (كار ديلر) في شركة (جنرال موتور) ، وحمداً لله . وتذكرت ابنتهما ميشيل ، فسألتها

ـ كيف ميشى ياليزا ؟

فأجابتني

ـ انها كبرت ، وهي الآن إبنتنا رسمياً وتتكلم الانكليزية بطلاقة ، وقد تزوجنا بعد ان نزحنا الى كندا ، وفي كيوبيك تم زواجنا ، وفيها سجلنا ميشي ابنة لنا (ثم قالت فجأة) يسرني يا كمال انك لا تزال تذكر ميشي

فقلت لها :

ـ أنا لم انسكم يا ليزا ، وكنت صادقاً ، واذكر هذه العائلة الصغيرة بحب وتقدير

* * *

في اليوم الثاني سجلت اسمي في دائرة ادارة المؤتمر بفندق (كوين اليزابيث) الفخم . وفي الساعة العاشرة صباحاً افتتح المؤتمر بقاعة (كروم ويل) بهذا الفندق ، وقد اصطف على مسرح القاعة اربعة وعشرون صبياً يحملون أعلام الدول المشاركة ، كان من بينها لبنان وروسيا

والسودان ومصر وايران والهند والصين والعراق . وفيما كان رئيس المؤتمر الاستاذ (دواتفيل) السويسري يلقى كلمة الافتتاح وأنا أطوف بنظرى على حملة الاعلام وامتع نظري برؤية العلم العراقي ، وفي تلك اللحظات سقط الصبي الذي كان يحمل العلم الاسرائيلي فاحدث دوياً على خشبة المسرح جفل لها من كان في القاعة ، واسرع البعض ليسعف الصبي الذي سقط . وكان الى جانبي الدكتور حسين علي شعبان نقيب اطباء مصر فقال لي باللغة العربية : هذه من الدعايات اليهودية ، فسألته

- هل تعتقد ان سقوطه مفتعل ؟

فاجابني

- لا شك في ذلك .

* * *

كانت مواضيع المؤتمر شائقة وكثير منها مبتكرة ، ولم يكن الطبيب الهندي (شرود كار) قد ذاع اسمه في عمليته المعروفه باسمه لعلاج حالات الاسقاط المتكرر ، فاجتذب انتباه المؤتمرين وهو يتكلم عن هذه العملية . وشرود كار في منتصف الخمسينات من عمره ، ومثال للرجل الهندي في شكله وقيافته واسود العينين داكن السحنة ، وذو شارب كث لا يطول اكثر من شفتيه . وكان يرتدي ذلك اليوم البدلة الافرنجية

وكنت اثناء محاضرة شرودكار (استاذ الامراض النسائية في بومبى بالهند) أجلس الى جانب الاستاذ (كرين ارميتاج) ، وكان هذا قد زار كلية الطب ببغداد ، وحاضر في المجلس الثقافي البريطاني بمنطقة الوزيرية عن (الوجه الصحي في عباقرة التأريخ) فذكر من هؤلاء اسحاق نيوتن وتشرشل ، وفيما كان (شرود كار) يتكلم عن العلاج الجراحي لانبوبي الرحم باستعمال الانابيب البلاستيكية نهض كرين ارميتاج فجأة وهو يقول باعلى صوته

- قف رجاء ، فقد شاهدت أنا طبيباً عراقياً اسمه (سامرائي) وهو الآن يجلس الى جانبي ، شاهدته يعمل هذه الطريقة في بغداد ، فأنت لست أول من عملها كما تدعى !

فوجم شرود كار ، كما التفت من في القاعة الى حيث كان كرين ارميتاج ، فاضطر رئيس الجلسة ان يطلب مني ان اقف ليشاهدني المؤتمرون ، فامتثلت لطلبه وانا خجل من هذا المديح . والاستاذ متزا استاذ الامراض

النسائية بجامعة دلهي . رشيق البدن وسحنته أقرب الى سحنة (جواهر لال نهرو) التي أراها في صوره الفوتغرافية : انف مدبب ، شارب حليق ، وعلى رأسه سدارة طويلة لا تستر الا بعض القسم الخلفي من صلعته ، ويرتدي سترة مغلقة عند رقبته وسروالا يضيق كثيراً عند قدميه ، كما كان حذاؤه دقيقاً ومزخرفاً بخيوط تلمع . ولم يكن جرس نطقه مريحاً على السمع فضلا عن اللثغة الخفيفة فيها . رحم الله الاستاذ مترا فقد سقط ميتا بينما كان يصعد الى منصة مؤتمر نسوي في ڤينا ليلقى خطابه عن علاج سقوط الرحم ؛ بعد عامين من مؤتمر مونتريال .

واعجبني من المحاضرين في مؤتمر مونتريال (هنري مارتيوس) وهو استاذ الامراض النسوية في جامعة (كراز) بالنمسا . وهو طويل القامة برشاقة ، حنطي السحنة . وكان كلامه واضحاً بالرغم من اللكنة الخفيفة في لغته الانكليزية ، وكانت محاضرته في علاج سرطان عنق الرحم بعملية (شاوته) عن طريق المهبل . ولمارتيوس كتاب ضخم في عمليات الامراض النسوية ، وقد ترجم الى الانكليزية في امريكا ونشر بمجلد أنيق دون تحريف أو زيادة أو نقص في متونه .

كما أدهشني من المحاضرين جراح من (انڤرنس باسكوتلندا) وهو يجري العملية القيصرية بالتنويم المغناطيسي وقد اعتمد في هذه العملية على انغام موسيقية تنبعث من بوق وضعه الى جانب رأس المريضة .

* *

ونظمت ادارة المؤتمر فعاليات اجتماعية ابرزها الدعوة الى تناول الغداء في دار أثرية تجثم كالفيل الافريقي الضخم على قمة تل صخري على مشارف مدينة مونتريال ، وتشرف من جهتها الشرقية على مصب نهر سنت لورانس ، ومن جهتها الغربية على المروج الخضراء التي تحيط بالمدينة التي تنتهي عند خط الافق البعيد وهي تبدو وكأنها بلا حدود . وقد دارت الشاحنات الاربع التي تقل المؤتمرين حول تل هذه الدار اكثر من مرة حتى وصلت الى بابها . والدار عبارة عن مجموعة قاعات فسيحة تتصل ببعضها البعض وهي اكبر من ان تكون حجرات للسكن . وكان الجو يومئذٍ منعشاً فاكسب ذلك المكان ميزة ارتاح لها المؤتمرون باعجاب .

وسرعان ما نشطت تحركات المؤتمرين في جميع مرافق هذه الدار وخصوصاً على السطيحية الفسيحة التي تشرف على جهة النهر . وفيما

كنت أنا والدكتورة (أدما أبو شديد) اللبنانية نتكيء على سياج السطيحية ، رأينا حافلة غير كبيرة توقفت عند باب الدار القريب منا ، وراقبنا من كان فيها من الشباب والشابات حين بدأوا يترجلون عنها مبتهجين متضاحكين وقد بدوا لنا ونحن في السطيحية التي تعلو موقف الشاحنة أنهم كالاقزام . وكان لباسهم موحداً بما في ذلك القبعات الصغيرة التي تعلو رؤوسهم . وكان على هؤلاء ان يمروا بالسطيحية ليدخلو أبهاء الدار ، وكل واحد منهم يحمل بيديه جملة من الكراريس والكتيبات باغلفة صوّر عليها العلم الاسرائيلي . وتقدمت مني شابة وسالتني دون مقدمة وبلغة عرفت انها عبرية ، وحين وجمت لتعرف انني لا افهم لغتها استدركت حالًا وكلمتني بالانكليزية ، وسألتني

من مصر ؟

فاجبتها

- من بغداد العراق .

وسالتني

- يهودي ؟

واسرعت أدما التي كانت تنصت الينا وهي تبتسم وقالت لها

- كلانا من العرب (واشارت الي وقالت) والدكتور سامرائي مسلم .

ثم سالتني هذه الشابة بوقاحة

- لماذا طردتم اليهود من العراق

فاجبتها

- اننا لم نطردهم بل هم الذين طلبوا مغادرة العراق الى اسرائيل فتوجب على الحكومة العراقية ان تسقط جنسياتهم .

فانتفضت الشابة وقالت بحماس الشباب الغر:

- هذا غير صحيح

ولم أشأ ان أثير جدلًا عقيماً مع هذه الشابة وانا غريب في هذا البلد . وتقدم مني في هذه اللحظات رجل ممتلىء الجسم والوجه ومدّ رقبته نحو صدري ليقرأ بطاقة هويتي المثبتة على ياقة سترتي وقال باستفهام

- من العراق ؟

فأجبته

- من بغداد

وقرأت بطاقة هويته فقال لي :
- نعم انا من (لوس أنجلس) ، ولكني عربي الأصل ومن بيت (العسلي) ببيروت . (واستطرد يقول) نزح أبواي الى سان فرانسسكو وأنا طفل أحبو . وفي هذه المدينة تقلبت عائلتي في اعمال متواضعة مختلفة لتعينني على دراسة الطب .

وكان هذا الرجل يتكلم بالانكليزية بصوت أجش عالٍ لا أظنه يحتاج الى مكبرة صوت لو وقف يحاضر في اية قاعة فسيحة ، ومع ذلك كان جرسه اليفاً لا يضايق السمع . وأشار بأصبعه الى الفتاة التي كانت تكلمني ، وسألني :
- هي يهودية اليس كذلك ؟ أنا اكره هذه الملّة ، وقد حاربت عائلتي في امريكا بلا هوادة ، وحاربوني بالحاح حين تخرجت لأمارس الطب ، وقد حاربوني كعربي لا كمنافس لهم في المهنة ، ومازالوا يضمرون لي الكره والعداء . . وسمعنا من ينادي المؤتمرين ان يقفوا على المدرّجات الخشبية التي أعدّت لتصوير المؤتمرين ، وكان عددهم نحو الثلاثمائة طبيب ، وجلّهم من أهل كندا وأمريكا . واسرعت بعض من الفتيات اليهوديات الاسرائيليات ليحشرن انفسهن بين صفوف المؤتمرين فتقدم منهن الدكتور العسلي بعصبية وابعدهن عنوة عن صفوف المؤتمرين قبل ان تلتقط الصور الفوتغرافية ، والتفت نحوي وهو يقول كمن يكتفي بكسر الخبز التي تبقى على المائدة
- هذا ما استطيع عمله ضد هؤلاء اليهود القذرين وان كان ذلك لا يشفي غليلي . فأناطردتهم من صف المؤتمرين وهم طردوا العرب من أوطان اجدادهم في فلسطين وشردوهم في الآفاق .

* * *

وفي اليوم الثالث من المؤتمر سمعت من ينادي على اسمي بالمكرفون فأتجهت الى دائرة الاستعلامات واذا بيعقوب فتّال اليهودي البغدادي ، وأنا أسرع لأجيب على النداء اوقفني وهو يقول لي : - دكتور كمال ؟ أنا يعقوب فتال وانا الذي ناديت عليك بالمكرفون . وقد عرفت قبل ساعة أنك في مونتريال ، فأهلًا بك . يادكتور كمال .

كان يعقوب فتال الذي قابلني بهيئة لائقة في ملبسه وواثقاً بنفسه ، أما حين كان في بغداد فكان غير ذلك ، فقد عرفته رث الثياب ويرتدي سدارة

سوداء تنحدر حتى أذنيه بحاشيتها المرطوبة بمزيج من العرق والوساخة ، وقد عرفته لاول مرة في (قبول) جمال بابان أيام الجمع ، فيأخذ مكانه في المجلس قريباً من صاحب البيت ، فاذا جاء اصدقاء جمال بابان الوجهاء تحوّل من مكانه الى مكان ادنى منه وهكذا بعد أقل من ساعة لا يجد كرسياً له إلا عند باب المجلس أو خارجه . ولا أعرف متى غادر يعقوب فتال العراق ، ولا أعتقد أن ذلك كان قبل اقل من عشر سنوات . قال لي يعقوب فتال :

- انت مشغول الآن يا دكتور كمال وغداً مساء تتناول العشاء في بيتي ، وسابعث لك سيارتي في الساعة الثامنة ، اين تسكن ؟

- في فندق لورنشيـان

- انتهينا ، أنتظرك في بيتي

ولم يمهلني لاقول شيئاً حتى غادر القاعة

كانت شقة يعقوب فتال باذخة الاثاث ، وكذلك ما كان على موائده ، من أطايب الكرزات والمقبلات والمشروبات ، وبخدمة ضيوفه فتاة وفتى باللباس المهني الخدمي ، وشرعت اتلفت يمنة ويسرة لاتعرّف على من في الصالة من ضيوف فاذا بي أعرف اكثرهم ، وجميعهم من اليهود . وحين قمنا الى مائدة العشاء كان طبق (التبيت) أبرز ما عليها . وهو من الاطعمة اليهودية المشهورة في بغداد التي لا تمل . وكان الضيوف لا ينفكون يحثونني على تناول الطعام ، والكلام عن بغداد . وفي صدري استفهامات كثيرة عما وصل اليه يعقوب فتال من الثراء . وحدس يعقوب فتال ما يدور بخاطري فقال لأصحابه على مسمع مني :

- ان دكتور كمال لابد هو الآن ، يفكر كيف وصلت أنا الى هذا الحال من الغنى ، فأقول له بصراحة ، ان جميع من في هذه الحجرة هم شركائي ، وقد نزحنا في أيام متقاربة الى كندا ، ونحن منذ تلك الأيام نخطط لاستثمار الاراضي التي تحيط بمونتريال كما فعل (سليم بلبول) حين أسس بغداد الجديدة . فاشترينا اراضي سعر المتر منها نصف سنت والآن هي بسعر ثلاثة أو خمسة وعشرين دولار بحسب المواقع (واستمر يقول) ولنا الآن موجة تلفزيونية خاصة تذيع عن شركتنا وما تعمل ، ولله الحمد .

* * *

وفي صباح يوم ١٢ / ٧ / ١٩٥٨ حملتني ليزا بسيارة زوجها الى مطار مونتريال ، وهو بعيد نسبياً عن هذه المدينة . وودعتني بقبلة ود نقية ، وصار الى جانبي في الطائرة KLM قس يوناني ، وسرعان ما شرع يحدثني بتواصل وكأنه كان ينتظرني بفارغ الصبر ليقول لي ما يريد ان يقوله ، فتكلم عن مطار اليونان والخطوط الجوية (الألمبك) اليونانية وما تقدمه من تسهيلات وخدمات للمسافرين على متن طياراتها . كان ثرثاراً بانكليزية ركيكة ، ولم يكن قد سألني حتى عن جنسيتي والطائرة على وشك الاقلاع ، وفجأة سألني :

سمعت أخبار اليوم بالراديو ؟

فأجبته بالنفي . وقال :

- ان الطائرة الهولندية التي اقلت فريق كرة القدم قد سقطت في البحر صباح هذا اليوم

ودهشت بألم لهذا الخبر ، بل أخافني كثيراً لانني عرفت أن تلك الطيارة هي ذاتها التي أقلتني من بغداد الى مونتريال ، أو هما بالاقل من شركة واحدة كما اني سأستقل طائرة من هذه الشركة للعودة الى بغداد . وحين أقلعت الطائرة تملكني الخوف إذ تذكرت قول الزميل الدكتور سلمان فائق (في أن السفر في طائرة على متنها قس لا تنجو من بعض المشاكل) وكان على متن هذه الطائرة قسأن . وسمعت الدقات التقليدية التي تنبه المسافرين الى إستماع النصائح لمن في الطائرة في استعمال المصباح الكهربائي في الليل وعدم أكل السمك الذي يصيده من يطوف بطوق النجاة . واردت أن أملأ أذني بطرفي سبابتي يدي ، فلا أريد ان اتخيل سقوط الطائرة والهلع الذي يصيب من عليها قبل ان يبتلعها اليم ، وهذا هو الموت لا انقطاع الانفاس بعد ذلك

وفي ظهر يوم ١٢ / ٧ / ١٩٥٨ غادرت كندا بالطائرة الى امستردام ومنها الى بغداد

ثورة سنة ١٩٥٨

في منتصف ليلة ١٤ تموز بعد الرحلة الطويلة من مونتريال عبر المحيط الاطلسي ودولتين من دول أوربا ، وكنت متعباً فنمت نوماً عميقاً .

وقبل ان ينبلج نور الصباح ايقظتني زوجتي وهي تقول :

- أسمع ضرب مدافع ، وهرجاً ومرجاً وكدت انهرها لابعدها عني طلباً للمزيد من النوم ، غير انني سرعان ما تأكدت وانا انصت ، بأن ثمة حركة غير اعتيادية تنبعث من جانب الكرخ ، فهرعت الى الراديو وأدرت مفتاحه لأسمع ما يحتمل أن يذاع بالراديو ، فاذا بصوت رجل يذيع بحماس بياناً من قيادة الثورة الى الشعب العراقي .

وغادرت بيتي الى مستشفى السامرائي الملاصق له لا تسقط مزيداً من أخبار ما يحدث . وكان في بهو المستشفى من يقول

- قتل الوصي عبد الاله

ومن يقول :

- قتل نوري السعيد .

وأعاد المذياع قراءة (البيان الاول) وذكرت اسماء القائمين بالثورة وكان من بينهم عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف وعبد اللطيف الدراجي .

ثم اذيع بيان يحث الناس ان يخرجوا الى الشوارع ويجهزوا على اعداء هذا الانقلاب الثوري

وعرف الناس بسرعة ان الجيش الثائر قد احتل دوائر التلفون والاذاعة ، وحاصر قصر الرحاب حيث تجتمع العائلة الملكية بمن فيها الملك والوصي وأمه الملكة نفيسة والاميرة عابدية وهم يستحضرون أنفسهم لمغادرة العراق الى استانبول بدعوة من الحكومة التركية ليمضوا أشهر الصيف فيها . وصارت الناس تتجمع حول الراديوات في البيوت والمقاهي ليستمعوا الى مزيد من اخبار هذا الحدث الجسيم ، وتفاصيل وقوعه . وأذيعت كثرة من البيانات منها فصل عدد كبير من الضباط الذين يحتمل في نظر الثوار ان يتحركوا بمعارضة خطيرة . كما أذيع فصل عدد من الموظفين الكبار ومن يرأس دوائر حساسة بما في ذلك الشرطة والأمن . وزخر شارع الرشيد بعربات الجيش وهي تمر بسرعة خارجة من بغداد أو داخلة اليها ، وصرير جنازير الدبابات لا ينقطع ، كما لا ينقطع البث الإذاعي لحظة الّا ليعلن بياناً عسكرياً جديداً مهماً . وسمع ايضاً صوت رجل ينادي بحماس

- الى الشعب العراقي ، لقد قتل عدو الله ولي العهد ، اخرجوا الى الشوارع

لتسحلوا جثته النتنة .
قلت لصديقي الدكتور عبد الله العنيزى ـ وماذا عن الملك ؟
فأجابني
ـ لم يذع خبر (واضاف) يبدو ان الجيش يتصرف بحكمة وتعقل ولم يفقدوا السيطرة على اعصابهم والحمد لله ، لقد قتلوا خاله الوصي عبد الاله . ولا أظنهم سيقتلونه .

وفي موقفنا هذا غير المستقر على معرفة ما حل بالملك ، انضم الينا سعود العنيزى . وهو يقول :
ـ قتلوا الملك

ثم قال الدكتور العنيزي
ـ لم يعثروا على نوري السعيد الى الآن ، وقد خصص لمن يدل عليه جائزة قدرها عشرة آلاف دينار .

ودارت ساعات ذلك النهار بطيئة ثقيلة . وفي حدود الساعة الرابعة بعد الظهر من اليوم التالي دخل مستشفى السامرائي وكيل شركة سيارات (دي سوتو) واسمه جورج عرقتنجي وهو بادي الاضطراب ، وقال لي
ـ دخيلك يا حكيم زوجتي بحالة سيئة
وزوجته سيدة فرنسية كانت تمتهن الرقص في واحد ملاهي بغداد ، فتزوجها عرقتنجي وحملت منه ، فتوليت رعايتها كحامل منذ بدت عليها ظواهر الحبل في منتصف الشهر الخامس . وفي سيارة عرقتنجي الى بيته في منطقة الاورفلية سألته عن أمرها فأجابني
ـ بينما كان هو وزوجته يتناولان الشاي على السطيحية التي الى جانب مدخل البيت ، « سمعنا طلقاً نارياً قريباً منا ، وكان ذلك كافياً ان نخرج من البيت لنستطلع الأمر فاذا أمامنا مشهد غريب ومرعب . فقد كان نوري السعيد ملقى على الارض وهو يرفس والى جانبه إمرأة ، وكان جارنا قد رأى الموقف قبلنا ، وقال لي ان نوري السعيد حاول ان يفتح باب الشيخ رايح العطية فلما اخفق جرب اجتياز الطوف الطيني الذي يحيط بحديقة منزل الشيخ المقابلة لبيتنا ، وفي اثناء هذه المحاولة سقطت العباءة النسائية السوداء التي كان يرتديها نوري السعيد عن كتفيه ، وفي هذه اللحظات صرخ أحد المارة هذا هو نوري السعيد ، فاطلق نوري السعيد

النار على رأسه وخر يصرع على الارض . وبعد ذلك وصلت سيارة جيب عسكرية وترجل عنها الضابط وصفي طاهر (وأنا أعرفه) واستل مسدسه واطلق على نوري السعيد ثلاث طلقات أخرى . واستمر عرقتنجي يقول (في هذه اللحظات) أبعدت زوجتي عن السطيحية وهي ترتجف وادخلتها البيت .

ودارت شائعات في بغداد عن المكان الذي إختبأ به نوري السعيد قبل مقتله ، فقيل ان الدكتور صالح البصام حمله في صندوق سيارته الى بيت محمود الاسترابادي ، فعرفه شاب من عائلة اغدق نوري السعيد عليها النعمة والجاه فوشى به عند الحكومة فهرب متلبساً بثياب النوم وتحت عباءة سوداء نسائية الى بيت الشيخ رايح العطية فخاف هذا من اجارته فصم اذنيه ولم يفتح له باب بيته فتخبط فيما يجب عمله لاجتياز حائط حديقة الشيخ فحدث ما حدث

* * *

في هذا اليوم الذي لم يتبق فيه شيء إلا اصابه الاضطراب وشلّت فيه افكار الناس في ما يعملون خوفاً من المجهول الذي يهددهم في كل لحظة ، رن جرس تلفون بيتي واذا انا اسمع جمال بابان يقول لي بهلع

ـ كمال ، أرجو ان تأتي الآن لتأخذني الى بيتك

وسألته

ـ ما الأمر يا أبا شوان ؟

ـ وجدت مكتوباً على حائط مدخل بيتي عبارة (هذا هو بيت جمال السفاح) وهذه اشارة الى ما يمكن ان يحدث لي في اي دقيقة

ولم افكر طويلًا فهذا الرجل يستجير وبينه وبيني تعارف فلابد ان أجيره ، ومع ان الطريق الى بيته لا يخلو من مخاطر هيجان الشعب ضد رجال الحكم الملكي ، ركبت سيارتي اليه ، وفي الساحة التي ينفذ اليها شارع بيت جمال بابان رأيت دمية بحجم الانسان وشكله مشنوقة بين ثلاثة اعواد ، وكان منظرها سمجاً ومرعباً ، فتجاوزته وأنا انظر اليه بطرفي عيني حتى وصلت بيت جمال بابان ، فوجدته بحالة يرثى لها من الخوف من غوغاء الطريق ، وما كدت اوقف سيارتي أمام كراج سيارته حتى هرع قبل ان يتكلم معي وصعد الى المقعد الخلفي في السيارة ثم ما لبث ان انبطح على وجهه في تعر حوض السيارة الخلفي ، وبقي في بيتي اثنا عشر

يوماً قبل ان يغادر العراق الى فينا . وبعد ثلاث سنوات جمعتني المصادفة مع ابن عمه جلال بابان فسألني

ـ لو عاد ما حصل لجمال بابان مرة أخرى فهل تعمل له مثلما عملته يوم ثورة (٥٨) فأجبته على الفور

ـ نعم سأعيد الكرة دون تردد

* * *

وفوجئت يوماً باستدعاء لاداء شهادة في محكمة تشكلت بأمر وزير الصحة الدكتور محمد صالح محمود للنظر في تصرفات بعض اطباء المستشفى الملكي وكان اعضاؤها من منتسبي (جامعة) بغداد وهم جراح وطبيب باطني وطبيب عدلي وطبيب اسنان وممثل نقابي . وبدا لي هذا المجلس هزيلاً مضحكاً فقد كان رئيسه (وهو الطبيب الباطني) قبل الثورة من دعاة الحكم الملكي العنيدين .

دخلت قاعة هذه المحكمة وكان يجلس في صدرها رئيس اعضاء هذه المحكمة ، فبادرني قائلاً (يا للمهزلة) أجلس على ذلك الكرسي واشار بالتفاتة الى كرسي قبالة مجلسه ، فجلست عليه ، وسألني

ـ هل كان مدير المستشفى (الملكي) عبد الرحمن الجوربة چي يستغل وظيفته لاعماله الشخصية ؟

فأجبته انفي ذلك على قدر علمي بهذا الموضوع

ـ هل كانت له لقاءات مشينة مع ممرضات المستشفى ؟

وأجبته

ـ ليس لي علم بذلك .

ـ هل كان الجوربه چي يأخذ من متعهد ارزاق المرضى دهن وتمن على حساب المستشفى ؟

ـ اعرف ان الجوربة چي على عكس ذلك ، فهو الذي يشارك في ارزاق المرضى عن طريق مكرماته في المناسبات الدينية والوطنية . كما وجه لي اسئلة أخرى جميعها تافهة ومغرضة .

وانتهى رئيس (المحكمة) من توجيه الاسئلة اليّ وجميعها تخص الدكتور الجوربه‌چي .

وكان اعضاء هذه المحكمة ورئيسها متحيزين لافكار خبيثة .، وخصوصاً رئيس المحكمة الذي كان يدعى دوماً الامانة والتمسك بالصدق والحق .

وخرجت من هذه المحكمة وفي صدري غيظ يغلي فقصدت رأساً وزير الصحة الدكتور محمد صالح محمود ، وكان من اصدقائي في ايام الدراسة بكلية الطب وبعد تخرجنا فيها . فدخلت غرفته غاضباً دون استئذان وكان في تلك اللحظة يتحدث الى مدير عام الصحة الدكتور رشيد زكريا ، واندفعت اذكر له ما حدث في هذه المحكمة ، والاتهامات الباطلة التي وجهت الى الدكتور الجوربه‌جي . وقلت له فيما قلته :

- ان رئيس المحكمة لم يسمح لي بقراءة افادتي لأُوقع عليها ، واخشى ان يحشوها بما لم أفد به أمامه .

وكان الدكتور رشيد زكريا يلهو حين كنت اكلم الوزير بتقليب صفحات اضبارة بيده وهو يبتسم ، وكانت هذه اشارة فهمها الوزير ، إذ سحب درجاً في منضدته واخرج منه ورقة مكتوبة بالآلة الطابعة وقدمها اليّ وطلب مني ان أقرأها : يا الهي

(١) كمال السامرائي يأخذ القطن والرفائد والادوية من الردهتين العاشرة والحادية عشرة الى مستشفاه (السامرائي)

(٢) انه يوصى الممرضات ان ينصحن المريضات لمراجعته في عيادته الخاصة

(٣) في عيادته ممرضة هي في الوقت نفسه موظفة في الردهتين النسائيتين يشتبه بكونها سمسيرة له ، والاشارة مفهومة .

(٤) انه يتقاضى أجوراً عن العمليات التي ينجزها في ردهتيه بالمستشفى الجمهوري (الملكي سابقاً)

(٥) كمال السامرائي ورئيسة الممرضات في الردهتين المذكورتين على علاقة مشبوهة

قرأت هذه الاتهامات المدونة في الورقة التي سمح لي الوزير بالاطلاع عليها . ولما انتهيت من قراءتها ورفعت رأسي عنها قال الوزير

- في ورقة أخرى يسمى النقابيون اعضاء اللجنة التي ستحاكمك فقلت له :

- أرجو ان تسرع بتشكيل اعضاء المحكمة يا أبا عصمت .

فأجابني

- بل سأتركهم يعملون ما يحلو لهم ، وسيكون ذلك حبراً على ورق لا أكثر من ذلك وسأملأ بها سلة المهملات ، فلا تبال يا كمال

وفي طريقي وانا اغادر مبنى الوزارة بساحة معروف الرصافي التقيت بالدكتور الجوربه‌چي ، وكان قد خرج من التحقيق معه قبل ان ادخل عليها لاداء شهادتي . وكان على وجه الجوربه‌چي سخط بالم ، وفي يده ورقة لم أخطىء في معرفة ما مكتوب فيها ، مع ذلك سألته عن محتوياتها ؟

فأجابني

- طلب بالاستقالة

فقلت له على الفور

- ليست بوقتها ياأبا عوف

فقال لي :

- هذا لابد منه ، فانهم يتهمونني بما لا يليق

وعلمت بعد ذلك انه رفع استقالته الى الوزير مباشرة فرفض قبولها واعتذر له عما حدث في محاكمته ، وعرض عليه اية وظيفة يريدها إلا مديرية المستشفى الجمهوري ، فاستجاب لطلبه وفضل ان يعمل بدائرة التفتيش مع الدكتور محمود المدرس ، وهذا ما حصل .

المحكمة العسكرية العليا الخاصة لمحاكمة رجال العهد الملكي

وعرفت هذه المحكمة أيضا باسم محكمة المهداوي . وكان المهداوي في ماضيه موظفاً بامانة العاصمة ، ثم التحق بدورات عسكرية وتقدم في مراتب الجيش حتى وصل الى رتبه عقيد وحين تشكلت المحكمة العسكرية المذكورة نصب لرئاستها ، كما عين العقيد ماجد محمد امين مدعيا عاماً فيها .

ولا شك ان هيئة المحكمة المذكورة وجميعها من فئات عسكرية ، كان اكثر ، اعضائها يحترمون حكام المحكمة ، على ان ذلك لم يعرف بشكل مؤكد ، غير ان بعض إعضائها كما شاع بين الناس كان معارضاً في اصدار

حكم الاعدام على بعض رجال العهد البائد الذين حوكموا على أعمالهم في العهد الملكي . ورئيس المحكمة العقيد فاضل المهداوي كان شرساً بذيء الكلام مع المتهمين ، وكان من الذين حكمت عليهم هذه المحكمة بالإعدام . غازي الداغستاني وسعيد قزاز ، وكان هذا الأخير يوم الثورة وزيراً للداخلية ،

فاضل المهداوي وغازي الداغستاني في مستشفى السامرائي / ١٩٥٩

ابرز شخصية في ايام عبد الكريم قاسم هو رئيس المحكمة العسكرية العليا الخاصة العقيد فاضل المهداوي . وكانت مجالس محكمته مثيرة لما فيها من جد بتعسف وهزل ببذاءة . وكنت اعرف المهداوي منذ كان مراقباً في (أمانة العاصمة) حين يدخل عيادة صديقه الدكتور اسماعيل ناجي ، وكان يجلب نظري يومئذٍ قصر رجليه بالنسبة لامتلاء جذعه . وفي يوم بهذه المحكمة الخاصة حكم المهداوي على أمير اللواء غازي الداغستاني بالاعدام شنقاً حتى الموت كأحد رجال العهد الملكي . ثم افرج عنه الزعيم عبد الكريم قاسم . وحدث يوماً بعد ذلك ان الداغستاني زارني في مكتبي بمستشفى السامرائي ، وفي لحظة سمعنا هرجاً في بهو المستشفى وضربات اقدام ثقيلة كثيرة ، فدخل مكتبي مضمد العمليات (رزوق) وأخبرني ان المهداوي جاء يزور مريضة في المستشفى بغرفة رقم (٢) وبعد نحو خمس دقائق سألني الداغستاني ان كنت أعرف المهداوي ، فلما قلت له اعرفه ويعرفني قال لي إذن الافضل ان اغادر فلا أريد ان ارى هذا الرجل .

ونهض عن كرسيه وصافحني مودعاً . وفي هذه اللحظات كان قد غادر المهداوي ايضاً غرفة المريضة التي كان يزورها يتقدمه عدد من الجنود وفي يد كل واحد منهم غدّارة ، وصار في طريقهم غازي الداغستاني ، فدفع احد اولئك الجنود الداغستاني جانباً ليفسح الطريق لسيده المهداوي ، فانصاع الداغستاني وتنحى عن الطريق الذي يمرّ عليه المهداوي . وفي لحظة خاطفة التفت ذلك الجندي نحو الداغستاني

وعاد اليه مسرعاً وخفض رأسه ليقبل يده وهو يقول له :
- العفو ياسيدي ، ما عرفتك وانكسرت يدي التي دفعتك فقال له الداغستاني :
- لا بأس يا أبني ، هذا واجبك ، فالحق بآمرك وانا اشكرك

سعيد قزاز بين افراد عائلته في ساعات الأخيرة

في ساعة من ظهر يوم ٢١ / ٩ / ١٩٥٩ دخل الى غرفتي بمستشفى السامرائي شاب في نحو الثلاثين من عمره ، مكور الرأس بجمة خفيفة ، ممتلىء البدن وبطول معتدل ، وحياني بأدب لم يخف الحزن الذي كان يسيطر على وجهه ، وهو يقول لي بلغة دارجة استطعت ان أعرف انها لا تخلو من لكنة كردية ،
- عندي مريضة وأحتاج الى مساعدتك
فقلت له :
- لم اعتد ان ازور المريضات في بيوتهن ، وأفضّل ان يكون الفحص في المستشفى ، فقد تحتاج المريضة الى مداخلة آنية لا تتوفر ادواتها في البيت
فقال لي :
- هي مريضتك ، وأنا زوجها الدكتور كمال (وقرّب رأسه من رأسي واضاف) هي (يرى) بنت سعيد قزاز .
وكنت أعرف ان سعيد قزاز قد حكم عليه بالاعدام في محكمة المهداوي (العليا الخاصة) ، ولعلاقتي مع أبيها قلت لهذا الشاب
- هيّا اليها
وسألته حين تحركت السيارة وأنا اجلس الى جانبه
- اين يكون البيت يادكتور كمال ؟
أجابني
- قرب كراج إبراهيم سعيد
ولم أكن اعرف مكان هذا الكراج ولكنني اعرف ان بيت سعيد قزاز ليس بعيداً من مستشفى السامرائي ، فقلت له :

ـ أعرف أنكما تسكنان في بيت سعيد قزاز القريب من مستشفى السامرائي فقال لي :
ـ هذا صحيح ، غير ان بعض (الاولاد) صاروا يضربون البيت بالحجارة منذ بدأت محاكمة سعيد قزاز ، فاضطررنا ان نغادر ذلك البيت وأستأجرنا بيتاً متواضعاً بعيداً عن الانظار وبعد لحظات من السكوت سألته :
ـ مم تشكو پرى يادكتور كمال ؟
فلم يجبني ، واعدت عليه سؤالي على احتمال انه لم يسمعني فقال :
ـ البارحة ليلًا خابر مدير السجن أحد أقاربي ليطلب منا الذهاب الى السجن لرؤية ابي پرى ، وعرفت مقدماً ان تلك قد تكون آخر زيارة قبل ان يعدم . وذهبت أنا وأم پرى وپرى الى السجن لنراه ، فأوقفنا جندي عند طاق من سعف النخل يفضى الى درب يصل الى بناية صغيرة غير بعيدة عنا ، وما لبثنا طويلًا حتى طلع علينا أبو پرى يقوده جنديان من زنديه ، وكان حليق الرأس ، فلم تتمالك أم پرى وپرى نفسيهما عن البكاء حتى أغمى على پرى ، فتقدم منها أبوها سعيد قزاز وأنهضها وقبّلها وضمها الى صدره ، ثم استدار نحو أم پرى وقبلها وقال لها :
ـ أنا راض عنك يا أم پرى ، فتهيأى ، من الآن ان تكوني أرملة ، وهذا أمر الله .

وتقدم منه الجنديان وامسكا بزنديه وهما يقولان له :
ـ كافي سعيد بك

هذا ما قاله لي الدكتور كمال وهو معي في طريقنا الى عيادة زوجته پرى سعيد قزاز .

ووصلنا البيت الذي فيه المريضة پرى . هو من النوع النمطي الذي كان مألوفاً في بغداد قبل الاربعينات . غرفتان صغيرتان على جانبي مدخله ، ثم هول غير واسع تنفذ اليه غرفتان من جانبيه وفي جبهته التي تقابل مدخله باب تؤدي الى حديقة صغيرة خلف البيت .

كانت پرى الشابة في بداية حملها الأول ، وبحالة هستيرية من التشنج ، ولم اكتشف ما يدل على ان الرحم أو الجنين قد تأثرا بحالتها النفسية ، فطمنتها على ذلك ووصفت له مشروباً مهدئاً .

وعلى باب غرفتها وأنا أهم بالخروج منها سألت الدكتور كمال بهمس

- اين ام يرى ، أريد ان أراها ان أمكن ؟
فقادني الى هول البيت ، وفيه رأيتها تجلس على حشية وهي تسند ظهرها الى الجدار . كان وجهها جامداً كأنه تمثال من رخام أبيض ، وعيناها بلا حياة ولا نور .

اي عزاء يسلّي هذه المرأة ؟ أحسن عزاء ان أقعد الى جانبها دقيقة دون كلام ، وهذا ما فعلته ، وحين نهضت لاغادر (الهول) سمعتها تقول بصوت مبحوح :
- اشكرك يادكتور كمال

عبد الكريم قاسم جريح في مستشفى السلام ١٩٥٩

قرر حزب البعث السري اغتيال عبد الكريم قاسم . وفي يوم ٧ / ١٠ / ١٩٥٩ نفذ هذا القرار ، قرب (بيت لنج) المقابل لـ(عگد النصارى) ، ولم يفلح من رشقوه بالرصاص ان ينالوا منه باكثر من جروح في يده وهو يمر بهذه المنطقة في سيارة (ستيشن واكون) ، ونقل الى مستشفى السلام حيث أخرجت من جروحه بعض الطلقات النارية . وصار بعض الناس يتوافدون لعيادته متمنين له الشفاء العاجل . . ورأت عمادة كلية الطب ان توفد بعضاً من اساتذتها ليزوروه في المستشفى . وكانت السيارة التي كان يستقلها الزعيم عبد الكريم مركونة في مدخل المستشفى ليشاهد زائروه آثار الطلقات النارية فيها . وحين تقاطرنا للدخول الى غرفته في الطابق الثاني من المستشفى مررنا بغرفة تقابل الغرفة التي فيها الزعيم . ورأيت بطرف عيني جمعاً باللباس العسكري دون ان اتبين وجوههم . ولما دخلنا غرفة الزعيم كان يلبس البجامة وعليها روب مزركش بخيوط لمّاعة ، وتقدمنامنه واحداً تلو الواحد ، وحين وصلت اليه ضغط على يدي وهو يسألني بحماس :
- هل اعطاك (ارشاك المصور) نسخة من الصورة ؟ وتساءلت مع نفسي اية صورة ؟ وسألني : الدكتور فتح الله عقراوي ، وكان يومئذٍ مديراً لكلية الطب ، باستفهام واستغراب .
- كمال ، ارى الزعيم يوليك التفاتة خاصة !

فقلت له :

- كنا اصدقاء في الثانوية المركزية بالرغم من انه كان في القسم الأدبي بالمدرسة ، كما كنا نراجع دروسنا المشتركة سوية . وفي مساء اليوم التالي دخل المصور ارشاك عيادتي الواقعة على رقبة جسر الاحرار وقدّم لي صورة فوتغرافية مؤطرة تجمع طلاب هذا الصف في هذه الصورة وأنا واقف في الصف الثاني بهذه الصورة وعبد الكريم في الصف الرابع فيها . وركزت استعراض من كان في الصورة من المعلمين وطلاب المدرسة . كان مدير المدرسة سعيد فهيم يحتل الكرسي الوسط في صف المعلمين وعلى يمينه درويش المقدادي ، وعلى مظلوم وتحسين ابراهيم ومستر پراير ، وعلى يساره صديق الخوجة وابراهيم جميل ومعلم الرياضة المصري صدقي عبدو . أما الطلاب الجالسون على الارض فاوسطهم عبد الجبار محمود والى يساره طه باقر ويوسف المولى ثم عبد الجبار عبد الله (رئيس جامعة بغداد بعد ذلك) واجتذبت انتباهي صورة عبد الكريم قاسم فاذا هو في الصورة نفسه تقريباً في الوقت الحاضر ، وخصوصاً في بروز اذنيه عن مستوى رأسه من الجانبين ، وفي شاربه القصير جدا فوق شفته العليا الرفيعة .

مع تاسلو انطوان في ڤينا ١٩٥٩

نسمع في بغداد الكثير عن الطب في ڤينا ، وكان يقال يومئذٍ ان هذه الصناعة ولدت في ڤينا ، وترعرعت في انكلترا وشاخت في أمريكا . كما كنا نسمع ان كل ما نعرفه عن سرطانات الرحم بما في ذلك تشخيصه ومعالجته بالجراحة كان ذلك من إبتكارات أطباء ڤينا ، وإنهم ايضاً ابتكروا آلة تشخيص أورام عنق الرحم في بدء تكونها . . فقدمت طلباً الى عميد الكلية الدكتور صائب شوكت لأسافر الى ڤينا للاطلاع على اعمال أطبائها في العمليات النسائية ، فحبذ الدكتور صائب الفكرة واستحصل لي إيفاداً لمدة شهر لأدرس طرق عمليات الاورام الخبيثة واستعمل آلة (الكلبو سكوب) لاكتشافها مبكراً ، وكنت أسمع ممن رأى ڤينا ان هذه المدينة سرّة أوروبا ، فلا يدخل هذه القارة سائح ، وخصوصاً من الامريكان

إلا ويزورها . وصلت في يوم عشرين شباط الى ڤينا . المطار بعيد عن المدينة إلا ان الطريق منه الى ڤينا جميل وممتع لكثرة ما حوله من الاشجار والبيوت ذات السقوف القرميدية التي يغطي بعضها الثلج بكميات كبيرة وساعدتني القنصلية العراقية لمعرفة المستشفيات التي استطيع الاستفادة منها . كان مستشفى النساء (فراون كلنك نمرة ١) يمارس العمليات على طريقة الاستاذ (شاوتة) ، وهو أول من استأصل الرحم بكامل ملحقاته عن طريق المهبل ، وقد توفي شاوته في العشرينات غير ان طريقته لم تمت وظل تلامذته يمارسونها الى يوم زرت ڤينا . أما مستشفى النساء (فراون كلنك نمرة ٢) فيرأسه الاستاذ (تاسلّو انطوان) وهو تلميذ (ڤرتايم) ولڤر تايم طريقة خاصة تعرف باسمه في قلع الرحم وملحقاته وعنقه وأنسجة الحوض بما فيها من غدد غزاها السرطان ، وهي الطريقة التي يمارس تطبيقها تاسلّو انطوان ، واخترت ان ازور مستشفى النساء نمرة (٢) لمشاهدة عمليات تاسلو انطوان ، فاتصلت به تلفونياً فاذا هو يتكلم الانكليزية بطلاقة إلا في نطق بعض المصطلحات الفنية فانه يقولها بين اللهجة الالمانية والانكليزية ، وضرب لي موعداً لمقابلته في دائرته ، وقابلني بترحاب شديد ، ودعا مساعديه (راوشه) و(كرميركر) لأتعرف عليهما والأول زوج إبنته وهو أشبه بسدنة اضرحة الائمة بسامراء والكاظم لو وضع على رأسه العمة بالطربوش الأحمر وحوله القماش الابيض ، أما كرميركر فهو أشقر الشعر ، حتى اهداب عينيه .

وتاسلو أنطوان من أصل فرنسي ، متوسط القامة أسود الشعر مع خليط كثير من الشيب ، وزوجته واحدة من ممرضاته وقد انعزلت الى أمور بيتها بعد زواجها من تاسلو انطوان ، وهواية زوجها التزلج على الثلوج والتصوير الفوتغرافي . وعقب زيارتي له بيوم واحد دخلت معه الى صالة العمليات ، واستغربت إذ رأيت فيها طاولتين للعمليات ويعمل عليهما جراحان في آن واحد ، مع اعتبار ان تكون احداهما على الاكثر العمليات الصغرى والثانية للعمليات الكبرى . كان عملهِ في قلع الرحم على طريقة ڤرتايم قد أجتذبت انتباهي باعجاب ، فقد قلع الرحم وملحقاته وانسجة الحوض بما فيها الغدد كتلة واحدة لا قطعاً ، وحين فرش هذه الاعضاء

بعد انتهائه من العملية على ورق (مشمّع) فكأنه قد رسم عليها محتويات الرحم التي لم تمسها يد ولا سكين .

وفي اليوم الثاني حضرت معه في العيادة الخارجية لفحص بعض المريضات بآلة (الكلبو سكوب) ، ونصحني وهو يربط اجزاء هذه الآلة بعظها ببعض ان أشترى واحدة منها ، وزودني بعنوان الشركة التي تصنعها ، فاشتريت واحدة منها وحملتها معي الى بغداد .

وعلى مائدة الشاي في العيادة الخارجية التي حضرتها رئيسة الممرضات ومساعداه صار يتكلم عن سرطانات عنق الرحم في ڤينا وقال فيما قال :

- ان هذا المرض يكثر في ڤينا بشكل ملحوظ ، حتى في صغيرات العمر ، وانه قد يكون له علاقة بممارسة الجنس في عمر مبكر ، كما أن المرأة الڤيينية تغتسل قبل العلاقة الجنسية لا بعدها . كذلك فان المرأة النمساوية كثيراً ما تهمل نظافة اعضائها ، (وأضاف) وقد انتبه الى هذه الاحتمالات كبار الاطباء الالمان فاهتموا باكتشاف هذا المرض الخبيث قبل ان يستفحل ، وظهور الدم بعد العلاقة الجنسية علامة نعدها متأخرة ويجب ان يكتشف المرض قبل ظهورها . (واستمر يقول) ان أول من اهتم بفحص عنق الرحم مختبرياً هو (هانسلمان) ويرجع اليه الفضل في تطوير فكرته لتصميم آلة الكلبو سكوب ، وتلاه (شلر) باستعمال صبغة اليود التي لا تلوّن المكانات إلتي تهرأت بفعل الورم . أما (شاوته) وڤرتايم فهما متعاصران وقد جاءا في زمن متأخر . (ثم قال تاسلو) : نلاحظ ان جميع من اشتغل بموضوع السرطان كانوا من الجنس الألماني

كان تاسلو انطوان شخصاً فاضلًا وسخياً في تعليم من يلتحق به من العلماء والمتعلمين .

وفي آخر ساعة من تناول الشاي دعوته لزيارة كلية بغداد والتحدث الى طلابها عن اعماله في معالجة السرطان ، فوصل بغداد بعد شهر

تقريباً . وكانت محاضرته في قاعة الزهراوي بكلية الطب ، وهو محاضر كفؤ ويشد السامع ويعد باحثاً في الجراحة النسائية على المستوى العالمي

٨

حديث مع شيوعي في ڤينا / ١٩٥٩

٤٧ متى رأيت هذا الرجل واين ؟ لابد ان ذلك كان بعيداً منذ زمن بعيد وفي مكان بعيد عن بغداد . هيئة غربية غير شرقية ، هل هو أحد الممثلين الذين اراهم من التلفزيون فأتوهم بمعرفتي بهم ؟ كنت أتطلع الى ما وراء زجاجة واسعة تسدّ واجهة حانوت كبير حين رأيت ظله فيها الى جانبي ، ونقل قدميه ليكون قريباً مني ، ونظر اليّ عن قرب ، ثم عاد يتطلع الى ما وراء زجاجة النافذة ، وعرفت انه كان يشغل باله بأمرى . كان لباسه من الخاكي ويضع على رأسه قبعة من القش بلون التبن ، وفاجئني يقول :

ـ انت لست من ڤينا ، اليس كذلك ؟

قالها بانكليزية ركيكة .

ـ لا ، أنا لست من ڤينا

ورد عليّ بما يشبه الزهو

ـ ها انت ترى انني لم أخطىء في قوميتك : من مصر ؟

ـ لا من بغداد العراق

وادار جسمه الضخم نحوي حتى صار قبالتي ، وقال :

ـ أنا كنت في العراق .

وقلت في نفسي ، إذن انتي رأيته في بغداد ، غير انه عاجلني يقول :

ـ كنت في بغداد يوم إنحسر الوجود التركي بعد معركة خليل پاشا في الكوت سنة ١٩١٧ ، وكنت احد الذين اسرهم الانكليز في سلمان باك . وعدت الى نفسي لانفي ان اكون قد رأيته من ذلك الزمان ولم اكن يومئذٍ إلا طفلاً صغيراً ، ومع ذلك نمت عندي رغبة في التحدث اليه عن بغداد في تلك الأيام . فاذا هو يبادرني اليها ويذكرلي يوم افتتاح شارع خليل پاشا (شارع الرشيد اليوم) وقد سارت عليه أول سيارة تدخل العراق وهي تقل الوالي خليل پاشا ، كما ذكر الجسر الذي يربط بين صوبي بغداد وهو محمول على قوارب تغوص في ماء دجلة ثم ترتفع بحسب الاثقال التي تمر فوقه . وحوّل هذا الرجل حديثه ليتكلم عن ڤينا والحياة فيها ، قال :

ـ انا وانت نتطلع بحسرة الى هذه الملابس المعروضة في هذه النافذة دون ان تكون لنا القدرة على شرائها ، أنها غالية ولا يشتريها إلا المتخمون بالغنى . (ثم اردف قائلاً)

- هذا هو بلدنا . انه يمشي الى الدمار والخراب ليعيش على حطامه قلة من البشر الذين لا يستحقون الحياة . .

وقادني من يدي الى ركن في الشارع ووقف على مدخل الزقاق الذي ينفذ اليه

- انظر الى ذلك البناء ، هل تراه ؟ انه على الجهة اليمنى ، انه مستشفى للأطفال ، وهو اكبر مستشفى في فينا بهذا الاختصاص ، اليس الأجدر ان يبنى هذا المستشفى على قمة (كالنبرك) عوضاً عن ان يقام في وسط فينا ؟ يجب ان يكون هذا المستشفى على قمة (كالنبرك) واللاهون والمقامرون في كازينوات كالنبرك يجب خنقهم في هذا البناء وسط زفير فينا ، ومرّ بنا رجل بهيئة عامل يتسكع ، فاوقفه صاحبي ، وطلب منه سيكارة ثم التفت اليّ وقال عن هذا الرجل

- انه مثلي من الكادحين ، ومصيبتنا واحدة .

وعزمت ان أفارقه بعد ان غدوت لا استطيع مجاراة افكاره وتبلبلها ، وتوقفت بعد ان انضمت اليه فتاة في اول صباها ، وقدمني اليها بالالمانية ، وكانت تحمل بيدها صندوقاً أسود طويلاً ، أشار اليه صاحبي يقول :

- هذا هو مصدر معيشتها ، ولو حرمت منها فقدت الحياة ، انها كادحة مثلى ، تعمل عازفة كمان في صالة (موزارت) ، هذا الكمان هو حياتها ومصدر معيشتها

وسألته

- وانت ماذا تشتغل ياسيدي ؟

- ليس في هذا البلد شغل

- كيف تعيش ؟

- هذا هو سؤال حكومتي ، انت الآن تشبه حكومتنا ، فهي لا تسألني عما احتاجه ، بل تسألني عما أعمله ، سؤال سخيف ، فهي تعرف اني أنا وكثيرين امثالي لاشغل لنا

- اشتغل لنفسك

- ليس في فينا شغل لي ولأمثالي ، بل هو للناعمين المترفين وراء مناضد دوائرهم الضخمة .

وفارقت هذا الرجل دون اعتبار لما تفرضه اللباقه في توديعه

في أحد متاحف ڤينا / ١٩٥٩

في يوم ١٢ / ٢ / ١٩٥٩ اقترح عليّ الدكتور اسماعيل ناجي ان نزور متحفا كان (كما علمت من صديقي اسماعيل) في الاصل بيت احد البارونات النمساويين . وكان صديقي اسماعيل يسكن ڤينا إثر خلاف وقع بينه وبين وزير الصحة محمد الشواف ، وكان وجود هذا الصديق الحبيب في ڤينا ما وجعلني أشعر بكثير من الاطمئنان والفرح لمصاحبته والبيت الذي قصدناه قصر منيف بطابقين وفي وسط ارضه حديقة لم تكن كبيرة بالنسبة لضخامة ذلك البيت . وفي الحديقة مقهى تقدم فيه المشروبات بانواعها وبعض المأكولات الخفيفة . واتخذنا طاولة قريبة من المدخل الى هذه الحديقة . وكانت اكثر كراسي هذا المقهى مشغولة بالسياح من مختلف الجنسيات . ولاحظنا ان شخصا بلباس متميز يمر على من في المقهى ويقود مجموعات منهم ليزوروا حجر هذا البيت وقاعاته . وحذونا حذو هؤلاء وقمنا مع ثمانية أخرين نتبع الرجل ذا اللباس المتميز . وسرعان ما عرفنا ان هذا الرجل هو دليل هذا البيت العظيم . وبعد ان أرانا الطابق الارضي بما فيه من قاعة كبيرة للاستقبال ، ومكتبة ، وحجرة خاصة بالاجتماعات المهمة . وجميعها مزينة بالصور الزيتية الثمينة ، تبعنا الدليل الى الطابق الأعلى . وفيه زهاء ثمان غرف للنوم وصالون خاص للاجتماعات الليلية . وفيما كان الدليل يقودنا الى هذه الفضاءات . توقف عند ممر ينتهي بنافذة يدخل منها الضياء لانارته . وكان على كل واحد من الجدارين القريبين من النافذة صورة تمثل الصورة الأولى رأس فارس وتمثل الثانية قنطرة فوق ترعة ماء . واذ اني رايت ان الجانب الايسر من القنطرة هو المضيء فيجب ان يكون هو الذي يقع عليه النور أكثر من الجانب الاخر . . وهكذا في صورة الفارس . . فتشجعت وقلت للدليل :

- عفوا . أرى ان هاتين الصورتين يجب ان تكون احداهما في مكان الآخرى .

فسألني باستغراب

- ماذا تقصد ياسيدي ؟

فأجبته

- أعني يجب ان توضع هذه الصورة مكان تلك ، وتلك الصورة في مكان هذه .

فقال مستغرباً ايضاً :

- وما الفرق ؟

فقلت له :

- ان هذا الفارس ينظر الى الحائط بينما اذا نقل الى مكان الصورة الثانية فانه بنظرته يستقبل المتفرجين ، كما ان جانب الفارس المضيء يقابل الجانب الآخر المظلم من الزاوية . وما كدت انتهي من توضيحاتي حتى قال لي الدليل

- ان هذا الأمر لا يخصني يا سيدي

وبهذا انتهى حديثنا عن الصورتين . ولما انتهت زيارتنا لجوانب المتحف كلها عدنا الى حديقته في إنتظار زوجة انطوان تاسلَر التي طلبت منا ان نكون في الحديقة في وقت عينته لنا . وفيما كانت مدام تاسلَو انطوان تسمع مني رأيي في موضوع الصورتين تقدم منا شخص ذو قيافة وملابس متميزة ، عرفت من سيمائه وملابسه المميزة انه أحد موظفي هذا المتحف ، قال لي :

- تسمح لي يا سيدي ان اجلس معكم

فقلنا له :

- تفضل

وافسحنا له مكاناً بيننا على الطاولة ، واردنا ان نضيفَه بشراب فاعتذر شاكراً . وهو يقول لي :

- انا مدير هذا المتحف ، وقد أخبرني الدليل انكم أبديتم ملاحظة عن وضع الصورتين في بهو الاميرات ، اليس كذلك ؟

فأجبته

- نعم أنا الذي ذكرت تلك الملاحظة

فقال :

- انت مصيب ياسيدي ، وحين أخبرني الدليل عن ملاحظتكم أسرعت فوراً لأرى الصورتين ، فاذا الخطأ في وضعهما واضح جداً فأبدلت موضع الواحدة منهما بموضع الأخرى بيدي وقد ارتكبت ذلك الخطأ العاملة المسؤولة عن تنظيف الصور والاثاث . وتستطيع ان تراهما الآن في الوضع

الصحيح لكل منهما .

تم شد على يدي بامتنان وتقدير على ملاحظتي التي ذكرتها لدليل المتحف الوطني . وخرجنا من هذا المتحف قاصدين (البارك) انودنني على اطراف ڤينا . أما مدام تاسلو انطوان فقالت لي وهي تودعني

ـ سانقل حكايه الخطأ في وضع الصورتين الى تاسلو وهو يهتم كثيرا في وضع الصور في امكنتها الصحيحة . وفارقتني

الى الپارك الوطني / ومثلان من الانسانية والرحمة :

كان علينا لنصل الى هذا الپارك الوطني المشهور في ڤينا ان نستقل قطاراً الى محطة قريبة منه . وفي طريقنا الى كراج سيارات الباص التي تصل الى محطة القطار تهنا في الوصول اليها ، فالتجأنا الى حانوت صغير كان وحيداً في منطقته ، وكان في قعره رجل عجوز فتقدم منا حين وقفنا على باب دكانه نسأله عن أقصر طريق الى محطة القطار الذي يصل البارك الوطني ، وقد سألته بالانكليزية لأنني لا أعرف لغته الالمانية ، وبدا لي ان معرفته بالانكليزية كانت محدودة فحاول جاهداً ان يدلنا بلغته الى الطريق الذي يجب ان نسلكه لنصل الى محطة سيارات الباص التي تنقلنا الى محطة القطار ، غير أننا لم نفهم منه إلا بعض الكلمات التي لم تفدنا لمعرفة الطريق . وكدنا نغادر الرجل بلا نتيجة ، غير ان هذا الرجل أوقفنا برجاء وخرج من دكانه وفهمنا من كلامه انه يريد ان نتبعه ، وتقدمنا فاذا هو يمشي ببطء وعناء برجلين مصطنعتين يتبعه في كل خطوة يخطوها صرير معدني لم نرتح لسماعة شفقه بالرجل ، وكدنا نقول لهذا العجوز الطيب ان يكتفي بهذا القدر من مصاحبتنا ، وأننا عرفنا الآن طريقنا الى محطة الباص . . غير انه أدرك على ما يبدو أننا قلنا ذلك رحمة به من الصعوبة التي يسببها المشي ، فقال لنا قبل ان نعرض عليه ما اردناه .

فقال لنا قبل ان نعرض عليه ما اردناه

ـ لا بأس ياسادة ، فان رجليّ تثيران الضوضاء دون ان تسببا . لي المأ ، انها كالكلب الكثير النباح وهو مربوط الى شجرة ، فلندعها تصر وتنبح فلا ضير من ذلك . واستمر الرجل يمشي حتى بدت لنا محطة سيارات الباص

في المنعطف الذي كان قريباً منا ، فقال لنا هذا الرجل الطيب :
- ها هي المحطة ، والآن استطيع ان اترككم لأعود الى دكاني .

غادرنا هذا الشيخ الكريم وكل آذان تسمع صرير رجليه المعدنية حتى غاب عن ناظرى في منعطف الطريق . ان هذا الرجل انسان بالمعنى الحقيقي .

وركبنا القطار الى البارك الوطني ، ولم نجد لافته باسمه عند مدخله الواسع . فاذا هو أشبه بالغابة الواسعة وباشجار عالية على مدى البصر ، وبين هذه الاشجار مجموعات من الناس بشتى الاعمار وجميعهم يتدثرون باردية ثقيلة ، ويلبسون الأحذية الطويلة الرقاب لشدة البرد والصقيع الذي يغطي الارض وقمم الاشجار . كما لاحظت كثيراً من الاعمدة الخشبية مغموسة في تلول الثلج وفي أعلاها ما يشبه الكوخ الصغير والى جانبه سلة مليئة بانواع الحبوب وفتات الخبز وأوراق الخضر المفرومة وقد وضعتها الدولة غذاء لطيور هذا البارك في فصل الشتاء حين لا يكون لهذا الغذاء اثر على الارض التي تغطيها الثلوج . وتساءلت مع صديقي اسماعيل فيما يحدث لهذه الطيور اذا نفد قوتها بعد أيام . وجاءني الجواب تلقائياً حين رأينا الكثير ممن في هذا البارك يحملون اكياس الورق مملوءة بعلف الطيور ويوزعونها على السلال المثبتة الى جانب اعشاشها الكوخية الشكل

ما اروع هذا الحس الانساني في توفير القوت لطيور الغاب ، وفي بلاد أخرى يموت الانسان من الامراض والجوع .

حكاية واقعية ونظيرة لها موضوعة / ١٩٥٧

رأيت في أحد حوانيت (امستردام) قطعتين من الكهرب مصنوعتين في معدن رخيص يمكن ان يصنع منهما زران لكمي قميص . وقد اعجبني في قطعتي الكهرب وجود جزء من رجل ذبابة في احدى القطعتين ، وقطعة من جناح ذبابة في القطعة الأخرى ، فاشتريتهما لاصوغ منهما في بغداد زران بالذهب . وأجاد الصائغ (أرتين) صياغتهما كما اردت ، فكانا مما صرت اتباهى بكشفه بين اهلي واصدقائي . وفي اليوم الذي وضعتهما في

كمي قميصي كانت كلية الطب قد أعدت لزائرها الاستاذ (تاسلّو انطوان) استاذ الامراض النسوية في جامعة ڤينا ، حفلة عشاء في (مطعم المطعم) بمنطقة العلوية . وصرت وأنا أجلس الى جانب الضيف الزائر على مائدة العشاء ، أتعمد الكشف عن طرفي كمي قميصي لبراهما الضيف تاسلّو ، وغيره من المدعوين الى هذه المائدة فأشير الى جزئي الحشرتين فيهما ، غير انهم لم ينتبهوا لهامع الاسف مع اني كنت انا دائم النظر اليها بتباه متعمداً ان اجلب نظرهم لها . وانتهت ساعات الدعوة ، وانحدرنا من خلال سلّم المطعم الطويل الى الشارع لاحمل بسيارتي تاسلّو انطوان الى (فندق بغداد) حيث يقيم ضيفاً على كلية الطب. وأحسست وانا أودعه على مدخل الفندق ان كم قميصي الأيسرَ يهدل على معصمي اكثر من المعتاد ، وتلمسته فاذا طرف الزر الذي يحمل قطعة الكهرب قد سقط عن مكانه في الزر ، ولم اكن قد تمتعت به اكثر من ساعات قليلة فأسفت لفقده ، وحنقت على الصائغ (أرتين) الذي لم يحسن تثبيته . وكنت متأكداً من انه كان في كم قميصي ساعات وجودي في المطعم ، فقررت باحتمال كبير انه سقط من الزر حين كنت في المطعم أو سقط وانا انزل درجات سلمه الى الشارع العام ، أو سقط في سيارتي بعد ذلك . فعدت ادراجي الى المطعم وصعدت درجاته وأنا أبحر بتدقيق في كل واحدة منها . ثم توجهت الى صاحب المطعم (شوكت زيباري) ورجوته ان يطلب ممن في مطعمه من العاملين ان يفتشوا عن قطعة الكهرب ، وهدية لمن يجدها . عشرة دنانير . وعدت الى بيتي وأنا مشغول البال بأمل ان يجده واحد من عمال المطعم . ونمت في تلك الليلة وأنا انتظر بفارغ الصبر طلوع النهار لاذهب الى المطعم على أمل ان يكون احد العاملين قد وجد تلك القطعة من الكهرب ، ولكن الأمل لم يتحقق ، فذهبت الى الصائغ أرتين وأنا استشيط غضباً عليه ، ورميت على منضدته الصغيرة التي يجلس وراءها ما بقي من الزر في كم قميصي وأنا اقول له بجفاف .

ـ أنظر الى هذا من الزر وستعرف ما عملته معي .

وشدّ ما كانت دهشتي حين أهمل النظر الى ذلك الجزء وهو يسحب درجاً صغيراً تحت سطح منضدته ، وأخرج منه الجزء الذي ثبتت فيه قطعة الكهرب ، فاشغلني الفرح باستعادته عن سؤاله : كيف حصل هذا فقال لي قبل ان اسأله عن ذلك

ـ قبل نصف ساعة تقريباً أو أقل دخل حانوتي رجل فقير الحال ، وبيده هذا الجزء من الزر وسألني : تشتري ؟ وعرفت هذا الجزء حالًا ، فسألته بكم ؟ فأجابني بدينار ، فقلت له : بنصف دينار فقال لي : هات ، فنقدته المبلغ وأخذت هذا الجزء منه ، وضحك آرتين وضحكت معه لغرابة ما حدث ، واعاد ارتين صياغة الزر مرة أخرى ، وسألته عن أجرته فأجابني : لقد اضحكتني غرابة الصدفة وهذه هي اجرتي وقد دفعت لي مقدماً

وقد حكيت هذا الحادث لنسيبي الدكتور (مظفر الزهاوي) ، وهو صاحب نكته ومبتدع للفكاهة لا يبارى ، فقال لي :

ـ لا تفرح يا هذا وانتظر !

وقص علي الحكاية الأتية . قال :

ـ دعا الوزير الاول سيده الخليفة الى تناول السمك على شاطىء جزيرة صغيرة في وسط دجلة ، وبينما كان القارب يبحر في النهر إستساغ الخليفة ان يمد يده في النهر ، فسقط خاتم الخلافة من إصبعه وابتلعه الماء . . فغضب الخليفة على الوزير وعد دعوته اساس ضياع الخاتم من اصبعه ، وتوقع ان يوقع به أشد العقاب وربما قطع رقبته . وحدثت المصادفة إذ كان أحد صيادي السمك قد اصطاد في تلك اللحظات سمكة كبيرة وفتح بطنها لشيّها للخليفة فوجد في جوفها خاتم الخلافة فأخذه الى الوزير الأول ليحمله الى سيده الخليفة فكان فرحه بذلك عظيماً ، كما نجا الوزير الاول من عقاب الخليفة . غير ان ذلك لم يفرحه كثيراً فعاد الى بيتهِ وعلى وجهه إمارات اليأس من حياته ، واستجوبته زوجته عن سبب ذلك فقصّ عليها قصة سقوط خاتم الخلافة في النهر والعثور عليه في بطن سمكة ، وسألته زوجته

ـ وما فى ذلك يا رجل ؟

فأجابها

ـ سقوط الخاتم في النهر بسببي كاد يوصلني الى المشنقة

فقال له زوجته :

ـ ولكن الخاتم قد استعيد الى الخليفة

فقال :

ـ وتلك هي التي أخافها .

فخلاصي من حبل المشنقة كان بهذه المصادفة الغريبة قد يتلوه بلاء كبير . وبعد أيام اخطأ الوزير الأول فغضب عليه الخليفة واودعه المحبس على ان يقطع عنقه في يوم بعد غد . وعرف الحبيس بيوم اعدامه فاشتهى ان ياكل من لحم خروف محشي بالرز ، واعطى لسجّانه ديناراً ذهبياً ليشتري له الخروف . ولعب الشيطان بعقل السجّان ، فاستكثر الدينار على الوزير الذي سوف لا يعيش إلا يوماً آخر . وكان للسجان كلب هزيل فذبحه وحشاه بالرز وطبخه وقدّمه للوزير السجين . وما كاد السجين يقبل على تناوله حتى شم رائحة غريبة ، وازدادت الرائحة نتناً حين تناول لقمة منه ، فدفع صحن الطعام عنه ، ونادى على السجان وقال له :

- إصدقني يارجل . . فان الذي طهوته لي ليس من لحم الضان

فأجابه السجان الغادر بوقاحة :

- ايها الوزير المغفل ، انت ستعدم بعد يوم ، والدينار اثمن منك بالنسبة لي ، ولي كلب قذر هزيل ، فذبحته وطهوته على انه خروف .

فاستدعى الوزير زوجته لتراه في سجنه وقال لها بوجهه باش ، اسمعيني يا أمرأة .

- هيئي البيت لأكبر فرح يمكن ان يحدث في المدينة ، ولا تبخلي بالانفاق عليه .

وسألته زوجته متعجبة

- ماذا تقول ؟ وقد علمت ان الخليفة أمر باعدامك يوم غد .

فقال لها بعد ان قص عليها حكاية الكلب الذي طبخه السجان طعاماً له

- ان سوء الحظ الذي أوصلني الى ان يغدر في السجّان ، ويريد ان يطعمني من لحم كلب أجرب ، لابد ان ينُهض ذلك الحظ كما نهض حين عثرنا على خاتم الخلافة في جوف سمكة .

وفي صبيحة اليوم التالي افرج الخليفة عن الوزير وفي هذه الحكاية اكثر من مغزى .

في بيت الأميرة بديعة ببيروت / ١٩٥٩

غادرت القاهرة بعد ان أمضيت فيها اسبوعاً بدعوة من الاستاذ على شعبان ، رئيس قسم النسائيات بمستشفى القصر العيني . وفي الساعة الرابعة كنت داخل الطائرة في طريقها الى بيروت ، وقد وصلتها بعد ساعة ونصف . وفي مطار هذه المدينة الأنيق قابلني دون موعد سابق الشريف حسين زوج الأميرة بديعة وقد كان في استقبال أحد اصدقائه من العربية السعودية ، وهي أول مقابلة لي مع الشريف حسين بعد مغادرته بغداد إثر ثورة سنة ١٩٥٨ التي أطاحت بالحكم الملكي . وكان ترحيبه برؤيتي حاراً ، كما اني قابلته بحرارة والحّ عليّ الشريف حسين أن اتناول الغداء في يوم غد بشقته بمنطقة الروشة . وفي يوم غد استقبلني على باب شقته والى جانبه زوجته الأميرة بديعة وقد ذوى وجهها الجميل غير ان وجهها النبيل ما زال في قمة عنفوانه . واجتذب نظري انها لم تكن ترتدي السواد ثم تذكرت حالًا ان هذا هو تقليد اهل نجد والحجاز عموماً وقد رأيت أهلها ساعة وفاة اختها الملكة عالية يرتدون ثياباً بيضاً لا سوداً .

واجتذبتني الأميرة اليها وهي تسألني بترحيب

- كيفك يا دكتور كمال ؟

وأجبتها :

- شكراً لك ياسيدتي الأميرة ، أنا بخير

- واهلك والاولاد ؟

- كلهم بخير والحمد لله .

ثم قالت :

- أنا وأبو على (تقصد زوجها الشريف حسين) نذكرك في كثير من المناسبات ، وقد فرحت بقبول دعوتنا الى بيتنا

فقلت لها :

- ياسيدتي الأميرة هذا هو الشرف الذي أترقبه .

قالت الأميرة لتثيرني الى التحدث معها .

- الجو في بغداد لابد ان يكون طيباً في هذا الفصل فقلت لها مؤكداً :

- هذا كما تعلمين ، أطيب فصول السنة في بغداد .

وتمنيت لو أنني لم اقل لها (كما تعلمين) ففي هذه العبارة عود الى ذكرى أيامها في بغداد في ظل ابن أختها الملك فيصل الثاني ، غير ان الأميرة على ما بدا لي لم تجرجها هذه العبارة وفي لحظة انفرجت دفتا مدخل الصالة ، وطلعت من بينهماخادمة ذات قيافة لائقة ونظيفة وشرعت ترفع سجّادة صغيرة كانت مبسوطة على بلاط الصالة ، فقال لها الشريف حسين

- أتركيها ، أريد ان يراها الدكتور كمال بك

والتفتت الأميرة نحوي وقالت :

- انا سمعت انك تعرف انواع السجّاد

فابتسمت بتواضع لأقول لها

- أعرف عنها قليلاً ، وربما لا أعرف منها إلا التي أحبها

فقال الشريف حسين وهو يمد يده الى تلك السجادة

- حسن ، رأيك في هذه (الزولية) ؟

وقالت الأميرة لزوجها الشريف حسين وهي تبتسم

- انت تريد تمتحن الدكتور !

فقلت لها :

- انا أخاف الامتحانات ياسيدتي ، ولولا علمي الوافر في سني دراستي لرسبت في جميع ما استحضرته للامتحان لا لسبب جهلي بمبادئها العلمية بل لفزعي مقدماً من احتمال الرسوب فيها . كانت هذه السجّادة قديمة ، سداها من خيوط الحرير ، ولحمتها من الصوف النقي ، وكانت الوانها باهتة ولكنها متناسقة وناعمة على اللمس وعلى النظر ، فقلت للشريف حسين .

- ان هذه السجّادة ممتازة .

وسألني :

- نوعها ؟

فقلت له :

- هذا هو الامتحان .

واردت ان اكسب وقتاً قبل الاجابة عن سؤاله ، فقلت وأنا أمرّ بحافة أصغر سبابتي اليمنى على سطح قفاها

- أقدر ان في الانج المربع الواحد بهذه الزولية ما يقرب من الاربعمائة عقدة

فقال الشريف حسين بتعجب لا يخلو من الانكار

- لا ياشيخ ، هذا غير ممكن

فقلت له :

- نعدّها .

وطلبت مكبّرة ودبوساً ومسطرة ، وبدأنا نحسب العقد على طول إنج واحد فاذا هي ثماني عشرة عقدة ، اي كان في الانج المربع الواحد ثلاثماية واربع وعشرون عقدة ، وهو رقم قريب مما ذكرته تخميناً . ودهش الشريف حسين لذلك

وعاد الشريف حسين يسألني

- لم تقل لي نوعها ؟

فأجبته على الفور

- هذه اصفهانية

وصاحت الأميرة وكأنها هي التي نجحت في هذا الامتحان

- صح انها اصفهانية

وكانت تحت قدمي سجادة صغيرة أخرى استحوذت على اعجابي لحظة خفضت رأسي تواضعاً لاستحسان الأميرة لمعرفتي بنوع تلك السجادة ، فحْنيت ظهري لاتلمس (خملها) ثم اثنيت ركبتي وتفحصت نسيجها وصوفها ، فقلت للشريف حسين

- وهذه السجّادة تبريزية من الصنف الممتاز (واضفت) وهي لقدمها أفضل واغلى ثمناً من سجادة الاصفهان . فأثرت بذلك اهتمام الأميرة واهتمام الشريف بتمييز هذه السجادة على السجادة الأولى ، فقلت لهما :

- ان التبريز الناعم اعلى صنفا من جميع انواع (الفرش) الايراني .

فقال لي الشريف حسين :

- انت تتواضع ياكمال بك ، فمعلوماتك عن السجاد الايراني واسعة

فقلت له :

- في الفرش الايراني ما يزيد على الخمسين نوعاً ، ومن يشخص خمسها يعد خبيراً في التمييز بين انواعها ، وأنا لا اعرف اكثر من خمسة انواع . وتشعب الحديث عن الفرش الايراني وانواعه والفن الرائع الذي فيه

فحضرتني عنه حكاية قرأتها منذ زمان في صحيفة الاوقات العراقية التي كانت تصدر في بغداد باللغة الانكليزية . وملخصها ان سائحاً أوربياً دخل سوق (الاطقرجية) أيام الاحتلال البريطاني ، واشترى من دكان فيه سجادة صغيرة بخمسين روبية ، وأخرج من جيبه شريطاً أخضر وحزم به تلك السجادة ، وطلب من صاحب الدكان ان يبقيها في دكانه يومين يعود بعدها ليأخذها بحجة انه مزمع السفر الى البصرة يعود بعدها الى بغداد في طريقه الى استنبول ؛ ولم ير صاحبه الدكان بأساً في ذلك فركنها في احدى زوايا دكانه الصغير . وبعد يومين دخل رجل أوربي الى هذا الدكان لشراء سجادة . وعرض عليه صاحب الدكان قطعاً كثيرة مختلفة من السجاد فلم تعجبه واحدة منها . وكاد يغادر الدكان غير انه التفت الى السجادة المحزمة بالشريط الأخضر ، فطلب من صاحب الدكان ان يراها ، فأجابه صاحب الدكان باختصار حاسم

- هذه السجّادة مبيوعة
- اسمح لي ان أراها فقط
- مبيوعة
- أراها فقط يارجل

وحل صاحب الدكان الشريط الذي حول تلك السجادة ، وبسطها على ارض الدكان . فدهش لها ذلك السائح الأوربي ، وابدى لصاحب الدكان إعجابه العظيم بها ، وقال له :

- هذه هي السجّادة التي أنا وراء شرائها ، هل عندك أختها ؟

فأجابه صاحب الدكان

- هي (تك) لا أخت لها .

وسأله الأوربي

- وبكم بعتها ؟
- بخمسين روبية
- انت تهزل يارجل
- بل هي الحقيقة

فقال الأوربي

- أنا ادفع لها مائتي روبية

- ولكنني بعتها وانتهى الامر

فقال له الأوربي :

- لا بأس ، فاذا جاء الذي اشتراها ليأخذها منك فاخبره ان هناك مشتر لها ويدفع مائتي روبية ، وسوف اعود اليك بعد يومين لتطلعني على رأيه

وفي اليوم الثاني كان الأوربي الاول على باب ذلك الدكان ، فأخبره صاحب الدكان بما عرض عليه السائح الاوربي الآخر لشراء هذه السجادة ، واضاف يقول :

- انها صفقة مربحة ، نصفها لك ونصفها لي

ووافق الأوربي على بيعها ، ولكنه استدرك يقول لصاحب الدكان

- إذ انني اليوم مساءً استقل القطار الى استنبول ، فاعطني الخمسين روبية التي اعطيتها لك ، واعطني مائة روبية التي هي ما سيدفعه لك ذلك المشترى ، فاذا عاد فخذ منه المائتين روبية ، وفعل صاحب الدكان بما قاله هذا الأوربي معتقداً انه باع سجادته بهذه الصفقة بمائة روبية . غير ان ذلك الأوربي الآخر لم يعد الى دكانه في اليوم الثاني ولا في اي يوم بعد ذلك . وحينئذ فطن صاحب الدكان العبيط ان السائحين الأوربيين احتالا عليه بالاتفاق . وضحكت الأميرة ، وزوجها الشريف من شطارة الاوربي وسذاجة بائع السجّاد . ونهضنا الى مائدة الغداء ومررنا بجدار جانبي علقت عليه صور جميع أفراد عائلتها الذين قتلوا في باحة قصر الرحاب يوم ثورة ١٩٥٨

وكانت على مائدة الغداء اطيب المأكولات وعصاير الفواكه . وحين عدنا الى الصالة قالت الأميرة تخاطب زوجها

- اترككم الآن لتتحدثوا بما تريدون (والتفتت نحوي وقالت) اسمح لي يادكتور ، وأرجو ان تزورنا مرة أخرى

معالجة راهبة بعملية جراحية / ١٩٥٩

في عصر يوم ٣ شباط كلمتني تلفونياً رئيسة ممرضات مستشفى سانت روفائيل المشهور في بغداد باسم مستشفى الراهبات ، وطلبت مني ان أحضر لفحص احدى راهبات الدير الذي يدير شؤون هذا المستشفى ، وكانت رئيسة راهبات مستشفى سانت روفائيل هذه التي استقبلتني احدى اولئك الراهبات بالردهة الأولى في المستشفى الملكي ، وقابلتني هذه الراهبة بعربية مفككة تسألني

- دكتور سامرائي ، تذكرني ؟

وانتظرت مني جواباً ، غير انني لم أتذكرها ، فلم أجبها ، فقالت :

- انا اذكرك يوم كنت طالباً تتدرب في الردهة النسائية الأولى التي كان يرأسها الاستاذ الوتري

فقلت لها وأنا غير واثق بدقة :

- تذكرت يا (ماسير)

وكيف أتذكرها جيداً ، وقد تغيرت كثيراً ، ولم يبق فيها ما يدل على ذاتها قبل عشرين سنة يوم كانت بعمر لاً يتجاوز الثلاثين ، فقد تغضّن وجهها ونبت على حنكها بعض الشعر فاخفى هذا التبدل جل معالمها الأولى سوي ظواهر اثوابها البيضاء الفضفاضة وحفنة المفاتيح التي تتدلى بارتخاء من محزمها . قالت :

- أنا (ماسير) مارى !

وتذكرتها حينذاك بشكل أوضح ، كما تذكرت تعليقات صديقي كمال نور الدين على انوثة هذه المرأة الحبيسة في الرهبنة .

وسألتها عن مريضتها فأجابتني

- المريضة من راهبات هذا الدير ، وهي فرنسية بعمر الثلاثين ، وهي تعمل في مستشفى سانت روفائيل منذ تسع سنوات ، ومنذ سنوات صارت تشكو من الآم في بطنها السفلى ، غير ان هذه الآلام اشتدت في الاسابيع الأخيرة . وفي صباح هذا اليوم شعرت فجأة بألم حاد في بطنها واغمي عليها : وكانت ماسير مارى تتكلم بينما كنت أنا أتساءل مع نفسي : كيف افحص هذه الراهبة المريضة وهي لابد باكر ؟ وجاء الجواب على هذا السؤال

تلقائياً من ماسير مارى
- إنها دخلت الدير في عمر مبكر جداً من حياتها
ولم يكفني هذا الجواب فسألتها
- وهل من الممكن فحصها كما يجب ؟
ويبدو ان الماسير ادركت غرضي من هذا السؤال ، فأجابتني حالاً
- طبعاً يا دكتور سامرائي ، اذا كان ذلك ضرورياً لتشخيص مرضها (ثم اردفت) شيء آخر لابد ان اذكره لك مقدماً وهو أننا في الدير قررنا بعد ان تسعف حالتها الراهنة ان نعيدها الى پاريس لاكمال علاجها اذا لم يكن هناك سبب طبي يعارض ذلك .
- فقلت لها :
- لأراها أولًا
وحين دخلت مع ماسير ماري مخدع المريضة ، رأيتها مستلقية على سرير متواضع في الركن الايسر من الغرفة ، وعلى الركن الايمن سرير آخر عليه اغطية قد سويت بدقة . وكانت الراهبة المريض باهتة السحنة ، وذات انف مدبب وعينين زرقاوين ، وينحدر على صدغيها شعر رأسها الذهبي اللون .
كما ينبت على شفتها العليا قليل من الشعر الناعم . وسألتها بعد ان بدأت معها بالتحية اللائقة .
- تعرفين اللغة العربية
فأجابتني تقول
- استطيع ان افهمك يا دكتور
فقلت لها :
- وانا أرجو ان أفهمك حين تتكلمين بالعربية ، فأنا لا اعرف اللغة الفرنسية
ثم قلت لها :
- زودتني ماسير مارى بمعلومات قيمة عن حالتك الصحية واعدها صحيحة وقاطعة ، فلا حاجة ان ازعجك بتكرارها منك ، وانما اريد ان اعرف منك اين شعرت بالالم الشديد اول مرة ، وكيف كان : متناوباً أم يدوم مدة طويلة ؟ واشيرى رجاء على موضع الألم باصبع واحد لا بكل

أصابعك رجاءً

• فمدت سبابتها اليمنى الى موضع في الجانب الايمن الاعلى من منطقة العانة . ثم حولت إصبعها الى الجهة اليمنى

وسألتها :

ـ وهل بدأت بالجانب الايمن لانه اقرب الى سبابتك اليمنى أم لأن الألم في هذه الناحية أشد منه في الجهة اليسرى ؟

فأجابتني

ـ بل هو اشد كثيراً في اليمنى ، انما اشعر بامتلاء يضايقني في الجانب الايسر من بطني

وسألتها وماذا عن العادة الشهرية ؟

فقالت :

ـ اعتيادية ولم اشك منها قبلاً . أما الألم فلم يكن يصاحبها الا في السنة الأخيرة أو حوالى ذلك .

وسألتها بتردد وليونة

ـ لابد ان افحصك عن طريق المقعد ، ان سمحت

ولم اسمع منها جواباً ، بل انها سرعان ما مدّت يديها لتخلع سروالها الى أسفل ، وهذا يكفيني دلالة على انها لاتمانع من الفحص المقعدي . فلمست بهذا الفحص كتلة لينة في الجانب الايسر من الحوض وكتلة اصغر إلا انها أصلب ملمساً في الجانب الايمن ، كلاهما في موضع ملحقات الرحم . فبدا لي تشخيص ورم (الاندوميتريوسس) واضحاً . فشرحت الحالة للمريضة بحضور ماسير ماري وقلت لها فيما قلت انها تحتاج لمعالجتها عملية جراحية عن طريق البطن ؛ وكانت المريضة تنصت اليّ باهتمام ثم قالت لي بانقياد :

ـ إبحث الموضوع مع الأم ماري (تقصد الماسير ماري)

وانحدرت أنا والماسير الى مكتبها في الطابق الارضي ، وكتبت فحصي وملاحظاتي وتشخيص المرض في استمارة المريض . وقالت لي الماسير وأنا انصرف من الدير انها ستبرق الى الدير الرئيس في پاريس وتهيأها للسفر بعد الحصول على رد من پاريس . وفي اليوم الثاني ظهراً كلمتني الماسير ماري تلفونياً تقول :

- ان المريضة تطلب معالجتها في بغداد ، وبيديك بالتخصيص ، وقد ابرقنا الى باريس بذلك فكان جوابهم ان نحترم ارادة المريضة ، فقلت لها :

- طالما أحيل أمرها اليّ فليكن معلوماً مسبقاً اني افضل عن تكون العملية بمستشفى السامرائي لابمستشفاكم ، كما يحتمل اني سأضطر الى قلع الرحم وملحقاته فضلاً عن قلع الورم . وكل ذلك مرهون بما سأجده في الجوف الحوضى بعد فتح البطن

فقالت لي الماسير :

- ان الراهبة تحت تصرفك فاعمل ما تراه مناسباً أو ضرورياً

وكان منظر أتراب المريضة من راهبات الدير وهن يرتلن بصوت خفيض الصلوات الى الرب والأم العذراء ، حين نقلت الى المستشفى السامرائي - كان ذلك المنظر والسماع روحانياً ومؤثراً حقاً .

كانت العملية مثل اي عمليات (الاندوميروسس) صعبة لشدة وكثرة ما يسببه هذا الورم من الالتصاقات بجدران الحوض ولفائف الامعاء ، وفصل هذه الالتصاقات هو الجزء المهم والخطر لاحتمال النزف الدموي الشديد وتثقب الامعاء .

وغادرت المريضة المستشفى بحالة جيدة في اليوم الرابع بعد العملية . وبعد ذلك رن جرس باب داري ، ومن خلال نافذة مكتبتي شاهدت سرباً من راهبات سانت روفائيل وفي مقدمتهم الراهبة الأم ماسير تيريز ، وفي يد كل واحدة منهن رزمة مغلفة بورق هدايا . وحين خرجت توقفن قليلاً وصلين الى الله والعذراء ان يحفظ من في هذه الدار معافى وسعيداً . وقبل ان يأخذن مقاعدهن على كراسي صالون داري وضعت كل واحدة منهما ما تحمله في يدها على المنضدة التي في وسط الصالة . وجرى الحديث معهن مقتضباً ولم يخرج عن حقل الطب وادب الطبيب . وبعد ان انصرفن من داري فتحت المغلفات التي جئن بها اليّ ، فاذا هي جملة من المحارم الرجالية والنسائية ، واغطية وسائد وموائد من صنع ايديهن على زاوية منها الحرف الأول من اسمي واسم زوجتي .

لقد هزت هذه الهدايا عواطفي إذ هي من ذوات طاهرة وقلوب نذرت لخدمة الدين والانسانية .

بداية لم اتمن لها نهاية / ١٩٥٩

بين الردهة العاشرة والحادية عشرة منحدر قصير متدرج يوصل بين الردهتين ، وعلى يمين هذا المنحدر مطبخ صغير لاعداد صحون الطعام لتوزيعها على مرضى الردهتين . وكانت المسؤولة عن العمل بهذا المطبخ إمرأة سوداء ، المولد ، حلوة الملامح اسمها (نجمة) ، وهي مؤدبة وتحسن التصرف مع المرضى ومن يخدمهم من الردهتين .

وفي يوم رأيت بصحبتها فتاة لم تنته بعد من العقد الثاني من عمرها ؛ عسلية البشرة ممشوقة البدن وذات عينين ناطقتين بطراوة العمر . لقد كانت (مولدّة) ولكنها بدت أجمل من أية إمرأة بيضاء . وسألت نجمة عمن تكون هذه الصبية حين رأيتها تساعدها في جمع الصحون الفارغة من طاولات مرضى الردهة الحادية عشرة لاعادتها الى المطبخ ، فأجابتني وعلى شفتيها ابتسامة الفخر :

ـ هي أبنتي .

فقلت لها :

ـ الله يحفظها

ولا شك ان نجمة قد عرفت انني انما أقصد بهذا الدعاء لشبابها الغض الجميل ، وسألتها :

ـ في المدرسة ؟

ـ في الصف الثاني من كلية التحرير .

فأعجبت بجوابها واكبرت أمها نجمة على اهتمامها بتثقيف ابنتها وهي عاملة أميّة تعمل بكد للقمة العيش ، وسألتها

ـ اسمها ؟

فأجابتني

ـ اسمها (أضواء)

ـ أسم على مسمى

قلت ذلك وأنا أعنيه

ولم أر بعد ذلك أضواء في اي الردهتين ولا في المطبخ ، وكنت أتوق

لرؤيتها كلما عبرت المسلك المنحدر الذي يربط بين الردهتين ؛ فانظر بزاوية عيني لارى فيما اذا كانت أضواء في داخله ، ولم تكن هناك في اي من الأيام بعد ذلك . وبعد ثلاث سنوات اي في سنة ١٩٥٩ واذا أضواء تدخل عيادتي التي كانت فوق مطعم شريف وحدّاد ، على مدخل جسر فيصل الثاني من جانب الرصافة ، وكان مع أضواء رجل اكبر منها عمراً بسنوات ، أسود البشرة ، غليظ الملامح وبانف كبير وشفة ضخمة متدلية ، وقلت مستفهماً عن هويتها بفرح

- أضواء ؟
- نعم أستاذ ، أنا أضواء (وابتسمت وقالت) انت لم تنسني . وسألتها

وأنا أحول نظري عنها الى الرجل الذي بصحبتها

- أبوك ؟

وضحكت ولم تجبني

فقال ذلك الرجل

- أنا زوجها حسان

فقالت وأنا اداري خجلي من الخطأ الذي وقعت فيه

- اهلًا بك ياحسان (وأضفت) أضواء بنتي ، وهي وأمها نجمة من أطيب الناس الذين عرفتهم في قسم النسائيات بالمستشفى الملكي

فقالت لي أضواء :

- أنا وأمي نذكرك دائماً ياأستاذ .

فقلت لها :

- أنا لم أرك في هذا الردهة الا مرة واحدة فقالت :
- كنت أذهب مع أمي الى المستشفى مرتين في الاسبوع ، لأساعدها في غسل الصحون ، وكانت توصيني ان لا أخرج من المطبخ الى الردهتين .

وسألتها بهذه المناسبة

- كيف أمك الآن ؟
- تعبانة وطلعت تقاعد قبل سنة

وتدخل حسان فيما بيني وبين أضواء فقال :

- نجمة أم أضواء بنت عمي

وسألته عن عمله فأجابني

- سائق وفيترچي

وتيقظت لواجبي نحو أضواء فسألتها

- اي خدمة ؟ حامل ؟

فأجابتني بحياء مكبوت

- لا ، ولكن هو يريد (تقصد حسان يريد)

وسألتها

- ومتى تزوجتما ؟

فأجابتني

- ،قبل اربعة أشهر

فقلت لها :

- وما العجلة يأضواء ؟

فقالت لي : - قل له (تقصد ان أقول لزوجها لا ضرورة للحبل المبكر)

فأجابني زوجها حسان :

- أمي تريد ، وأنا وحيدها

وضحكنا ثلاثتنا ؛ أضواء وحسان وانا

وصدمني شعور ثقيل في صدري ، وأنا امتنع عن فحص المريضات اللاتي يقربنني نسباً ، واتجنب ما استطعت ان أفحص المرأة التي استلطفها ، مع اني لا ارى المريضة اثناء الفحص كأنني أتعامل مع رجل . إذن كيف أفحص أضواء تلك الصبية التي كنت أقصد بلهفة وباهتمام رؤيتها في احدى ردهتي الامراض النسائية . فوجدت الحيلة لاتجنب فحصها ولو الى حين فقلت لزوجها

- أنا لا افحص الزوجة عن الحبل إلا بعد ان يفحص زوجها (مادته) في احد المختبرات . وغادرت أضواء وزوجها حسان عيادتي ولم يعودا اليَّ بالتحليل الذي طلبته . وبعد شهرين تقريباً دخلت الى عيادتي أضواء بصحبة أمها نجمة . وكان كلاهما يلبسان (السواد) وعلى وجهيهما حزن دفين .

وسألت أضواء :

- ما الامر يا أضواء ولماذا تلبسين السواد ؟

فأجابتني والدمعة تترقرق بين جفنيها

- توفي حسان بحادث سيارة .
وابديت أسفي وواسيت اضواء وأمها .
- هذا قضاء لا مرد له ، وانا لله وانا اليه راجعون
- هل استطيع ان أقوم لكما بخدمة .
وسكتتا برهة ثم قالت أضواء
- أنا حامل .
وأدركت خطأ ماذا تريد مني فقلت لها قبل ان اسمع منها ما تريد
- أياك ياأضواء ان تسقطي الحمل .
فأجابتني
- لا ياأستاذ ، فأنا اريد هذا الطفل باي ثمن ، انما أنا الآن اشكو من التلعب والقيء

فاكبرت هذه الفتاة ، وكنت قبلًا احب جمالها فصرت الآن فضلًا على ذلك احترمها واقدّرها ، كما صرت انظر الى أمها نجمة التي ربتها على الادب والاخلاص بعين الاحترام .
وغادرت اضواء عيادتي وهي تشكرني بغير ابتسام .

حفار قبور / ١٩٥٩

الفقراء في علم الطب اكثر انجاباً من الاغنياء لاسباب قد تكون من بينها كثرة الممارسة الجنسية ، ليس لهم هموم تشغلهم كما هي الحال في الطبقات الغنية . وكثيراً ما تدخل عيادتي مريضة وهي تسحب وراءها طفلين بعمرين متقاربين وعلى صدرها طفل يمص اللبن من ثديها وهو بعمر السنة أو اكثر قليلًا ، فتشكو هذه المريضة أمامي من أمور شتى إلا من الحبل ، فينبري زوجها ويقول لزوجته بزجر :
- انت اسكتي
ويلتفت تُجاهي ويقول :
- هذه عبيدتك تستحي تقول لك الذي نريده ، والصدق هي تريد فريخ ، لان عبيدك (حسّوني) صار عمره سنتين تقريباً ولم تحبل .

وذات يوم دخلت عيادتي فتاة مثل وردة الربيع في أوج روعتها ، وكانت تبدو غير موسرة إلا انها غنية في جسمها وروحها .

ـ اسمك يابنتي ؟

ـ سكينة .

ـ عمرك ؟

ـ واحد وعشرين

ـ انت من اي مكان ؟

ـ من النجف

ـ متزوجة ؟

ـ نعم متزوجة منذ سنتين

ـ ألك أولاد ؟

ـ كلا لم أنجب ، وزوجي يريد ولد

فقلت لها ملاطفاً

ـ واذا حملت بنتاً

فأجابتني بامتعاض

ـ لا تقولها ، رجلي يريد ولد

وفي مثل هذه الحالة اسأل المريضة : هل لها ضرّة ؟ وفيما اذا كان لزوجها ولد أو بنت من زوجة أخرى ، فأجاتني

ـ لي ضرتين . وله من أحداهما ولد وثلاث بنات ومن الثانية ولدين وبنتين .

(ثم اردفت) وكانت له زوجة أخرى لم تنجب منه فطلقها .

وسألتها اسئلة طبية أخرى ثم طلبت منها ان افحصها كما يجب ان يكون الفحص النسائي ، فرفضت ثم اذعنت على ان يخرج زوجها من غرفة الفحص ، وما كاد زوجها يخرج من غرفة الفحص حتى انحنت لتقبل يدي وهي تقول :

ـ عمي أبوس ايدك ، أريدك تفهمه

ـ افهمه ماذا يابنتي ؟

فأجابتني باستحياء شديد

ـ هو يلح عليّ بالفراش ، ويؤذيني ، قل له يرحم والديك ان ذلك يمنع الحبل .

وحينذاك عرفت سبب الحاحها باخراج زوجها من غرفة الفحص .
وفحصت هذه المريضة فلم أجد سريرياً ما يدل على عجزها عن الانجاب .
وطلبت زوجها لأراه ، كان بالتأكيد قد تعدى العقد السادس من عمره ، خشن الملامح متين الجسم داكن السحنة ، وقيافته نجفية ، لا أخطىء تشخيصها من شكل عقاله ووضعه على يشماغ رأسه . وبادرني قبل ان أكلمه .

- شنو السبب يادكتور ؟

فوجدت من هذا السؤال فرصة لأقول ما طلبته مني زوجته فقلت له :

- لم أجد سبباً يجب معالجته ، وتأخر الحبل له اسباب كثيرة قد يكون منها كثرة الجماع ، فلا تكثر منه . وصمت لحظة ثم سألني

- هي أخبرتك ؟

فكذبت عليه وقلت له :

- هي لم تقل لي شيئاً عن ذلك ، ولكن هذه نصيحتي للزوج في مثل حالة زوجتك

- ولكن كانت هذه عادتي مع زوجاتي .

فقلت له :

- هذه نصيحتي لك يا أخي .

قلت ذلك وأنا لا أومن به وغادر ذلك الزوج وهو أيضاً غير مقتنع بنصيحتي

مع الاستاذ هاشم الوتري وكتاب القانون لابن سينا / ١٩٥٩

بدأت أميل الى دراسة تأريخ الطب العربي منذ باكورة أيامي بعد تخرجي في كلية الطب ، واعزو هذا الميل المبكر الى استاذي في الطب النسوي الدكتور وليم ديفر كندي كما كان للاستاذ هاشم الوتري اثر في متابعاتي لما كتب في هذا الموضوع ، وهو الذي نصحني بشراء الكتاب القانون لابن سينا (طبعة روما) ، وسوف اعود الى الكلام عن هذا الكتاب في ما يأتي .

وكنت في لقاءاتي مع الاستاذ الوتري كثيراً ما اثير معه أحد المواضيع في الطب الحديث أو القديم . وفيما كنا نتحدث عن صفات

الطبيب المسلم (اي من عاش في العصور الاسلامية دون اعتبار لعقيدته وعرقه) فقال الاستاذ الوتري ان العرب تطلب من الطبيب ان يكون من عائلة شريفة ، حسن الصورة ، فتي العمر ، حلو الحديث ، عالماً بأكثر العلوم والفنون حتى بلعب الشطرنج . ثم قال وهو يبتسم ان هذا الوصف غير كامل ، فسألته :

- اي شيء ينقصه يا استاذي ؟

فأجابني وهو يوسع فمه لإبتسامة خفيفة

- ارى ان يكون الطبيب ذا صلعة واسعة ، ومصاباً بالبواسير .

فأستغربت من هذه الاجابة وسألته :

- وما العلاقة بين الصلع وممارسة الطب ؟

فأجابني والابتسامة ما زالت تمط شفتيه

- ان الصلعة الواسعة ، وبخاصة في الليل وهو الوقت الذي كثيراً ما يستدعى فيه الطبيب لعيادة مريض في حالة مرضية عارضة ، في هذه الحالة يتجمع (البرغش) على صلعته فيرفع الطبيب يده ويمر بها على صلعته ليطرد البرغش عنها فيعتقد المريض انه بهذه الحركة يشحذ دماغه بمعرفة طبيعة مرضه وأفضل علاج لها

فحسبت أن في هذا الجواب دعاية ، فسألته :

- ولماذا يجب ان يكون مصاباً بالبواسير ؟

فأجابني :

- ذلك لان المصاب بالبواسير ، يكون لكثرة ما ينزف من الدم بوجه جدي ، قلق ، فيعتقد المريض انه مهتم بأمره وهو لا يعرف انما اهتمامه وقلقه بسبب بواسيره . ثم تحول الاستاذ الوتري الى الكلام عن الامراض النفسية والعقلية كما وردت في التراثيات الاسلامية ، وقال لي :

- ان ابن سينا قد المّ بهذا الموضوع (ثم اضاف) ان كتابه القانون هو خير ما كتب في هذا الموضوع وفي الطب عموماً ، (واضاف)

- اذا كنتَ مهتماً بالتراث الطبي فهذا الكتاب يغنيك عن الكتب الطبية الأخرى . (وسكت برهة واستأنف حديثه) يقول ان على عتبة مدخل جامع الخُلّاني رجل عجوز يبيع بعض الكتب القديمة من بينها كتاب القانون (طبعة روما الحجرية) ، وهي طبعة نادرة ليس في العراق منها

ـ على علمي ـ إلا بضع نسخ واحدة منها في مكتبتي الخاصة وآخرى في كلية ألاداب بجامعة بغداد .

وذهبت في ظهر اليوم التالي الى مدخل جامع الخلاني لاشتري الكتاب ، وعلى دكة مبنية باللبن والطين رأيت رجلًا في السبعين او اكثر من عمره ، منحني الظهر ، يلّف على رأسه عمة حول طربوش احمر بلا حصير تحته ، ويقعد على حشية خفيفة على طرف من الدكة وعلى طرفها الآخر كومة من الكتب القديمة يعوز بعضها قليلًا أو كثيراً من الصفحات الأول أو الآخيرة ، وسألت هذا الرجل عن كتاب القانون ، فأشار بيده الى كومة الكتب وهو يقول لي :

ـ اشتريته قبل ثلاثة ايام ، وها هو ذاك

وتناولت الكتاب ودفعت له المبلغ الذي طلبه وزيادة وقلت له :

ـ أنا اسمي كمال السامرائي واعمل في قسم النسائيات بمستشفى المجيدية (الملكي) ، فان احتجت الى مساعدة طبية في هذا المستشفى فلا تتردد في ان تطلب مني أية خدمة طبية في المستشفى .

وحملت الكتاب بيدي وغادرته . وبعد ثلاثة أيام دخل غرفتي ذلك البائع وبيده كامل ما اعطيته لقاء شراء كتاب القانون ، وهو يقول بتوسل :

ـ يابني هذي فلوسك ، عدّها ، وأنا اريد كتابي. فاستغربت من طلبه ، وخطر ببالي ان ثمة من يدفع له اكثر مما دفعت ثمناً للكتاب ، فقلت له :

ـ يا عم ان البيع قد تم شرعاً وعرفاً ، ومع ذلك فأنا أعطيك ما تريده زيادة على ما دفعته اليك .

فقال لي برجاء واستعطاف :

ـ لا يا ابني ، أنا لا أبغي زيادة ، بل أريد الكتاب .

ولما رأيت منه تصميماً على استرجاع الكتاب ، دفعتني مروءتي ان اعيده اليه ، وقلت له :

ـ احتفظ يا عمي بالمبلغ وسوف أحمل الكتاب اليك بعد ظهر هذا اليوم واسترجع المبلغ منك .

فنظر الرجل كمن لا يصدق بما اقول فقلت له .

ـ صدقني يا عمي وكن على ثقة انني سأعيد الكتاب اليك ، فشكرني

وغادر غرفتي . وحملت الكتاب في الساعة الثالثة بعد الظهر لأعيده الى هذا الرجل فلم أجده في مكانه عند باب الجامع ، وعدت في اليوم الثاني فلم يكن هناك ايضاً وفي اليوم الثالث لم ارتح الى عدم وجوده ، وكان قريباً من مكانه حانوت صغير كأنه حفرة في كهف وكانت فيه إمرأة تلبس السواد ، وسألتها عن الرجل الذي يبيع الكتب عند مدخل الجامع ، فاذا هي تستغرب من عدم مجيئه في هذه الايام الثلاثة ، فرجوت منها ان تخبره بأني وانا (فلان) قد جئت الى محله ثلاث مرات والكتاب معي

وركبني الألم إذ لم أحقق له ما طلبه منى قبل وفاته ولما يئست من مقابلة الرجل ، عددت الكتاب امانة عندي الى ان يجيء يوماً ما ويأخذه ، وحرصت على المحافظة عليه اكثر مما لو كان ملكي ، وطلبت من الطبيب المقيم الدكتور (جون) في مستشفى السامرائي ان يخط على كعب الكتاب عنوانه واسم مؤلفه ، وكان جون يحسن الخط بانواعه ، وهو من عائلة فنانة ، فألأب يجيد الضرب على العود ، والابن الاكبر على الكمان ، والابن الثاني فنان في الرسم والنحت ، وأخته پيانست ممتازة ، وحفلات عائلة ابي جون البيتية بهذا التكوين ممتعة رائقة .

وأخذ الدكتور جون الكتاب الى بيته ليعمل فيه ما طلبته منه وبعد يومين ، دهشت حين دخل الدكتور جون الى عيادتي وليس في وجهه دم من فرط الفزع ومن خلفه شرطي يحاول مسكه من ياقته ، ولحسن الحظ كنت اعرف هذا الشرطي منذ كان في مخفر شرطة المستشفى الملكي ، وحرت من اسأل عما حدث ، الدكتور جون أم الشرطي ، فسألت كليهما :

- ما الخبر افهموني ؟

فأجابني الشرطي .

- ان هذا الشاب أجنبي وقد أمرني الضابط ان اقبض عليه .

وجون قريب الشبه جداً من الهنود في لونه وهيئته فقلت للشرطي

- دكتور جون عراقي وهو الطبيب المقيم بهذا المستشفى ، وفي هذه اللحظات دخل عيادتي ضابط شرطة ، فزاد اضطراب جون ، وطلبت منه ان يهدأ ويخبرني بما حدث فقال :

- كنت اسوق سيارتي في طريقي الى المستشفى واجتزت مسرعاً سيارة

نجدة الشرطة التي يسوقها هذا الرجل (واشار الى الشرطي) ورأيتهم يحدقون نحوي بغضب فاسرعت لأصل الى المستشفى ، فاذا سيارة النجدة تسرع هي الآخرى وتحاول اجتيازي ، فاسرعت اكثر لاتخلص ممن فيها ، فاذا هم يلاحقونني فخفت منهم واسرعت اكثر منهم . وكانت محاكمة المهداوي في تلك الأيام تحاكم انكليزياً بتهمة التجسس فاشتبهوا بجون ان يكون من الفئة التي يطاردونها وكان ضابط الشرطة متفهماً فاقتنع بصدق ما قلت له وخصوصاً بعد ان قلت له : أنني ساكلم وزير الصحة اذا قررتم أخذه للتحقيق ، وكان وزير الصحة الدكتور محمد صالح محمود زميلي وصديقي في الدراسة الثانوية وفي كلية الطب ، وارتاح جون حين غادر ضابط الشرطة فسألته عن كتاب القانون الذي وعدني أن يجيء به في هذا المساء فقال لي :

- انه من فرط خوفه من الشرطة الذين كانوا يلاحقونه بسياراتهم إستدار بسيارته فجأة ليدخل المستشفى فجنحت السيارة على جانبها في الساقية التي عند باب المستشفى ، فاسرعت اخرج منها قبل ان تصل الشرطة ، والكتاب بداخل السيارة ، فاسرعت الى السيارة التي سقطت على جنبها في ماء الساقية، فاذا الكتاب فيها ، فألتقطته منها وغادرت المستشفى الى بيتي دون اهتمام كبير أو قليل بسيارة جون ، وفي البيت صرت أقلب أوراق الكتاب ورقة ورقة أمام مروحة كهربائية تدفع هواء ساخناً على صفحاته ، ساعات طوال من الليل حتى جفت أوراقه غير ان أثر الماء بقي واضحاً في كثير منها على ان حبر الكتاب للغرابة لم ينتشر اكثر من حدود الكتابة ، فأية مادة استعملت في هذا الحبر ليحفظه من الانتشار كما يحدث في الحبر الذي نستعمله حالياً وأي ورق يبقى بمتانة ورق هذا الكتاب الذي طبع قبل اكثر من اربعمائة عام ؟ !

وبعد بضعة أيام نقلت الى الاستاذ الوتري حكاية ما طرأ عليه بعد ان سقط في مياه الساقية وأصابه من البلل والتلف .

فأبتسم الاستاذ الوتري وقال لي :

- أصبح الكتاب لا يشك أحد في قدمه .

الدكتور كلى / ١٩٥٩

التحق بكلية الطب ببغداد جراح استرالي اسمه (كلى) ، وكانت له خبره وسمعة جيدة في جراحة أمراض الصدر . وفي أحدى مقابلاتي معه في المستشفى الملكي عرض عليّ ان يشتغل في مستشفى السامرائي يومين في الاسبوع . فأحلت طلبه الى الدكتور (عبد الله العنيزى) بوصفه مديراً للمستشفى ، وتشاوروا بهذا الأمر . ورحب الدكتور العنيزى بالفكرة ، وخصص له مكتباً في المستشفى لاستقبال مرضاه ، كما رفع على جدار المستشفى لافتة باسم الدكتور كلى مشفوعة بما يحمل من شهادات في الجراحة . وبعد بضعة أشهر وصلت رسالة من الجمعية الملكية للجراحين في لندن (وهي الجمعية التي ينتمي اليها الدكتور كلى) الى استاذ الصحة العامة الدكتور (كرچلى) بكلية طب بغداد . تطلب منه ان يتحرى أمر اللافتة التي تحمل اسم الدكتور كلى وفيما اذا اعلن فيها عن اختصاصه والحروف الاولى من شهاداته . وارتعب الدكتور كلى عندما علم بخبر هذه الرسالة . وما كنا نعرف يومئذٍ سبب إضطرابه وخوفه من محتوياتها الى أن أخبرنا هو بنفسه ان الاعلان الموسّع عن شهادات الطبيب يعد في نظر الجمعية البريطانية واسطة إعلامية لا تجيزها الجمعية ، وحين استدعاه الدكتور كرچلي للتحقيق معه بخصوص اللافتة التي تحمل اسمه وعناوين شهاداته أشرنا على كلى ان يدعى ان اللافتة وضعت من قبل ادارة مستشفى السامرائي ، وقد كتبت باللغة العربية التي لا يعرفها . وقبل كرچلي هذا العذر على ان ترفع من اللافتة عبارة الاختصاص التي كتبت بعد اسمه .

والاطباء في انكلترا لا يضعون على أبواب عيادتهم إلا قطعة صغيرة من النحاس او الخشب ، ولا يكتبون عليها إلا اسمهم دون اسم اختصاصهم أو الحروف الاولى من شهاداتهم .

وهكذا حلت هذه المشكلة السلوكية التي يتمسك بها الطب الانكليزي . وفي يوم كنت والدكتور كلى نتناول الشاي بمستشفى

السامرائي ، وتبسط كل منا في حديثه . وقال لي الدكتور كلى :
- أنا أحببت بلدكم العراق ياكمال ، سأكون سعيداً لو عشت فيه ما بقي لي من العمر .
ثم سكت قليلًا ليقول :
- أنا أفكر بالزواج من عراقية ، لو كان ذلك ممكناً .
وفوجئت بهذه الفكرة ، وسألته :
- وهل خصصت واحدة بالذات ؟
وسمعت منه مفاجأة آخرى ، هزتني اكثر من الأولى : قال :
- هي الدكتورة (أ . س) التي تعمل في شعبتك بالمستشفى الملكي (وتابع يقول) ، واعتقد هي بمثل عمري أو تجاوزت الخمسين ، وقد ترى في عرضي فرصة لا تفوّتها .
- هل فاتحتها ؟
- ليس الى اليوم .
- كن صريحاً معها ، واخبرها كل شيء عن نفسك وعن أقاربك ، وثروتك ، واين ستكون اقامتكما بعد الزواج .
- طبعاً سأكون معها صريحاً وصادقاً . فليس لي أقارب يرثونني ، ولي بيت في (سدني) وبيت آخر في نوتنكهام ، وثروة من الپاونات والدولارات في بنوك إنكلترا . . وتوقف قليلًا ثم قال :
- انني يا كمال أصبت بسرطان الأمعاء وأجريت لي عملية قبل اربع سنوات ولا يبدو انه سيعود ، فهل يجب أن أذكر ذلك لها ؟
كان الجواب السريع مني تبعاً لنصيحتي له ان يخبرها بكل جوانب حياته ، غير اني سرعان ما رحت أغور في أعماق تفكيره ، فقد يكون ذكر مرضه يغريها في الحصول على ثروته على عجل لتقبل به زوجاً لها ، وقد لا يكون ذلك في تفكيره ، ومع ذلك قلت له محتاطا :

- لعلمك انها مثلك ثرية ، وثراؤها موروث من جدها الذي كان ذا خطوة لا حدود لها من السلطان العثماني عبد الحميد ، فحصل منه على ارض شاسعة ودور ومزارع ولا تزال كلها ملكاً لأهل هذه الطبيبة . وبعد لحظات انعزل عني كلى في تفكيره ثم قال لي سأجرب ياكمال ، فقد ترضى بي زوجاً ،

وحينذاك نسافر في نهاية هذا الشهر ، فتكون هذه نهاية أيامي في العراق بزواج كنت ادفعه عني الى هذا اليوم ، وقد لا نسافر اذا رغبت عنه

ورأيت الدكتور كلى في اليوم التالي فلم يعد الى ذكر موضوعه في الزوا من الدكتورة (س) ، ولم يعد اليه في اي يوم بعد مغادرة العراق بعد شه أو نحو ذلك .

تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة



طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»

العنوان :
العراق - بغداد - اعظمية
ص . ب . ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ - هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة

الغلاف : ابراهيم عبد الرزاق

السعر : (٥٠٠) دينار



بغداد - ١٩٩٦

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

فهرس موجز للجزء الثاني

تنويه: هذا الفهرس الموجز ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى رؤوس المواضيع . م. سرمد حاتم شكر السامرائي